


أول تفسير موضوعي لـ (١٢٦٠) استفهاماً
في القرآن كله

تأليف الدكتور
عبد العظيم إبراهيم المطعني

الجزء الرابع

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: التفسير البلاغى
للاستفهام فى القرآن الحكيم
أول تفسير موضوعى لـ ( ١٢٦٠ )
استفهام فى القرآن كله
الطبعة الثالثة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
الدكتور عبد العظيم المطعنى
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة.
٤٤٤صفحة : (جـ ٤ ) ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٩٨/١٤٢٥٦
الترقيم الدولى : I.S.B.N.
977-225-124 - 8

# سورة فصلت

١ - ﴿ . . . أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا، ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [فصلت: ٩].

**الدراسة والتحليل:**

فُصِّلَتْ سورة مكية باتفاق، وموضوعاتها موضوعات القرآن المكى من التنويه بشأن القرآن، وتحذير المشركين من الكفر بالله وسوق بعض قصص الماضين. ولفت الأنظار إلى آيات الله فى الكون، والحديث عن اختلاف مواقف البشر من نعم الله عليهم.

وكان أول استفهام يرد فى هذه السورة فى الآية موضوع الدراسة، وفيها يأمر الله رسوله ﷺ بمواجهة مشركى العرب بكفرهم بالله مع وضوح دلائل الإيمان: **﴿قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين..﴾**؟

وهذا الاستفهام إنكارى عند جميع الأئمة، وإن كان الإمام الزمخشرى لم يُبْدِ فيه رأيًا لوضوحه.

أما الإمام أبو السعود - وقد تابعه الإمام الألوسى - فكان أول من صرح بالإنكار؛ حيث قال:

**﴿قل أئنكم لتكفرون..﴾** إنكار وتشنيع لكفرهم، وإن واللام إما لتأكيد الإنكار. . لا لإنكار التأكيد، وإما للإشعار بأن كفرهم من البُعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد»[(١)].

هذا ما ذكره الإمام أبو السعود، وجاراه عليه الإمام الألوسى بالحرف.

وأوجز الإمام أبو حيان فقال: «استفهام توبيخ وتشنيع عليهم بكفر من أوجد العالم»[(٢)].

---

(١) تفسير أبى السعود: (٨/ ٤) وروح المعانى (٢٤/ ١٠٠).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٨٥).

وقد أجاد الإمام الطاهر وأحسن فى بيان المراد من الاستفهام هنا، وكلامه فيه طويل نجتزئ منه ما يأتى:

«وهمزة الاستفهام المفتتح بها الكلام مستعملة فى التوبيخ فقوله تعالى: ﴿**أئنكم لتكفرون..**﴾ كقوله فى سورة البقرة: (**كيف تكفرون بالله**).

«وتوكيد الخبر بـ (إن) ولام الابتداء بعد الاستفهام التوبيخى أو التعجيبى استعمال وارد كثيرًا فى الكلام الفصيح. ليكون الإنكار لأمر محقق وهو - هنا - مبنى على أنهم يحسبون أنهم مهتدون، وعلى تجاهلهم الملازمة بين الانفراد بالخلق، وبين استحقاق الانفراد بالعبادة. فأُعلموا بتوكيد أنهم يكفرون، وبتوبيخهم على ذلك.

«فالتوبيخ المفاد من الاستفهام مسلط على تحقق كفرهم بالله. وذلك من البلاغة بالمكانة العليا»[1].

هؤلاء الأئمة الأربعة، أجمعوا على أن الاستفهام فى الآية للإنكار أصالة، وإن اختلفت بعض عباراتهم عنه.

بيد أن الإمام أبا السعود - ومعه الإمام الألوسى - أبى أن يكون الإنكار مسلطا على الكفر المؤكد بـ (أن) واللام كما تقدم. ولكى يبرر رأيه هذا لجأ إلى حيلة هى أوهى من بيت العنكبوت، حيث التمس وجها لما فى العبارة من التوكيد. فادعى أنه إلى الاشارة إلى أن كفرهم بالله لبعده عن الحق، ينكر العقلاء وقوعه من أى أحد من الناس. فأكد للدلالة على أن مدعيه يحتاج إلى توكيده لإزالة إنكار العقلاء له؟ وهذا تخريج بعيد كل البعد عن التصور.

والظاهر أن الذى حمل الإمام أبا السعود على هذا الرأى الغريب تجويز الكفر غير المؤكد، لأن الإنكار مثل النفى. كلاهما قيد فى الكلام. والنفى إذا دخل على أمر مقيد احتمل أن يكون مسلطًا على القيد دون المقيد، وأن يكون مسلطًا على المقيد والقيد معًا.

فقولك: فلان ليس له ولد نافع محتمل للمعنيين معًا:

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٤٢).

أى: أن يكون النفى مسلطًا على القيد وحده دون المقيد فيكون لفلان ولد، لكنه غير نافع. وأن يكون مسلطًا على المقيد والقيد معًا؛ فلا يكون لفلان ولد قط. وإذا انتفى القيد انتفى المقيد ضرورة.

وفى الآية خشى الإمام أبو السعود أن يكون الاستفهام لإنكار الكفر المؤكد، لجواز أن يُفْهَم أن الكفر غير المؤكد جائز وليس ممتنعًا. وهذا ما يسمى عند علماء الأصول بدلالة «المفهوم».

ونسى الإمام أبو السعود، كما نسى الإمام الألوسى - أن دلالة المفهوم تكون واردة إذا لم يمنع من إرادتها مانع خارجى لا صلة بدلالة التراكيب اللفظية عليها. فمثال: (فلان ليس له ولد نافع) يكون القيد فيه، وهو النفع، منفيًا دائمًا إذا كان الخبر صادقًا، سواء كان له ولد غير نافع، أو لم يكن له ولد قط. فاحتمال الدلالتين بالنظر إلى واقع اللفظ. أما الخارج فهو الذى يحدد بكل وضوح المراد من هذه العبارة. فإذا لم يكن لفلان هذا ولد. كان المنفى القيد والمقيد معًا - أى الوصف والموصوف - وإذا كان له ولد عاجز عن النفع كان المنفى هو القيد وحده، دون المقيد.

وفى الآية موضوع الدراسة الانكار مسلط على القيد، وهو تأكيد الكفر، وعلى المقيد، وهو الكفر نفسه، لأن الشك فى وجود الله وصفاته القدسية، مثل الكفر الجازم.

ولو أن الإمام أبا السعود استحضر هذا فى نفسه لما ساغ له أن يقول ما قال. وكذلك الإمام الألوسى.

وعلماء الأصول كانوا أكثر دقة وحيطة، حين لم يقولوا بصحة دلالة المفهوم كيفما كانت. بل قضوا بفساد كثير منها وأطلقوا عليها وصف «المعطلة» وكان مرجعهم فى تعطيل بعض دلالات المفهوم هو القرائن الخارجية التى لا صلة لدلالات التراكيب اللغوية بها.

**والخلاصة**: أن الاستفهام فى الآية استفهام إنكار وتوبيخ وتهديد. وهو لإنكار الواقع من الكفر المؤكد بالله من مشركى العرب.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (**قل**..) صدرت الآية بفعل الأمر (قل) لأهمية المقول بعده، ولفورية المواجهة به وسرعة تبليغه لأنه رسالة خاصة ينبغى الاهتمام بها.

* ﴿**أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين**﴾ أكد وصف المخاطبين بالكفر بـ«أن» واللام تغليظًا للإنكار عليهم، حيث جزموا بالكفر بالله مع قيام دلائل التوحيد من بين أيديهم ومن خلفهم، ومن فوقهم ومن أسفل منهم، بل وفى أنفسهم. وهذا أبلغ فى إدانتهم ورميهم بالسفه وانعدام التمييز.

وفى التعبير عن اسم الجلالة (**الله**) بالوصول (**الذى**) والصلة (**خلق الأرض**) لتشديد الإنكار والتلويح بغبائهم عن الطريق البرهانى (الكناية) حيث اقتران الدعوى بدليل صدقها وصحتها. فهم كفروا بالخالق العظيم الذى له فى كل شىء آية تدل على أنه الواحد.

وذكر خلق الأرض دون السماء - هنا - لأنها تحت أرجلهم ومعرفتهم بها أمكن من معرفتهم بالسماء، وفى (**يومين**) مجاز مرسل وكناية. أما المجاز المرسل فهو فى تسمية المدة باليوم، ولم يكن لليوم وجود قبل خلق الأرض والسماء والشمس، وعلاقة هذا المجاز اعتبار ما سيكون. وسره بيان مقدار المدة التى خلق الله فيها الأرض.

أما الكناية فهى «قصر المدة» باعتبار حال المخاطبين.

* ﴿**وتجعلون له أندادًا**﴾ **عطف تفسير**، لبيان كفرهم ما هو؟ لأن الكفر بالله نعوذ بالله منه - نوعان كفر جحود، وهو عدم الإيمان بوجود الله، وهو الإلحاد. والعرب لم يكونوا ينكرون وجود الله عز وجل وكفر إشراك، وهو مركب من ركنين:

(أ) الإيمان بوجود الله عز وجل.

(ب) ادعاء أن مع الله آلهة أخرى، أو إلهاً آخر.

ولما كانت عبارة (**لتكفرون**) شاملة لنوعى الكفر المشار إليهما، وكان المخاطبون لا ينكرون وجود الله جاءت هذه العبارة:

* **(وتجعلون له أندادًا)** مفسرة ومبينة لنوع كفرهم الذى كانوا عليه، وهو كفر الإشراك لا كفر الجحود.

* وإيثار المضارع فى الموضعين **(لتكفرون - تجعلون)** للدلالة على حدوث كفرهم وتجدده فى الحال والاستقبال بعد كفرهم فى الماضى. وفى هذا زيادة تشنيع عليهم وليس المراد إنكار جماعة الأنداد الذى يفهم منه - كما تقدم فى مسألة تأكيد الكفر جواز جَعْلِ الند الواحد بل الجمع هنا أوثر لتصوير الواقع، حيث أَشركوا بالله اللات والعُزَّى ومناة، وهُبَل وغيرها.

* **﴿ذلك رب العالمين﴾** مسند إليه ومسند. وإيثار اسم الاشارة الموضوع للبعيد **(ذلك)** لتفخيم وتعظيم شأن المشار إليه، وهو الله عز وجل، وإضافة (رب) لـ **(العالمين)** تأكيد بعد تأكيد لإبطال عقيدة الشرك.

* * *

٢ - ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، أوَلَمْ يرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

**الدراسة والتحليل:**

كانت سورة (فصلت) قد بدأت بالاشارة إلى صدود مشركى مكة عن الإسلام، وتحديهم لصاحب الرسالة، ومواجهتهم بكفرهم بالله ذى الآيات الباهرة فى خلق السموات والأرض وتزيين السماء الدنيا بالكواكب.

وبعد هذا التفت إلى رسوله الكريم وقال له:

﴿فإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

ثم بيَّن كيف كفروا وكذبوا الرسل:

﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ من بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ اللهَ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤].

ثم جاءت الآية موضوع الدراسة تكشف دور عـاد فى الكفر وماذا صدر عنهم بعد أن جمع بيهم وبين ثمود فى الكفر بوجه عام.

فبينت الآية أن آفة عاد هى كفر الاستكبار فى الأرض والغرور بالنفس، وأنهم نفوا أن يكون فى الوجود من هو أقـوى منهم. وكذَّبهم الله فى هذه الدعوة، ثم وصـفهم بأنهم جحدوا بآياته فاستولى عليهم الشيطان، وجاء فى الآية هذان الاستفهامان:

* (**من أشد منا قوة**)؟ وهو ادعاء عاد.

* (**أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشدُّ منهم قوة**)؟

وهو رد الله على ادعائهم وتكذيبه إياهم.

والاستفهام الأول استفهام إنكار بمعنى النفى.

أما الاستفهام الثانى فهو استفهام تقرير بالعلم بأن الله هو أشد منهم قوة.

ويردف على الاستفهام الأول (**من أشد منا قوة**) معنى ثانٍ هو: شدة الاعتداد بالنفس المؤسس على الجهل.

أما الاسـتفهام الثـانى فهو وإن كـان للتقرير - أصـالة - فيردف عليـه من المعانى الثانية: التكذيب والتوبيخ.

وهذا هو خلاصة ما يقال فى هذين الاستفهامين.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق**﴾ الفاء للتفريع على ما تقدم والجملة برمتها تفصيل بعد إجمال. وتفريق بعد جمع:

أما التفصيل فلأن مـا قبلها كان مجملاً، هو وصفهم عمـوما -عاد وثمود- بالكفر وتكذيب الرسل، ففـصلت الآية كيفيـة كفر عاد ومـقولتهم فى الكفر، وآفـتهم التى أُخِذُوا بها وهى الاستكبار.

وأما التفريق؛ فقد جُمَع بينها وبين ثمود فى الكفر، فجاء فى هذه الآية تفريق بذكر صفات خـاصة بعاد وفى (**عاد**) مجاز مـرسل، حيث أطلق السبب - الجـد الأكبر - وأريد المسبب، وهو القبيلة المسماة (**عاد**) نسبة إلى جدهم الأول.

* وإيثار الماضى (**استكبروا**) لتحقق وقوع الاستكبار منهم. و(**فى الأرض**) ظرف مكان للاستكبار، وفيه تعريض بوضاعتهم وانحطاطهم وافتعال تكبرهم.

* أما (**بغير الحق**) فاحتراس لدفع توهم غير المراد وهو أن استكبارهم كان مجرد دعوى جوفاء عارية عن المبرر لها. والباء فى (**بغير**) للحالية، أى متلبسين بغير الحق.

* ﴿**وقالوا من أشد منا قوة**﴾ الواو للعطف على (**استكبروا**).

والاستفهام لإنكار الفاعل (الاسم)، أى لا أحد أشد منا قوة.

* ﴿**أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة**﴾ الرؤيا - هنا - علمية. والاستفهام للتقرير بعلمهم أن الله أشد منهم.

وتوكيد الخبرا بـ(ان) + اسمية الجملة + ضمير الفصل لإزالة إنكارهم أن يكون فى الوجود من هو أقوى منهم. ووصف المسند إليه (الله) بالموصول وصفته (**الذى خلقهم**) زيادة فى تكذيب دعواهم والتشنيع عليهم بالجهل والجهالة لأن الخالق ببديهة النظر أقوى وأعظم من المخلوق.

وإيقاع الفعل (**خلق**) عليهم دون غيرهم - هنا - وهو خالقهم وخالق جميع الكائنات؛ لأنهم هم الذين ادعوا أوحديتهم فى القوة. فكان فى تخصيصهم بقصر الخلق عليهم زيادة تكذيب لهم، وتوبيخ على شناعة دعواهم واستقباحها وغرابتها فى الوجود.

* ﴿**وكانوا بآياتنا يجحدون**﴾ الواو للعطف على (**فاستكبروا**) وأما قوله تعالى: ﴿**أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة**﴾ فاعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه. وسره البلاغى المسارعة إلى تكذيب دعواهم فور ذكرها، ووأدها فى مهدها، والجحد الإنكار الشديد مع العلم بصدق المجحود وهو آيات الله عز وجل؛ ووحيه إلى رسله الكرام، وإضافة (آيات) إلى ضمير اسم الجلالة لتعظيم شأنها وتفخيمها الموجب للإيمان بها والإذعان لها.

* وإيثار المضارع (**يجحدون**) إشارة إلى أن جحودهم بآيات الله كان ملازما لهم بدأوا به حياتهم، وماتوا وهم جاحدون بها، لا أنهم جحدوا ثم آمنوا.

والجملة برمتها (**وكانوا بآياتنا يجحدون**) تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله.

وتقديم (**بآياتنا**) على (**يجحدون**)، لأن جحد الآيات هو محط التأثيم. هذا من حيث المعنى. أما من حيث اللفظ فلتوافق فواصل الآيات فى حرف المد (الواو) وحرف النون: (**كافرون - يجحدون - لا ينصرون**).

* * *

٣ - ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا، قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

**الدراسة والتحليل:**

يوم القيامة يوم الأهوال، وأحداثه ليست معهودة للبشر وعجائبه مذهلة، ومن هذه العجائب والوقائع غير المعهودة، أن العصاة حين تبهتهم الساعة بأوزارها الثقيلة، ووعيدها الذى يُشيب الوِلْدان، فإنهم يحاولون التنصل من معاصيهم، فيفاجؤون باسماعهم - آذانهم - وأبصارهم - أعينهم - وجلودهم - أعضاء أجسامهم التى عصوا الله بها - يفاجؤون بها تشهد عليهم بما عصوا فى هذه الحياة الدنيا.

فيأخذهم العجب، وتستولى عليهم الدهشة. فيسألونها: (**لِمَ شهدتم علينا**) ويفاجئهم الجواب الحكيم المؤلم مرة أخرى: ﴿**أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء**﴾.

وهذا الاستفهام (**لم شهدتم علينا**﴾؟ استفهام إنكار وتعجب، ولم يوله الأئمة كبير عناية، ومعناه لا يخرج عما قلناه وهو الإنكار - أصالة - مع التعجب. وهذه هى الخلاصة.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (**وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا**) لم تفصل هذه الجملة (**قالوا**) عما قبلها على الاستئناف البيانى، فتنزل منزلة جواب عن سؤال نشأ عما قبلها يكون تقديره:

ماذا قالوا لجلودهم بعد أن شهدت عليهم؟ لم تفصل هذه الجملة على هذا الاستئناف البيانى، لأن إثارة هذا السؤال من سماع الجملة الأولى غير متوقع، لأن السمع والبصر والجلود لم يعتد الناس مخاطبتها. فكيف تتصور النفس هذا السؤال

الغريب غرابة نطق الجلود نفسها. لو كان الإنسان قد رأى من الجلود كلاما لكان إثارة ذلك السؤال واردة. ولكنه لما لم يعتد منها كلامًا كان ترتب إثارة السؤال عن الإعلام بشهادتها أمرًا مستبعدًا.

لذلك - والله أعلم - عطفت الجملة، ولم تفصل. وهذه المسألة لم يلتفت إليها الأئمة. وهى من الأسرار اللطيفة فى النظم الحكيم. وخوطبت الجلود مخاطبة العقلاء؛ لأنها لما شهدت على أصحابها نُزِّلت منزلة العقلاء.

* **(لم شهدتم علينا)** استفهام إنكار وتعجب. وكيفية دلالته على الإنكار لأنه سؤال عن السبب، والسؤال عن الشيء يقتضى عدم مشاهدته، وعدم مشاهدته تقتضى عدم وجوده. فكنوا بعدم وجود السبب عن إنكار المسبب، وهو الشهادة عليهم. وهذا من الكنايات اللطيفة والإنكار فيها للواقع.

* قالوا: لم شهدتم علينا، فاستفهموا عن سبب ورود الشهادة وكان الظاهر أن يسألوا عن كيفية وحال التمكن من النطق بالشهادة، والجلود ليست أهلا للنطق. وسر العدول من السؤال عن وقوع النطق إلى السؤال عن السبب الذى دعا إلى النطق، هو - فيما لاح لنا - أن أهوال القيامةغير المعهودة جعلتهم مُسَلِّمِين بأن الجلود تنطق، لذلك لم يُنكروا بأنها كيف نطقت، بل لأى سبب من الأسباب نطقت بالشهادة ضدهم.

وهذا - كذلك - من دقائق الأسرار فى النظم القرآنى الحكيم. ولم يبد المفسرون أية ملاحظات حوله مع ما لهم من يد طولى فى هذا المجال.

* **﴿قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء﴾** فصلت هذه الجملة عما قبلها، إما لأنها جواب السؤال المذكور. وإما لأنها جواب عن سؤال مقدر نشأ عن الأولى. حاصله: ماذا قالت لهم جلودهم؟ والأول أرجح فيما نرى، لأن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير وهذه قاعدة مطردة.

وفى هذه الإجابة عدول بالجواب عما يقتضيه الظاهر لأنهم سألوا عن السبب الذى أدى بالجلود إلى الشهادة وكان الظاهر أن يقال فى الجواب: لأن الله أمرنا أن نشهد

عليكم. فعدل عن هذا الجواب إلى ما عليه النظم: **(أنطقنا الله)** وهو جواب لسؤال آخر حاصله: كيف صدر منكن النطق؟

وسر العـدول إلى خلاف مقتـضى الظاهر أن ما عليه النـظم الحكيم أعم فائدة من المعدول عنه لأنه أفاد فائدتين:

**الأولى:** وهى المتبادرة من النظم - أن الله أقدرنا على النطق.

**والثانية:** أنه هو الآمر لنا بالشهـادة عليكم. فأدمجت الإجابة الثانيـة، وهى المسئول عنها، فى الأولى وهى المجاب بها. وفى هذا ما يشبه الأسلوب الحكيم.

* **(الذى أنطق كل شىء)** توكيد وزيادة تقـرير لقدرة الله على إنطاق الجلود. وفى هذا تبكيت للعصـاة وتعريض بهم بأنهم لم يقـدروا الله حق قدره فى الدنيا. فلحـقهم الخزى فى الآخرة. ولو كانوا قد عرفوا الله فيها ما أهينوا هنا.
* **(وهو خلقكم أول مرة)** توكيد وتقرير، بعد توكـيد وتقرير بإنزال العصاة منزلة المنكر لصفات الله الحسنى. لأن جهلهم وجهالتـهم أَلْهَتْهُمْ فى الدنيا عن التفكير فى قدرة الله وآياته فى الكون، حتى لكأنهم كانوا ينكرون أن الله هو الذى خلقهم.
* و**(أول مرة)** كناية عن الحياة الـدنيا؛ لأن من العصاة من كان ينكر الخـلق الثانى بعد الموت، وكانت الرسل تسـتدل لهم بالخلق الأول على إمكان الخلق الثـانى (البعث) عقلاً فأوثر تذكيرهم بتقـرير ما أنكروه من قبل. وعُدل عن تذكيرهم بالخلق الثانى؛ لأنه حقيقة واقعة.
* **(وإليه ترجعون)** استشكل المعنى الوارد فى هذه العبارة لأن الرجوع إلى الله تم، فهو واقع فعـلاً، فكيف قيل لهم: **(وإليه ترجعون)** كمـا كان يقال لهـم هذا فى الدنيا؟ أجاب المفـسرون بأن الرجوع إلى الله ليس مقـصوراً على البعث والمثول للـحساب والعقاب والثـواب. بل المراد استمرار هذا الرجـوع إلى أبد الآبدين. وهو -بهذا- أمر يحتاج إلى آماد يعلمها الله وحده:

أهل الجنة يخلدون فيها. وأهل النار من الكفرة يخلدون فيها.

وهذا جواب حسن فإذا أضفنا إليه أن إيثار قولـه تعالى: **(وإليه ترجعون)** أريد بـه

- مع ما قاله المفسرون - تذكيرهم بما كان يقال لهم فى الدنيا تبكيتًا لهم وتنديما كان أحسن.

والجملة قصرية: أى: إليه لا إلى غيره ترجعون.

* * *

٤ - ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

**الدراسة والتحليل:**

بعد أن حكت السورة أنماطًا عديدة من أقوال الذين كفروا، بدءًا من قولهم: (**وقالوا قلوبنا فى أكنَّة مما تدعونا إليه..**) إلى قولهم المحكى عنهم (**وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلاَّنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا..**) بعد أن حكت السورة هذه النماذج من الأقوال أشارت إلى أحسن الناس قولاً، وأصدقهم حديثا فى هذه الآية:

﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا..**﴾ والاستفهام الذى فى الآية استفهام إنكار ونفى. وهذا بإجماع أهل الذكر وهو خلاصة ما يقال فيه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله**﴾ الواو للاستئناف، وهو مسوق لبيان أن أحسن الأقوال هى الداعية إلى الله عز وجل وأن أحسن القائلين هو الداعى إلى الله.

وأحسن أفعل تفضيل ليس على بابه، لأن الأقوال إذا كانت خارجة عن الدعوة إلى الله فليس فيها حُسن قط حتى تكون الأقوال الداعية إلى الله أحسن من حسنها - أى من حسن الأقوال الخارجة عن مجال الدعوة.

فالمراد من أفعل التفضيل هنا - فيما نفهم - نفى مساواة أن يكون قول ما مثل حسن القول المدعو به إلى الله. ونفى المساواة يستلزم نفى «الأحسنية» ضرورة.

وفى العبارة إيجاز بحذف المضاف إلى (مَنْ) فى (ممن) والتقدير: ومن أحسن قولاً من قول من دعا إلى الله.

* **(وعمل صالحًا)** كل قـول فى الإسـلام لا يراد بذاته، بل لأنه منهج عـمل، وخطة تطبيق، سواء كان القول أمارة طلب فعل واجب أو أقل من الواجب، أو كان القول أمارة ترك فعل محرم، أو أخف من المحرم.

اللهم إلا أساليب الدعاء فلا يراد منها إلا ذاتها لجلب نفع أو دفع ضرر. مع التذلل والخـضوع إلى الله والتـوكل عليه. ولـهذا فـإن القول الحـسن فى الإسلام وحـده لا يكفى، حتى يكون الداعية عاملاً بما يقول قدر طاقته.

ولهذا اشترط القـرآن فى الدعوة إلى الله أن يكون الداعية فى نفسه مـلتزمًا ومذعنا للأوامر والنواهى. وإلا كان فتنة مدمرة. وقدوة سيئة للناس.

* وايثار الماضى **(وعمل)** للدلالة على تحقق عمل الصالحات عند من يدعو إلى الله عز وجل. وإلا لم يكن داعـيًا إلى الله ولا مسـتحقًـا كرم الدعاة إلى الله فـى العاجلة والآجلة.

* **(وقال: إننى من المسلمين)** عطف على جملة **(دعا إلى الله وعمل صالحًا)**.

وهو خبـر مستعـمل فى الدلالة على الابتهاج بالانتـماء إلى جمـاعة المسلمين فى مواجهة الكفر وأهله.

وتوكيـده بـ (إن) واسميـة الجملة تفخـيمًا له، ولشـرف معناه. وإظهاراً للاقـتداء برسول الله ﷺ فى قوله تعالى:

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

* * *

٥ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا، أَفَمَن يُلْقَى فِى النَّارِ خَيْرٌ، أَم مَّن يَأْتِى آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

## الدراسة والتحليل:

من الأوضاع التى استعرضتها سورة (فصلت) حتى الآن مساوئ المشركين ومحاسن المؤمنين، وفى هذه الآية تصـوير سريع لعـاقبة كل من الفـريقين. فمـصير الـكافرين القذف فى جهنم، ومصير المؤمنين أن لهم الأمن فى الدنيا وفى الآخرة.

وقد بدأت الآية بجملة وعيدية تهديدية: ﴿**إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا**﴾ ثم أشارت إلى التباين العظيم بين ما أعده الله لاعدائه، وما أعده لأوليائه فى المقطع الاستفهامى.

﴿**أفمن يُلقى فى النار خير**﴾؟ ﴿**أمَّن يأتى آمنا يوم القيامة**﴾؟

ولم يُبْدِ جميع الأئمة الأقدمين شيئًا فى المراد من الاستفهام، وقال الإمام الطاهر إنه لبيان التفاوت بين المرتبتين[1].

وقول الإمام معناه نفى المساواة بين من يلقى فى النار، وبين من يبعث آمنا يوم القيامة.

**والخلاصة**: أن الاستفهام فى الآية للنفى، وهو نفى (خيرية من يلقى فى النار، وإثباتها لمن يأتى آمنا).

**اسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا**﴾ هذا الخبر وعيد وتهديد لمن تحقق فيه وصف الإلحاد فى آيات الله. سواء كانت آيات قولية، أو آيات كونية والإلحاد فى الآيات القولية يكون بتحريف معانيها حسب الأهواء.

أما الإلحاد فى الآيات الكونية فهو عدم النظر فيها والاعتبار بها والاستخفاف بدلالاتها على الإيمان والتوحيد وفى (**يلحدون**) استعارة، لأن الإلحاد لغة هو الحفر فى الأرض مع الميل والانحراف إلى شق فيها، أى يحفر حفرًا مائلاً معوجًا غير مستقيم. فاستعير من معناه اللغوى المادى الحسى إلى الانحراف المعنوى على طريق الاستعارة التبعية. وسرها إخراج المعنوى المعقول مخرج المادى المحسوس تقريرًا له وتهويلاً لشأنه وإيقاع الإلحاد على آيات الله تشنيع وتبشيع لسوء صنيعهم.

وتعدية الفعل (**يلحدون**) بحرف الجر (فى) تفظيع وتهويل لوقوعه. وإضافة الآيات إلى ضمير اسم الجلالة تقبيح لاجترائهم على آيات الله قولية أوكونية و(**لا يخفون علينا**)

---

(١) التحرير والتنوير(٢٤/ ٣٨٤).

كناية عن إحكام قبضة الله عليهم ومجازاتهم جزاء وفاقا. وليس المراد مجرد ظهورهم وإحاطة علم الله بهم.

أى أن فى الكلام كناية عن سوء مجازاتهم، أو مجازًا مرسلاً بإطلاق السبب وإرادة المسبب.

* ﴿أفمن يلقى فى النار خير﴾ الفاء للتفريع على ما قبلها والهمزة للنفى، وهو نفى وقوع أن يكون لمن يلقى فى النار (خيرية) قط.

وفى (يلقى) استعارة لـ(يدخل) وسرها التهويل والتفظيع، لأن الدخول يكون هادئًا. والإلقاء هو القذف والطرح والرمى. وهو فى نفسه شقاء ولو كان فى غير النار، فإذا كان فى النار كانت الطامة الغامة[1].

﴿أمَّن يأتى آمنا يوم القيامة﴾ أم فى الموضعين متصلة؛ وجوابها يكون بالتعيين. أى: أيهما خير وقد ترك الجواب لظهوره.

وفى العدول عن تقابل الطرفين، حيث لم يقل: أمَّن يلقى فى الجنة، لما فى الالقاء من الإهانة والإزعاج أما ما عليه النظم (أمَّن يأتى آمنا) فهو المناسب لأهل الإيمان.

وبعض الأئمة جوَّز أن يكون فى الكلام احتباكًا، والتقدير أفمن يأتى خائفًا ويلقى فى النار أمن يأتى آمنا ويدخل الجنة. فحذف من كل من الطرفين ما ذكر فى نظيره. وقد جزم بهذا الإمام الطاهر. وضعَّفه الإمام الألوسى.

* ﴿اعملوا ما شئتم إنى بما تعملون بصير﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب لتشديد التهديد المستعمل فيه فعل الأمر (اعملوا ما شئتم) وتوكيد الخبر فى (إنى بما تعملون بصير) لتشديد التهديد.

* * *

---

(١) ويجوز إبقاء الالقاء على ظاهره فيكون المراد أن أهل النار يقذفون فيها فعلا. وعليه فلا استعارة فى التعبير. بل هو تصوير حقيقى واقعى.

٦ - ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وشِفَاءٌ، وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

**الدراسة والتحليل:**

من صور الإلحاد فى كتاب الله وآياته، الذى أشارت إليه الآية السابقة (**إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا**) من صور هذا الإلحاد الصادر عنهم فى آيات الله رفضهم للقرآن جملة، ونسبته إلى مصادر أرضية ومحاولاتهم اليائسة فى ادعاء قطع صلته بالله عز وجل.

فضرب الله مثلاً لعنادهم، والأئمة المفسرون يوردون بين يدى هذه الآية سبباً يصلح أن تكون الآية جواباً عليه، وهو:

أن المشركين كانوا يقولون على سبيل التعنت والتهكم لولا نزل هذا القرآن بلغة العجم، فبين الله فى هذه الآية أنه لو أنزل القرآن أعجمياً لاعترضوا ولقالوا أقرآن أعجمى ورسول عربى؟ يعنى أنهم لن يتوقفوا عن الطعن فى القرآن على أى وجه كان.

والإمام الطاهر بن عاشور يستبعد أن تكون قريش قد قالت هذا القول إلا إذا كان على سبيل التهكم والسخرية لا على الجد.

وهذا القول الذى ينسبه المفسرون إلى قريش وإن لم تصح الرواية فيه فإن أسلوب الآية يؤكد صدوره عن المشركين، وإلا لما كان لهذا الرد وجه ينبنى عليه، فأسلوب النظم الحكيم دليل قوى على أن المشركين قالوا ما أجمع المفسرون القدماء على نسبته إليهم.

أما استبعاد الإمام الطاهر لصدور هذا الكلام عن قريش فإن سببه عنده ضعف الرواية، وقد أهمل الإمام الطاهر دلالة الآية على جبر الضعف فى الرواية، وهى طريقة معترف بها عند علماء الحديث لأن قوله تعالى: ﴿**ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلَتَ آياته**﴾ يشعر بأنه رد على اقتراح صدر فعلاً عن مشركى العرب بجعل

القرآن أعجمياً، فجاءت الآية لتسجل عليهم أنهم يسيرون مع هوى أنفسهم.

أما الاستفهام الذى فى الآية وهو: ﴿أأعجمى وعربى﴾؟ فهو استفهام إنكار وتعجب وتهكم على حسب زعمهم، وما رأينا للمفسرين خلافاً حول هذه المعانى.

فهم ينكرون - فيه - أن يكون القرآن بلغة العجم والرسول النازل إليه عربى، والمرسل إليهم عرب ثم يتعجبون من هذا التنافر بين الخطاب والمخاطب ثم يسخرون ويتهكمون من أجل كونه كذلك، لو تحقق فى القرآن هذان الوصفان:

* كونه أعجمى اللغة والبيان. * وكون المخاطب به عربى اللغة والبيان.

وللأئمة تفريعات كثيرة حول بعض عبارات الآية رأينا عدم التعرض لها خشية الإطالة، وسنورد ما قوى منها فى مبحث[1]:

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته﴾** أوثر التعبير بـ(لو) لما فيها من امتناع ما بعدها فهى - هنا - للفرض والتقدير، وهى وما دخلت عليه من **(جعلناه)** إلى **(عربياً)** استئناف مسوق للتمهيد لما كانوا سيقولونه مما يمليه عليهم هواهم وإلحادهم فى كتاب الله.

وإيثار **(جعلناه)** على **(أنزلناه)** إشارة إلى صون تنزيل الكتاب عن التلبس، بأى لسان (لغة) غير اللسان العربى، لأن الإنزال هو الأصل، أما الجعل المنفى بـ(لو) فهو من العوارض التى يمكن أن تطرأ على (المنزَّل) لذلك لم يُقَلْ (أنزلناه) للدلالة على حفظ (المنزل) من أى طارئ ولو كان منفياً فى اللفظ والمعنى.

**﴿لقالوا: لولا فُصِّلَتْ آياته﴾** هذا القول كناية عن أن الكارهين لما أنزل الله لا يصدرون فيما يقولون إلا عن هوىً وخبث طوية، فهم على استعداد أن يقولوا الشئ وضده، والشئ ونقيضه فى آن واحد.

وبناء الفعل **(فُصِّلَتْ)** لما لم يسم فاعله رمزاً إلى كراهيتهم نسبة تفصيل آيات

---

(١) من يشاء فليرجع إلى أقوالهم فى التفاسير الآتية: الكشاف، تفسير أبى السعود، روح المعانى، البحر المحيط، التفسير الكبير للرازى، تفسير النسفى، وتفسير البيضاوى، وغيرها.

الكتاب العـزيز إلى الله - عز وجل - كراهـية اسودت بها قـلوبهم، وحبست عليـها ألسنتهم.

* ﴿أأعجمى وعربى﴾ أى: أقرآن أعـجمى، ورسول عـربى، وهذا فى قوة: أخطاب أعجمى ومخاطب عربى، وهذا أولى مما ذكره الأئمة فى بيان المفرد المذكر (عربى)، حيث أكثروا فيه الفروض بلاجدوى.

والذى أنكروه بهذا الاسـتفهـام هو شدة التنافر بـين طرفى المستفـهم عنه، لو كان القرآن كما قالوا واقترحوا.

* ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ فى القرآن للمؤمنين نعمتان:

* نعمة الهداية للتى هى أقوم.

* ونعمـة الشفاء من الشك والريب فى أمـور الغيب وحصن من وسـاوس الشيطان، وهذا تشبيه بليغ، حيث شبه القرآن بالضياء الحسى فى النعمة الأولى.

وشبهه بالدواء المزيل للأمراض فى النعمة الثانية.

* ﴿والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقـر، وهو عليهم عـمى﴾ كادت أقوال الأئمة تضطرب فى توجيه المعنى - هنا - والذى تطمئن إليه النفس - فيما لاح لنا - هو الآتى:

**أولاً**: العبارة برمـتها كناية عن عدم انتفاعـهم بالقرآن، مع تشبيه عدم انتـفاعهم به بعدم انتفاع الأصم الذى لا يسمع، والأعمى الذى لا يبصر، على أن هذين الوصفين - الصمم والعمى - مـجتمعان فيـهم فى وقت واحد، وهذا التشبيه كـثير الورود فى الكتاب العزيز مراداً به الكفرة والمشركون.

هذا من حيث التركيـب جملة، والكناية فيه أبلغ من التصريح بذكـر عدم الانتفاع بلفظه الموضوع له لغـة، لما فى الكناية - عموماً - من اقـتران الدعوى بدليل صـدقها وصحتها.

أما من حيث جزئيات التركيب:

فإن قـوله تعالى: ﴿فى آذانهم وقـر﴾ كناية عن صـفـة الصمم المـانع من سمـاع الأصوات، المستلزم نفى الفهم بالطريق البرهانى، والوقر داء يصيب السمع بالتعطل.

* وأما قوله تعالى: ﴿وهو عليهم عمى﴾ فالمفسرون منهم - بل أكثرهم - من جعل الضمير (هو) عائداً على القرآن، قياساً على قوله تعالى فى جانب المؤمنين (**قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء**) ليتم التقابل بين العبارتين (انظر روح المعانى)، وبالغ الإمام الطاهر فقال: إنه من محسنات الطباق، وإن جعل (هو) ضمير شأن[1].

ونقول: إن التقابل بين العبارتين حاصل بحرفى الجر (لـ) فى قوله تعالى: ﴿**قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء**﴾.

و(**على**) فى قوله تعالى: ﴿**وهو عليهم عمىً**﴾ ولا دخل للضمير (هو) فى هذا التقابل الحاصل فعلاً بدون عود الضمير (هو) على القرآن.

والذى لاح لنا - بل وألحَّ علينا - إذا جعلنا مرجع الضمير (هو) هو القرآن: أن يكون قوله تعالى: (**عمىً**) مستعاراً للحجة، أى: أن القرآن حجة لله عليهم لكفرهم به - مع وضوح دلائل نسبته إلى الله - وإنما شبهت الحجة القائمة لله عليهم بالعمى لما بين الأعمى والمحجوج من الانغماس فى الضلال وحجب رؤية الحقائق عن كل منهما.

مصداق هذا قوله تعالى فى سورة الحج: [٤٦] ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**﴾.

وفى تنكير (عمى) تفظيع وتهويل، أما أن يكون القرآن ضلالاً عليهم - كما قيل - فهذا لا يليق بكتاب الله الهادى إلى سواء الصراط.

* ﴿**أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾ أجمع المفسرون على أن هذا تمثيل بلاغى مؤكد للمعنى قبله، حيث شُبِّه ضلالهم وجهلهم بضلال وجهل من يُنَادَى من مكان بعيد، فلا يسمع صوتاً، ولا يدرك معنى.

* * *

(١) حمل (هو) هنا على ضمير الشأن غير مُسَلَّم، لعدم تحقق شروطه فى هذا الموضع، والإمام الطاهر له غرائب أحياناً فى التوجيه البلاغى.

٧ - ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا تَخْرُجُ من ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شَرَكَائِى، قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧].

**الدراسة والتحليل:**

من طرائف النظم القرآنى الحكيم فى أعقاب الحديث عن الكفر والكافرين أن يذكر بين الفقرات ما يدل على خصائص الألوهية لله - عز وجل - فيضيف إلى الله مالا يملكه أحد سواه.

وآيتنا هذه من هذا القبيل، فقد ذكرت ثلاثة أشياء مضافة إلى الله من خصائص ألوهيته، ومحال أن يُشركه أحد فى الإحاطة بها، وهى:

* استئثاره بعلم الساعة وما يحيط بها من أسرار.
* استئثاره بعلم ثمار الأشجار والنباتات بدءاً وتكويناً وتوليداً.
* استئثاره بما فى أرحام الأنثيات حملاً وتطوراً.

وبعد أن أثبت النظم هذه الخصوصيات لله - عز وجل - لبيان علو شأنه وانحطاط شأن ما يعبدون غير الله عاد فذكر - توبيخاً لهم - ما سيقال لهم يوم القيامة من سؤال التهكم والتبكيت عن أصنامهم ومعبوداتهم:

**﴿ويوم يناديهم أين شركائى﴾**؟

وهذا الاستفهام كنا قد عرضنا له مرات من قبل، وفى سورة القصص وحدها ورد ثلاث مرات، وعرفنا أنه استفهام إنكار وتوبيخ وتنديم عند جميع الأئمة، أما الجديد فيه هنا فهو قولهم: **﴿آذناك ما منا من شهيد﴾** وهو اعتراف منهم بكفرهم بعد فوات الأوان بأصنامهم، التى لم يجدوا لها أثراً يذكر يوم القيامة.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿إليه يرد علم الساعة﴾** جملة قصرية، قُصِرَ فيها صفة العلم بشئون الساعة على موصوف هو الضمير العائد على اسم الجلالة أى: إليه هو لا إلى غيره.

وعلم الساعة كناية عن موعد قيامها وتفاصيل الأحداث التى تقع فيها.

والرد يشمل الرد القولى - كما قال الأئمة - إذا سأل عنها سائل فيقال له علمها عند الله، وعلى هذا اقتصر المفسرون.

ويشمل الرد الواقعى الكونى: أى أن شئون الساعة جميعا استأثر بها الله سواء سُئِل عنها أو لم يُسأل، وهذا وإن لم يذكره المفسرون أولى بالاعتبار، لأنه أعم من الأول، ولأنه المطابق للواقع.

وفى الساعة كناية عن موصوف هو يوم القيامة وَحَذْفُ فاعل (يُرَدُّ) ونباؤه لما لم يسم فاعله لأن المراد هو الرد نفسه سواء ذكر له فاعل أو لم يذكر، وفى هذا توكيد للفهم الذى أضفناه إلى قول الأئمة من قبل.

* **﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾** الواو للعطف على **(علم الساعة)** و(ما) موصولة صلتها ما بعدها و(من) فى **(من ثمرات)** لاستغراق جميع أفراد الثمرات بحيث لم يند منها شئ عن علم الله المحيط.

و(من) الثانية فى **(من أكمامها)** أما بيانية وإما لابتداء الغاية، وقد يدمج أحد المعنيين فى الآخر بدلالة المقام كما فى الآية الحكيمة.

وتنكير **(ثمرات)** للتكثير والتنويع والتفخيم، وإسناد الخروج إلى (ثمرات) مجاز عقلى علاقته المفعولية، والفاعل الحقيقى هو الله - عز وجل.

* **﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾** كناية عن علم الله المحيط بما فى الأرحام، بدءاً وانتهاءً ومصيراً ولا يقدح فى ذلك أن العلم الحديث استطاع أن يحدد نوع الجنين وهو فى الرحم، بل ويتنبأ بوقت وضعه، لأن هذا علم مقصور على الظواهر، وقد يكون مع حقارته ظنياً لا يقين فيه.

أما علم الله فمحيط بماضى الأجنة وهى فى الأرحام، وبحاضرها وبمستقبلها القريب والبعيد إلى أبد الآبدين، وبهذا يباين عِلمُ الله معارف الناس.

وقد روعى فى تنسيق هذه الخصوصيات الإلهية الترتيب التنازلى:

* لأن أغمض العيوب ما يتعلق بعلم الساعة وسائر شئونها.
* يليه ثمرات الأشجار والنبات فى (الأغمضية).

* يليه ما فى أرحام الأمهات.

وسر هذه الترتيب - مع جواز العكس وبلاغته - هو أن المقام مقام ثناء على الله الواحد الأحد، وتحقير لمعبودات المشركين، فناسب ذلك البدأ بعلم الله بأغمض وأعظم الغيوب، وهو شئون الساعة، ثم الأدنى فالأدنى.

* ﴿**قالوا: آذناك ما منا من شهيد**﴾ آذناك أعلنا لك واعترفا بأننا ما منا من أحد يشهد ويرى الآن أى أثر للذين كنا ندعوهم من قبل ألهة من دونك وهذا اعتراف منهم بكفرهم بمعبوداتهم لما كشف عن أبصارهم وبصائرهم الغطاء.

* * *

٨ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢].

**الدراسة والتحليل:**

حجاج مفحم تلزم به الآية الطاعنين فى القرآن بأنه ليس من عند الله، وتختصر الآية معهم الحديث اختصاراً فتقول: إنكم جزمتم بأن القرآن ليس من عند الله، فماذا يكون حالكم إن كان من عند الله مع كفركم به، هل يكون فى الوجود من هو أضل منكم؟

والآية فيها استفهامان:

* ﴿**قل أرأيتم..**﴾؟ * ﴿**من أضل..**﴾؟

والاستفهام الأول: (**أرأيتم**) هو عند الجمهور كما تقدم مرات كثيرة بمعنى: أخبرونى، أما على ما اخترناه فيه فهو لإثارة النشاط الذهنى حول المستفهم عنه وإحضار صورته فى الذهن ليُحْكم عليه وهو حاضر، وهذا ما نرجحه فيه دائماً.

أما الاستفهام الثانى (**من أضل..**) فيصلح أن يكون تقريراً وأن يكون إنكاراً باختلاف جهة النظر إليه فهو استفهام تقرير بمعنى: أنتم أضل الناس وهو استفهام إنكار بمعنى لا أحد أضل منكم وكل من المعنيين يتضمن المعنى الآخر.

وقد مرَّ الأئمة على هذين الاستفهامين مروراً سريعاً لكثرة ما عالجوا نظائرهما من قبل.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**قل: أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به**﴾؟ تصدير الآية بفعل الأمر (قل) للإيذان بأهمية الكلام المقـول بعده، وكونه رسالة خاصة ينبـغى تبليغها فور تلقيـها وسرعة المواجهة بها.

والرؤيا علمية، والمعنى: ماذا يكون وصـفكم إن علمتم يقيناً أن القرآن من عند الله بعد أن كـفرتم به، أى استحـضروا هذه الحقـيقة فى أنفـسكم، ثم انظروا ماذا يكون حالكم.

فهذا الاستـفهام لا للتقرير ولا للإنكار، بل هو - دائماً - توطئـة وتمهيد لما يترتب على تصور المستـفهم عنه، والجمهـور - كما عرفنا - يجعلونه بمعنـى الأمر، فينسلخ عنه معنى الاستفهام بعد تحقق الأمرية فيه، والاستفهام كثيراً ما يراد منه الأمر، وإيثار العطف بـ(**ثم**) للتشنيع عليهم بأنهم كفروا بالقرآن بعد مهلة من الزمن كانت كفيلة بأن يتبينوا فيها (حقية نزول القرآن من عند الله).

* ﴿**من أضل ممن هو فى شقاق بعيد**﴾؟ الجملة استئناف مسوق لبيان حالهم بعد كفرهم بالقـرآن، وقد علمـوا أنه من عند الله، إما فى الدنيـا وإما فى الآخـرة، أى: أنتم أضل الناس أو لا أحد أضل منكم، وأضل أفـعل تفضيل والمفضل عليـه فى سياق النفى هو:

* ﴿**من هو فى شقـاق بعيد**﴾ وفى العبارة التـفات من الخطاب (**أرأيتم**) إلى الغيبة (**ممن هو**) والأصل: من أضل منكم، وسر العدول إلى الغيبة بيان تعليل الأضلية.

* * *

٩ - ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

**الدراسة والتحليل:**

هذه الآية جاءت استطراداً فى حجاج الذين كذَّبوا بالقرآن وأعرضوا عن جميع الدلائل الموجبة للإيمان به، أشارت الآية إلى أن مواجهة الحق لهم ببداهيته لن تتوقف، فإن لم يؤمنوا اختياراً إيماناً ينفعهم عند الله، فإنهم سيؤمنون به قسراً لما يروا من الدلائل ما لا سلطان لهم على رده، ولكنه إيمان لا خير لهم فيه ما داموا معاندين مكابرين.

وقد أشارت الآية إلى نوعين من الدلائل على صدق القرآن ونسبته إلى الله:

* دلائل كونية فضائية علوية بعد الدلائل الأرضية التى لم يقيموا لها وزناً.
* دلائل ذاتية مبثوثة بين جلودهم وفى خاصة أنفسهم، وأن مآل هذه الدلائل أنها تبين على وجه اليقين أن القرآن كلام الله، ولن تبقى شبهة واحدة يتدرع بها أهل الزيغ والعناد.

وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام: **﴿أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد﴾**؟

وقد أهمل الزمخشرى بيان المراد من الاستفهام - هنا - كعادته فى أواخر تفسيره[(١)].

أما الإمامان أبو السعود والألوسى فقد قالا: إن المراد منه الإنكار، لأنهم خرجوا التركيب على مذهب الزمخشرى وقَدرا المعطوف عليه المحذوف فقال أبو السعود وتابعه الألوسى (ألم يغن ولم يكف..[(٢)]).

ومن صحبنا فى هذه الدراسة يعلم أننا نميل إلى جعل هذا الاستفهام ونظائره للتقرير لا للإنكار، وأن المقام نفسه يكاد يوجب هذا الفهم، لأن مع التقرير يكون المعنى أن الله تعالى: يثبت كفايته للناس سواء كان التقدير: يكفك أو يكفهم على ما بينهم من خلاف حول هذين التقديرين إن حمل الاستفهام - هنا - على الإنكار أمر

---

(١) الكشاف (٣/٤٥٨). (٢) تفسير أبى السعود (٨/١٨)، روح المعانى (٢٥/٦).

مستبعد، أو هو محال، سواء حُمِلَ التركيب على مذهب الجمهور أو على مذهب الزمخشرى.

فإذا حمل على مذهب الجمهور كان للتقرير قطعاً؛ لأن الهمزة فيه تكون داخلة على (لم) دخولاً مباشراً فيتحول النفى إلى إثبات.

وإذا حمل على مذهب الزمخشرى فإن بيان المراد منه بالإنكار وإن ساعد عليه المحذوف المقدر والمنفى بـ(لم) الذى لم يدخل عليه ما ينفيه، كان هذا الحمل حملاً على المعنى الذى يُفهم من المقام بكل قوة ووضوح.

لذلك نجزم بأن الاستفهام فى **﴿أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد﴾** استفهام تقرير ووعد حسن بتجلية الحق، وإقامة الحجة على المعاندين، والانتصار لكتابه العزيز.

وهذه هى الخلاصة فى بيان المراد من هذا الاستفهام على الرأيين الموضحين فيه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم﴾** إيثار المضارع لتعلق الرؤيا بالاستقبال بدلالة دخول حرف التنفيس (**سنريهم**) على الفعل.

والتعبير بالنون الموضوع للجماعة للتعظيم والتفخيم وتوكيد الإراءة.

وإضافة (**آيات**) إلى ضمير اسم الإشارة لتعظيم شأنها و(**فى الآفاق**) كناية عن الدلائل العلوية كالشمس والقمر والنجوم والسحب، وما يكتشفه العلم فى كل عصر من عصور التقدم العلمى.

* (**وفى أنفسهم**) الواو للعطف، لإشراك آيات الله فى النفس مع آياته (**فى الآفاق**) فى الكشف والإراءة.

وتقديم الآيات العلوية على الآيات النفسية، لأنها أظهر وأقوى دلالة على المعنى المراد.

* **﴿حتى يتبين لهم أنه الحق﴾** تعليل لإراءة الناس الآيات والدلائل الناطقة على صدق التنزيل.

* وجملة (**أنه الحق**) تؤول بمصدر هو فاعل الفعل (يتبيَّن) وتوكيدها بأن واسمية الجملة لبيان رسوخ حقية صدق التنزيل عند الله وعند المؤمنين، الذين لم يلبثوا إيمانهم بريب.

والتضعيف فى الفعل (يتبيَّن) بتضعيف (**الياء**) وزيادة التاء فى أوله، ولم يقل: حتى يبين إشارة إلى فخامة دلالة الآيات على صدق التنزيل، وظهورها بكل قوة ووضوح لا يدع مجالاً لشك أو حتى وَهْمٍ من الأوهام.

* ﴿**أولم يكف بربك**﴾ استئناف مسوق لتأكيد ما أخبر عنه من إراءتهم الآيات وتبين الحق فى جانب القرآن وكونه حقاً منزلاً من عند **الله** عز وجل.

والاستفهام تقرير بكفاية **الله** وحده فى نصرة الحق ودحر الباطل.

والتعبير بـ(**رب**) وإضافته إلى ضمير المخاطب، وهو محمد ﷺ لتثبيت قلبه وتسليته وتعزيته فيما كان يلقاه من عناد المشركين وكيدهم المرير.

* ﴿**أنه على كل شئ شهيد**﴾ جرى بعض الأئمة على أن هذه الجملة بدل من (ربك)، وقد لاح لنا فيها وجه آخر هو: أن تكون تعليلاً لتقرير كفاية **الله** - عز وجل.

وتوكيد الخبر فيها بـ(إن + اسمية الجملة) لأن مضمون الخبر من الحقائق العظيمة التى من حقها أن تصاغ فى عبارات عظيمة مثلها، وهذا هو منهج النظم الحكيم كما تقدم، والتوكيد - عموماً - مسلك بلاغى مطابق لمقتضى الحال فى مقامات منها الوعد والضمان كما فى هذه العبارة، وتقديم الجار والمجرور (**على كل شئ**) على العامل فيه (**شهيد**) مسارعة إلى أن انتظام كل شئ خاضع لعلم **الله**، هذا من حيث المعنى.

أما من حيث اللفظ فلمناسبة (**قدير**) لنسق الفواصل قبله وبعده: (**بعيد - شهيد - محيط**).

* * *

# سورة الشورى

١ - ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩].

**الدراسة والتحليل:**

سورة الشورى مكية النزول، وقد اهتمت بالقضايا والمشكلات التى تصدى لها القرآن بمكة، قبل الهجرة، فخاصمت الشرك والمشركين وأشارت إلى وحدة الدعوة عند الرسل الكرام، وخاطبت أهل الكتاب خطاباً قصيراً، وبينت اختلافهم حول ما أنزل الله على رسلهم وأن الإسلام هو وريث ما تقدم من الرسالات يؤمن بها ويدعو الناس إلى التسامح وتفويض الأمر إلى الله فى الفصل بين الطوائف، كما جالت جولات قصيرة فى بعض ما عليه الحياة وطبائع الناس ومصيرهم يوم القيامة والتأكيد على قيام الساعة وبعض آيات الله فى الكون.

نزلت سورة الشورى بعد سورة الكهف وقبل سورة إبراهيم وكان ترتيب نزولها هو التاسعة والستين.

وأول آية ورد فيها استفهام هى قوله تعالى: **﴿أم اتخذوا من دونه أولياء..﴾**؟

وهو استفهام إنكار عند جميع الأئمة، وأم منقطعة، بمعنى بل الإضرابية الانتقالية، والهمزة للإنكار، وقد بدأ القول فيها الإمام الزمخشرى حيث قال:

«معنى الهمزة فى (أم) الإنكار[١]».

وأطال الإمام أبو السعود وكان مما قال فى هذا الموضع:

(أم منقطعة، وما فيها من بل للانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها، والهمزة لإنكار الوقوع ونفيه على أبلغ وجه وآكده..[٢])، وكذلك قال الإمام الطاهر[٣].

---

(١) الكشاف (٣/ ٤٦١). (٢) تفسير أبى السعود (٨/ ٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٩).

والخلاصة: أن هذا الاستـفهام ﴿أم اتخذوا من دونـه أولياء﴾ استفـهام إنكار أصالة، وهذا ما وقف عنده الأئمة ويردف عليه من المعانى الثانية: التوبيخ والتجهيل.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿أم اتخذوا من دونـه أولياء﴾** جملة مستـأنفة مسوقة لتقرير مـا قبلها من أن الظالمين ليس لهم من دون الله ولى ولا نصـير وممهدة لما قـضى الله به من أنه - وحده هو الولى والنصير - بعد إنكار اتخاذ الظالمين أولياء من دون الله، والمعنى:

بل أأتخذوا من دون الله أولياء؟ ما كان لهم ولا ينبـغى لهم ولا لغيرهم أن يتخذوا أولياء مع الله أو من دون الله.

* **﴿فالله هو الولى﴾** الفاء واقعة فى جـواب شرط محذوف تقديره كمـا ذهب كثير من المفسرين، إن أرادوا ولياً (**فالله هو الولى**) والجملة قصرية: قصرت فيها صفة الولاية على اسم الجلالة (**الله**) قصراً حقيقياً تحقيقياً، وطريق القصر فيها تعريف الطرفين ثم ضمير الفصل (هو).

* **﴿وهو يحيى الموتى﴾** استـئناف مقرر لقـصر الولاية على الله - عـز وجل - وإيثار المضارع (**يحيى**) لأن المعنى المراد يحدث فى الحال وفى الاسـتقبال، وفيـها تعريض بحقارة معبوداتهم وأنها عاجزة لا تنفع ولا تضر.

* **﴿وهو على كل شئ قدير﴾** تذييل مقرر لمعنى الكلام قبله من قصر الولاية على الله، والتعريض بمعبودات المشركين.

* * *

٢ - ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ، وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١][(١)].

**الدراسة والتحليل:**

هذا حديث عن مقابح المشركين ومنكرى البعث، حيث كانوا عبيداً لأهوائهم، ومنقادين للشيطان يزين لهم الباطل ولا يقيمون لما أنزل الله وزناً، فهم فى وادٍ والدين الحق فى وادٍ آخر.

وبعد أن رصدت السورة نماذج من انحرافاتهم انتقلت بوساطة حرف العطف والإضراب الانتقالى تسجل عليهم مثالب أخرى، حيث لم يستجيبوا لنداء الحق فلم يؤمنوا بالله حق الإيمان، ولم يلتزموا بأوامر الله ولا نواهيه، فصدرت الآية بهذا الاستفهام:

**﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله..﴾؟**

والأئمة مجمعون على أن (أم) فى الآية منقطعة وأن بل فيها للإضراب الانتقالى أما الهمزة فهى للتقرير والتقريع والتوبيخ، وكان الإمام الزمخشرى أول من أورد هذه المعانى فى هذا الاستفهام ثم تابعه الآخرون مع بعض الزيادات[(٢)]، وهذه عبارة الزمخشرى التى جاراه فيها من بعده:

(معنى الهمزة فى (أم) التقرير والتقريع)، وفى هذا إشارة إلى انقطاع (أم).

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله﴾** ذكرنا مذهب الأئمة، وإجماعهم على أن الاستفهام فى الآية للتقرير، وأن (أم) منقطعة بمعنى: بل والهمزة:

بل للإضراب الانتقالى، والهمزة للتقرير والتقريع كما قال الإمام الزمخشرى، وأضاف غيره التوبيخ، ويعلم الله أننا لم نسترح لحمل الاستفهام هنا على التقرير، لأنه - فيما بدا لنا - لا يقتضيه المقام هذه واحدة.

---

(١) لم نذكر الآية رقم [١٧] لسبق دراسة نظيرتها فى سورة الأحزاب رقم [٦٣] توخياً للإيجاز.

(٢) الكشاف (٣/ ٤٦٦)، أبو السعود (٨/ ٢٩)، روح المعانى (٢٥/ ٢٨)، البحر المحيط (٧/ ٥١٤)، التحرير والتنوير (٢٥/ ٧٦).

والثانية: إن مجئ همزة (أم) للتقرير فيما نعلم فيه بُعد، نعم الهمزة الصريحة التى لها صورة لفظية واقعية فى الكلام يكثر مجيؤها للتقرير فى الإثبات والنفى معاً.

فمثال الأول أن تـقول لمن أسديت إليه معروفـاً: أأحسنتُ إليك. تقرره بما صنعت معه من عمل الخير.

ومثال الثانى قوله عز وجل لرسوله الكريم: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

أما الهمزة التى تتضمنها (أم) فإن استعمالها فى التقرير - إن لم يكن غير معهود - فإن الذوق البلاغى ينبـو عنه فيما نرى، ولهذا فإننا - مع إدراكنا لغـرابة الخروج عما يراه الأئمة - نُبدى فى هذا الاسـتفهام رأياً آخر، وهو أنه اسـتفهام إنكار لا اسـتـفهام تقرير، والإنكار فيه لـيس مسلطاً على (شركاء) لأن القوم لهم شركـاء فعلاً يدعونهم آلهة من دون الله.

بل إن الإنكار مسلط على القيد أو الوصف، وهو ﴿**شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله**﴾ لأن شركاءهم هم الأصنام.

ولو كان الاستـفهام فى الآية للتقرير لدل عليه الـنظم الحكيم بـ(بل) الصريحة دون استعمال (أم) ولقيل:

بل لهم شركاء، كمـا جاء فى مواضع كثيرة فى القرآن الحكـيم، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر:

﴿وقالوا أألهتنا خير أم هو، ما ضربوه لك إلا جدلاً، بل هم قوم خصمون﴾ [الزخرف: ٥٨].

حيث لم يقل: أم هم قوم خصمون.

والسر البيـانى فى هذا الإنكار هو شدة التشنيع على المشركـين، واتباعهم أهواءهم وابتداعهم من عند أنفسهم بدعاً لم يكن لهم فيها سند، أى سند من آية جهة ما.

ويجوز أن يكون الإنكار مسلطاً على الموصوف والصفة معاً، بأن يراد من (شركاء) شركـاء آخرون لهم مذهب صحـيح فى الحياة، فـيكون المنفى على هذا المقيد والقـيد معاً، كما فى قوله تعالى فى شأن هؤلاء المشركين الذين تتحدث عنهم هذه الآية:

﴿أم لهم سُلَّمٌ يستمعون فيه، فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾ [الطور: ٣٨].

هذا الذى أثبتناه إنما كان بعد تفكير طويل، ثم شُرِح صدرنا له، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كانت الأخرى فشفيعنا الإخلاص، ووسيلتنا الاجتهاد فى فهم كتاب الله، والسعى - دائماً - نحو ما يليق بنظمه الحكيم وبلاغته العالية.

* **﴿ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم﴾** إضافة (**كلمة**) إلى (**الفصل**) من إضافة الموصوف إلى صفته: أى: لولا الكلمة الفاصلة، وهى كناية عن تأجيل الفصل فى ما اكتسبه العباد إلى يوم القيامة.

* **﴿وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾** استئناف مسوق لبيان عاقبة الظالمين الذين تتحدث عنهم السورة. وتوكيد الخبر للإيذان بتحقق وقوع هذا الوعيد، وتنكير (**عذاب**) للتهويل بدلالة المقام.

* * *

**٣ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً، فَإِنَ يَشأ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ، وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحقَّ بِكَلِمَاتِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** [الشورى: ٢٤].

**الدراسة والتحليل:**

تحدى المشركين لرسول الله ﷺ كان عنيفاً، وكانوا لا يكفون أذاهم عنه، وبخاصة فى إلحاق النقائص به - فى زعمهم - ومن أسلحتهم فى صد الناس عنه أنهم كانوا يتهمونه بافتراء الكذب على الله، ليزهدوا الناس فيما جاء به من عند الله، والرسول ﷺ ما كان يحامى عن نفسه، بل كان الله - عز وجل - هو الذى يرد عليهم، ويدحض باطلهم.

ومن محاماة الله عن رسوله الكريم هذه الآية التى تدحض اتهامهم إياه بافتراء الكذب على الله، ويضع أمارة صدقه أمام أسماعهم وأبصارهم، إذ لو كان رسوله قد افترى على الله كذباً لختم الله على قلبه كما ختم على قلوب الكافرين، ولمحا الله الباطل الذى افتراه، ونصر حقه، لكن محمداً ﷺ لم يفتر - ولن يفترى - على الله كذباً فظل محفوفاً برعاية الله بعد أن اتهموه بافتراء الكذب كما كان محفوفاً برعاية الله

قبل أن يتهموه بافتراء الكذب على الله، وهذا هو دليل براءته مما رموه به.

وقد بدأ الله محاماته عن نبيه الكريم بهذا الاستفهام: **﴿أم يقولون افترى على الله كذباً..﴾**؟

وفيه يقول الإمام الزمخشرى: (أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها التوبيخ، كأنه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذى هو أعظم الفِرى وأفحشها[1]).

وتناقل المفسرون عبارة الزمخشرى هذه وأجمعوا على أن الاستفهام إنكارى توبيخى، على معنى أن من كان مثل محمد ﷺ فمحال أن ينسبه أحد إلى الكذب عموماً، ثم إلى الكذب على الله خصوصاً ويكون صادقاً فى هذه النسبة.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

من منهج البيان القرآنى المزج والتداخل بين الأقوال ثم العودة إلى مواصلة الحديث عن فكرة كان قد قطع الحديث عنها بإيراد حديث آخر اقتضاه المقام، وهذا واضح كل الوضوح هنا.

فقوله تعالى: **﴿أم يقولون افترى على الله كذبا..﴾** عائد على مشركى مكة الذين تحدثت عنهم السورة من قبل، وكان آخر حديث فيها عنهم هو قوله تعالى: **﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله..﴾** ثم صُرِف القول عنهم بالحديث عن المؤمنين:

**﴿.. والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات..﴾** ثم استكملت السورة الحديث عنهم إلى قوله تعالى: **﴿إن الله غفور شكور﴾**.

ثم عاد لمواصلة الحديث عنهم بعد بيان ما أعده لعباده الصالحين فتساءل النظم منكراً ومستبعداً نسبة الكذب على الله التى رددها أولئك الحاقدون، لا لمجرد أنها مقولة قد صدرت عنهم ضده، بل ليثبت براهين براءته منها بسلامة حاله من غضب الله وإنزال العقاب به، ولو كان كما زعموا لأخذ الله منه باليمين، ثم لقطع منه

(١) الكشاف (٣/ ٤٦٨).

الوتين، كما ورد فى موضع آخر، وقد صور النظم شناعة اتهامهم إياه، يقول الحق:

* ﴿أفترى على الله كذباً﴾ أى اختلق كذباً من عند نفسه ونسبه إلى الله، يعنى أنه لم ينسب إلى الله ما افتراه عليه غيره، فيكون له فيه عذر، بل هو الذى اختلق هذا الكذب ثم نسبه إلى الله، لأن الذى يختلق الكذب أشنع حالاً ممن يردده ولم يختلقه هو، والذى يردد الكذب قد يكون له عذر يدافع به عن نفسه، كأن يقول: لم أعلم أن الذى رددته كذب.

أما المختلق فلا عذر له، إلى هذه الدرجة أساء المشركون إلى الصادق المصدوق ﷺ، فبرأه الله.

* ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ التفات من الحديث عن المشركين إلي الحديث مع النبى ﷺ، وفى هذا الخطاب بيان لقدرة الله على الانتقام لو كان ما قاله المشركون صواباً، وبقاء النبى على حاله كناية بديعة عن براءته مما رموه به.

وتعليق الشرط بـ(إن) إشعار بانتفاء مشيئة الله الختم على قلب رسوله الكريم، لما في (إن) من جواز تخلف الجزاء عن الشرط.

* ﴿ويمحُ الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾ الواو حالية أو هى للاستئناف، وليست عاطفة على الشرط، وإن كان حذف الواو (لام الفعل) يوهم ذلك العطف، وإنما المراد بيان أن شأن الله تعالى هو محو الباطل وإحقاق الحق، وهو حذف كثير الورود فى القرآن فى أواخر الكلمات، وبخاصة فى الأفعال المعتلة بالنقص (لامها حرف علة) والأسماء المنقوصة.

**مثال الأول: (والليل إذا يسير)** فقد حذف الياء واجتزئ عنه بالكسرة.

**ومثال الثانى: (الكبير المتعال)** فقد حذف الياء من اسم الفاعل واجتزئ عنه بالكسرة.

وفى الآية حذف الواو لغير علة نحوية أو صرفية، واجتزئ عنها بالضمة، وصفوة القول: أن حذف الواو - هنا - ليس علامة إعراب، ولا اقتضته علة صرفية، وإنما جرى على سنة نظمية مطردة فى أمثاله فى مواضع كثيرة من دواعيها المبدأ العام وهو

تيسـير النطق، ومن يقل - هنا - إن حـذف الواو فى (يمحُ) لفظاً مع ملاحظتـه معنى كان من أجل إجراء الأفعال الأربعة:

(يشأ - يخـتم - يمحُ - يحق) وكأنها جـميعاً مـعربة بالحركـات الظاهرة كان على شعبة من الصواب.

وأياً كان الأمر فإن عطف (يمحُ) على الشرط قبله مسـتحيل؛ لأنه يترتب عليه فساد المعنى، بيان ذلك أنك لو عطفته علـى الشرط لكان المعنى أن الله إن يشأ يمح الباطل، وإن يشأ يـحق الحق، ويترتب على هذا مـحظور هو: أن الله يسمح للـباطل بالبـقاء والظفر إلا إن شاء محـوه فيمحوه، وأن الله يهمل الحق فـلا ينصره إلا إن شاء نصره فينصره.

وهذان المعنيان فاسدان كما ترى، وفساد المعنى هنا قرينة امتناع العطف.

* وبـين (**يمح**) و(**يحق**) طباق إيجـابى اقتضـاه المقام فإذا ضـممت إليهـما: (**الباطل**) و(**الحق**) كان مقابلة بين اثنين واثنين.

* (**بكلماته**) تحتـمل معنيين: إما آياته الداحضـة للباطل وإما سننه فى الحـياة كتدمـير الطغاة وتخريب دورهم.

* ﴿**إنه عليم بذات الصـدور**﴾ تذييل مؤكـد لمعنى الكلام قبله، وتوكيد الخـبر لأنه من الحقائق العظيمة.

* * *

٤ - ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَـمَا لَهُ مِن وَلِىٍّ مِّـن بَعْدِهِ، وَتَرَى الظَّالِمينَ لَمَّـا رَأَوُاْ الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

**الدراسة والتحليل:**

هذه الآية من الآية المسليـات للنبى ﷺ وتذكير له بعـد تذكيـر حتى لا يستـبد به الأسى من فـرط عناد قومه وتمـاديهم فى الضلال، ومـقابلة إحـسانه إليهـم بالإساءة وإشعار بأنهم لما لم يريدوا الهداية أمد الله لهم فى الضـلال جزاء على رفضهم الهدى واتباعهم الشيطان.

ثم سلاَّه وعزاه بالإشارة إلى ندمهم على ما بدر منهم حينما يرون العذاب، ويتمنون لو أعيدوا إلى الحياة الدنيا ليؤمنوا ويعملوا الصالحات جزعاً مما هم فيه.

وقد جاء فى جملة الفاصلة هذا الاستفهام: ﴿**هل إلى مردٍّ من سبيل**﴾.

وهو استفهام مجازى المراد منه - باتفاق - التمنى ويردف على هذا المعنى معنيان ثانيان، وهما: التندم على ما فات، والفزع مما هم فيه.

وهذه خلاصة أمينة لما يقال فى هذا الاستفهام.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده**﴾ إيثار المضارع (**يضلل**) على الماضى: أضل ليعم الحكم كل الأوقات، ولدفع توهم أن هذه السنة الإلهية خاصة بالماضى، وإضافة الإضلال إلى الله عن طريق (الفاعلية) لتهويل شأنه وتفظيعه.
* و(**من**) فى قوله تعالى: ﴿**من ولى**﴾ لاستغراق النفى وشموله كل أفراد المنفى (الأولياء) و(**من**) فى (**من بعده**) لابتداء الغاية، وهى معنوية، كناية عن تخلى الله عنه.
* ﴿**وترى الظالمين**﴾ الرؤية بصرية، وإيثار المضارع لما أن الرؤية ستكون يوم القيامة، والمراد من (الظالمين) الكفرة الفجرة منكرو الرسالات السماوية والحياة الآخرة، وعبدة الأصنام من دون الله، وإيثار وصفهم بالظالمين - هنا - لأنه أبين فى استحقاقهم العذاب.
* ﴿**لما رأوا العذاب**﴾ جئ بالفعل - هنا - ماضياً (**رأوا**) وخولف بينه وبين الأول (**ترى**) لأن الأول أريد به الاستقبال مع تمثيل الصورة وكأنها تقع حال الخطاب، أما الثانى فجئ به ماضياً إشارة إلى تحقق وقوع هذه الرؤية، تأكيداً للوعيد الشديد الذى توعد الله به الظالمين، (**يقولون**) خولف بينه وبين (رأوا) فى المضارعية والماضوية، لأن (**يقولون**) أريد منه الاستقبال مع تمثيل ما سيقع كأنه واقع الأن تراه الأبصار، وللإشارة إلى أن هذا القول يتكرر منهم كثيراً، وفى هذا كناية لطيفة عن خيبة رجائهم وعدم الاستجابة لهم فى قولهم.

* ﴿**هل إلى مرد من سبيل**﴾؟ أى: هل إلى الخروج من النار والعودة إلى الحياة الدنيا من أية وسيلة أو فرصة تتاح لنا؟ والاستفهام - كما تقدم - للتمنى والتندم وشدة الجزع مما هم فيه.

وإيثار (**هل**) توهماً منهم للطمع فى الاستجابة لهم، وتنكير مرد وسبيل للتحقير، أى: أى مرد من أى سبيل، وفى العبارة كناية عن شدة ضيقهم بما يعانون من العذاب.

* * *

# سورة الزخرف

١ - ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُم الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٥].

**الدراسة والتحليل:**

الزخرف من السور المكية باتفاق، نزلت بعد سورة (فُصلت) وقبل سورة (الدخان)، وكان ترتيبها النزولى الثانية والستين، وموضوعاتها موضوعات القرآن المكى. ولذلك فإنها شرعت فى الحديث عن مشركى مكة بعد أربع آيات فى أولها كانت ثناء على القرآن ومنزلته عند الله وقد شرعت فى الحديث عنهم بهذه الآية التى أثبتناها فى أول هذا المبحث، والتى صُدِّرت بهذا الاستفهام:

**﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا..﴾**.

ومعنى الآية إجمالاً: أنمسك عنكم القرآن ولا نلزمكم به من أجل أنكم قوم مسرفون.

ومعنى الاستفهام الإنكار، وقد قال فيه الزمخشرى:

**﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا﴾** بمعنى أفننحى عنكم الذكر ونذوده (يعنى ندفعه) عنكم، على سبيل المجاز من قولهم - أى قول العرب -: ضَرَبَ الغرائب عن الحوض[1].

ثم يقول: (والفاء - يعنى فى (أفنضرب) للعطف على محذوف تقديره: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر. إنكار؛ لأن يكون الأمر على خلاف ما قدَّم من إنزال الكتاب يعنى القرآن[2]. . . عربيا ليعقلوه ويعملوا بموجبه)[3].

---

(١) يعنى أن ساقى الإبل إذا رأى إبلا غريبة- تزاحم إبله هو فإنه يضربها ويدفعها عن الحوض ليخلو لإبله.

(٢) مكان النقط كلمة اعتزالية لم نذكرها وهى (وخلقه) أى خلق القرآن عربيا. وهذا جَرْىٌ على مذهب المعتزلة. وقد أبطل هذا القول المحققون من علماء الأمة.

(٣) الكشاف: (٣/٤٧٨).

ونرى الزمخشرى - هنا - يخرج التركيب الاستفهامى على مذهبه المعروف من جَعْل الهمزة قارة فى مكانها غير مقدمة من تأخير - كما قال الجمهور - ثم قدر المعطوف عليه المحذوف على النحو الذى تقدم.

وقد ردد الأئمة من بعده هذه العبارة وحملوا الاستفهام على الإنكار كما حمله هو.

**والخلاصة:** أن هذا الاستفهام للإنكار سواء أجرينا فيه مذهب الزمخشرى أو مذهب الجمهور. كما سيأتى فى مبحث:

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا﴾** هذا الاستفهام إنكارى وقد تقدم وجه الإنكار فيه على مذهب الزمخشرى أما على مذهب الجمهور القاضى بأن الهمزة مقدمة من تأخير، وأن الأصل:

(**فـ.. أنضرب عنكم..**) فإن الهمزة دخلت على الفعل (نضرب) المستفهم عنه دخولاً مباشرا، لأنه لم يفصل بينها وبين الفعل أداة نفى. فنفت هى الفعل. وتحقق على هذا الإنكار فاستوى فى إفادة الإنكار المذهبان، أما لو كان بينها وبين الفعل أداة نفى فإن الاستفهام يكون تقريراً.

وعلى ما ذكره الإمام الزمخشرى فإن فى (**نضرب**) استعارة تصريحية تبعية، حيث شُبِّه عزل القرآن عنهم بعزل غرائب الإبل عن الحوض، والجامع بين الطرفين هو المنع أو الحرمان؛ لأن الإبل المعزولة عن الحوض تُحرم من السقى، والناس إذا عزلوا أو عُزِل عنهم الذكر (القرآن) حُرِموا من سماع الحق.

أما (**صفحا**) فقد فسرها الإمام تفسيرين:

**أحدهما:** أن يكون بمعنى الإعراض، أى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضا عنكم. وعلى هذا يكون فى العبارة كناية عن الاعراض.

**والثانى:** أن يكون من نظر إليه بصفح وجهه -أى جانب وجهه- وعلى هذا يكون

فى العبارة كناية عن الإهمال وفى إطلاق (الذكر) على القرآن، وهو من أسمائه، إشعار بأن الله أنزله لِيُذْكَرَ ويُعْمَلَ به، لا لينسى قولاً وعملاً. وهذان هما علتا تسمية القرآن ذكرا وهما:

* حضوره فى الأذهان والقلوب.

* وجوب العمل به فى حدود الطاقة.

* ﴿أن كنتم قوما مسرفين﴾ أى: لأن كنتم.. والجملة هى علة إمساك القرآن عنهم، أى أفننحى القرآن عنكم لا لسبب من الأسباب إلا لسبب كونكم مسرفين فى الكفر والعناد. وهذا التعليل مسوق للتهكم عليهم والسخرية منهم.

* * *

٢ - ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٦][1].

**الدراسة والتحليل:**

من بدع المشركين أنهم قسموا الخلق - كما تقدم - قسمين، قسما أعلى، وهم الذكور، وقسما أدنى، وهم البنات ثم جعلوا القسم الأعلى لهم. وجعلوا القسم الأدنى لله جل شأنه.

وهذه البدعة هى المعروضة فى هذه الآية:

**﴿أم اتخذ مما يخلق بنات..﴾؟**

والاستفهام فى الآية إنكارى عند جميع الأئمة؛ لأن ما ادعاه المشركون أشدَ وَهْماً من الوهم. وهذه خلاصة ما يقال فى المراد من الاستفهام هنا.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (أم اتخذ) أم منقطعة للإضراب الإبطالى من جعلهم لله من عباده جزءًا وتوبيخهم عليه، إلى توكيد التوبيخ بجعل البنات لله، والبنين لهم، والهمزة لإنكار زعمهم هذا.

---

(١) تجاوزنا الآية السادسة لأن (كم) فيها خبرية ليست استفهامية، وتجاوزنا الآية التاسعة، لأن لها نظائر درسناها من قبل [٦٣] العنكبوت، [٢٥] لقمان.

وتنكير (**بنات**) وتعريف البـنين للتشنيع عليـهم حيث كانوا يحـتقـرون البنات فدَّل التنكير على سوء سلوكهم، ويعظمون البنين فحقر النظم ما حقروا، وعظم ما عظموا حسب معتقدهم ليسجل عليهم شناعة قسمتهم حيث جعلوا لله ما حقروه. ولأنفسهم ما عظموه؟

* * *

٣ - ﴿ أَوَ مَن يُنَشَّؤُا فِى الحلْيَةِ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ١٨].

**الدراسة والتحليل:**

بعد أن أشـار النظم إلى التقسيم الـذى ابتدعه المشركـون مع استئثـارهم بالذكور، وترك البنات لله. وكان هذا التقسيم ذا مقبحتين:

* **الأولى:** أنه بدعة فى نفسه ابتدعها المشركون من عند أنفسهم.

* **الثانية:** نسبتهم ما يرونه حقيراً لله ونسبة العظيم إليهم، جاءت هذه الآية تنكر عليهم أن يكون الله قد أقر ذلك التـقسيم أصلاً، مع بيان سـبب آخر للإنكار هو أن الذى جعلوه لله لا يفارقه الضعف، ولا الضعف يفارقه.

ولهذا أطبق الأئمة على أن الاستفهام فى: ﴿**أو من ينشأ فى الحلية..**﴾ للإنكار، كما كان ﴿**أم اتخذ مما يخلق بنات**﴾ للإنكار.

أى: أنكر عليهم تقسيـمهم وتخصيصهم السابقين، ثم أنكر عليهم جـعلهم الحقيَر فى نظرهم نصيبًا لله.

والإنكار فى الأول مـردوف عليـه التكذيب. وفى الثـانى مـردوف عليـه التـوبيخ والتقريع.

والإنكار فى الأول مـسلط على الوقوع؛ **لأن الله** لم يتـخذ كـما زعمـوا مما يخلق بنات، بل جميع الخلق عبيده ومربوبوه.

أما فى الثانى ﴿**أو من ينشأ..**﴾ فالإنكار - حـسب ادعائهم - مـسلط على الواقع الذى لهجوا به زوراً وبهتانا، وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿أو من ينشأ فـى الحلية﴾** كناية بديعة عن الإناث، كناية عن مـوصوف. لأن الأنثى تُرَبَّى فى الزينة من يوم تولد وتظل تتقلب فيها فى جميع مراحل حياتها.

وإيثار ذكـر هذه الكناية التشـنيع عليهم، ورمـيهم بسوء السلـوك مع الله صاحب الفضل عليهم، وأنـهم يؤثرون أنفسهم عليه عز وجل فـيهضموا شـأنه ويعلوا شأنهم عليه فلو فُـرِضَ - جدلاً - واقعيـة هذا التخصيـص: البنات لله. والبنون لهم، فهم جائرون فى الـتقسـيم، فلماذا لم يعكسـوا ويجعلوا البنين لله والبنات لـهم؟ أهم أعز جانبا من الله عز وجل، حتى يكون لهم الأقوى وله الأضعف؟

ولولا ذكر هذه الكناية لفاتت هذه المعانى اللطيفة، التى لها دلالة قوية فى الإفحام والتخزية.

وإيثـار - حـرف - (فى) فى **(فى الحلية)** للعناية بتـصـوير الزينة التى تحظى بهـا الإناث. حتى لكأنها **(ظرف مكان)** والإناث هن المظروفات فيها.

ومن الأئمة من جعل من هذه العبارة استعارة مكنية، وجعل حرف الجر (فى) رمزا للمشبه به المحذوف.

* **﴿وهو فى الخصام غير مبين﴾** كناية أخرى عن الإناث، هذا باعتبار التركيب كله. أما **(غير مبين)** فهو كناية عن الضعف.

وليس بوجـهٍ أن يُخص هذا الضعف بالعـجز عن إظهـار الحجـة فى الخصـومات القـولية، بل إن حـمله على ضعـف المقاومـة الجسـدية أظهر. والأولى الحـمل على الضعف العام المشاهد فى الإناث.

* * *

٤ - ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

**الدراسة والتحليل:**

وهذه الآية تسجل عليهم صورة أخرى من كفرياتهم وجهلهم إنهم وصفوا الملائكة بأنهم إناث. وهذا افتراء محض لأن الملائكة غيب من غيوب الله، لا يطلع عليه أحد من خلقه وقد رد الله عليهم هذه الدعوى بأبلغ وجه وآكده، ثم هددهم على اجترائهم هذا كما سيأتى فى مبحث الأسرار.

والاستفهام فى قوله تعالى (**أشهدوا خلقهم**) للإنكار والتكذيب.

**وهذه خلاصة** ما قيل فيه عند أهل العلم، ومنهم - الزمخشرى - جعله للتهكم. ومعروف أن التهكم من المعانى الثانية التى تردف. ،والمقام لايأباه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا**﴾ الواو للعطف، والمعطوف عليه ما قبلها من افتراءاتهم واجتراءاتهم على الله من التقسيم المتقدم، التخصيص الظالم. وَجَعْل الملائكة إناثا من أشنع اجتراءاتهم وأكاذيبهم.

وإيثار الماضى (**جعلوا**) لزيادة التشنيع عليهم، بأن ذلك الجعل -على غرائبه- وقع منهم بالفعل على وجه اليقين.

* وقوله تعالى: ﴿**الذين هم عباد الرحمن**﴾ لبيان قبح جَعْلهم لأن التسمية بالأنثى عندهم يريدون بها التحقير - عموما - وكونهم يصفون الملائكة - وهم عباد الرحمن المكرمون - بأنهم إناث فهذا استخفاف منهم بالملائكة مع ما لهم من منزلة عالية عند الله.

وهذه الجملة ﴿**الذين هم عباد الرحمن**﴾ أشبه ما تكون بالاعتراض بين المفعولين. وسرها البلاغى ما قدمناه من بيان قبح الجعل المشار إليه.

ولو قيل: وجعلوا الملائكة إناثا. لفات هذا المعنى كما ترى.

* ﴿**أشهدوا خلقهم**﴾ هذا الاستفهام تقدم أنه للإنكار والتكذيب، ولكن لماذا آثر النظم

إنكار الشهادة وهى ليست طريقا أوحد فى حصول العلم. بل يشاركها فى ذلك السَّماع.

والجواب: أن نفى شهودهم خلق الملائكة المصحح لقولهم لو كانوا صادقين يستلزم نفى السماع أو الخبر الصادق لأنه لو كان فى هذا الادعاء خبر صادق لكان فى القرآن لا فى غيره.

والقرآن خلا من هذا الخبر، فلم يبق إلا الشهادة.

لذلك وجَّه النظم الإنكار عليها ليجرد دعواهم هذه من كل ما يستند إليه الخبر الصحيح.

* ﴿**ستكتب شهادتهم ويسألون**﴾ خبر مستعمل فى التهديد والوعيد. وتسمية ادعائهم شهادة للتهكم بهم.

وبناء الفعلين ﴿**ستكتب- ويسألون**﴾ لما لم يسم فاعله لأن الغرض حاصل بوقوع الفعل نفسه. دون التوقف على الفاعل.

* * *

٥ - ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٢١].

**الدراسة والتحليل:**

استطراد فى تكذيب المشركين، ودحض مدعياتهم، فبعد أن أنكر عليهم من قبل التقسيم لخلق الله وتخصيص بعضه لهم وبعضه لله، وأنكر عليهم وصفهم الملائكة بالأنوثة، كما ذكر بعد ذلك تبرير عبادتهم للملائكة بأن الله شاءها ولو لم يكن شاءها ما وقعت عبادتهم لها، بعد هذه الكفريات كلها عاد إلى تكذيبهم فى كل ما تقدم، وصدرت هذه الآية بهذا الاستفهام:

﴿**أم آتيناهم كتابا من قبله..**﴾؟ وهو استفهام إنكار وتكذيب، ومحاصرة لهم من كل جهة. والإنكار فيه وإن كان مسلطا على إيتائهم كتابا أقر الله لهم فيه بما كفروا به فإن هذا الإنكار مسلط على جميع ما ذكره النظم الحكيم منسوبا إليهم عن طريق الكناية. وتعرية دعاويهم من كل سند حسى أو نقلى أو عقلى يستندون فيه إلى صدق ما قالوا.

وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أم آتيناهم كتاباً من قبله**﴾: أم منقطعة، وبل فيها للإضراب الإبطالى من إبطال دعاويهم السابقة إلى إبطال أن يكون لهم أى سند على صحة ما يدعون من تبرير عبادتهم للملائكة بالجهل والجهالة، وهمزة أم لإنكار الوقوع، والمعنى: بل أآتيناهم كتاباً من قبل القرآن نسبنا فيه ما يقولون من أقوال الكفر إلينا.

أى لم نؤتهم أى كتاب من قبل القرآن، وإنما آتيناهم القرآن الذى لا يخلو مما يقولون فحسب، بل يكذبه وينكره كل الإنكار، ليس لهم من أدلة المعاينة والمشاهدة شئ ما.

وليس لهم من أدلة الخبر والسماع عن الوحى أى شئ. فهم مفترون مقلدون لآبائهم فى الجهل والجهالة واتباع الشيطان.

* وتنكير **(كتابا)** هنا لا للتقليل، ولا للتحقير، لأنهما وصفان لأمرين وجوديين، بل إن التنكير لما تقدم فى نظائره للانعدام، حيث لم يؤتهم الله كتابا قط شرع لهم فيه تلك الكفريات.

* ﴿**فهم به مستمسكون**﴾ الفاء للتفريع على ما تقدم وتقديم الجار والمجرور (به) للقصر، أى مستمسكون به لا بغيره.

وهذا الوصف: **(به مستمسكون)** وإن كان مثبتاً فى اللفظ، هو منفى فى المعنى، لأن **(كتابا)** وهو ما به يكون الاستمساك لا وجود له، فيلزم من عدم وجوده عدم وجود الاستمساك نفسه، وهى كناية لطيفة كما ترى على حد قولهم:

على لاَحِبٍ لا يهتدى لمناره: أى لا لا حب ولا اهتداء.

* * *

٦ - ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٤].

**الدراسة والتحليل:**

انتقل النظم الحكيم من الحديث عن مشركى عصر نزول القرآن إلى الحديث عن أسلافهم الأقدمين من الأمم التى كذبت الرسل.

ولم يكن هذا الانتقال طفريا، بل مُهِّد له بهذه الآية:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

كما مُهِّد لهذه الآية بالآية التى قبلها، وهى حديث عن مشركى عصر نزول القرآن:

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

والاستفهام الذى فى آية الدراسة:

**﴿أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾** هو استفهام إنكار وتجهيل. وفيه يقول الإمام الزمخشرى «أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم»[1].

ومعنى هذا الكلام أن الإمام يقرر أن الاستفهام هنا للإنكار وإن لم يصرِّح هو به.

ومن البديه أن الزمخشرى -هنا- خرَّج التركيب على مذهبه المعروف، الذى جوَّز فيه اعتبار الهمزة قارة فى موضعها غير مقدمة من تأخير، وأن مدخولها -وهو المعطوف عليه بالواو - هنا - محذوف، وقد قدَّره كما تقدم وسلَّط عليه الإنكار المفاد من الهمزة.

وتابعه الإمامان أبو السعود والألوسى[2]، مع تغيير يسير فى الألفاظ، إذ قال أبو السعود فى تقدير المحذوف «أتقتدون بآبائكم..»[3].

أما الإمام الطاهر فقد حمل الاستفهام على التقرير المشوب بالإنكار[4].

---

(١) الكشاف: (٣/ ٤٨٤). (٢، ٣) تفسير أبى السعود: (٨/ ٤٤)، وروح المعانى: (٢٥/ ٧٥).

(٤) التحرير والتنوير: (٢٢/ ١٩٠).

**والخلاصة**: أن هذا الاستفهام للإنكار ويردف عليه التجهيل. أما أن يكون للتقرير المشوب بالإنكار كما ادعى الإمام الطاهر فلا يساعد عليه المقام.

والإمام الطاهر - كما أشرنا من قبل - له غرائب كثيرة فى هذا الفن الاستفهامى بخاصة. والبلاغى بعامة.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**قال: أولو جئتكم..**﴾ إفراد فاعل (قال) هنا بعد قوله تعالى: ﴿**ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير**﴾ روعى فيه جانب اللفظ على جانب المعنى. لأن معنى ﴿**ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير**﴾ عام يشمل جميع الرسل الذين بعثوا قبل محمد ﷺ:

وأما كلمة (**نذير**) من حيث اللفظ فهى تدل على مفرد لا على جمع. فلما قال:

﴿**قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم**﴾ فأفرد فاعل قال (الضمير هو) مراعاة لجانب اللفظ ثم أريد منه ما يشمل نذير كل قرية من حيث المعنى؛ أى: قال نذير كل قرية لأهلها أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بأهدى مما وجدتموهم عليه؟

وهذا -كما ترى- من الإدماج البديع فى هذا النظم المعجز، ومن صور الإيجاز الدقيقة المسالك.

* (**بأهدى...**) أفعل التفضيل هذه ليست على بابها حتى يكون ما وجدوا عليه آباءهم هدى، وما جاء به الرسل أهدى. بل هو تليين فى الخطاب استمالة لقلوب المخاطبين. وإلا فإن ما كان عليه آباؤكم هو عين الضلال وفى ﴿**ما وجدتم عليه آباءكم**﴾ كناية عن موصوف، هو دين أسلافهم الوثنى أو المحرف.

* ﴿**قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون**﴾ فصلت جملة (قالوا) عما قبلها لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال، لأن الثانية جواب عن سؤال نشأ عن الأولى حاصله: ماذا قالوا؟ وفيه إدماج وإيجاز بديعان: أى أهل كل قرية قالوا لنذيرهم إنا بما أرسلت به كافرون.

* * *

٧ - ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

**الدراسة والتحليل:**

من يتتبع مسالك المشركين تجاه الدعوة - ولو من خلال حديث القرآن عنهم بأساليب الاستفهام - تبرز له صفة من صفاتهم الذميمة تسيطر على جُلِّ تصرفاتهم، وتندرج تحتها ألوان كثيرة من قبائحهم تلك الصفة هى:

الزج بأنفسهم فيما ليس لهم فيه شيء. وتطاولهم على شئون الخالق العظيم، وتدخلهم السافر فى خصوصيات الذات الإلهية العلية.

وقارىء هذه الدراسة إذا استحضر بذهنه المؤاخذات التى سُجِّلت عليهم من أول الدراسة إلى هذا الموضع، يجد أكثر ما أنكره الله عليهم تطاولهم وتدخلهم فى شئونه التى لم -ولن- يُشرك فيها أحدًا، لا مَلَكًا مقربا، ولا نبيا مرسلا، ولا وليا مكرما.

والحال هو الحال هنا، فقد ورد قبل هذه الآية قوله تعالى حاكيا عنهم حماقة من حماقاتهم:

**﴿وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾** [٣١].

لم يعجبهم إنزال الله القرآن على محمد ﷺ ولذلك اعترضوا على هذا التصرف الإلهى الحكيم. ووضعوا بإزائه اقتراحا لو كان قد تم لكان أفضل من إنزال القرآن على محمد؟

والمراد بالقريتين مكة والطائف. والمراد بعظيم كل قرية رجلان كانت لهما مكانة فى قوميهما، وغنى من المال، ووفرة من حظوظ الدنيا. فمقياس الفضل عندهم هو القوة المادية لا غير.

وقد اختلفت الرواية فى من هما الرجلان العظيمان اللذان كانا أحق من محمد ﷺ بالرسالة. وهو اختلاف لا يغير من حقيقة الأمر شيئا؛ لأن العبرة بالوصف لا

بالموصوف سواء كان عظيم مكة هو الوليد بن المغيرة، وعظيم الطائف هو حبيب بن عمرو أو كانا غيرهما.

ومعنى هذا أنهم ما كانوا يرون فى محمد ﷺ من صفات العظمة شيئا. فهو وإن كان من أعلى بيوتات العرب نسبا وحسبا وكرامة وشرفا، فإنه لم يكن من أصحاب الثروات ولا من رؤساء القبائل.

ويبدو أن هذا المقياس المادى الصرف الذى تقاس به عظمة الرجال تسرب إلى مشركى العرب من اليهود، الذين حكى عنهم القرآن من قبل من أن مؤهلات العظمة هى قوة الجسم وسعة الثروة المالية[1].

لذلك جاء الرد الحاسم عليهم فى الآية موضوع الدراسة التى صُدِّرت بهذا الاستفهام:

﴿**أهم يقسمون رحمة ربك..**﴾.

وفى هذا الاستفهام يقول الإمام جار الله الزمخشرى ﴿**أهم يقسمون رحمة ربك..**﴾: هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم وتحكمهم، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة، والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها، والمتولين لقسمة رحمة الله التى لا يتولاها إلا هو[2].

وسار على نهج الزمخشرى الأئمة من بعده[3].

**والخلاصة**: أن هذا الاستفهام لإنكار أن يكون لهم سلطان فى شئون الله وما هو من خصوصيات الذات الإلهية العلية وفيه توبيخ لهم على تطاولهم فى أمور لا تخضع لإرادة أحد سوى الله، وتعجيب من جهلهم. وتجهيل لهم بادعائهم دعوى ليست من مقدوراتهم.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أهم يقسمون رحمة ربك**﴾ إيلاء الضمير (هم) همزة الإنكار لأن الاستفهام مسوق

---

(١) سورة البقرة الآية: (٢٤٧).　　　(٢) الكشاف: (٣/ ٤٨٦).

(٣) أبو السعود: (٨/ ٤٦)، الألوسى: (٢٥/ ٧٨)، البحر المحيط: (٨/ ١٣)، التحرير والتنوير: (٢٥/ ٢٠٠).

لإنكار أن يكونوا هم المتولين تقسيم رحمة الله. وإيثـار المضارع ليشمل النفى جميع الأوقات والأحوال وفى (**رحمة**) مجاز مرسل، حيث أطلق الرحمة وأراد منها النبوة باستعمال المسبب فى السبب، لأن النبوة من أسباب استحقاق رحمة الله.

* وإضافة (**رحمة**) إلى (**رب**) من بين أسماء الله الحسنى لما فى كلمة (رب) من معانى الإحسان وكمال الرعاية.

وفى إضافة (**رب**) إلى ضميـر المخاطب ﷺ تعزية وتثبيت وإشعـار بأن الله معه، والمقام يقتضى هذا لأن المشركين اسـتعظموا أن يكون هو الذى أنزل عليه القرآن، ولـم ينزل على رجل آخر من عظماء العرب. فكان فى ذلك تعريض به منهم وانتقاص من قدره. فكَرَّمَهُ بإضافة (**رب**) إلى ضميره كما كرمه بالالتفات إليه ومخاطبته.

* ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا**﴾ استئناف مسوق لتوكيد الإنكار عليهم، وتعريض وتوبيخ لهم بأنهم عاجزون - كل العجز - عـما زجوا بأنفسهم فيه، وهو تعديـل مسار الحكمـة الإلهيـة وتقديم المسند إليـه، وهو (نحن) وبناء الفعل عـليه (قسمنا) وتكرار الإسناد حـيث أسند الفعل (قسمنا) إلى الضمـير العائد على المسند إليه (نحن) مرة.

ثم إسناد جملة الخبر برمتها (**قسمنا**) إلى المسند إليه (**نحن**) لقصر القَسْمِ على الله وتوكيده، لأن قوله تعالى: (**نحن قسمنا**) فى قوة: نحن قسمنا- قسمنا.

وفى هذا إفحام لهم بأن الله هو المتصرف فى أخص شـئون حياتهم وهم بمعزل عن امتلاك الأسباب التى يفاوت الله بها بين حظـوظهم فى الحياة الدنيا، من ذكاء وغباء، وقوة وضعـف وصحة ومرض، وعلم وجـهل. فإذا كانوا هم أعجـز ما يكونون عن تدبير أصول حياتهم فكيف يكون لهم قدرة على إدارة شئون السماء.

* وإيثار الماضى (قسمنا) لتحقق الوقوع وعدم تخلفه لأن هذا القَسْم سنة من سنن الله فى الحياة.

وفى ﴿**فى الحياة الدنيا**﴾ تتميم أفاد معنىً تم المعنى المراد بدونه.

فقوله تعالى: ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم**﴾ يعنى المعيشة المعهودة التى يعيشونها..

وبهذا تم المعنى، فجاء قـوله تعالى بعده ﴿**فى الحياة الدنيا**﴾ تتميما بتقرير ذلك المعنى وتوكيده ولو لم يَرِدْ لكان المعنى سائغاً.

* ﴿**ورفعنا بعضـهم فوق بعض درجات**﴾ تمثيل للتفاوت بينـهم فى حظوظ الحياة الدنيا وأسباب الحـصول عليها وهى هيئـة معنوية معقـول، مُثِّلَتْ بصورة أو هيئة حـسية بتصـويرهم بالذين يعتلون درجـات مادية بعـضها فوق بعض. اعتناء بهـا وتقريرا لوضوحـها ووجه الشـبه، أو الجـامع بين طرفى الاستعـارة التمثـيلية هو التـفاوت والاختلاف فى الأوضاع فى كل منهما وتنكير (**درجات**) للتكثير والتنويع.

* ﴿**ليتخـذ بعضهم بعضـا سخريا**﴾ اللاَّم تعليليـة، والجملـة تعليل لاختـلاف المواهب والاستعدادات فى العمل والكسب بين العباد.

والجملة -بـعد ذلك- كناية عن جَعْـل الناس محتـاجين لتبـادل المنافع بينهم على النسق المعروف فى الحيـاة. هذا يحتاج إلى ما عند ذاك وذاك يحـتاج إلى ما عند هذا ولو جعلهم الله طبقة واحدة لتوقفت الحـياة عن المسير ولما عمرت الأرض على النحو المطرد فى جميع المجتمعات.

وقد عبَّر عن هذا النظام الإلهى الحكيم أحد الشعراء فقال:

النـاس للـناس مـن بدوٍ وحـــــاضــــرةٍ
بَعْضٌ لبـــعض - وإن لم يشـعــروا - خـدمُ

* ﴿**ورحمت ربك خـير مما يجمـعون**﴾ استئنـاف مسوق لتباين الفـروق بين الإيمان وما اتصل به من قول أو عمل وبين زخارف الدنيا ولذائذها وقيمها الزائلة.

والسر البـلاغى للعدول عن الغيـبة إلى الخطاب فى (**ورحمت ربك**) لتكريم النبى ﷺ، ولإذهاب الهموم الناشئة من كفر قومه واحتقارهم إياه - عنه.

* وفى (**مما يجمعون**) كناية عن موصوف، هو الحياة الدنيا، لأنها زائلة. والإيمان باق. وثوابه عند الله عظيم.

* * *

٨ - ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ، أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ، وَمَن كَانَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزخرف: ٤٠].

**الدراسة والتحليل:**

حِرْصُ النبى ﷺ على هداية قومه كان سجية فيه تُغَالبه ولا يغلبها، على كثرة ما نبهه الله عليها، وحبب إليه تركها وأن يقتصر على البلاغ المبين. وهذه الآية واحدة من الآيات التى تصور حرصه، وتعاتبه عليه، والاستفهام فى الآية (**أَفأنت**..) استفهام إنكار عند جميع الأئمة: قدامى ومحدثين، وعند أهل الذكر من علماء البلاغة والبيان. وهذه **خلاصة** ما قيل فيه: إنَّه استفهام إنكار، ويردف عليه العتاب.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أفأنت**..﴾ الهمزة مقدمة من تأخير، والأصل: فأأنت. فالضمير (أنت) وَلِىَ همزة الاستفهام لأنه محط الإنكار والداعى البلاغى للإنكار هو تنزيل المخاطب لحرصه الشديد على هداية قومه - منزلة من يعتقد أنه قادر على هدايتهم فخوطب خطاب المنكر.

وفى الجملة قصر عن طريق تقديم المسند إليه على خبره الفعلى وهو قصر إفراد لا قصر قلب كما فهم الإمام الطاهر بن عاشور[1].

وهذا سهو ظاهر من الإمام الطاهر، لأن قصر القلب يخاطب به من أعتقد العكس. ولو جُورى الإمام الطاهر على أن القصر - هنا - قصر قلب للزم منه أن النبى ﷺ كان يعتقد أنه هو وحده القادر على هداية العباد، وليس هو مع الله، ولا الله وحده وهذا خلل فاحش فى المعنى. لذلك يستحيل مجاراة الإمام الطاهر عليه.

والإمام الطاهر - كما قلنا من قبل - له - أحيانا - غرائب كثيرة فى (تكييف) الفنون البلاغية. ومن أخطرها وأغربها ما ورد فى هذا الاستفهام.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٥/ ٢١٦).

والحق أن القصر - هنا - قصر إفراد - وهو كما نعلم - بخاطب به معتقد الشركة. وهذا سائغ ولا حظر فيه لأن الرسول - لحرصه الشديد على هداية الناس، نزل منزلة من يعتقد أنه قادر - مع الله عز وجل - وليس وحده، قادر على هداية الناس.

فجاء هذا الاستفهام الذى قرَّر تَفَرُّدَ الله - وحده - بالقدرة على الهداية.

* ﴿**تسمع الصم أو تهدى العمى**﴾ فى الصم والعمى استعارتان تصريحيتان أصليتان لإعراض المشركين عن الهدى فشبهوا بالعُمْى والصُّم فى عدم الإدراك.

* أما قوله تعالى: ﴿**ومن كان فى ضلال مبين**﴾ فمن عطف العام على الخاص، لأن الإنغماس فى الضلال أعم معنى من الصم والعمى. وقد تقدم أن ﴿**فى ضلال مبين**﴾ استعارة مكنية والجمع بين الصم والبكم مراعاة نظير.

* * *

٩ - ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

**الدراسة والتحليل :**

موضوع هذه الآية محاصرة عقيدة الشرك والوثنية من بداية التاريخ النبوى إلى الرسالة الخاتمة. والنفى القاطع لأن يكون إذن بها من الله، ولو كان بها إذن من الله لجاء هذا الإذن على لسان الرسل وهم الأمناء على وحى الله والمبلغون عن ربهم.

لذلك فإن الله تعالى يحيل النظر إلى واقعية الرسالات قبل الإسلام، ليُنظرَ فيها هل ثبت عن رسول ما من الرسل أنه أخبر قومه أن يعبدوا من دون الله أو مع الله آلهة غير الله عز وجل.

وقد استُشكل أن يوجه رسول الله ﷺ سؤالا ما للرسل ولم يكن منهم رسول حيا وقت بعثته، وأجاب المفسرون لإزالة هذا الإشكال إجابات متباينة أقواها فى نظرنا أن السؤال المأمور به - هنا - هو النظر فى الوحى الحق المنزل إليهم من عند الله. وسنزيد هذا توضيحا فى مبحث الأسرار والبلاغيات.

أما الاستفهام فى ﴿أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ فهو استفهام إنكار عند جميع الأئمة. والإنكار فيه مسلط على الوقوع، بمعنى أن ذلك لم يقع من الله قط ويردف على هذا الإنكار تكذيب من أدعى أن الله أذن لأحد ما أن يعبد آلهة من دونه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا**﴾: أشرنا فى مبحث الدراسة إلى ملاحظة إشكال فى أمر الله رسوله أن يسأل الرسل الذين أرسلهم الله من قبله، وكان آخر رسول مات منهم أو انتهى وجوده هو عيسى عليه السلام، وبينه وبين رسالة محمد ﷺ ستة قرون طوال من الزمن، فكيف أمر الله رسوله محمدًا أن يسألهم جميعا، وفى الإجابة على هذا الإشكال وردت الصور الآتية:

* بعضهم قال: إن المراد هم أمم الرسل السابقين كاليهود والنصارى.

* وبعضهم قال إن الله جمعهم له ليلة الإسراء والمعراج فسألهم. وهذا من الضعف والسخف بمكان. ولا يخفى ما فيه من تكلف وما يترتب عليه من محاذير أبرزها أن الرسول كان محتاجا حقا إلى هذا السؤال. مع أن هذه العبارة مسوقة لتكذيب المشركين، ولا صلة لها بحال النبى ﷺ.

* وبعضهم قال إن العبارة تمثيل لنفى الاذن بعقيدة الشرك والوثنية. وأن السوال لم تُرد حقيقته بل هو مجاز عن النظر والفحص فى الأخبار الباقية والآثار السارية: والروايات الجارية عن سيرة الرسل وما قالوه لأقوامهم وهى تخلو تماما من إذن بعبادة غير الله عز وجل. وفى ذلك يقول الإمام الزمخشرى رحمه الله: (والسؤال الواقع مجازًا عن النظر، حيث لا يصح السؤال على الحقيقة.. ومنه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال. وقول من قال: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك. فإنها إن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا)[1].

يريد الإمام أن يقرر هنا مجازية السؤال المأمور به وأن له نظائر فى اللسان العربى

(١) الكشاف (٣/ ٤٩٠).

الفصيح. لذلك فإن أقوى محامل التـأويل للسؤال هو ما قال فيه: (ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته ولكنه مجاز عن النظر فى أديانهم، والفحص عن مللهم هل جاءت عـبادة الأوثان قط فى ملة من ملل الأنبـياء وكفـاه نظرًا وفحـصا نظره فى كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه. وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا. وهذه الآية فى نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها)[١].

لقد أجاب الإمام جار الله فأقنع وأمتع وأحـسن. وصار قوله هذا قول جهيزة التى قطعت قـول كل خطيب[٢]. أو قـول (حـزام) فى المثل العـربى الذى ورد فى قـول الشاعر:

إذا قالـت حــزام فصدقوهــا فإن القــول مــا قالــت حــزام[٣]

والعجب - كل العجب - من الإمام الألوسى الذى بدأ بذكر آراء ضعيفة لا تسمن ولا تغنى من جوع، ثم أشـار إلى ما قاله الإمام الزمـخشرى بعد تلـك الآراء فقال: (وجعل بعضهم السؤال مجازًا عن النظر والفحص)[٤].

وإنما كان قـول الإمام جـار الله قول جـهيـزة وحزام لأن السؤال الـذى أمر الله به رسوله الكريم ليس المقـصود به هو الرسول ﷺ حـتى يكون السؤال حقيـقة. بل هو سؤال سبق لأغراض بلاغية بالغة الأهمية، منها:

* تقرير وتوكيد أن يكون لعبادة آلهة من دون الله أصل أو سند أيا كان ذلك الأصل أو السند.

* التعريض بتبديع المشـركين جميعا سواء كانوا عبـدة أصنام أومؤلهى رسل، كاليهود الذين قالوا: إن (عزير) ابن الله، والنصارى الذين قالوا: إن عيسى ابن الله - تعالى الله عما يقول المشركون عُلوا كبيرًا.

* لفت الأنظار إلى أن كـتب الله التى أرسل بها رسله جـميـعا تخلو تمامـا من الإذن

---

(١) الكشاف (٣/ ٤٩٠).

(٢، ٣) مثلان كان العرب يضربونهما فى كل قول أصاب فيه قائله فى مقام يكثر فيه الخلاف. ثم يحسم الخلاف بما قيل.

(٤) روح المعانى (٢٥/ ٨٦).

بعبادة غير الله، حتى التوراة وملحقاتها من العهد القديم ليس فيها إشارة قط - مع تحريفها - تفيد أن الله أذن لرسول بأن يبلغ عنه السماح بعبادة الأوثان.

فهذا السؤال سؤال مجازى قطعا. وقرينة المجاز فيه هو أن المأمور بسؤاله هم الرسول الأقدمون. وهم لم يكن لأحد منهم وجود فى حياة الرسول الخاتم. وهذا صارف قوى يصرف الكلام عن ظاهره - وجوبا - إلى ما قرره الإمام جار الله الزمخشرى رحمه الله. ومعنى السؤال هو لفت الأنظار إلى تاريخ الرسالات السماوية التى أجمعت على عبادة الله وحده، وزخرت بالنهى عن عبادة غير الله.

والسر البلاغى فى استعارة السؤال للفت الأنظار إلى تاريخ الرسالات السماوية هو تعميق النظر فيها وتركيز الانتباه كحال السائل حين يسأل. فلله در الإمام جار الله، الذى أصاب المفصل فى ما قال.

أما من قال إن المراد هو سؤال أمم الرسل، أو علماء تلك الأمم، فهذا غير سديد؛ لأن اليهود والنصارى وهما الأمتان اللتان بقيتا من الأمم الكتابية لم يكونوا أهلا للافتاء لتحريفهم ما أنزل الله إليهم. ولا علماؤهم الذين ناصبوا الإسلام العداء ومكروا به كثيرا هم أهل لأن يسألهم الرسول الخاتم عن حق هو أملك له منهم.

وكل الأسئلة الشبيهة بهذا السؤال، كقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

فإن المراد بها غير الرسول ﷺ، وهى أسئلة مجازية قطعاً، ومحال أن يكون من أنزل الله عليه القرآن شاكا فى مصدره أو فى صدقه معانى وألفاظًا. وتوجيه الخطاب إلى (مُعين) والمقصود غيره أسلوب بيانى له أسرار لا تخفى على البلغاء.

بقى القول الذى ذهب إليه بعضهم، وهو أن الله جمع له الرسل ليلة الإسراء والمعراج فسألهم؟ هذا القول يجب رفضه بكل قوة وحسم. وذلك للأسباب الآتية:

**أولا**: اقتضاؤه أن السؤال المأمور به النبى حقيقى لا مجازى.

**ثانيًا**: اقتضاؤه أن الرسول ﷺ كان يجهل إن كان الله أذن بعبادة غيره أو لم يأذن،

وهلا سأل القائلون بهذا القول أنفسهم قبل أن يقولوا ما قالوا متى نزلت سورة الزخرف؟ وما هى السور التى نزلت قبلها؟ وماذا كان موقفها من عقيدة الشرك والوثنية وعبادة آلهة من دون الله؟

لقد نزل قبل سورة الزخرف إحدى وستون سورة، وفى عشرات منها حمل القرآن حملات قوية وكثيرة على عقيدة الشرك يكفى أن نذكر منها ما يأتى:

سورة (قل يا أيها الكافرون) وسورتا: (ق) و(ص) وسورة (الشعراء) وسورة (الأنبياء) كل هذه السور هاجم فيها القرآن عقيدة الشرك هجوما عنيفا متكرراً وفى سورة (الأنبياء) حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام وأحالها إلى كومة من الأحجار، وكذلك فى سورة (الصافات) أفبعد هذا كله يكون محمد ﷺ جاهلا بحكم عبادة غير الله، أأجازها الله أم منعها؟ ويظل جاهلا بهذا الحكم حتى يزول جهله بسؤال الرسل ليلة الإسراء والمعراج؟! إن فى هذا القول سوء فهم فاحش لمقاصد النظم القرآنى الحكيم، وإساءات شنيعة، لإمام الموحدين.

إن القائلين بهذا القول إنما أرادوا به أن يملؤا به ما تصوروه فراغا. وما هو بفراغ لو كانوا أحسنوا التفكير.

ثالثا: إن هذا القول - فوق ما تقدم - كان وليد خيال أو اجتهاد فاسد يخلو صاحبه من الأجر إن سلم من الإثم وليس له سند لا من العقل، ولا من النقل، وليس ببعيد أن يكون من دسائس اليهود المسماة بالإسرائيليات عند المحققين من علماء التفسير والحديث.

وبعد هذا نقرر - بكل حسم - أن القول الصحيح هو ما قاله الإمام الزمخشرى رحمه الله رحمة واسعة.

* **﴿أجعلنا من دون الرحمة آلهة يعبدون﴾**؟ أوثر الماضى **﴿جعلنا﴾** لأن المراد تقرير خلو الرسالات السابقة من السماح بعبادة غير الله. وليس معنى هذا أن السماح بها فى الحال والاستقبال محتمل. لأن نفى إباحتها حال كان القرآن ينزل، أن القرآن - حتى فى هذه الآية - ينكر إباحتها من قبل الله تعالى. بل ويستمر ذلك الإنكار، وأما نفى إباحتها فى المستقبل القريب والوسط والبعيد فلأن محمداً ﷺ

آخر رسل الله، والقرآن آخر الكتب السماوية. فإنكاره لعبادة غير الله قائم ومستمر حتى تقوم الساعة. ولا مبدل لكلمات الله.

وإيلاء الفعل ﴿**جعل**﴾ همزة الاستفهام الإنكارى لأن هذا الجعل هو محط الإنكار والنفى.

وإيثار ﴿**الرحمن**﴾ من بين أسماء الله الحسنى، لما فى هذا الاسم الجليل ﴿**الرحمن**﴾ من الدلالة على فيوضاته الرحيمة على عباده، التى بها يستحق أن يفرده عباده بالعبادة دون غيره مما لا يملك مثقال ذرة من نفع أو ضر.

* وتنكير ﴿**آلهة**﴾ للدلالة على الكثرة والتنوع والحقارة وفى إيثار المضارع ﴿**يعبدون**﴾ وبنائه لما لم يسم فاعله استحضار تلك الصورة وتقبيحها. ولأن هذا الفعل ينبغى ألا يكون له فى الوجود فاعل. فحذف الفاعل فى اللفظ رمز وإيحاء إلى حذفه فى الوجود. وينشأ عن هذا التعريض بعابديها جهلاً وجهالة.

* * *

١٠ - ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ، وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾؟ [الزخرف: ٥١].

**الدراسة والتحليل:**

ودَّع النظم الحكيم الحديث عن مشركى العرب، وشرع فى الحديث عن موسى وفرعون وملئه.

وفى هذه الآية تصوير لموقف من مواقف فرعون الجاهلة، فقد جاءهم موسى عليه السلام بالبينات فسخروا منه فأنزل بهم عذابا فجأروا بالدعوة إلى موسى أن يدعو ربه فيكشف عنهم العذاب، ووعدوه بالإيمان إذا كُشِفَ عنهم العذاب ولكنهم نكثوا وانقلبوا على أعقابهم.

فإذا بفرعون يشيع فى قومه نداء يقررهم فيه بملكيته لمصر، ويشير إلى النهر يجرى تحته، أو إلى (نافورات) صناعية يتدفق ماؤها أسفل قصره، ويُنكر على قومه تعاميهم عن ملكه الزاخر بالقوة والخيرات، وسعة السلطان، وقد ورد فى الآية استفهامان:

﴿أليس لى ملك مصر﴾؟ ﴿أفلا تبصرون﴾؟

وهذان الاستفهامان مرَّا بنا كثيرًا من قبل، وكدنا نحفظ ما قاله الأئمة، فيهما هنا، وفى ما تقدم من نظائرهما: فالأول ﴿أليس لى ملك مصر﴾؟ استفهام تقرير والثانى ﴿أفلا تبصرون﴾؟ استفهام إنكار وهذه خلاصة ما يقال فيهما هنا.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿ونادى فرعون فى قومه﴾** عُدِّى الفعل **﴿نادى﴾** بحرف الجر (فى) ولم يُعد بنفسه فيقول: ونادى فرعون قومه، للفرق العظيم بين التعديتين بلاغيا: فـ **(نادى فى قومه)** معناه أرسل منادين إلى قومه ينادون فيهم وهم فى إماكنهم ومحالهم ومنازلهم وأسواقهم يعنى: أعلمهم بأن له ملك مصر وأعلن لهم بإرسال منادين فيهم.

وأما لو قيل: نادى قومه فإن المعنى يكون طلب قدومهم وتجمعهم عنده. وفى كشاف الزمخشرى بيان مثل هذا الذى ذكرناه مع وضوح ما قلناه على ما فى الكشاف[1]، وخلو الجملة من حرف الجر (فى) يفيد أن فرعون نفسه هو الذى نادى وهذا غير مراد.

وفى إسناد النداء إلى فرعون مجاز عقلى علاقته هو السبب الآمر، لأن المنادِى هم أعوانه لما أمرهم بالنداء فى الناس.

* **﴿وهذه الأنهار تجرى من تحتى﴾** جمع الأنهار إما للمبالغة بجعل النهر الواحد أنهارًا، أو أن المقصود نهيرات فرعية كالترع، والقول بأن نهر النيل كان فى عهد فرعون أربعة أنهار لا دليل عليه.

والواو فى **﴿وهذه الأنهار﴾** لعطف الخاص على العام والمراد تعزيز مكانته وتعظيم سلطانه أمام الهزات العنيفة التى أَحدثتها رسالة موسى عليه السلام فى مصر وقتذاك.

* **﴿أفلا تبصرون﴾** أى: أعميتم فلا تبصرون. ينكر عليهم عدم وقوفهم على عظمة ملكه (مصر). ويحثهم على تحصيل ما أنكر عليهم غيابه عنهم.

* * *

---

(١) الكشاف (٣/ ٤٩٢).

١١ - ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢].

**الدراسة والتحليل :**

هذا من تتمة قول فرعون الذى أمر أعوانه أن ينادوا به فى الناس. والآية تحمل فكرتين:

* اغترار فرعون وإعجابه بنفسه. * تحقير موسى عليه السلام ورميه بالنقائص.

والاستفهام الذى فى صدر الآية:

**﴿أم أنا خير من هذا..﴾** استفهام تقرير وتثبيت لقومه وقد ساق فيه الإمام الزمخشرى كلاما جيدًا فقال:

**﴿أم أنا خيرٌ﴾**: أم هذه متصلة؛ لأن المعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؟ إلا أنه وضع قوله: **(أنا خير)** موضع **﴿تبصرون﴾**؛ لأنهم إذا قالوا له: أنت خَير فهم عنده بصراء وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب[1].

هذا الذى ذكره من اتصال (أم) هو الذى حمله على أن يقول إن فرعون وضع **(أنا خير)** موضع تبصرون وقال إن هذا من إطلاق السبب وإرادة المسبب، يعنى إذا أقروا له بالخيرية ترتب عليه أنهم بصراء عنده لذلك جعل الإمام **(أنت خير)** سببا فى وصف قومه بأنهم ذوو بصر وتمييز.

ثم قال: (ويجوز أن تكون منقطعة، على: بل أأنا خير، والهمزة للتقرير.. كأنه يقول: أثبت عندكم واستقر أنى أنا خير وهذه حالى)[2].

أما أبو السعود فقد جارى الزمخشرى، بيد أنه قدَّم حمل (أم) على الانقطاع على حملها على الاتصال، عكس ما صنع الإمام جارالله.

كما جوَّز أن يكون (أنا خير) من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب، وكان الزمخشرى قد قصره على وضع السبب موضع المسبب، أما المراد من الاستفهام على تقرير الانقطاع أو الاتصال فهو استفهام تقرير، وقد صرَّح به الإمام أبو السعود، كما

---

(١، ٢) الكشاف (٣/ ٤٩٢).

صرَّح به الإمام الزمخشرى من قبل[1].

أما الإمام الألوسى فقد أطال فى هذا الموضع، وأكثر من النقل عن السلف وكلامه كله يدور حول أصول المعانى التى طرقها الإمامان الزمخشرى وأبو السعود، ثم ذكر وجوها أخرى ولم يرتضها ومنها حمل هذا الاستفهام مع ما قبله ﴿**أفلا تبصرون**﴾ على الحذف المسمى احتباكا قال:

(وُجوِّز أن يكون فى الكلام طى على نهج الاحتباك، والمعنى: أهو خير منى فلا تبصرون ما ذكرتكم به أم أنا خير منه لأنكم تبصرونه) ثم عقب عليه قائلا: (ولا ينبغى الالتفات إليه)[2].

ودار الإمام أبو حيان فى المدار نفسه، وعزا القول باتصال أم إلى سيبويه. ويبدو أن الإمام الألوسى قد تأثر كثيراً بما ذكره الإمام أبو حيان، كما أبدى أبو حيان اعتراضا على تقدير المعادل عند الإمام الزمخشرى[3].

وجزم الإمام الطاهر بانقطاع (أم) ولم يذكر سواه قال:

(أم منقطعة بمعنى (بل) للاضراب الانتقالى، والتقدير بل أأنا خير، والاستفهام اللازم تقديره بعدها تقريرى، ومقصوده تصغير شأن موسى فى نفوسهم بأشياء هى عوارض ليست مؤثرة، انتقل من تعظيم نفسه إلى إظهار البون بينه وبين موسى)[4].

**والخلاصة**: أن هذا الاستفهام مجازى المراد منه التقرير والتثبيت، أى التقرير بعظمة شأنه وتحقير شأن موسى عليه السلام.

**أسرار النظم وبلاغياته :**

* ﴿**أم أنا خير من هذا..**﴾ ذكرنا فى مبحث الدراسة والتحليل ما قاله الأئمة فى (أم) حيث كادوا يجمعون على أنها للاستفهام، ثم تباينت وجهات نظرهم حول اتصالها وانقطاعها، وكثرت عباراتهم وتقديراتهم فى المعادل على القول بالاتصال، ولماذا وضع فرعون (**أنا خير**) موضع (**تبصرون**) وما المراد من الهمزة التى تضمنتها (أم)

---

(١) تفسير أبى السعود (٨/ ٥٠).

(٢) روح المعانى (٢٥/ ٩٠).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٢٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٣٠).

على تقدير الانقطاع، وكـان آخر من ذكرنا قوله منهم هو الإمـام الطاهر الذى قال فى التقدير:

(بل أأنا خير) ثم قال كمـا قال الأئمة قبله إن الاستفهام للتـقرير، يعنى أن فرعون يقرر قـومه بأنه خيـر من موسى عليه السـلام، بناء على ما ذكره من مظاهر عظمـته وملكيته لمصر وجرى الأنهار من تحته. ثم النقائص التى ألصقها بموسى عليه السلام.

هذا خلاصة ما ذكـروه. والسبب فيه أنهم مجمعـون على أن (أم) المنقطعة تفسر - دائما - بـ (بل) وهمـزة الاستفهـام. هذا ما وقفنا عليه فى هذه الدراسـة عند الأئمة المفسرين. آخـذين فى الاعتبار ما قاله النحـاة فى (أم) المنقطعة. ولذلك قدروا الكلام هنا:

(**بل أأنا خير**) وجـعلوه للتقـرير. وقـد أبدينا تحفظا مـن قبل على حـمل الكلام (الاستفهام) مع (أم) المنقطعة على التقرير. ووجدنا فيه منافاة للمقام ومجئ الهمزة - عمومـا - للتقرير يسوغ إذا كان المعنى المُقَـرَّر به فى الاستفهام قـائما بالمخاطب (اسم مفعول) كما فى قول إخوة يوسف ليوسف عليه السلام: ﴿**أئنك لأنت يوسف**﴾

[يوسف: ٩٠].

والمعنى المقـرر به هو كـون المخاطب بالاسـتـفهـام هو يوسف. وهذا المعنى قـائم بالمخاطَب لا بالمخاطِب أما إذا كان المعنى المستفهم عنه قائما بالمخاطِب كما قدروه هنا: بل أأنا خير. فحرى أن يكون الاستفهام معه للإنكار لا للتقرير. والذوق يشهد بذلك إذا جربناه.

ولهـذا نقل بعض الأئمـة عن السُّـدى وأبى عـبيـدة أن (أم ) فى الآية للإضـراب الانتقالى المجرد.

وأن همزة الاستفهام لا تقدر بعدها. واستشهدا بقول الشاعر:

بدت مثل قـرن الشمس فى رونق الـضحى

وصـــورتـهـــاأم أنت فـى العـــيـن أملح

فقد جاءت (أم) هنا لمجرد الإضراب الانتقالى، والمعنى: بل أنت أملح.

وقد حملت (أم) فى الآية موضوع الدراسة على هذا المعنى كذلك:

بل أنا خير، دون تقدير استفهام، وهذا ما تستريح إليه النفس، ويطمئن إليه القلب، ويرضى به الذوق ويغنى عن التكلف الذى رأيناه من قبل.

والنحاة أنفسهم لم يوجبوا تقدير الاستفهام - دائما - مع (أم) المنقطعة. ومما قالوه فى هذا:

(وقد لا تقتضيه - يعنى أم المنقطعة قد لا تقتضى الاستفهام - البتة نحو: **(أم هل تستوى الظلمات والنور)** أى بل هل تستوى الظلمات والنور، إذ لا يدخل استفهام على استفهام.

وقوله - أى الشاعر:

فليت سليمى فى المنام ضجيعتى

هنالك أم فى جنة أم جهنم[1]

وعراء (أم) عن الاستفهام - أعنى المنقطعة - هو مذهب الكوفيين. أما مذهب البصريين فهى عندهم تلازم - أبدًا - بل والهمزة. وقد رجح ابن هشام مذهب الكوفيين على مذهب البصريين، وذكر آيات أخرى دخلت فيها (أم) على أدوات استفهام صريحة، وهى:

﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾؟ [النمل: ٨٤].

﴿أم من هذا الذى هو جند لكم﴾ [الملك: ٢٠][2].

وقد حكى الدمامينى أن أهل البلدين (البصرة - الكوفة) متفقون على أن أم تجىء للإضراب المجرد وأن الخلاف بينهما لفظى.

وهذا ما نجزم به فى (أم) فى الآية موضوع الدراسة. ومما يؤكده أن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير.

* **﴿من هذا الذى هو مهين﴾** مبالغة فى ذم موسى وتحقيره عليه السلام من اللعين فرعون أخزاه الله وإيثار (هذا) للإشعار بالتحقير، وجعله **(هو مهين)** صلة للموصول

---

(١) حاشية الصبان على شرح الأشمونى (٣/ ١٠٤).

(٢) الشاهد هو دخول (أم) على أداة استفهام أخرى.

(**الذى**) كناية من اللعين عن أن موسى عليه السلام ليس له صفة يُعترف بها إلا صفة المهانة فى خياله المريض لعنه الله.

* ﴿**ولا يكاد يبين**﴾ إمَّا كناية عن وصف موسى عليه السلام بالبلادة والعجز عن إيراد الحجج المؤيدة لرسالته أو إلى أدعاء عيب فى نطقه. وهو منه براء.

* * *

١٢ - ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

**الدراسة والتحليل:**

اختلف العلماء فى سبب نزول هذه الآية على أقوال أقواها أن الله تعالى لما أنزل فى سورة الأنبياء قوله تعالى يخاطب المشركين:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّم﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال بعض المشركين لرسول الله ﷺ: أهذا لنا خاصة أم للأمم عامة؟ فقال عليه السلام: هو لكم خاصة وللأمم عامة - يعنى لكل عابد ومعبود من دون الله - ففرح المشركون وقالوا: إذا كان عيسى معبود النصارى فى النار فنحن نرضى أن نكون معه. وتصايحوا: لقد خصمنا محمدًا، يعنى غلبوه، لأنه يؤمن بعيسى ويأمر بالإيمان به.

فأنزل الله بعد هذا قوله الكريم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] فأفحموا واستحالت فرحتهم حسرة وغما والاستفهام فى الآية:

(**أآلهتنا خير أم هو**) استفهام تقرير، وأم فيه متصلة. والتقرير بالنظر إلى حال المخاطب ﷺ. ويردف على التقرير الاحتجاج والإفحام حسب زعمهم. وهذه خلاصة ما يقال فيه.

**أسرار النظم وبلاغياته :**

* ﴿**وقالوا أآلهتنا خير أم هو**﴾ الواو عطفت مقولتهم هذه على مقولاتهم السابقة، والاستفهام فى هذه الآية للتقرير بمعادل ما بعد الهمزة. وطرائق النظم فى مثل هذا الاستفهام أن يزاوج بين المعادلين فأحيانا يكون ما بعد الهمزة هو المقرر به أو المنكر

وأحيانا أخرى يكون العكس. وأحيانا يكون ما بعد الهمزة وأم منكرين. والذى فى هذه الآية أن المقرر به هو ما بعد (أم) وهو رسول الله عيسى عليه السلام.

أى أن عيسى عند محمد صلى الله عليهما وسلم خير من الأصنام التى كان المشركون عاكفين على عبادتها.

* ﴿**ما ضربوه لك إلا جدلاً**﴾ جملة قصرية. قصر فيه قولهم (**أآلهتنا خير أم هو**) وهو موصوف على صفة الجدلية. والاستثناء مفرغ من عموم المقاصد إلا مقصد الجدل، لأنهم يعلمون أن حكم عيسى غير حكم الأصنام.

* ﴿**بل هم قوم خصمون**﴾ ذم وتشنيع عليهم، بأنهم لا يريدون معرفة الحق من الباطل. بل ديدنهم هو اللجاج والجدل. وليس فى الآية (**إنكم وما تعبدون من دون الله**) صلة بعيسى ولا بالملائكة، لأن الخطاب لهم ولأن (ما) لغير العاقل. لكنهم تجاهلوا هذا وجادلوا، وفى (**خصمون**) وهو صيغة مبالغة ذم بعد ذم بحبهم الجدل الفارغ.

* * *

١٣ - ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً، وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٦].

**الدراسة والتحليل :**

بعد هذا التطواف مع المشركين وإسداء النصح لهم وضرب الأمثال وسوق القصص الزاجرة، التفتت السورة لتنذرهم أهوال الساعة ومفاجآتها عساهم أن يدركوا قيمة النذر ويثوبوا إلى الحق قبل فوات الأوان، وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام:

(**هل ينظرون إلا الساعة..**)؟

وهذا الاستفهام يجوز حمله على الإنكار باعتبار، وعلى التقرير باعتبار آخر:

فيكون للإنكار بمعنى لم يبق لهم شئ ينتظرونه إلا قيام الساعة بغتة. أى ينكر عليهم انتظار غيرها.

ويكون للتقرير بمعنى أن الأمر الوحيد الذى ينتظرونه أو ينتظرهم هو قيام الساعة.

وقد نص على الإنكار الإمامان الألوسى والطاهر بن عاشور[1].

**والخلاصة**: أن هذا الاستفـهام لما جاء على طريق النفى والاستـثناء جاز حمله على الإنكار بالنظر إلى النفى المفهوم من (**هل**) لأن المعنى: ما ينظرون. .

ويجوز حـمله على التقرير بالنظر إلى الاسـتثناء لأن ما بعد (إلا) مـثبت. ويردف على كل منهما الوعيد والتهديد، لتوفية كل نفس ما عملت فى ذلك اليوم العصيب.

**أسرار النظم وبلاغياته :**

* ﴿**هل ينظرون**﴾ استئناف مسوق لبـيان مصيرهم وسوء عاقبتهم لما اقـترفوه من كبائر الإثم. وفى مقدمتها الكفر بالله وتكذيب الرسل.

وإيثار (**هل**) لتحقق وقوع الساعة وهم فى غفلة عنها، فتبهتهم.

* وفى ﴿**ينظرون**﴾ استعـارة تصريحية تبعـية لـ (ينتظرون) وسرها تأكيـد تحقق وقوع الساعة حتى لكانهم ينظرون إليـها نظر العين فيهولهم ما يشاهدونـه فيها من وقائع تشيب لها الولدان.

* ﴿**أن تأتيهم بغتة**﴾ إسناد الإتيان إلى السـاعة مجاز عـقلى؛ لأن الله هو الذى يؤتيهم إياها. فالعلاقة المفعـولية وسره البلاغى تفخيم وتهويل شأن السـاعة، حتى لكأنها تسعى نحوهم سعيا حثيثا لتنتقم منهم غيظا وغضبا عليهم وفى ﴿**الساعة**﴾ كناية عن يوم القيامة كناية عن موصوف.

* ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ جملة حاليـة. أى تأتيهم الساعة فـجأة حالة كونهم مـشغولين عنها لا تخطر لهم على بال وقد وصف مجىء الساعـة - هنا - بوصفين فيهما من الشدة والهول ما فيهما، وهما:

* مجيؤها بدون مقدمات تنبىء عنها.

* غيابها عن مشاعرهم وذهولهم عنها كأنها لم يرد لها ذكر على أسماعهم أبدًا.

والبلاء إذا فـاجأ أهله ولـم يكن لهم فى الحسـبان كان وقعـه أليماً، وهوله كبـيراً، والإحساس قاتلاً.

* * *

---

(1) روح المعانى (٢٥/ ٩٧) والتحرير والتنوير (٢٥/ ٢٥١).

١٤ - ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، بَلَىَ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٧٩، ٨٠].

**الدراسة والتحليل:**

بعد أن تحدث النظم الحكيم عن أهل النار وما يلقون فيها من عذاب، عاد إلى الحديث عن مشركى العرب، وذكر جريمتين من جرائمهم.

**الأولى:** التآمر فى السر ضد رسول الله ﷺ، ومنه إصرارهم على قتله والتخلص منه.

**والثانية:** ظنهم - من جهلهم - أن الله لا يطلع على ما يدبرونه فى الخفاء من مكر ودهاء للقضاء على الدعوة ورسولها الكريم وقد جاء فى هذا قولاه عز وجل:

* **﴿أم أبرموا أمرًا..﴾؟**

* **﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾؟**

وقد جرى الأئمة على أن ﴿أم﴾ فى الموضعين منقطعة والهمزة المقدرة فيها بعد (بل) للاستفهام، ثم اختلفوا فمنهم من لم يُشر إلى المراد من الاستفهام، وهم الزمخشرى وأبو حيان والألوسى.

ومن أبدى رأيه فى المراد من الاستفهام فى الموضعين وهم أبو السعود، والطاهر كان لكل منهما رأى عكس رأى الآخر.

فأبو السعود قال إن الاستفهام للإنكار والاستبعاد، والطاهر قال إنه استفهام تقرير فى الموضعين(١).

**والخلاصة:** أن الأئمة الذين أبدوا رأيا فى المراد من الاستفهام لم يتفقوا على ما هو المراد منه:

فمنهم من حمله على الإنكار، ومنهم من حمله على التقرير، وسبب هذا الاختلاف عدم تمكن معنى الاستفهام فى هاتين الصورتين - فيما نفهم - فمن نظر إلى الواقع وهو الإبرام والحسبان ولم يرتضه سلوكا قال إن الاستفهام للإنكار.

---

(١) الكشاف (٣/ ٤٩٩) أبو السعود (٨/ ٥٥) روح المعانى (٢٥/ ١٠٢) البحر المحيط (٨/ ٢٨) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٦١).

ومن نظر إلى الواقع وحال المشركين وأنهم قد ينفون ما وصفهم به النظم، أو كانوا يتظاهرون بأنهم لم يبرموا ولم يحسبوا قال إن الاستفهام للتقرير.

والذى لاح لنا بقوة أن (أم) هنا فى الموضعين لمجرد العطف والإضراب. فليست هى استفهامية لا متصلة ولا منقطعة. والكلام معها محض خبر لا إنشاء. يثبت الله فيه أنهم أبرموا ودبروا فى الخفاء ما فيه كيد للدعوة ولرسولها الكريم وأتباعه المؤمنين. ثم هددهم على هذا المكر الذى أثبته صادراً منهم.

وأنهم فعلا من جهلهم وغبائهم حسبوا أن الله لا يطلع على ما يدبرونه فى الخفاء. ثم هددهم ورد عليهم وأثبت أنه يسمع ما يقولونه فى الخفاء وما يسرونه فى أنفسهم وأن رسله الكرام الكاتبين يسطرون فى صحائف أعمالهم كل صغير وكبير من أقوالهم وأفعالهم.

هذا ما نكاد نجزم به، ونراه أليق بدلالة المقام؛ لأن إثبات هذه الجرائم صادرة عنهم بطريق الخبر أبلغ وأظهر فى التشنيع عليهم ما لو كان التعبير عنها بطريق الاستفهام.

**أسرار النظم وبلاغياته :**

* **﴿أم أبرموا أمراً﴾** فى أبرم استعارة تصريحية تبعية، استعير فيها الإبرام، وهو فتل الحبل وإحكامه لمكرهم السوء وحرصهم عليه، استعارة محسوس مادى لمعقول معنوى. وسرها المبالغة فى تصوير شدة مكرهم وتدبيرهم وضع الخطط للصد عن سبيل الله وإيقاع الأذى برسوله الكريم وتابعيه الأولين. وتنكير (أمراً) للتهويل والتفظيع.

  وإيثار الماضى (أبرموا) لبيان شدة حرصهم على تنفيذ ما عزموا عليه.

* **(فإنّا مبرمون)** خبر مستعمل فى التهديد والوعيد. وقد أكدت الجملة بـ (إن + اسمية الجملة لبيان أن مكر الله أقوى من مكرهم، وكيده أسرع من كيدهم.

وجىء بالخبر اسما (**مبرمون**) للدلالة على رسوخ قدرة الله فى المجازات وإبطال كيد الذين كفروا.

وفى (أبرموا - مبرمون) مشاكلة، لفظية، تحقيقية حيث سُمِّى إبطال الله كيدهم إبراما لوقوعه فى صحبة (**أبرموا**).

* ﴿**أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم**﴾ أم للانتقال من وصفهم بتدبير المؤامرات الخفية ووعيد الله لهم عليها إلى وصفهم بالظن الجاهل، بأن الله لا يطلع على ما يدبرونه فى الخفاء.

وتوكيد جملة الحسبان ﴿**أنا لا نسمع..**﴾ إشارة إلى أمر خفى فى طواياهم من أن حسبانهم أن الله غافل عما يعملون لم يكن مجرد حسبان، بل هو أمر محقق مؤكد عندهم. وفى هذا تعريض بهم وتجهيل لهم، لفرط غبائهم، وبعد ضلالهم الذى أرداهم.

* ﴿**بلى ورسلنا لديهم يكتبون**﴾: بلى للإيجاب بعد النفى، أى بلى نسمع سرهم ونجواهم وفيه إيجاز بالحذف كما ترى وقد آثروا هم فى النفى الحرف (**لا**) ليشمل النفى فى زعمهم جميع الأوقات، وإيحاء بأن عدم سماع الله سرهم ونجواهم ه والأصل، ولو قالوا: (**لم**) لا ختص النفى بالزمن الماضى وحده.

ويتضح الفرق بين النفى بـ (لا) والنفى بـ (لم) بقولنا: الحجر لا يتكلم. الحجر لم يتزحزح. فقد أفاد النفى بـ (**لا**) أن عدم كلام الحجر طبيعة راسخة فيه فى جميع الأوقات الماضى والحال والاستقبال.

أما النفى بـ (**لم**) فقد أفاد عدم تزحزح الحجر فى الماضى فحسب، دون الحال والمستقبل فيصح أن يتزحزح فيهما. ولو قلنا: الحجر لم يتكلم لكان القول فاسداً.

وفى اجتماع السر والنجوى مراعاة نظير، داخل فى أصل الدلالة، وليس ترفا فى اللفظ ولا فى المعنى.

وتخصيص ﴿**سرهم ونجواهم**﴾ بالسماع - مع أن الله يسمع كل سر وكل نجوى؛ لأن الحديث مسوق فى بيان مقابحهم.

والسماع كناية عن العلم، أو هو مجاز مرسل بإطلاق السبب، وهو السماع، وإرادة المسبب، وهو العلم.

* والواو فى (**ورسلنا**) للعطف على المحذوف المقدر بعد (**بلى**) وإضافة (**رسل**) إلى

ضمير اسم الجلالة (الله) لتربية المهابة فى النفوس. وجمع (رسل) للتكثير والتفخيم وفى (لديهم) للمبالغة فى التهديد والوعيد. والإضافة إلى ضميرهم مع عموم المعنى لترهيبهم.

وإيثار المضارع (يكتبون) لإفادة التجدد والحدوث.

* * *

١٥ - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

**الدراسة والتحليل:**

كما بدأت سورة الزخرف بالحديث عن مشركى مكة كان ختامها الحديث عنهم. وهذه الآية إعادة لمعنى سبق من قبل هو أن هؤلاء المشركين يقرون بأن الله هوالذى خلقهم وخلق العالم. وهذا إيمان بالله، ولكنه غير مقيد؛ لأنه إيمان منقوص منقوض. فقد آمنوا به مشركين لا موحدين وهذا ما أشار الله إليه بقوله:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ [يوسف: ١٠٦].

أما الاستفهام الذى فى فاصلة الآية **﴿فأنى يؤفكون﴾** فقد مرَّ بنا مرات من قبل وفصلنا القول فيه.

**والخلاصة:** أن هذا الاستفهام للإنكار المتولد عن الكناية التى وسمناها من قبل باللطافة، وهى التوصل إلى الإنكار بإنكار الحال أو المكان.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

تعرضنا لهذا التركيب فى مباحث أسرار النظم وبلاغياته من قبل أكثر من مرة. ولم يرد فيه - هنا - جديد لم يسبق نظيره فى نظائر هذه الآية. وإن كان لابد من كلمة، هنا فلتكن عن الكناية اللطيفة تذكيرا بما قيل فيها فى مواضع سابقة من هذه الدراسة:

أداة الاستفهام فيها هى: (أنَّى) ولأهل الذكر فيها مذهبان:

* أن تكون بمعنى كيف فتكون لإنكار حال المستفهم عنه.

* أن تكون بمعنى أين فتكون لإنكار أن يكون للمستفهم عنه مكان، وقد تُوصل بإنكار الحال أو المكان لإنكار المستفهم عنه عن طريق الكناية اللطيفة.

* * *

# سورة الدخان

١ - ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، أَهْلَكْنَاهُمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧].

**الدراسة والتحليل:**

الدخان من السور المكية بالإجماع، نزلت بعد الزخرف وقبل الجاثية، فهما: الزخرف والجاثية - جارتاها فى النزول وجارتاها فى المصحف. وترتيب نزولها هو الثالثة والستون، ومعنى هذا أنها نزلت فى أواخر العهد المكى. وموضوعاتها هى موضوعات القرآن المكى. من الحديث عن مشركى مكة، ووعظهم بما حدث لبنى إسرائيل وبعض الأمم الغابرة.

ولم يرد فيها استفهام إلا فى هذه الآية موضوع الدراسة والحديث فيها عن مشركى مكة، فهم كانوا يرون فى أنفسهم قوة تأبى أن ينال منهم أحد، وأنهم لن يهلكوا كما هلك من قبلهم ممن أكثر ذكرهم القرآن.

ذكَّرهم الله فى هذه الآية بمهلك قوم تُبَّع، ملك بلاد اليمن: (اليمن - سبأ - حِمْير) وكانوا ذوى قوة وسلطان عظيم، وقد غزوا بلاد العرب حتى وصلوا العراق. وكان حديثهم معروفا مشهورا بين العرب وغيرهم حتى عصر نزول القرآن. وكان الناس يعترفون بأن قوم تُبَّع لايكاد يشبههم قوم فى القوة والصلابة، والتمكين فى الأرض، لذلك ساقهم القرآن مثلا فى تحذير قريش وأحلافها من العرب الذين تعاهدوا على مناوأة الدعوة وصد الناس عن سبيل الله، وإيقاع الأذى بالمؤمنين الأولين.

وقد بيَّن الأئمة أن الاستفهام الذى فى الآية:

**(أهم خير أم قوم تُبَّع)** استفهام تقرير، أى تقرير أن قوم تُبَّع خير من مشركى العرب[1].

---

(١) تفسير أبى السعود: (٨/ ٦٤) والتحرير والتنوير (٢٥/٣١٨).

**والخلاصة**: أن هذا الاستـفهام تقريرى كـما ذهب الإمامان أبو السـعود والطاهر بن عاشور، ومما يردف عليه من المعانى الثانية التهديد والتكذيب لمشركى مكة.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(أهم خـير أم قـوم تُبَّع)** أم فى الآية متـصلة، وما بعـدها معادل مـا بعد الهـمزة: والاستفهـام بالنظر لما بعد الهمزة إنكارى. وبالنظر لما بعد أم تقـريرى. وإنما اقتصر الإمامان على التقرير لوقوعه آخراً، ولأنه المقصود الأهم من الكلام، والخيرية، هنا بمعنى (أقوى) لا بمعنى أفـضل؛ لأن الفريقين: قوم تبع ومشـركى مكة - لا فضل لأىٍّ منهما عند الله والخير فى القرآن يأتى على وجهين:

الأول: أن يكون المراد منه نعمة الدنيا، وفى مقدمتها المال. ومنه قوله تعالى:

﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾ [البقرة: ١٨٠].

الثانى: أن يكون المراد منه الفضل والكرامة، ومنه قوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن الأول ما ورد فى الآية موضوع الدراسة: **(أهم خير أم قوم تبع)**.

أى: أهم أكثر أموالا وأولادا أو أشد قوة أم قوم تبع؟

* **(والذين من قبلهم)** معطوفة على **(قوم تبع)** وهم الأمم التى كذبت الرسل مـثل عاد وثمود وقوم نوح وقوم إبراهيم وقوم فرعون.

وإيثار ذكر قوم تبع وعطف الآخرين عليهم لقوة الصلة بين مشركى مكة، وبين قوم تبع، حيث كانوا فى جنوب الجزيرة وقـصتهم مشهورة عند عرب الحـجاز، وكانوا قد شاهدوا آثارهم فى أسفارهم.

* **(أهلكناهم)** فصلت هذه الجملة عما قبلها لـما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال؛ لأن الثانية نُزِّلتْ منزلة جواب عن سؤال نشأ عن الأولى، كأنه قيل:

ماذا حدث لقوم تبع؟ قال: **(أهلكناهم)**.

* وذكر **(قوم تبع)** فى الحكم عليهم بالإهلاك، دون تُبَّع نفسـه قرينة صارفة عن توهم شمول الإهلاك له معهم لأن الآثار وردت بأنه كان مؤمنا وقومه كانوا كافرين، وفى

قول معــزو إلى ابن عباس - رضى الله عنه - أن تُبَّعاً كــان نبيًّا. فلذلك لم يهلكه الله مع قومــه، كما لم يهلك هوداً مع عــاد، ولا صالحا مع ثمــود، ولا نوحا مع قومه.

* **(إنهم كانوا مجرمين)** هذه الجملة صالحة - بلاغيا لأن تكون:

* إما استئنافا تعليلياً مبينا لسبب الإهلاك.

* أو تذييلا مقرراً لمعنى الكلام قبله.

* أو استئنافاً بيانيا للإجابة عن سؤال نشأ عن الأولى.

حاصله: ولماذا أُهْلِكوا. قال: إنهم كانوا مجرمين.

فبين الجملتين - على هذا - شبه كمال الاتصال.

وتوكيد الخــبر فيها - على كل اعــتبار - إشارة إلى تحقــق إجرامهم الذى من أجله استحقوا عذاب الاستئصال.

* * *

# سورة الجاثية

١ - ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

**الدراسة والتحليل:**

سورة الجاثية من السور المكية، بلا خلاف، نزلت بعد سورة الدخان وقبل سورة الأحقاف. فهما جارتاها فى النزول، وجارتاها فى المصحف. وترتيب نزولها الرابعة والستون. وأغراضها أغراض السور المكية.

وأول آية ورد فيها استفهام فيها هى الآية موضوع الدراسة.

**(أم حسب الذين اجترحوا السيئات..)؟**

وقد أجمع الأئمة على أن المراد من الاستفهام فى الآية هو الإنكار، أى: إنكار ذلك الحسبان الذى وَلِيَ حرف الاستفهام (أم) ونذكر من أقوالهم فقرات من كلام الإمام الزمخشرى، قال:

«أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان. والاجتراح الاكتساب»، والمعنى: إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محيا، وأن يستووا مماتاً؛ لافتراق أحوالهم أحياء، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات وأولئك على ركوب المعاصى. ومماتا حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة، والوصول إلى ثواب الله ورضوانه وأولئك على اليأس من رحمة الله، والوصول إلى هول ما أعده لهم»[١].

وسار الأئمة على هذا النهج مع اختلاف فى العبارات والدقائق التى تدور مع المعنى الأم للاستفهام وهو الإنكار[٢].

---

(١) الكشاف (٣/ ٥١٢).

(٢) تفسير أبى السعود (٨/ ٧٢) روح المعانى (٢٥/ ١٤٩) البحر المحيط (٨/ ٤٦) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٥١).

**والخلاصة:** أن هذا الاستفهام للإنكار باتفاق جميع الأئمة، ومن المعانى الثانية التى تردف عليه التكذيب والتهديد.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(أم حسب..)** استئناف مسوق لبيان افتراق حال العصاة وحال الطائعين والحسبان هو الظن القوى.

والهمزة المقدرة بعد (بل) لإنكار حسبان الذين استمرأوا اقتراف المعاصى مع الكفر بالله عز وجل، وتكذيب رسله.

* وفى **(اجترحوا)** استعارة تصريحية، حيث استعير الاجتراح مع ما يوحى به من العدوان للكسب الواقع على المعاصى. والغرض البلاغى منها هو التنفير من الكفر والمعاصى حيث صورهما بهذه الصورة الخيالية المزعجة وفى **(أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات)** تشبيه سلبى تقدم ذكره مرات، والمقام الذى يستعمله النظم الحكيم فيه، وهو نفى المساواة بين الطالحين والصالحين. والجمع بين المحيا والممات طباق إيجاب واقع موقعه من البلاغة.

* **(ساء ما يحكمون)** تذييل مقرر لمعنى الإنكار قبله. وإيثار المضارع (يحكمون) إشارة إلى أن هذا السوء يتكرر بتكرار موجبه ولا يختص به زمان دون زمان.

* * *

٢ - ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾

[الجاثية: ٢٣].

**الدراسة والتحليل:**

فى هذه الآية وقفة قصيرة، تكشف اللثام عن وجه قبيح من وجوه الكفر والعناد. وجه بشع تجسم فيه الكفر والضلال حتى صار صاحبه كتلة من ظلام من الداخل والخارج.

ترى الهوى والشهوات الدنيئة والملذات الحقيرة قد استحالت إلى صورة (صنم) يُسْجَدُ بين يديه، ويُرْكَعُ له. وهذا من أحط أنواع الكفر وأغربها.

لذلك فإن الله يُعجِّب من هذه الصورة التى لاتكاد توجد حتى فى الأوهام لغرابتها وشناعتها من كل جهة نظرت إليها منها:

* فالإله المعبود فيها هو الهوى والشهوات الخسيسة؟

* والقائد المطاع فيها هو الضلال.

* والسمع والقلب مطموسان.

* والبصر عليه غطاء سميك محكم الإحاطة.

فكيف يكون من حاله هذه؟ ومن الذى يستطيع أن يرد عليه ما سلبه الله إياه من قوى الإدراك وآلات الإحساس؟

لا أحد، لأن المسلوب عنه من صُنْع الله. وليس لصنع الله صانع سواه.

والله لايظلم أحداً، ولكن له فى عباده سنن محكمة. ومن تلك السنن:

* تيسير الهداية والإعانة عليها لمن اختار الإيمان والطاعة.

* حرمان من اختار الكفر والضلال من ألطافه فيستحوذ عليه الشيطان ويزين له الباطل فلا يكاد يبصر ولا يسمع، ويُذهب عنه كل أسباب الخير والهداية، ويتركه الله وشأنه حتى يخرج من هذه الحياة الدنيا وقد أحاطت به خطيئته فيكون من أصحاب النار.

وقد ورد فى هذه الآية ثلاثة استفهامات:

* **(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)؟ (فمن يهديه من بعد الله)؟**

* **(أفلا تذكرون)؟**

ولم تخرج آراء الأئمة فى بيان المراد عن هذه الاستفهامات الثلاثة عن الخلاصة الآتية:

الاستفهام الأول (أرأيت) فيه بمعنى أخبرنى كما تقدم ذلك مرات كثيرات والرؤية علمية.

الاستفهام الثانى للإنكار وهو إنكار الوقوع واستحالته، وهو إنكار مسلط على الفاعل (من) أى لا فاعل لهدايته إذا لم يهده الله.

الاستفهام الثالث للإنكار كذلك، والإنكار فيه مسلط على عدم التذكر[1].

وغير خاف على القارئ أننا نرجِّح - دائما - فى هذا التركيب الاستفهامى: أرأيت ونظائره أنه يكون لاستحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن، ليُحكم عليها وهى حاضرة ماثلة فيه، لأن ذلك أعون على التلقى وإيقاع المعنى فى النفس أبلغ موقع.

وهذه الصياغة بما فيها من إثارة وتشويق لعقبى الكلام كيف تكون صالحة لتحقيق هذه الأغراض البيانية. ونكاد نجزم - هنا - أن هذا الاستفهام جىء به لتحقيق هذه المعانى دون غيرها، وأنه أبعد ما يكون عن معنى: أخبرنى، الذى يكاد يجمع عليه المفسرون وغيرهم من أهل العلم.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)** إثارة ولفت نظر قوى نحو المستفهم عنه والتعجيب من حاله الغريبة؛ وتوطئة لتلقى الحكم عليه والنفس نشطة، والذهن متقد، والقلب يقظان.

والحكم المحكوم به على المستفهم عنه - هنا - هو:

**(فمن يهديه من بعد الله).**

والرؤيا علمية عقلية، نُزِّل العلم بها منزلة الرؤية بالعين الباصرة، إشعارا بأن العلم بهذه الواقعة، ظاهر كل الظهور، فهو - من شدة ظهوره - يدرك بالبصر، وهو من أقوى وسائل الإدراك.

* **(إلهه هواه)** تشبيه بليغ بحذف الأداة لتوكيد الصلة بين المشبه والمشبه به، وبحذف الوجه إشعاراً بعموم الاشتراك بين الهوى المتخذ إلهاً، وبين **(إله)** أى: كل ما ثبت للإله الحق من قوة الإيمان وكمال الطاعة والإجلال والتعظيم ثبت لهذا الهوى المتخذ إلهاً. وهذا تشنيع وتبشيع فى وصف المتحدث عنه.

وهو من التشبيه المقلوب بجعل المشبه هو المشبه به، والمشبه به هو المشبه مبالغة فى

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ٥١٢) وتفسير أبى السعود: (٨/ ٧٣) وروح المعانى (٢٥/ ١٥٢) البحر المحيط (٨/ ٤٨) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٥٧).

تصوير الضلال حتى صار المشبه هو الأصل، وهو الهوى. والمشبه به هو الفرع، وهو الإله.

* **(وأضله الله عـلى علم)** إضلال الله له مجـاز عن حرمانه من ألطافه عـقابا له على اختياره الكفر على الإيمان و **(على علم)** زيادة فى الذم، بقطع الأعذار، ولبـيان أن ضلاله كان متعمداً وهو يعلم الحق حقا والباطل باطلا، وهذا أقبح أنواع الضلال.

* **(وختم على سمعه وقلبه)** الختم: الطبع، وهو مانع حـسى يوضع على الإناء وغيره لإحكام غلقه. وقد استعمل هنا مجازاً استعاريا عن منع وصول الهدى إلى القلب، ومنع السمع عن إدراك القول والانتفاع به عقاباً له على الإعراض عن الحق.

وهذا المجاز استـعارة تصريحية تبـعية شبه فـيها حرمان الله من اخـتار الكفر على الإيمان، والضلال على الهـدى، من الانتفاع بدلائل التوحيـد والإيمان يسلب التأثر بما يقال أو يتعقَّل بالسمع والتأمل بالختم الحسى **(الغلق)** على السمع والقلب. بجامع منع النفاذ فى كل منهما.

وتقديم السمع على القلب لأن السمع من روافد القلب وإمداده بالمعلومات.

* **(وجعل على بصره غشاوة)** جعل بمعنى صيَّر، والغـشاوة الحائل عن الإبصار، وهى استعارة أصلية. ولم يُجْعل البصر مـختوما عليه كالسمع والقلب لأن لكل من هذه الحواس آفة تفقدها وظيفتها، والآفـة المناسبة للبصر هى ما عليه النظم (غشاوة) من غشاه إذا حجب عنه الرؤية. وتنكيرها هكذا **(غشاوة)** لتهويل شأنها.

* **(فمن يهـديه من بعد الله)** الفاء تفريعية على ما تقدم، ولـلترتيب عليه، والاستفهام للإنكار، إنكار أن يكون لهداية من أضله الله فاعل.

وإيثار المضارع **(يهدى)** لشمول النفى كل الأوقات.

* **(أفلا تذكرون)** استـفهـام إنكار وحث على تحصـيل ما أنكـر عدم تحصـيله، وهو التذكـر. والفاء عاطفة على مـحذوف تقديره: أغفلتم عن هذا فـلا تذكرون، أو: ألهوتم عن هذا فلا تذكرون.

وإيثار التذكر - هنا - على التفكر مثلا إشارة إلى أن هذه الحقائق من الظهور بمكان فيكفى فى تحصيلها مجرد التذكر والاستحضار فى الذهن.

* * *

٣ - ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الجاثية: ٣١].

**الدراسة والتحليل :**

هذه الآية خطاب سيقال للذين كفروا يوم القيامة وقد تقدم عليها هذه الآيات:

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً، كُلُّ أُمَّةٍ تُدعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ؛ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ هذه الآيات الأربع تعرض ثلاثة مواقف من مواقف القيامة الجامعة.

* الآيتان الأولى والثانية بيان لموقف عام يشمل الناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم.
* الآية الثالثة حديث خاص عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتنويه عن فوزهم المبين.
* أما الآية الرابعة - موضوع الدراسة - فهى وصف لما يقال للذين كفروا بالله وكذّبوا بآياته.

والاستفهام الذى فى الآية **﴿أفلم تكن آياتى تتلى عليكم﴾** استفهام تقرير لهم بما كانوا يصنعون فى الحياة الدنيا حين كانت آيات الله تتلى عليهم فلم يكن لهم من حال تجاهها إلا حال الاستكبار والإدبار، وهذه **خلاصة** ما قيل فى هذا الاستفهام. أما المعانى الثانية التى تردف عليه فأظهرها التقنيط والتحسير والتنديم على ما كانوا يصنعون من سوء الأعمال.

**أسرار النظم وبلاغياته :**

* **﴿وأما الذين كفروا﴾** معطوف على ما قبله من الحديث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وتقديم الحديث عن المؤمنين على الحديث عن الكافرين لشرف الإيمان وأهله، وانحطاط الكفر وعصاباته.

* ﴿أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم﴾ فى صدر العبارة إيجار بحذف المعطوف عليه بالفاء. والتقدير: فيقال لهم: ألم تكن آياتى تتلى عليكم؟

والاستفهام للتقرير، دخلت همزة الإنكار فيه على الفعل المضارع المنفى بـ (لم) فنفت النفى الحاصل بـ (لم) فعاد الكلام إثباتا.

وإضافة (آيات) إلى ضمير اسم الجلالة لتعظيم شأنها وتفظيع استكبار الذين كفروا إذا سمعوها.

وإيثار المضارع ﴿تُتلى﴾ إشارة إلى تكرار تلاوتها من الدعاة مرات ومرات بما يتيح لهم فرصة التدبير، ولتمكين قيام الحجة لله عليهم.

* ﴿فاستكبرتم﴾ كناية عن الكفر والإعراض عن الآيات، أو مجاز مرسل بإطلاق السبب: الاستكبار، وإرادة المسبب: الكفر، ويجوز أن يكون من إطلاق المسبب، الاستكبار، وإرادة السبب، الكفر.

* ﴿وكنتم قوما مجرمين﴾ عطف على استكبرتم، أى: استكبرتم وكنتم.

وإيثار ذكر ﴿قوما﴾ وكان يمكن أن يقال: (كنتم مجرمين). للإعلام بأن الاستكبار عم جميع أفرادهم، وكان مقوما من مقوماتهم البارزة. ورابطة تجمع بينهم. وفى ذلك من المبالغة فى وصفهم بالتكبر ما ليس فى ما لو قيل: وكنتم مجرمين.

* * *

# سورة الأحقاف

١ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّاتَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ، ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

**الدراسة والتحليل:**

سورة الأحقاف مكية إلا بضع آيات منها، نزلت بعد سورة الجاثية، وقبل الذاريات. وكان ترتيبها فى النزول الخامسة والستين. وموضوعاتها موضوعات القرآن المكى، وقد بدأت بالإشارة إلى فضل كتاب الله العزيز، والنعى على مشركى العرب، ومواجهة مزاعمهم من إنكار البعث، وادعائهم أن القرآن مفترى على الله وكان أول استفهام يرد فيها هو قوله تعالى:

**﴿قل أرأيتم ماتدعون من دون الله..﴾**؟ وكان هذا الاستفهام توطئة لبيان عجز معبوداتهم من كل حول وطول وقوة. ثم قوله تعالى: **﴿ماذا خلقوا﴾** وقوله **﴿أم لهم شرك..﴾** ففى الآية ثلاثة استفهامات.

اهتم الإمام الزمخشرى بالمعنى المراد من بعض مفردات هذه الآية، ولم يقل عن الاستفهام شيئاً[١].

وكذلك سلك الإمام أبو السعود بيد أنه فسَّر قوله تعالى (أرأيتم) بـ«أخبرونى» وهو التفسير السائد عند جميع المفسرين والبلاغيين، وهو مأخوذ عن شيخ النحاة سيبويه كما تقدم فى السفر الأول[٢].

أما الإمام الألوسى فقد شمل حديثه صور الاستفهام الثلاث التى فى الآية، وجمع فى حديثه عنها بين المباحث اللغوية والمباحث البلاغية.

فحمل الاستفهام الأول (أرأيتم) على معنى: أخبرونى.

(١) الكشاف (٣/٥١٦).

(٢) تفسير أبى السعود (٨/٧٧) ومابعدها.

أما الثانى (**ماذا خلقوا من الأرض**)؟ فقال إنه للتوبيخ وقد عزاه إلى الأخفش.

وأما الثالث: (**أم لهم شرك**)؟ فقد جوَّز فى (أم) الانقطاع والاتصال. وقُدِّر المعادل على القول بأن (أم) متصلة بقوله:

«ألهم شرك فى الأرض، أم لهم شرك فى السموات» وعقب عليه بقوله: «وهو كما ترى»[1] وهذا التعقيب يفيد أنه غير راض عنه.

وتناول الإمام أبو حيان الصور الاستفهامية الثلاث وكان محكم العبارة فى بيان المراد منها.

وقد نهج منهج الجمهور فى أن المراد من (**أرأيتم**): أخبرونى، أما الصورتان؛ الثانية (**ماذا خلقوا من الأرض**) والثالثة (**أم لهم شرك..**) فهما -عنده- للتوبيخ[2].

وجمع الإمام البيضاوى فى توجيه (أرأيتم) بين مذهب الجمهور القاضى بأنه بمعنى: أخبرونى؟ وبين مارجحناه من كونه لاستحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن ليُحكم عليها وهى حاضرة ماثلة فيه، قال رحمه الله:

«أى أخبرونى عن حال آلهتكم بعد تأمل فيها»[3]

«فقوله: بعد تأمل فيها» معناه استحضار صورتها فى الذهن.

والإمام الرازى وقف عند تفسير (أرأيتم) بمعنى: أخبرونى، وسكت عن الاستفهامين الثانى والثالث وإن كان كلامه عن الآية بوجه عام يفيد أنهما للنفى والإنكار[4] وجارى الإمام الشهاب القاضى البيضاوى على ماقاله فى الاستفهام الأول، ويؤخذ من تعقيباته على كلام البيضاوى أن الاستفهامين الثانى (**ماذا خلقوا**) والثالث (**أم لهم شرك**) المراد منهما الإنكار، وقد صرح به فى بعض المواضع، كما رفض أن تكون (أم) متصلة، وعزا إلى أهل العلم تقدير معادل بعد (أم) على القول بالاتصال[5].

ولم يخرج الإمام الطاهر بن عاشور عما قاله الأقدمون فى الاستفهامات الثلاثة:

---

(١) روح المعانى (٢٦/ ٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٥٤).

(٣) تفسير البيضاوى (٢/ ٣٩٢).

(٤) التفسير الكبير (٢٨/ ٣-٤).

(٥) حاشية الشهاب (٨/ ٢٦).

فالأول بمعنى: أخبرونى، والثانى والثالث للإنكار أما (أم) فقد جزم بأنها منقطعة.

والذى يعتبر جديدا عنده هو حمل الاستفهام الأول: (أرأيتم) على التقرير، أى تقرير المشركين بحقيقة معبوداتهم[1].

**والخلاصة:** أن الأئمة متفقون على أن (**أرأيتم**) بمعنى أخبرونى، وأن الاستفهامين الثانى والثالث إنكاريان والمرجح عندهم أن (أم) منقطعة، لامتصلة هذا هو الأصل، أما المعانى الثانية فإن أظهر ماذكروه منها هو:

التوبيخ، التبكيت، الالزام. وهم محقون فى هذه الإضافات.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* (**قل..**) صُدِّرتْ الآية بفعل الأمر (قل) مخاطبا به رسول الله ﷺ لإفادة معان بلاغية مهمة اقتضاها المقام:

**فأولاً:** للإشعار بأهمية المقول المأمور بقوله بهذا الفعل (قل)

**وثانياً:** حتمية أن يواجه المأمور بالقول الخصوم الذين أنزل الله فى شأنهم هذا البيان الحكيم.

**وثالثاً:** فورية إجراء تلك المواجهة فور الأمر بها.

**ورابعاً:** وضع هذا البيان المأمور به موضع رسالة خاصة ينبغى الاهتمام بها أقصى درجات الاهتمام.

(**أرأيتم**) لم يبين الأئمة إن كانت هذه الرؤية بصرية أو علمية، والذى لاح لنا أن المعول عليه فيها الجانب العلمى العقلى، وإن كانت لاتخلو من الإلماح إلى الجانب البصرى، لكن باعتبار أنه توطئة للرؤيا العلمية.

فهى إذاً استعارة، استعيرت فيها الرؤية، وهى حسية، للعلم، وهو معنوى، وسرها هو أمرهم بأن يتفكروا فى حال أصنامهم تفكرا عميقاً يتضح لهم من خلاله حال أصنامهم من الحقارة والهوان حتى لكأنهم ينظرون إلى حقارتها نظر العين.

---

(١)التحرير والتنوير (٢٦/٩)

فأرأيتم بمعنى: أعلمتم علما جازما حال معبوداتكم فى الخسة والضعف؟ والاستعارة فيها تصريحية تبعية.

* **(ما تدعون من دون الله)** كناية عن معبوداتهم المدعاة. وعُبِّر عنها بـ«ما» التى لغير العاقل تقريراً لحالها التى هى عليها فى الواقع من الجمادية.

* فى **(تدعون)** مجاز مرسل من إطلاق المسبب، وهو الدعاء، وإرادة السبب، وهو العبادة، أى: تعبدون.

* **(أرونى ماذا خلقوا من الأرض)**؟ الأمر فى (أرونى) للإفحام والإلزام والتبكيت المترتب على عجزهم عن الإراءة المأمور بها.

وفى **(أرونى)** مجاز مرسل عن (دلونى) والعلاقة بين الاراءة وبين الادلال اللزومية، لأن من آراك شيئاً فقد دلك على وجود ذلك الشىء.

وجملة **(أرونى)** إما توكيد لجملة الرؤية فى **(أرأيتم)** وإما بدل اشتمال منها وهى مسوقة على سبيل المبالغة فى التبكيت والتعجيز.

* و**(ماذا خلقوا من الأرض)** معمول الرؤية الثانية لقربها منها. والاستفهام إنكارى تعجيزى.

والإنكار الذى فيه كناية من ألطف الكنايات عن سلب مؤهلات الألوهية عن معبوداتهم سماوية كانت كالملائكة أو الكواكب العلوية، أو أرضية كالأصنام و(من) بيانية. ولايصح أن تكون (تبعيضية) بل هى لبيان الجهة المراد إنكار تأثير أصنامهم فيها، بدليل مقابلتها بالسموات.

والألف واللام فى (الأرض) لتعريف الجنس أو الماهية.

* **(أم لهم شرك فى السموات)** أى: بل ألهم شرك فى السموات؟ فـ**(بل)** للإنتقال الابطالى من كون أنَّ لأصنامهم خلقاً من الأرض وتبيكيتهم عليه إلى نفى أن يكون لهم شرك فى السموات وتوبيخهم عليه، والهمزة المقدرة فى **(أم المنقطعة)** للإنكار والتوبيخ والإفحام.

وتنكير **(شرك)** للإنعدام، وليس للتحقير بدلالة المقام لأن الأصنام ليس لها مع الله

شرك فى أى شىء. فـإذا حملنا التنكير على التـحقير وهو لايكون الا لشىء مـوجود فقد أسأنا الأدب مع الله، لذلك نجزم بأن تنكير (**شرك**) للدلالة على «الانعدام» قطعاً.

وفى إيثار إضافة «الخلق» منفيا إلى الأرض، وإضـافة «الشرك» منفيا إلى السموات لقرب الأرض من أصنام المشركين، والقرب مظنة أن يكون لهم فيها تأثير ذاتى، ولبعد السموات عنهم واستـبعاد تأثير ذاتى لهم فيهـا فالبلاغة أن يضاف اليهـا الشرك منفيا، ومصـدر الشرك هو قـوة السلطان. وترتب على هذا الإفـحام البديع ثلاثـة أمور عن طريق الكنايات اللطيفة:

* نفى التأثير الذاتى عن الأصنام.
* نفى أن يكون لها سلطان، أىّ سلطان.
* نفى الألوهية عنها لانحطاطها حتى عن مرتبة الحيوانات العجماوات.

* (**ائتونى بكتاب من قبل هذا**) الأمر فى (**ائتونى**) للتعجيز والافحام والتبكيت، والمراد بـ(**كتاب**) أى كتـاب سماوى نزل قـبل القرآن، واسم الإشارة «هـذا» قرينة على أن المراد القرآن، وفى العبـارة إيجاز بالحذف، والتقدير: بكتاب من قـبل هذا فيه دليل على أن للأصنام خلقا لأى جزء من أجـزاء الأرض أولهم أى شرك فى السموات. وفى نفى هذا الكتاب كناية عن نفى الخلق والشرك توكيداً لنفيـهما فى الاستفهامين الثانى والثالث.

* (**أو أثارة من عـلم**) تنويع فى المأمـور به على سبيل التـيسيـر فى المطلوب كناية عن انعدام الدليل الذى يشهد لهم بمزاعمـهم، والأثارة الأثر والبقية من علم صحيح إذا عجزوا- وهم عاجزون فعلا- عن الاتيان بكتاب سماوى قبل القرآن يشهد لهم.

ويتولد عن هذا التـدرج النزولى فى مطالبة الخـصوم بدليل يشهـد لهم، يتولد عنه كنايتان بديعتان بالغتا اللطافة، وهما:

* الثقة البالغة حد الكمال لدى نصراء التوحيد فى صدق عقيدة التوحيد.
* تجريد الخـصم أو المشركين من أى شبـهة تدعم شـركهم أو تجعل له أى قـبول عند العقلاء.

وتنكير (**أثارة**) و(**علم**) للدلالة على «الانعدام» كما تقدم مرات.

ليس لهم دليل من العقل، ولا دليل من النقل. فدعواهم وَهْمٌ من الأوهام.

* (**إن كنتم صادقين**) هذا شرط جوابه محذوف عند نحاة البصرة. دل عليه المذكور قبله، والتقدير إن كنتم صادقين فائتونى بكذا وكذا.

وجوابه المذكور قبله عند نحاة الكوفة، وهو: (**ائتونى بكتاب من قبل هذا، أو أثارة من علم**) فعلى مذهب البصريين فى الكلام إيجاز بالحذف، وعلى مذهب نحاة الكوفة يكون تقديم الجواب على الشرط، لأنه محط الافحام والتعجيز، والجملة تذييل مقرر لعجزهم، وتحسير لهم وتبكيت.

* * *

٢ - ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الاحقاف: ٥]

**الدراسة والتحليل:**

بعد أن بين النظم الحكيم عجز الأصنام كل العجز فى الآية السابقة، التى كانت موضوع الدراسة قبل هذه الآية مباشرة، عاد هنا للحديث عن الضلال البعيد الذى يروح فيه عبدة الأصنام ويغدون، يعبدونها ويتضرعون لها، وهى وَهْمٌ من الأوهام.

بل تذهب هذه الآية مذهبا أبعد من إثبات الضلال لهم، وتقرر أنهم بلغوا فى الضلال دركة لم يبلغها سواهم فهم أضل الضالين:

لأن أصنامهم لن تسمعهم إذا دعوها، ولو سمعتهم فلن تستجيب لهم، لأنها لاتملك نفعا فتنفع من يدعوها ولاضراً فتضر من كفر بها وأعرض عنها.

وقد اعتمد النظم فى إثبات (أضلية عبدة الأصنام) على ثلاث ركائز:

**الأولى:** عدم استجابتها من يدعوها

**والثانية:** غفلتها عن دعاء من يدعوها غفلة كاملة، **والثالثة:** عداوتها لمن يدعوها يوم يقوم الناس لرب العالمين. والركيزتان الأولى والثانية ذكرتا فى الآية موضوع الدراسة.

أما الركيزة الثالثة فقد ذكرت فى الآية [٦] التالية لهذه الآية، وهى:

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً، وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

بل إن هذه الآية أضافت إلى الركائز الثلاث ،كيزة رابعة، هى:

**رابعاً**: كفرها بعبادة عابديها يوم يرجو عابدوها أن تنفعهم معبوداتهم.

وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام: **(ومن أضل ممن يدعوا من دون الله)**

والأئمة مجمعون علـى أن هذا الاستفهام للإنكار أى إنكار أن يكون من الناس من هو أبعد وأبين ضلالاً من عبدة الأصنام.

ويجوز- بلاغة- حمله على التقرير، أى التقرير بأن عبدة الأصنام أضل الضالين.

وقد بدأ القول فيه بالإنكار الإمام الزمخشرى ثم تابعه الآخرون. قال رحمه الله:

«ومن أضل: معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون فى الضُّلَّال كلهم أبلغ ضلالا من عبدة الأصنام، حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام، ويدعون من دونه من لايستجيب لهم، ولاقدرة بـه على استجابة أحد منهم، مادامت الدنيا، وإلى أن تقـوم القيـامة، وإذا قامت القـيامة وحـشر الناس كـانوا لهم أعداء، وكانوا عليهم ضـدا، فليسوا فى الدارين إلا على نكد ومضـرة، لا تتولاهم فى الدنيا بالاستجابة، وفى الآخرة تعاديهم وتجحد عبادتهم»[1].

**والخلاصة**: أن هذا الاستـفهـام للإنكار والتوبيخ والتـسفيـه، وهذا ما أجـمع عليه الأئمة، وقد قلنـا من قبل إن حمله على التقـرير مع بقاء المعانى الثانيـة جائز بلاغة، فمن نظر إلى جانب إثبات الأضلية لغير المتـحدث عنهم كان الاستفهام عنده للإنكار، وهو ما عليه الأئمة.

ومن نظر إلى جانب نفى الأضلية عن غيرهم قال إن الاستفهام للتقرير.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(ومن أضل..)**: الواو لعطف هـذه الجـملة **(ومن أضل)** على ماقـبلها من عـجز الأصنام.

---

(١) الكشـاف (٣/ ٥١٥) تفسـير أبى السـعـود (٨/ ٧٨) روح المعانى (٢٦/ ٦) البـحر المحـيط (٨/ ٥٥) البيضاوى (٢/ ٣٩٢) حاشية الشهاب (٨/ ٢٦) الرازى (٢٦/ ٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١)

ويجوز أن تكون استئنافا مسوقا لبيان أضلية عبدة الأصنام بعد إثبات العجز الكامل لتلك الأصنام.

وإيلاء (أضل) اداة الاستفهام (من) لأن الأضلية هى محط الإنكار، أو محط التقرير على ماسبق بيانه فى مبحث الدراسة.

* **(ممن يدعوأ من دون الله)** هذا هو المفضل لأن العبارة **(من أضل ممن يدعوأ)** أفعل تفضيل. المفضل هو من يدعوأ من دون الله والمفضل عليه غيره من الضالين، وكان الأصل أن يقال: من يدعوا من دون الله أضل الضالين.. فَعُدِلَ عنه إلى ماعليه النظم ليلى محط الإنكار أداة الاستفهام المستعملة فيه.

وفى إيثار المضارع (يدعوأ) ليشمل الإنكار جميع الأوقات التى يقع فيها ذلك الدعاء.

* **(من لايستجيب له)** عبَّر عن الأصنام، وهى جماد لا عقل لها بـ«من» التى للعقلاء وهذا خلاف الأصل وقد وجهه الأئمة توجيهن: بل ثلاثة:

**الأول:** لأنه لما أسند إليها مايسند إلى العقلاء أجرى عليها ضمير العقلاء.

**الثانى:** أن فى هذا مجاراة لعابديها حيث عاملوها معاملة الآلهة التى لها- فرضا- عقل وتمييز.

**الثالث:** لأن من معبوداتهم عقلاء كالملائكة، والجن والإنس.

والذى لاح لنا، وهو وجه رابع يضاف إلى توجيهات الأئمة الثلاثة:

أن الحديث- هنا- عن الأصنام، وإنما عُبِّر عنها بما يُعَبَّرُ به عن العقلاء، لأن المقام مقام نفى ملكية النفع والضر عن غير الله، وإيقاع النفى على العقلاء أبلغ من نفيه عن غيرهم، لأن نفع غير العقلاء معلوم بالضرورة، والذى يحتاج إلى نفى ظاهر هو نفع العقلاء لأنهم مظنة النفع.

والمعنى: إن من هو من دون الله لايملك استجابة الدعاء حتى ولو كانوا عقلاء فما بالك بمن ليسوا عقلاء.

* **(إلى يوم القيامة)** قيد فى المعنى سره البلاغى استمرار وتأبيد التيئيس.

* (**وهم عن دعائهم غافلون**) توكيد لعدم استجابة الدعاء من دون الله. وهو كناية عن عدم استجابة الدعاء حيث نفى سبب الاستجابة، ورتب عليه نفى الاستجابة نفسها وفيه مجاز مرسل كما ترى.

* * *

٣ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ إِن افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ الله شَيْئاً، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ، كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الاحقاف: ٨]

**الدراسة والتحليل:**

كما كان مشركو العرب شديدى الإنكار لأن يكون القرآن وحيا من عند الله، فإن القرآن -نفسه- كرَّر المواجهة لهذه الدعوى كثيراً ووقف أمامها وقفات داحضة لكل مايقولونه فى هذا المجال، ولوَّن الردود المفحمة، لهم من وقفة إلى وقفة، وتحداهم فأغلظ التحدى، وطالبهم بأن يأتوا بكلام من طبقة القرآن أحكاما وبلاغة وأن يتحولوا من حال الكلام إلى حال العمل فما أقدموا بل أحجموا لما كانوا يحسونه من أنفسهم من عجز مقنط، وجهل مُفْرط. وفى هذه الآية سلك معهم مسلكا آخر غير مسلك المطالبة بالمحاكاة لو كانوا قادرين.

والآية صُدِّرَتْ بهذا الاستفهام: (**أم يقولون افتراه**)؟

وقد ذكر الإمام الزمخشرى فيه كلاما طويلا. والذى يهمنا منه هو بيان نوع (أم) ثم المراد من الاستفهام كيف فُسِّرَتْ، وهذا قوله:

(**أم يقولون افتراه**) إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا - أى فى الآية السابقة على هذه الآية[1] إلى ذكر قولهم إن محمدا افتراه، ومعنى الهمزة فى (أم) الإنكار والتعجيب كأنه قيل: دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضى منه العجب وذلك أن محمداً كان لايقدر عليه حتى يقوله ويفتريه»[2].

---

(١) هى قوله تعالى حاكيا عنهم: «.. قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين»[الأحقاف: ٧].
(٢) الكشاف: (٣/٥١٦).

ومعنى هذا الكلام أن (أم) فى الآية منقطعة وأن الهمزة المقدرة فيها لإنكان قولهم: افتراه.

وقريبا من كلام الإمام جار الله الزمخشـرى ما قاله الإمام أبو السعود، مع اختلاف العبارات عند كل منهما.

فـ(أم) عند الإمام أبى السعود منقطعة، وهمزتها للإنكار، وبل للإضراب والانتقال الابطالى من شناعة إلى شناعة من شناعاتهم، والتقدير عنده بالحرف هو:

«بل أيقولون افترى القرآن»؟[1]

والإمام الألوسى صاغ المراد فى عباراته الآتية:

«**أم يقولون افتراه**): إضراب وانتقال من حكاية شناعتـهم السابقة إلى حكاية ما هو أشنع منهـا، وهو الكذب عمـداً على الله تعالى، فـإن الكذب- خصـوصاً عليـه عز وجل- متفق على قبحـه، حتى ترى كل أحد يشمئز من نسبتـه إليه، بخلاف السحر فإنه- وإن قبح- فليس بهذه المـرتبة، حتى تكاد تعد معرفتـه من الأمور المرغوبة، وما فى (أم) من معنى الهمزة للإنكار التوبيخى المتضمن للتعجيب من نسبته إلى الافتراء، مع قولهم هو سحر لعجزهم عنه»[2]

وأوجز الإمام البيضاوى فقال:

«**أم يقولون افتراه**)-: إضراب عن ذكر تسـميتهم إياه سحـراً إلى ما هو أشنع منه، وإنكار له وتعجيب»[3]

وسلك الإمام أبو حيان مسلك البيضاوى فى الإيجاز ولم يصرح بالإنكار[4].

كما أوجز الإمام الطاهر مع تصريحه بالإنكار[5].

**والخلاصة**: أن الاستـفهام فى الآية للإنكار والتـوبيخ، وأن (أم) منقطعة، والإنكار مسلط على الواقع، وهو قولهم أن محمداً ﷺ افترى القرآن.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٨/ ٧٩).

(٢) روح المعانى (٢٦/ ٨).

(٣) تفسير البيضاوى (٢/ ٣٩٣).

(٤) البحر المحيط (٨/ ٥٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٦ / ١٤).

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(أم يقولون افتراه)** فى هذه الجملة فوق ما فيها من معانى الاضراب والانتقال والإنكار تمهيد وتوطئة لما جاء بعدها من قوله تعالى: **(قل..)** وإيثار المضارع فيها **(يقولون)** على الماضى: قالوا إشارة إلى تكرار ذلك القول منهم مع شناعته وظهور فساده.

* **(قل إن افتريته)** تصدير الجملة الشرطية -هنا- بفعل الأمر (قل) إيذان بأهمية المقول بعده ووجوب العناية به، وسرعة تبليغه والمواجهة به فور تلقيه، وكونه رسالة خاصة لإفحام الخصوم وإبطال مدعياتهم.

وإيثار أداة الشرط (إن)- دون : إذا، لأن فعل الشرط افتراضى مسوق فى مقام مجاراة الخصم تمهيداً لإبطال دعواه، فتعين أن تكون الأداة هنا (إن)- المؤذنة بتخلف شرطها، أما لو قيل: إذا، لكان الافتراء محققا، وهو محال.

* **(فلا تملكون لى من الله شيئاً)** جواب الشرط، وفيه حذف تقديره:

إن افتريت القرآن على الله عاقبنى فأهلكنى ولاتستطيعون دفع عقابه عنى.

فإن قيل: كيف توقع النبى ﷺ دفاعا عنه منهم، وهم خصومه الألداء. إذا قيل هذا فإننا نقول: إن فى الكلام تعريضا بهم، وإشارة ذكية إلى أنهم هم المفترون. وأنهم لايستطيعون ردماينزله الله بهم من عقاب وإن طالت سلامتهم.

وهذا من الكلام المنصف. وصورته- هنا- صورة من يصف نفسه بوصف خصمه ويترتب عليه مايقتضيه ذلك الوصف. وسره البلاغى تليين القول مع الخصم والتلطف فى الخطاب معه لعله يعتبر ويهتدى.

والتنكير فى **(شيئاً)** للانعدام كما مرت بنا نظائره، وإيثار المضارع **(تملكون)** ليشمل النفى جميع الأوقات من الحال والاستقبال حتى قيام الساعة.

* **(هو أعلم بما تفيضون فيه)** استئناف خبرى مستعمل فى التهديد والوعيد.

وفى **(تفيضون)** استعارة تصريحية تبعية للإكثار من الباطل، شبهت فيه حالة إكثارهم من الخوض فى الباطل بفيضان الماء، بجامع مجاوزة الحد فى كلٍّ.

وإيثار المضارع (**تفيضون**) للدلالة على تلبسهم بادعاد الباطل واقترافه حالا إثر حال.

* (**كفى به شهيداً بينى وبينكم**) استئناف مسوق للتهديد والوعيد. لأن شهادته تقتضى الإحسان إلى المحسن، والإساءة إلى المسيء.

وفصل جملة (**كفى به شهيداً**)- عن جملة (**هو أعلم..**) لأن الثانية بدل اشتمال من الأولى فبين الجملتين كمال الاتصال.

* (**وهو الغفور الرحيم**) تذييل مقرر لما قبله من إمهال المفترين المستحقين للهلاك. وفيه حث على قبول توبتهم إذا رشدوا.

* * *

٤ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]

**الدراسة والتحليل:**

هذه من الآيات التى حاجَّ النظم بها خصوم الدعوة أيا كانوا- يهوداً أو نصارى أو مشركى العرب- ودون أن نطيل فيها نذكر كلاما للإمام جار الله الزمخشرى نراه جديراً بالوقوف عليه.

فبعد أن بين المعنى المراد من الآية قال:

«**فإن قلت**: أخبرنى عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة النظم، **قلت**:

الواو الأولى عاطفة لـ«كفرتم» على فعل الشرط، كما عطفته ثم من قوله تعالى: (**قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به**) [فصلت: ٥٢] وكذلك الواو الآخرة عاطفة لـ(**استكبرتم**) على (**شهد شاهد**) وأما الواو فى (**وشهد شاهد**) فقد عطفت جملة قوله (**شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم**) على جملة قوله (**كان من عند الله ثم كفرتم به**) ونظيره قوله لك: (أن أحسنتُ اليك وأسأت وأقبلت عليك وأعرضت عنى لم نتفق).

ثم قال منظراً بين نظم الآية والكلام المصنوع الذى ذكره «فى أنك أخذت ضميمتين وعطفتهما على مثليهما، والمعنى:

قل: أخبرونى إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمع شهادة أعلم بنى إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به ألستم أضل الناس وأظلمهم»[1].

معنى هذا الكلام أن فى النظم حذفا، وقد قدره الأمام الزمخشرى بقوله:

«ألستم أضل الناس وأظلمهم» ويفهم من هذا أن المقصود من الاستفهام هو التقرير القائم على مقدمات صادقة، هى كون القرآن من عند الله وشهادة أعلم بنى إسرائيل على مثله وإيمانه به مع كفر المخاطبين واستكبارهم عنه.

وهذه المعانى التى أوجز العبارة عنها الإمام جار الله فيما تقدم أطال فيها غيره من الأئمة فيما يقارب خمسة أضعافها، ومنهم الإمام أبو السعود[2].

على أن للإمام أبى السعود تلخيصا رائعاً فى بيان المراد من نظم الآية قال فيه:

«والمعنى: أخبرونى إن كان ذلك فى الحقيقة من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد عظيم الشأن من بنى اسرائيل الواقفين على شئون الله تعالى وأسرار الوحى بما أوتوا من التوراة **(على مثله)** أى مثل القرآن من المعانى المنطوية فى التوراة المطابقة لما فى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغيرها فإنها عين مافيه. فى الحقيقة.. والمثلية باعتبار تأديتها بعبارات أخرى، أو على مثل ماذكر من كونه من عند الله»[3] يريد الإمام أبو السعود أن يقول: إن شاهد بنى إسرائيل شهد على مثل مافى القرآن من الشئون الآلهية كالتوحيد والبعث ورسالة موسى عليه السلام أما الإمام الألوسى فقد اقتفى أثرى الإمام جار الله الزمخشرى والإمام أبى السعود ومن إضافاته الخاصة تجويز أن يكون **(مثله)** فى **(وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله)** كناية عن القرآن نفسه، على قولهم: مثلك لايبخل، وهم يريدون المخاطب لا أحداً مماثلا له[4].

وحام الإمام الطاهر بن عاشور حول المعانى التى طرقها الأئمة من قبل، كما صرَّح

---

(١) الكشاف (٣/ ٥١٩) وماقبلها.
(٢) تفسير أبى السعود (٨/ ٨١)
(٣) المصدر السابق.
(٤) روح المعانى (٢٦/ ١١)

بأن الاستفهام فى (**أرأيتم**) للتقرير، أى التقرير بأنهم ظالمون إذ تبيَّن لهم حقية القرآن من عند الله، وقامت الأدلة والبراهين على تحقيق تلك الحقية[1].

**والخلاصة**: أن الأئمة متفقون على أن الاستفهام فى الآية (**أرأيتم**) بمعنى أخبرونى وأنه يؤول إلى التقرير. ومما يضاف إليه من المعانى الثانية الالزام والتوبيخ، أى إلزامهم بقيام الحجة لله عليهم مع تكذيبهم وتوبيخهم على كفرهم بالحق الذى لاريب فيه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (**قل أرأيتم**): الخطاب فى (قل) للنبىﷺ أما فى (**أرأيتم**) فالخطاب لمشركى مكه وتصدير الآية بفعل الأمر (**قل**)- لما تقدم من أهمية المقول بعده، وكونه رسالة خاصة ينبغى تأديتها فور تلقيها والمواجهة بها.

أما (**أرأيتم**) فالرؤيا فيه علمية عقلية، والمراد من الاستفهام استحضار حقيقة المستفهم عنه بكل عناصره فى الذهن، وهى:

* كون القرآن من عند الله حقا.
* شهادة عالم بنى إسرائيل على كونه من عند الله.
* ثم إيمان عالم بنى إسرائيل بهذه الحقيقة لإيمانه بكل ما نزل من عند الله كالتوراة والانجيل ثم القرآن.
* والعنصر الرابع هو كفر مشركى العرب بالحق الذى أنزله واستكبارهم عن الإذعان له واتباعه.

وبعد استحضار هذه الحقائق فى الذهن والمقارنة بين طرفيها تثمر النتيجة الحتمية، وهى كون مشركى العرب أضل وأظلم العباد لإعراضهم عن الحق وإقبالهم على الباطل مع وضوح الفروق بينهما.

* (**إن كان من عند الله وكفرتم به**) هذان عنصران من عناصر الرؤيا المطلوب مثولها فى الذهن:
* ثبوت أن القرآن من عند الله.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٦/١٨-١٩)

* مسارعة مشركى العرب إلى الكفر به.

وتقديم هذين العنصرين المراد منه المبادرة إلى وصفهم بالكفر من أول الأمر.

والتعبير بأداة الشرط (إن) المؤذنة بتخلف شرطها دون (إذا) المؤذنة بتحقق شرطها وكان الظاهر أن تكون (إذا) هى المعبر بها هنا، لأن فى (إن) مجاراة للخصوم على نية العود لإبطال مدعاهم بعد سحب البساط من تحت أقدامهم.

وإخراج المحقق مخرج المحتمل فن من فنون أدب البحث والمناظرة، ولهذا الموضع نظائر فى القرآن العظيم فى محاورات الرسل لأقوامهم منها قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي، وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

فنوح لم يكن شاكا فى أنه على بينة من ربه، ومع هذا فقد أخرج المحقق مخرج المحتمل استدراجا لقومه وتليينا فى الخطاب معهم لعلهم يرعوون.

* **(وكفرتم به)** الواو لعطف **(كفرتم)** على الشرط **(إن كان من عند الله)** وفى ذلك تشنيع عليهم وتسفيه لهم حيث جعل كفرهم بالقرآن مرتبا على حقية أنه من عند الله.

وإيثار الماضى **(كفرتم)** إشارة إلى تحقق وقوع الكفر منهم والجار والمجرور (به) لبيان متعلق كفرهم **(وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله)** الواو لعطف شهادة الشاهد على **(كان من عند الله وكفرتم به)** كما تقدم فى مبحث الدراسة والتحليل فى كلام الإمام جار الله الزمخشرى.

وإيثار الماضى **(شهد)** إشارة إلى تحقق وقوع تلك الشهادة واستقرارها.

وتنكير **(شاهد)** لتفخيم شأنه بدلالة المقام.

وفى **(من بنى إسرائيل)** ترشيح لقوة الشهادة، لأن بنى إسرائيل أهل كتاب سماوى فالمخلصون منهم أعرف من مشركى العرب بشئون الوحى، وحقائق الرسالات السماوية أما **(على مثله)** فلها دلالات بلاغية أشار إليها الأئمة، من قبل:

منها أن المراد من المثلية مماثلة التوراة كما أنزلها الله على موسى للقرآن فى الدعوة إلى توحيد الله والإيمان بالحياة الآخرة.

ومنها أن المراد بالمثلية كون التوراة -غير المحرفة- والقرآن وحيا من عند الله.

وأضاف الإمام الآلوسى فهما سديداً لكلمة **(مثله)** حيث جوَّز أن تكون كناية عن القرآن نفسه كقول العرب: «مثلك لايبخل» وهم يقصدون المخاطب لا أحداً غيره، ولكنهم يثبتون له الكرم عن طريق الكناية، فيجعلون نفى البخل عن مثله كناية عن نفى البخل عنه، والكناية أبلغ من التصريح لقرن الدعوى فيها بدليل صدقها وصحتها وهذا ما نميل إليه، ويؤيده ما روى عن إسلام عبد الله بن سلام من اليهود.

وإلى هذا مال جمهور المفسرين وجعلوا إسلامه سببا فى نزول هذه الآية[1].

* **(فآمن واستكبرتم)** الفاء مع إفادتها التعقيب والترتيب مشعرة بالسببية، أى سببية الشهادة فى حصول الإيمان. وإيثار الماضى إشارة إلى تحقيق الإيمان واستقراره.

والواو فى **(واستكبرتم)** للعطف على **(شهد شاهد)** كما قال الإمام جار الله ويلوح لنا أنها للعطف على (فآمن) بل هو الأظهر لمضادته ومباينته للمعطوف عليه، وهو : **(فآمن)** وإيثار الماضى **(استكبرتم)** لزيادة التشنيع عليهم.

* **(إن الله لا يهدى القوم الظالمين)** إن المتأمل فى نظم هذه الآية يشعر بأن فيها حذفا من جهة، وإطنابا من جهة أخرى.

فالحذف يشعر به الاستفهام، ويبدو النظم فى حاجة اليه من خلال التطلع إلى جواب الاستفهام، لأن النفس تتشوف إلى عقبى الكلام ماذا تكون حين ثبت أن القرآن من عند الله وكفر به من كفر- المخاطبون- وآمن من آمن.

وقد أحسن الإمام جار الله حينما قدر ذلك المحذوف بقوله فى تمام الخطاب مع مشركى العرب:

«ألستم أضل الناس وأظلمهم»

فإذا جئنا إلى جملة الفاصلة **(إن الله لايهدى القوم الظالمين)** بدا لنا أن فى هذه الجملة، إطنابا، سواء أسميناه تذييلا أو استئنافا.

---

(١) عورض هذا الرأى بأن سورة الأحقاف هذه مكية واسلام عبد الله بن سلام كان بعد الهجرة فى المدينة، ورد هذا الاعتراض بأن هذه الآية مدنية لا مكية.

ولكن مع ملاحظة المحذوف الذى قدَّره الإمام جار الله الزمخشرى يلوح فى الأفق محذوف آخر إن قدرناه بان لنا استدعاء المقام لجملة الفاصلة وشدة الحاجة اليها والتقدير:

«ألستم أضل الناس وأظلمهم، ولن يهديكم الله لظلمكم وشدة ضلالكم، **لأن (الله لايهدى القوم الظالمين)** ويتعين حينئذ أن تكون جملة الفاصلة أستئنافاً تعليلياً لترك الله أولئك المكذبين فى ضلالهم.

والتوكيدات فى جملة الفاصلة لأن مضمون الخبر بيان لسنة من سنن الله التى لاتبديل لها ولاتحويل فيها وبقى- بعد ذلك كله - سؤال مهم حاصله:

هل النظم فى حاجة إلى التنسيق الذى قدره الإمام جار الله فى مطلع مبحث الدراسة والتحليل؟ أم أن النظم فى الآية يمكن إبقاؤه على ما هو عليه دون مراعاة تقديم وتأخير فى عناصره المعطوف بعضها على بعض؟

**والجواب:**

ليس نظم الآية فى حاجة إلى ذلك التنسيق وإن كان محتملا، بل إن إبقاءه على ما هو عليه فيه من البلاغة والإحكام ما فيه وبيان ذلك:

* أنه النظم بيَّن أولاً ترتب كفر مشركى العرب على ثبوت أن القرآن وحى من عند الله:

**(قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به).**

* ثم ساق للزيادة فى التشنيع عليهم واقعة شهادة عالم بنى إسرائيل بسماوية القرآن، ومسارعته إلى الإيمان به مقارنا باستكبارهم:

**(وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم).**

وتكون إعادة كفرهم معبراً عنه بالاستكبار من تمام التنظير بين حماقة مشركى العرب، ورشاد مؤمن بنى إسرائيل.

وبهذا يتبين أن التنسيق الذى ذهب إليه الإمام الزمخشرى لايتوقف عليه سلامة المعنى من خلل، ولا تتوقف عليه صحة بلاغة النظم من ركاكة بل النظم القرآنى فى الآية على ماهو عليه فى أعلى طبقات الإحكام والبلاغة.

* * *

٥ - ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

**الدراسة والتحليل:**

جاءت هذه الآية فى سلك آيات بدأها الله بقوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا﴾ [الأحقاف: ١٥].

ذكر خلالها جزاء المحسنين إلى والديهم. ثم وردت الآية موضوع الدراسة مشيرة إلى أن فريقا من الناس يجمعون بين الكفر بالله وعقوق الوالدين. وكان هذا كثير الوقوع من المشركين. ومن شواهده هذه القصة.

وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام:

﴿أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾؟! والأئمة مجمعون على أن هذا الاستفهام للإنكار والتعجب. إنكار وقوع البعث، ثم التعجب ممن يؤمن به. وهذه خلاصة ما قيل وما يقال فيه، ولا ضرورة للنص على ما أبداه فيه الأئمة. لأن دلالته على الإنكار والتعجب من المسلمات.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿والذى قال لوالديه﴾** الواو لعطف هذه القصة على نظائرها التى تقدمت من مقولات وجرائم المشركين مثل: **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه﴾** [الأحقاف: ١١]، وهذا إما مفعول لفعل محذوف تقديره: وأذكر الذى. والمراد قصته التى وردت فى الآية.

أو مسند إليه خبره قوله تعالى: **﴿أولئك الذين حق عليهم القول. .﴾**

[الأحقاف: ١٨].

ولا يمنع من هذا كون «الذى» مفردًا، و «أولئك» جمعًا؛ لأن «الذى» وإن كان مفردًا فى اللفظ فإن معناه، وهو إنكار البعث، عام. فأُخرج الوعيد مُخْرَج العموم ليشمله ويشمل كل من كان على شاكلته.

* وفى ﴿لوالديه﴾ تغليب لجانب الأمومـة على جانب الأُبوة؛ لأن المقام مقـام عقوق وكفر، قُدِّم فيه العقوق ﴿أف لكما﴾ على الكفر ﴿أتعداننى أن أخرج﴾ ومنهج القرآن فى مقـام الإحسان إلى الوالدين أو الإساءة إليـهما أن يُغلِّب جانب الأمـومة على جانب الأبوة، وعلى هذا جرى التغليب هنا[1].

* ﴿أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى﴾ هذا الكلام هو مقول القول فى (قال لوالديه).

و ﴿أف﴾ كناية عن أدنى الاساءات القولية. وهى اسم فعل مضارع معناه: أتضجر. وقد ورد فى سورة الإسراء منهيا عنه فى قوله تعالى:

﴿فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾ [٢٣].

وإيثار المضارع فى ﴿أتعداننى﴾ للالماح إلى أن والديه كـانا يكرران له الدعـوة إلى الإيمان بالله واليـوم الآخر فحـمله هذا التكرار على الضـيق بهمـا والتضـجر منهـما والامعان فى الكفر على النحو الذى حكاه عنه القرآن الأمين.

وفى ﴿أن أُخرج﴾ كناية عن البـعـث بعد الموت وإيثـار المصدر المؤول ﴿أن أُخرج﴾ على الصـريح: إخراجـى. لصلاحـية المـصدر المؤول للدلالة علـى الاستـقبـال دون الصريح.

أما بناء الفعل ﴿أُخرج﴾ لما لم يسم فاعله، وكان الأصل أن يقول: أن يخرجنى الله من قبـرى بعد موتى. فـلأن نفس الكافر لا تسـاعده على إسناد البـعث إلى الله عز وجل؛ لأن هذا الإسناذ ينافى دعوى إنكاره البعث. وقد مرَّت له نظائر فى سياق هذا الإنكار وفى غيره من أوهام كفرهم.

* ﴿وقد خلت القـرون من قبلى﴾ الواو للحال، والجـملة الحالية تعلـيل لإنكار البعث واستبعاده حسب زعمه والمعنى:

كيف يكون الوعد بالإخراج صحيحـا حالة كون الأمم الماضية لم يبعث منهم أحد بعد أن ماتوا؟

---

(١) أنظر هذا المنهج بالتـفصيل فى كـتابنا: «دراسـات جديدة فى إعجـاز القرآن» مكتـبة وهبة. مـبحث الوالدية والأبوة.

وفى ﴿خلت﴾ كناية عن ذهبت. أو استعـارة، شبه فيهـا الذهاب بالخلو بجامع ما يترتب على كل منهما من فراغ المكان.

وفى ﴿القرون﴾ مجاز مرسل حيث أطلق الزمن وأراد الحال فيه. وفى إسناد الخلو بمعنى الموت إلى القـرون مجـاز عقلى عـلاقتـه المفعولـية، لأن الله هو الذى أمـاتها وأذهبها.

وفى جمع ﴿القرون﴾ توكيد للإنكار المدعى. أى أن أجـيالاً لا حصر لها فى أزمان متطاولة ذهبت ولم تَعُدْ. ولو كان البعث حقا لعاد أقدمهم موتا على الأقل.

هذا المعنى حرص على ذكره منـكرو البعث، ومنشؤه عندهم الجهل المطبق بحقـيقة البعث الذى أخبرت به الرسل، ونزل به الوحى الصادق الأمين.

فقالوا فى سورة الدخان: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٦].

وإيثار دخول حرف الجر ﴿من﴾ على الظرف ﴿قبلى﴾ فى قوله ﴿من قبلى﴾ إشارة إلى امتداد الزمن فى القدم، وفيه توكيد للإنكار بعد توكيد.

* ﴿وهما يستغيثان الله ويلك آمن﴾ الواو الأظهر أنها للحال. أى قال لهما ما قال حالة كونهما يستغيثان الله له محذرين إياه، مجددين الدعوة إلى الإيمان.

وجى بالجملة اسمية ﴿وهما﴾ اشارة إلى حرصهما الشديد على هدايته إلى الإيمان.

ويعاضده مجىء الفعل مضارعا ﴿يستغيثان﴾ الدال على تجدد دعـوته إلى الإيمان، وكون المستغاث به هو «الله» تفخيما لشأن الاستغاثة.

وفى ﴿ويلك آمن﴾ إيجاز بالحذف والتقدير:

قائلين له ويلك آمن. والويل: الهلاك. وفى العبارة إيجـاز حذفى آخر، والتقدير: ويلك من كفرك هذا والأمر فى ﴿آمن﴾ للوجوب، وحُذف متعلق الإيمان للعلم به من وعدهما إياه بالبعث. فنزل الفعل منزلة اللازم لأن قرائن الأحوال والأقوال تصرفه إلى الإيمان الكامل بالله وملائكـته وكتبـه ورسله واليوم الآخر. وهـذا من الإيجاز البليغ، لاستثمار أقل ما يمكن من الألفاظ فى أكثر ما يمكن من المعانى.

* ﴿إن وعد الله حق﴾: اسـتئناف مقـرر لمضمون مـا قبله وتوكيـد الخبر فـيه بـ «إن»

واسمية الجملة؛ لأن المخاطب منكر، فوجب - بلاغة - توكيد الخطاب معه.

و﴿**وعد الله**﴾ من إطلاق العام، وهو وعد الله كيفما كان، وإرادة الخاص، وهو البعث بعد الموت. وهو مجاز مرسل علاقته الكلية.

* ﴿**فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين**﴾ الفاء لعطف ما بعدها على ما قبلها مع إفادة معنييها النحويين: الترتيب والتعقيب. وسر العطف بها التسجيل عليه بالمسارعة إلى الإصرار على الكفر.

وإيثار المضارع ﴿**يقول**﴾ للدلالة على أن هذا القول لم يصدر عنه مرة واحدة. بل مرات. وفى هذا زيادة تشنيع عليه باستحباب الكفر على الإيمان.

وفى ﴿**ما هذا إلا أساطير الأولين**﴾ أسلوب قصر موصوف، هو القرآن، أو عقيدة البعث، على صفة، هى ﴿**أساطير الأولين**﴾ وطريق القصر النفى والاستثناء. وهو قصر حقيقى باعتبار حال المتكلم دون الواقع.

ويتولد عن هذا الأسلوب القصرى كناية، هى وصف القرآن، أو حقائق الإيمان بالكذب والتخريف؛ لأن الأساطير جمع أسطورة، والأسطورة هى الحكاية الخرافية.

وفيما حُكِىَ عن هذا الكافر هنا ترديد وتكرير لما قاله منكرو البعث من قبل.

* * *

٦ - ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

**الدراسة والتحليل:**

هذا قول من أقوال عاد لأخيهم هود عليه السلام. فقد صدع فيهم بالحق، ودعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، لكنهم قابلوا دعوته بالرفض، وكان قد نهاهم عن عبادة الأصنام التى أتخذوها آلهة من دون الله. فضاقوا به وبدعوته، ثم واجهوه بقولهم: ﴿**أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا**﴾؟

جاء قولهم هذا ردًا على قوله لهم فى الآية التى قبل هذه الآية مباشرة وهى:

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِٱلْأَحْقَافِ، وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ. إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

والاستفهام فى الآية موضوع الدراسة استفهام إنكار عند جميع الأئمة، وأهل العلم فلا حاجة لاستطلاع آرائهم فيه مع وضوح المراد منه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿قالوا أجئتنا﴾** فصلت هذه الجملة عما قبلها لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال؛ لتنزيل الثانية منزلة جواب سؤال نشأ عن قول هود لهم: **﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾**.

* **﴿أجئتنا﴾** استعارة تصريحية تبعية استعير المجئ فيها، وهو أمر حسى، للقصد والمواجهة، وهو أمر معنوى، بجامع التعرض فى كل منهما. وسرها البلاغى إخراج المعنوى فى صورة الحسى لشدة ظهوره.

* **﴿لتأفكنا عن آلهتنا﴾** الأفك بفتح الهمزة الصرف من جهة إلى جهة أخرى. وقد كنوا به عن الترك، أى ترك آلهتهم، وهى الجهة المصروف عنها، إلى عبادة الله وحده، وهو الجهة المصروف إليها.

  وفى العبارة إيجاز بالحذف. والتقدير: عن عبادة آلهتنا.

* **﴿فأتنا بما تعدنا﴾** الأمر هنا للتهكم والسخرية من نبى الله هود عليه السلام. وفيه تعريض به بأنه مفترٍ كذاب. وهذا مسلك مكذبى الرسل جميعا.

  وفى **﴿ما تعدنا﴾** كناية عن عذاب الله الذى خوفهم منه هود عليه السلام، فى قوله لهم:

* **﴿إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾** وقد حذف الجار والمجرور **﴿به﴾** المتعلق بـ **(ما تعدنا)** للعلم به.

* **﴿إن كنت من الصادقين﴾** تهييج وإلهاب ليحملوه على إتيانهم بالعذاب، اعتقاداً منهم بأن ما يخوفهم به محال. وتصريحًا باتهامه بالكذب. والمعنى: ائتنا بالعذاب

الذى أنت كاذب فى إدعائك نزوله علينا إن كنت حقا من الصادقين. أى من الذين رسخوا فى الصدق وعُرفوا به.

* * *

٧ - ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِـهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنَ يُحْيِىَ الْمَوْتَى، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

**الدراسة والتحليل:**

فى هذه الآية رد على شبهات منكرى البعث، التى ذكرها القرآن محكية عنهم فى عدة مواضع كالإسراء والمؤمنون، ثم فى هذه السورة. والرد الذى ساقه القرآن -هنا- برهان عقلى يدركه جميع العقلاء مهما تفاوتت مواهبهم العقلية.

فخلق الإنسان أيسر من حيث هو من خلق السموات والأرض، فإذا أمات الله الإنسان فإن إعادة الحياة إليه أيسر من خلقه لأول مرة.

والله الذى خلق السموات والأرض كيف يعجز عن إعادة الحياة إليه مرة أخرى؟

لو أن رجلا ما من حملة الأثقال قام أمام الجمهور بحمل جسم زنته مائتا كجم، فهل إذا قال لجمهوره إننى قادر على حمل جسم زنته مائة وخمسون كجم فهل يقع عند أى أحد ممن شاهدوه يحمل ما وزنه مائتا كجم شك فى قدرته على حمل ما وزنه مائة وخمسون كجم؟ هذا - ولله المثل الأعلى - هو فقه هذا البرهان الذى ذكره الله هنا. ولكن الذين كفروا فى عماهم يصبحون ويمسون.

وقد ورد فى صدر هذه الآية هذا الاستفهام **﴿أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض..﴾** لم يقل فيه الإمام الزمخشرى شيئا، وحملة الإمام أبو السعود على الإنكار فقال:

«الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام، والرؤية قلبية، أى: ألم يتفكروا ولم يعلموا علما جازما متاخما للمشاهدة والعيان **﴿أن الله الذى خلق السموات والأرض﴾** ابتداء من غير مقال يحتذيه ولا قانون ينتحيه **﴿ولم يعى بخلقهن﴾**

أى لم يتعب . . . ﴿بقادر على أن يحيى الموتى﴾[1].

وجاراه الإمام الألوسى فحمل الاستفهام على الإنكار كما ذهب الإمام أبو السعود، وأشار إلا أن هذا الإنكار مأخوذ من جعل الهمزة قارة فى مكانها، وهو مذهب الإمام الزمخشرى. ثم قدر المحذوف الذى دخلت الهمزة عليه بما قدره به الإمام أبو السعود[2].

فإذا جاوزنا بقية الأئمة الأقدمين إلى سماحة الشيخ الطاهر بن عاشور وجدناه يذهب مذهبى أبى السعود والألوسى فيقول:

«والواو عاطفة جملة الاستفهام، وهو استفهام إنكارى»[3].

**والخلاصة:** أن هذا الاستفهام عند الأئمة محمول على الإنكار، وأن السبب فى هذا الحمل هو تطبيق مذهب الزمخشرى فى همزة الاستفهام إذا توسط بينها وبين المستفهم عنه واحد من حروف العطف الثلاثة: (الواو - الفاء - ثم).

أما على مذهب الجمهور القاضى بأن الهمزة مقدمة من تأخير فالاستفهام يكون للتقرير قطعا كما تقدم بيان ذلك مرات.

وهذا هو الذى نجزم به هنا، بدلالة المقام، وهو الذى يكون عليه المعوَّل فى تحديد المراد من الاستفهام تقريراً أو إنكاراً. والله - هنا - يلزمهم بمضمون الرؤيا إلزاما. وهذا يناسبه التقرير لا الإنكار.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿أو لم يروا..﴾** الواو للعطف على **﴿والذى قال لوالديه أف لكما، أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى﴾**.

والهمزة مقدمة من تأخير، والاستفهام تقريرى يوقفهم الله فيه على خلقه السموات والأرض، ليقرر عليه قدرته على إحياء الموتى. والتقدير: قد رأوا أما تطبيق مذهب الإمام الزمخشرى فى الهمزة - هنا - فيأباه المقام.

* **﴿أن الله الذى خلق السموات والأرض. .﴾** هذه الجملة هى معمول الرؤيا العلمية

---

(١) تفسير أبى السعود (٨/ ٨٩).

(٢) روح المعانى (٢٦/ ٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٦٣).

المستفهم عنها على وجه التوقيف والتقرير.

وتوكيد الخبر فيها بـ «أن» واسمية الجـملة لأن مضمون الكلام حقيقة من عظميات الحقائق وحقها أن تصاغ فى أساليب عظيمة مثلها.

* ﴿ولم يعى بخلقهن﴾ احتـراس وتمدُّح. احتراس لدفع ما يتـوهم ثبوته، من أن الله أصابه جهد وإعيـاء من جراء خلقـه السموات والأرض. وتمدُّح بكمـال قـدرة الله - عز وجل - وهذا من صور الإدماج البديع.

وإجراء ضميـر العقلاء على السموات والأرض، وهما جمادات، تفـخيم لشأنها، ولفت أنظار العباد إلى بديع صنعها، وإحـكام نظامها. فنُزِّل السموات والأرض منزلة العقلاء من أجل إفادة هذا الغرض.

فإن كان هذا التنزيل مجازاً فـفى الكلام استعارة مكنية قرينتها إجـراء ضمير العاقل عليها.

* ﴿بقادر على أن يحيى الموتى﴾ هذه الفقرة من تمام معمول الرؤيا العلمية المستفهم عنها فى صدر الآية.

* ﴿لم يعيى بخلقهن﴾ معترض بين جزئى معمول الرؤيا ودخول حرف الجر ﴿بـ﴾ على خبر ﴿إن﴾ لتوثيق صلة المسند بالمسند إليه.

وإيثار المـصدر المؤول ﴿أن يحيى الموتى﴾ لصـلاحيـة المصـدر المؤول للدلالة على الاستقبال لاشتماله على الزمن، دون المصدر الصريح.

* ﴿بلى﴾ للإيجاب بعد النفى. أى: بلى قادر والنفى المجاب هنا هو إنكارهم البعث.

وليس النفى المعارض بـ «لـم» الداخلة على فعل الرؤيا. لأنه عاد إثبـاتا مع همزة الإنكار، وبلى تأتى كذلك جواباً للإيجاب رأساً فى بعض المواضع.

* ﴿إنه على كل شىء قدير﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام الذى قـبله والتوكيد فى الخبر لأنه حقيقة عظيمة كما مر.

* * *

٨ - ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ، أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ، قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤].

**الدراسة والتحليل:**

تروى هذه الآية مشهدا من مشاهد القيامة. هذا المشهد يقع بعد القضاء بين العباد، ثم يُعْرض معسكر الكفر وأهله على النار. وهم كانوا يكذبون بها فى حياتهم الدنيا ويصفون الوعد بها، والحديث عنها بأنه أسطورة من أساطير الأولين وخرافاتهم.

وبينما هم يُدْفعون نحوها ليدخلوها خالدين يسمعون صيحة الحق تُدوِّى فى آذانهم: ﴿أليس هذا بالحق﴾؟ فيجيبون - وقد مضى عصر التكذيب - بلى، وربنا.

ولأول مرة يحلفون بربهم صادقين. ولكنه صدق هو حجة عليهم لالهم.

وهذا الاستفهام أجمع الأئمة وأهل الذكر على أنه استفهام تقرير وتبكيت وتحسير

فقد دخلت همزة الإنكار والنفى على «ليس» فنفت النفى الحاصل منها، فصار المعنى إثباتا، أى تقريراً على ما يتولد عنه من المعانى الثانية التى تناسب المقام، ثم يلقى أولئك الكافرون فى النار، وأنفسهم مملوءة حسرة وغما.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**ويوم يعرض الذين كفروا على النار**﴾: يوم يعرض كناية عن موصوف هو يوم القيامة.

وبناء الفعل ﴿**يعرض**﴾ لما لم يسم فاعله؛ لأن الغرض يتحقق بالعرض نفسه، ولا يتوقف على تعيين الفاعل.

والواو فى ﴿**ويوم يعرض**﴾ الأظهر أن الواو للاستئناف وليست للعطف، وهو مسوق لبيان مصير الذين كفروا، ومنهم منكرو البعث. وإيثار الموصول وصلته ﴿**الذين كفروا**﴾ لبيان سبب ما استوجب عرضهم على النار، وهو الكفر.

* ﴿**أليس هذا بالحق**﴾ هذه الجملة معمول القول محذوفا، تقديره: يقول الله لهم.

ودخول حرف الجر ﴿بـ﴾ على خبر ﴿ليس﴾ إشارة إلى تمكن تلبس المسند ﴿الحق﴾ بالمسند إليه ﴿هذا﴾.

وجئ بالمسند إليه اسم إشارة موضوعا للمشار إليه القريب، إيماء إلى قرب النار المعروض عليها منهم فيها.

والجار والمجرور ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف تقديره كائنا ومستقرا أنه الحق. إفحاما لهم.وتكذيبا لما كانوا يقولون فى الحياة الدنيا.

* ﴿قالوا: بلى، وربنا﴾ فصلت جملة قالوا عما قبلها، لأنها إما جواب الاستفهام: (أليس هذا بالحق). أو جوابا عن سؤال نشأ عن جملة الاستفهام فيكون بين الجملتين شبه كمال الاتصال. والأول أولى.

و ﴿بلى﴾ إيجاب بعد النفى[1]. وقد أكدوا الجواب بالتوكيد القسمى لما شاهدوه من قوة ظهور الحق اللائح أمامهم. والمقسم عليه محذوف تقديره بلى وربنا إنه الحق.

* ﴿قال..﴾ وفصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى قطعا. والقائل هو الله عز وجل. ولو كان القائل غيره لوجب ذكره صريحا لا مضمراً.

* ﴿فذوقوا العذاب﴾ الفاء يجوز أن تكون الفاء الفصيحة، العاطفة على محذوف ينسحب عليه الكلام.

والتقدير: إذا تقرر هذا فذوقوا.

وفى ﴿ذوقوا﴾ استعارة تصريحية تبعية، لجريانها فى الفعل، مستعارة لشدة الاحساس بالألم. أو مكنية بتشبيه العذاب بالطعام المعد لهم فى النار، ثم حذف المشبه به ودُلَّ عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه، وهو الذوق، وفى هذا تهكم بهم وتحسير لهم.

* ﴿بما كنتم تكفرون﴾ بيان لسبب ذوقهم العذاب والباء سببية. أى بسبب كفركم وعنادكم.

* * *

---

(١) أى النفى اللفظى. وإلا فإن معنى مجموع التركيب هو التقرير والإثبات، وقد أشرنا من قبل إلى أن «بلى» تأتى جواباً للإيجاب الصريح، وسيأتى فى الخاتمة إن شاء الله.

٩ - ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ، بَلاغٌ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

**الدراسة والتحليل:**

يوجه الله عز وجل الخطاب فى هذه الآية إلى رسوله الكريم آمرًا إياه بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل من قبله، كإبراهيم ونوح وموسى عليه السلام. ثم يضع بين يديه حقائق تطمئن قلبه وتسلى همه، وتذهب غيظه من هؤلاء الشياطين.

فهؤلاء الكفرة الفجرة الله لهم بالمرصاد، ولهم يوم لا ريب فيه، فمهما طالت سلامتهم فالعذاب فى انتظارهم. ويوم يحل بهم العذاب ينسون ما كانوا فيه من نعيم من قبل، وأن تذكروه بدا لهم كأنه لحظة عابرة مرت بهم. ثم حل بهم البؤس والشقاء الأبدى.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام: **﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾**.

وهو استفهام نفى، أى لا يهلك أحد غير القوم الفاسقون أو هو تقرير بإثبات الهلاك لهم وحدهم والنفى فيه أظهر، بل هو منطوق العبارة. وبعض الأئمة تجاوزه ولم يبد رأيا فيه لوضوح المراد منه.

**والخلاصة:** أن هذا الاستفهام من حيث الظاهر الجلى من معناه استفهام نفى. ويردف على معنى النفى فيه التهديد والوعيد الشديدان فإذا نظرنا إلى جانب إثبات الهلاك لهم كان معنى الاستفهام هو التقرير. ويردف عليه ما ردف إن كان استفهام نفى من المعانى الثانية، وهما التهديد والوعيد المحتوم.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾** الفاء للتفريع على ما تقدم أو هى فاء الفصيحة العاطفة على شرط محذوف ينسحب عليه الكلام والتقدير: إذا عرفت مصيرهم السىء هذا فاصبر كما صبر أولوا العزم.

وفى **﴿كما صبر أولوا العزم﴾** تشبيه طرفاه عقليان. المشبه هو الصبر المأمور به ﷺ. والمشبه به هو صبر أولى العزم من الرسل:

نوح - إبراهيم - موسى - عليهم السلام، أما وجه الشبه فهو: فى القوة والجمال.
والصبر الجميل هو القوى المستمر الذى لا ملل فيه ولا شكوى لأحد غير الله.

* **﴿ولا تستعجل لهم﴾** وصلت هذه الجملة بما قبلها **﴿فاصبر﴾** بالواو لأن بين الجملتين التوسط بين الكمالين: كمال الاتصال، وكمال الانقطاع. لاتفاقهما فى الإنشائية لفظا ومعنى. الأولى أمر، والثانية نهى.

وفى الجملة إيجاز بالحذف، حيث حذف معمول الاستعجال وهو العذاب.

وفى هذا الحذف شدة تناسب بين النهى عن الاستعجال وبين حذف معمول له، ليكافئ اللفظ المعنى. فحذف العذاب من اللفظ شبيه نهيه ﷺ عن استعجال وقوعه.

* **﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾** هذه الجملة استئناف مسوق لتعليل النهى عن استعجال العذاب. أى لا تستعجل لهم العذاب لأنه نازل بهم لا محالة حسبما اقتضته حكمة الله العلى القدير.

وفى **﴿يوم يرون ما يوعدون﴾** كناية عن موصوف، هو يوم القيامة. وأوثرت على التصريح لاشتماله على ما فيه نكاية لهم، وهو رؤيتهم العذاب الذى وعدوا به فى الدنيا كما أن فى **﴿ما يوعدون﴾** كناية عن موصوف هو العذاب نفسه.

وبناء الفعل **﴿يُوعدون﴾** لما لم يسم فاعله له دلالتان بيانيتان:

- الأولى: إن الغرض هو وقوع الموعود به فى نفسه دون افتقاره إلى تعيين فاعل محدد.
- والثانية: لسبق العلم بالفاعل، وهو الله عز وجل.

* **﴿لم يلبثوا إلا ساعة﴾** جملة قصرية المقصور فيها لبثهم منعمين فى الحياة الدنيا.
والمقصور عليه هو ساعة.

وطريقه النفى والاستثناء. والقصر - هنا - باعتبار حال المتحدث عنهم تخييلى، أى يقع فى خيالهم أنهم ما عاشوا منعمين فى الحياة الدنيا إلا جزءاً من نهار.

* **﴿من نهار﴾** هذا الجار والمجرور **﴿من نهار﴾** له سر بلاغى بديع. وأضاف إلى أصل المعنى، وهو قصر المدة الملبوثة فى نعم الدنيا معنى لطيفا بالغ الدقة والروعة فالنظم

الحكيم لم يكتف بالإطلاق، حيث لم يقل ﴿**إلا ساعة**﴾ بل قيدها بساعة ﴿**من نهار**﴾ ولم يقيدها بساعة من ليل. فما سر ذلك بلاغيا؟

يتضح لنا السر البلاغى إذا حددنا المعنى المراد للنظم هنا. وهو بيان الزمن الذى لبثوه مع شدة الاحساس بنعم الله عليهم، وهذا لا يناسبه خلو الزمن (ساعة) من التقييد بنوع الزمن ليلا، أو نهاراً، لأن مطلق ساعة لا يُعين على تحديد المعنى المراد من الاحساس بالنعمة وتقييدها بالليل لو قيل (ساعة من ليل) لا يفى بالمعنى المراد من النظم الحكيم؛ لأن الليل وقت غفلة، ونوم. والنوم أخو الموت فى زوال الاحساس.

أما حين قيَّد النظم ﴿**ساعة**﴾ بأنها ﴿**من نهار**﴾ فقد كمل المعنى. لأن النهار وقت حركة وانتباه، وإحساسهم فيه بالنعمة يكون أقوى ما يكون.

هذا هو المعنى البديع الدقيق الرائع الذى نجم عن هذا القيد «اللطيف» ﴿**ساعة من نهار**﴾ أى أن إحساسهم بالنعمة كان قصيراً جداً لا يساوى شيئا مع خلودهم فى النار التى وقودها الناس والحجارة.

ومما يؤكد هذا تنكير المقيد ﴿**ساعة**﴾ والقيد ﴿**نهار**﴾ فدلالة التنكير فيهما على التحقير، وأى تحقير. فسبحان من أنزل هذا الكتاب العظيم.

وفى العبارة تشبيه: شبه فيها لبثهم منعمين فى الدنيا، بلبث من عاش منعما ساعة. ووجه الشبه هو قصر المدة، أو تفاهة النعمة التى أحسوا بها.

وأداة التشبيه «كأن» من ﴿**كأنهم**﴾ لتوكيد التشبيه لا للشك. بدلالة المقام.

* ﴿**بلاغ**﴾ إيجاز بديع، أى هذا بلاغ، والسر البلاغى فى حذف المسند إليه (**هذا**) لتوفير العناية بالمسند ﴿**بلاغ**﴾ وتنكيره للتعظيم والتفخيم.

* ﴿**فهل يهلك إلا القوم الفاسقون**﴾ أوثرت ﴿**هل**﴾ لتحقق الهلاك لهم. والجملة قصرية قصر فيها الهلاك وهو صفة، على القوم الفاسقين وهو موصوف. والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

* * *

## سورة محمد ﷺ

١ - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

**الدراسة والتحليل:**

سورة محمد ﷺ من السور المدنية عند عامة أهل العلم، ويرى نفر منهم أنها مكية، وهو لا يصح. ومما يؤكد أنها مدنية ورود الحديث فيها عن المنافقين. وظاهرة النفاق لم تظهر إلا فى المدينة بعد الهجرة.

نزلت هذه السورة بعد سورة الحديد، وقبل سورة الرعد وكان ترتيب نزولها السادسة والتسعين بين سور القرآن كلها، ومن خصائصها الأسلوبية قصر الآيات، وسرعة الإيقاع، وبناء فواصل آياتها على الهاء والميم ضمير الجمع الغائب. هذا هو الغالب عليها. وأحيانًا بنيت فواصل منها على الكاف والميم ضمير الجمع المخاطب، أو الهاء والألف ضمير المؤنث الغائب.

ولنزولها عقيب الهجرة كان مطلعها حديثًا عن الذين كفروا وأشركوا بالله آلهة أخرى.

وأول استفهام ورد فيها هو قوله تعالى: ﴿**أفلم يسيروا فى الأرض..**﴾ وهو حديث عن مشركى العرب قبل فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا.

ولم يقف الأئمة أمام هذا الاستفهام، ومن وقف منهم أمامه أبدى فيه كلمة قصيرة دون أن يبين ما المراد منه فأبو السعود قَدَّر التركيب بقوله: أقعدوا فى أماكنهم ولم يسيروا فى الأرض (فينظروا)[1].

وتابعه الإمام الألوسى، مكتفيًا بنقل عبارته[2].

---

(١) تفسير أبى السعود: (٨/ ٦٤).

(٢) روح المعانى (٢٦/ ٤٥).

الإمامان لم يقولا إن المراد من الاستفهام الانكارأو التقرير. وإن كنا قد تعودنا منهم أنهم فى مثل هذا الاستفهام يقولون إنه استفهام إنكارى. ولعلهما أرادا هذا المعنى هنا.

أما الإمام الطاهر بن عاشور فقال إن الاستفهام فى الآية تقريرى. وهذا خروج منه على ما اشتهر عنه من القول بالإنكار فى نظائر هذا الموضع[1].

**والخلاصة:** أن الأئمة لم يولوا المراد من هذا الاستفهام أى اهتمام، وظاهر كلام الإمامين أبي السعود والألوسى أنه استفهام إنكار. وذهب الإمام الطاهر إلى أنه تقرير والذى نميل إليه -نحن- دائمًا في مثل هذا الاستفهام أنه للتقرير، بدلالة المقام. ويردف على التقرير من المعانى الثانية التهديد والوعيد، ثم الحث على السير فى الأرض للاعتبار بما أحله الله من عذاب بمكذبى الرسل، ردعا لتكذيب مشركى مكة برسالة محمد ﷺ.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿أفلم يسيروا فى الأرض..﴾** الهمزة مقدمة من تأخير كما ذهب الجمهور، والاستفهام تقرير لهم بذلك السير، لكنه -أى الله- ينعى عليهم عدم اعتبارهم بما شاهدوه فى أسفارهم من آثار تدمير الله الذين كفروا وعصوا رسله، كعاد وثمود وأهل سبأ. ويهددهم على هذه الغفلة، ويحثهم على الاعتبار بما حدث لأمثالهم.
* **﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** الفاء عاطفة لجملة النظر على جملة السير.

و**(كيف)** واقعة موقع معمول النظر، وليست استفهامية ويتولد عن **﴿فينظروا كيف كان..﴾** التعجيب مما حدث للأمم الغابرة. والمعنى: فينظروا ويتأملوا فى كيفية عقاب الله لهم.

ومن البديه أن فى **(ينظروا)** استعارة تصريحية تبعية للتأمل والتفكر العميق، الشبيه بالنظر الحسى فى قوة الإدراك.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٨٧).

* ﴿**دمَّر الله عليهم**﴾ استئناف بيانى جوابًا على سؤال تضمنته الجملة الأولى، حاصله: كيف كانت عاقبتهم فكان الجواب: دمَّر الله عليهم. فبين الجملتين شبه كمال الاتصال والسر البلاغى فى حذف مفعول دمَّر. أفاد عموم المفاعيل أى دمَّر الله عليهم كل شىء. وفيه كناية بالغة الدقة عن تدميرهم هم أنفسهم.

وقال: (**دمَّر الله عليهم**) ولم يقل: دمرهم لتهويل التدمير الذى حل بهم، بما يتضمنه حرف الاستعلاء (**على**) فى (**عليهم**) فما فى النظم أبلغ من: دمرهم الله.

* (**وللكافرين أمثالها**) كناية عن أن ما حل بمن قبلهم يحل مثله بمشركى مكة، إذا لم يرعووا ويؤمنوا والجملتان الخبريتان (**دمَّر الله عليهم**) و(**للكافرين أمثالها**). مستعملتان فى التخويف والوعيد على سبيل المجاز المرسل.

* * *

٢ - ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤].

**الدراسة والتحليل:**

قبل هذه الآية كان قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

فجاءت الآية موضوع الدراسة تنفى وتقرر: تنفى المساواة بين الفريقين فى الدار الآخرة، وتقرر أن الذين كفروا يعبدون أهواءهم كأنها آلهة يتمثل أمرها ويجتنب نهيها.

وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام: ﴿**أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله..**﴾.

وقد تقدمت لنا نظائر كثيرة لهذا الاستفهام، ورأينا الأئمة يقولون فى كل ما تقدم من صوره إن الاستفهام فيه لنفى أو إنكار المساواة بين الطرفين. فليكن ما أجمعوا عليه من قبل هو ما نسجله هنا توخيا للإيجاز، فالمراد من هذا الاستفهام - إذًا - هى نفى

المساواة، ويردف عليه من المعانى الثانية: بشارة المؤمنين، ونذارة الكافرين.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾** الفاء تفريعية عاطفة فرعت ما بعدها من التفرقة بين المؤمنين وحسن مصيرهم، والكافرين وسوء مصيرهم، على ما قبلها من رضوان الله على المؤمنين وغضب الله على الكافرين، كما عطفت ما بعدها على ما قبلها والهمزة مقدمة من تأخير، وكان الأصل أن يقال: فأمن. ولما كان للاستفهام صدارة الكلام قدمت همزته على أداة العطف.

وفى **﴿من كان على بينة من ربه﴾** كناية عن موصوف هم المؤمنون العاملون الصالحات. وتنكير (بينة) للتعظيم وجلالة الشأن.

وأوثر الاسم (رب) من بين الأسماء الحسنى لما فيه من خصوصية معنى الرعاية. واضافته إلى ضمير المتحدث عنه للتشريف والتكريم.

وفى العبارة مجاز فى **(على بينة)** ونوعه الاستعارة التمثيلية، حيث شبهت صورة اهتداء المؤمن بالبينات وتمكنه منها بصورة ممتطى دابة ذلول تسير به فى سلالة وتسعفه بتحقق المرغوب فيه، بجامع الاطمئنان وتحقيق الرغبات الشريفة فى كل منهما.

أو استعارة مكنية، شبهت فيها البينة بتلك الدابة الذلول الميمونة الخطو، ثم حذف المشبه به، ورمز له ببعض لوازمه، وهو الاستعلاء. وبخاصة نسبة تلك الدابة الذلول إلى تسخير الله إياها لمنافع عباده الصالحين.

* **﴿كمن زين له سوء عمله﴾**؟ هذه كناية عن الذين كفروا. كناية عن موصوف.

وأوثر بناء الفعل (زين) لما لم يسم فاعله، لأن المعول عليه هو تزيين سوء العمل فى نفسه، أيًا كان فاعله، وقد جاء هذا الفعل مسنداً حينًا لله، فى النظم الحكيم، وحينا آخرجاء مسندًا للشيطان. فمن مواضع إسنادة لله قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨] ومن إسناده إلى الشيطان قوله تعالى: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ. .﴾.

فما جاء الإسناد فيه إلى الله فالاسناد فيه حقيقة عقلية لأن الله هو فاعل التزيين فى الواقع.

وما جاء الإسناد فيه إلى الشيطان فهو مجاز عقلى من الإسناد إلى السبب المؤثر.
والإضافة فى (سوء عمله) من إضافة الصفة إلى الموصوف.

* (**واتبعوا أهواءهم**) وصلت بما قبلها بالواو لما بينهما من التوسط بين الكمالين؛ لأنهما خبريتان لفظا ومعنى وفى (**اتبعوا أهواءهم**) استعارة بالكناية، شبهت فيها الأهواء بالدعاة إلى السوء، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه هو الاتباع. وسرها البلاغى تهويل وتفظيع سيطرة أهوائهم عليهم، واستعبادها لهم.

وفى الآية -بعد ذلك صورتان بلاغيتان، إحداهما صورة من صور البديع، وهى اللف والنشر المرتب، حيث ذكر أمران أحدهما إثر الآخر، وهما: الحديث عن الذين آمنوا، ثم الحديث عن الذين كفروا فى الآية رقم (١٣) السابقة على هذه الآية مباشرة ثم استؤنف الحديث عنهما فى الآية موضوع الدراسة وفق الترتيب فى الآية التى قبلها: فَقُدِّم فى الآية الثانية ﴿**أفمن كان على بينة من ربه**﴾ ما يخص ما قدم فى الأولى ﴿**إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات..**﴾.

وأُخرِّ فى الآية الثانية ﴿**كمن زين له سوء عمله**﴾ ما يخص ما أُخِّر فى الآية الأولى: ﴿**والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام**﴾.

وهذا ما يسمى عند البلاغيين باللف والنشر المرتب.

وسره البلاغى التفنن فى العبارة، وتنشيط الذهن وتيسير إدراك مرامى الكلام مع توكيدها.

أما الصورة الثانية فهى التشبيه السلبى الذى تقدمت الإشارة إليه مرات. والنظم القرآنى الحكيم يصوغ هذا النوع من التشبيه فى مقام الموازنات والمقارنات بين الأطراف المتباينة والغرض البلاغى فيه نفى المساواة بين الطرفين فى الحق والباطل، أو الخير والشر.

ويكون الغرض من سوق هذا التشبيه نفى وجه الشبه بينهما عند من يتوهم وجود

وجه شبـه بينهما، والطرف الأول أو المشبـه فى الآية: هو من كان على بينة من ربه، والطرف الثانى أو المشبه به هو من زين له سوء عمله. أى لا يستويان لا فى الحياة ولا فى الممات. ولا فى الآخرة.

* * *

٣ - ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى، وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

**الدراسة والتحليل:**

هذه الآية استئناف وامتداد للحديث الذى تقدم فى الآية رقم (١٤) وقد بدأت بوصف جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأنواع النعيم الذى أعده لهم من المشروبات الأربعة، التى ذكرت فى الآية:

الماء الدائم على طبيعته النقية، والألبان التى لم يتغير ولن يتغير طعمها، والخمر اللذيذة التى يتذوق حلاوتها الشاربون، والعسل الصافى المبهج للنفوس، ثم ألوان الفواكه والثمار، ويعلو فوق هذا كله عفو الله الدائم عنهم، ومحو سيئاتهم.

هذا هو وصف نعيم أهل الإيمان والعمل الصالح.

أما الذين كفروا فهم خالدون فى العذاب الأليم، شرابهم الحميم وهو الماء الشديد الحرارة، يُسْقَونه فيقطع أمعاءهم ولابد لهم من شرابه. ولابد من تقطيع أمعائهم كلما سقوه وإنما درجنا هذه الآية وليس فيها استفهام صريح لأن الاستفهام فيها ملحوظ لحظًا قويًا، ونترك الإمام جار الله الزمخشرى يزيح اللثام ببيانه الرائع عن هذا الاستفهام المخبوء فى طوايا النظم البديع. قال رحمه الله «فإن قلت: ما معنى قوله تعالى ﴿**مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار**﴾: ﴿**كمن هو خالد فى النار**﴾؟

قلت: هو كلام فى صورة الإثبات ومعنى النفى: - أى ومعناه النفى - والانكار، لانطوائه تحت حكم كلام مُصَدَّرٍ بحرف الإنكار، ودخوله فى حيزه، وانخراطه فى

سلكه. وهو قوله تعالى ﴿**أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله**﴾ فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد فى النار؟ أى : كمثل جزاء من هو خالد فى النار»[١].

جلىَّ الإمام جار الله - لله دره - صورة هذا الاستفهام الذى غمض موضعه، وسرى فى طيات النظم كما يسرى الماء فى العود الأخضر.

وقد صرح فى ثنايا كلامه بأن هذا الاستفهام معناه الإنكار، أى وقوع أن يكون مصير المؤمنين مثل مصير الكافرين.

ثم انتقل إلى الكشف عن دقيقه أخرى من دقائق البلاغة القرآنية. مصوراً لها فى سؤال وجواب فقال: «فإن قلت: فلِمَ عُرِّىَ من حرف الإنكار؟ وما فائدة التعرية؟ قلت: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوِّى بين المتمسك بالبينة، والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التى تجرى فيها تلك الأنهار، وبين النار التى يُسْقى أهلها الحميم»[٢].

لقد أجاد الإمام جار الله أيما إجادة، فغاص وراء المعانى الخبيئة، وجلىَّ مرامى الكلام أروع التجلية جزاه الله خير الجزاء.

وقد نهج الأئمة منهج الإمام الزمخشرى واهتدوا بما قال مع اختلاف الألفاظ. وما ذكره الإمام جار الله يغنينا عن اقتباس ما قالوه توخيا للإيجاز مع الإشارة إلى مواضع أقوالهم فى مصنفاتهم[٣].

**والخلاصة**: أن الاستفهام فى الآية مجازى والمراد منه نفى وإنكار المساواة بين المؤمنين المتقين ومصيرهم الكريم، وبين أهل الكفر والمعاصى وما أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب الأليم.

### أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**مثل الجنة التى وعد المتقون..**﴾ هذه الآية الجامعة استئناف مسوق لتفصيل ما أعده الله لمن كان على بينة من ربه، وهم المؤمنون العاملون الصالحات. ومصير الذين

(١) الكشاف (٣/ ٥٣٣). (٢) الكشاف (٣/ ٥٣٤).

(٣) أبو السعود (٨/ ٩٦) روح المعانى (٢٦/ ٤٧) البحر المحيط (٨/ ٧٧) التحرير والتنوير (٢٦/ ٩٤).

كـفروا وعـصوا الرسل، والمثل هو القِّصـة العجـيبـة، والمراد منه فى (**مـثل الجنة**) الوصف العظيم الذى لا نظير له.

* ﴿**التى وُعِدَ المتقون**﴾ هذا وصف مخصـص للمعنى المراد من الجنة، أى هى الجنة فى الحياة الآخرة.

وفى (**المتقون**) إيجاز قـصر، لأن المعنـى المراد من هذا الوصف هو الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الصالحات واجتنبوا السيئات.

* ﴿**فيها أنهـار من ماء غير آسن..**﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلـها للاستئناف البيانى؛ لأن النفس تتطلع إلى وصف الجنة والوقوف على مثلها ما هو؟ فجاءت هذه الجملة جوابًا لذلك التطلع.

وتقديم الجار والمجرور (**فيها**) على (**أنهار**) لأن الحديث مسوق -أصلاً- لتفصيل ما فى الجنة، فقدم الظرف (**فيها**) لاشتماله على ضمير الجنة، وهو الهاء.

وتقديم أنهار الماء على نظائرها لشدة احتياج الأحياء إليه.

ووليه أنهار اللبن لأنه غذاء، فرتبته تلى رتبة الماء فى الأهمية.

كما قُدِّم أنهار الخمر الطيب، لأنه من العنب، وقيمته الغذائية تلى قيمة اللبن.

وقد وصفت هذه المشروبات بأوصاف تنفى عنها الكدر، فالماء لم يتغير له طعم ولا رائحة ولا لون، وكذلك اللبن فقد كنى النظم الحكيم بعدم تغير طعمه عن سلامته من كل المفسدات.

ووصفـت الخمر بـأنها (لذة) لينفى عنهـا آفات خـمر الدنيـا من تغييـب العـقول والأضرار الصحية والنفسية التى تغتال شاربها.

ولما كان العسل أكـثر كثافـة من الماء واللبن والخمر وصف بما يلائم طبيـعته، وهى التصفية من جميع الشوائب والأخلاط.

وتنكير (**أنهار**) فى المواضع الأربعة لتفخيم شأنها وكثرتها.

* ﴿**ولهم فيهـا من كل الثمرات**﴾ الضميـر فى (لهم) عائد على (**المتقون**) و(**من**) بيانية، والمراد مـن (**الثمرات**) أنواع الفواكـه التى تشتهـيها أنفـسهم. وهذه الجمل الخـبرية

تفصيل للإجمال فى قوله تعالى: **﴿مثل الجنة التى وعد المتقون﴾**.

وفيها إبهاج وانتشاء لنفوس الموعودين بهذا النعيم الكريم الدائم.

* **(ومغفرة من ربهم)** هذا من تمام الإنعام على **(المتقون)** فإن عفو **الله** تعالى عنهم أهلهم للخلود فى هذه المسرات التى لا يشوبها كدر، وما هم منها بخارجين.

* **﴿كمن هو خالد فى النار﴾**، أى: أمن هذا هو جزاؤه عند ربه كمن غضب **الله** عليه ولعنه وأعد له نارًا وقودها الناس والحجارة، والمراد نفى المساواة بين الفريقين، وفى التركيب -كما ترى- إيجاز بالحذف لطيف المسلك دل عليه أداة التشبيه، وهى الكاف التى وليها المشبه به، ولم يذكر المشبه صريحًا فى الكلام. فكان فيه لفت قوى للعقل، لينظر ويتأمل حتى يقف على المشبه على الصورة التى اهتدى إليها الإمام جار **الله** الزمخشرى، كما تقدم فى مبحث الدراسة والتحليل.

والعبارة **﴿كمن هو خالد فى النار﴾** كناية عن موصوف هم الذين كفروا. وعُدِل عن الموصول وصلته (الذين كفروا) إلى **﴿كمن هو خالد فى النار﴾** تلويحًا إلى جزاء الكفر. وتهويل شأنه.

وتوسط الضمير **(هو)** بين المسند إليه **(من)** والمسند **(خالد)** لتوكيد الصلة بينهما، ولتفخيم التركيب.

* **﴿وسقوا ماء حميمًا﴾** جُمع الضمير -هنا- باعتبار معنى (مَنْ) وترددها بين الإفراد والجمع بمعونة القرائن اللفظية والمعنوية.

وبناء الفعل **(سُقُوا)** لما لم يسم فاعله لإفادة معنيين بلاغيين:

**الأول:** تحقق الغرض من وقوع الحدث نفسه **(الإسقاء)** دون توقف على تعيين الفاعل.

**الثانى:** الإشارة إلى أن ذلك الماء لفظاعته لا يشربونه هم بأنفسهم، بل يُسْقى لهم. فيقطع من حرارته أمعاءهم، هذا، ويظهر من المقابلة بين مشروبات أهل الجنة الطيبة الطعم، اللذيذة المذاق، وبين مسقيات أهل النار شدة ما بين الفريقين من فروق فى الجزاء والمصير، كما كانت الفروق بينهم جد متفاوته فى الحياة الدنيا: إيمان وكفر، تقوى وفجور استقامة وفسوق.

* وتضعيف الفعل (قطَّع) للدلالة على تكرار الحدث كلما سُقوا حدث التقطيع.

وقد روعى فى هذه الآية اللف والنشر المرتب مثلما كان فى الآية السابقة عليها:

المقدم فيها للمقدم فيما قبلها، والمؤخر فيها للمؤخر فيما قبلها.

تلك عقبى الذين اتقوا، وعقبى الكافرين النار.

* * *

٤ - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾

[محمد: ١٦].

**الدراسة والتحليل:**

تتحدث هذه الآية عن المنافقين، كانوا يحضرون مجالس رسول الله ﷺ، يحضرونها بأجسامهم ويغيبون عنها -وهم حضور- بعقولهم وقلوبهم، لأنهم لم يحضروها حبًّا فيها، بل خداعًا ورياء.

فإذا انفض المجلس وتفرقوا، سألوا وهم فى طريق العودة إلى شئونهم، سألوا أصحاب رسول الله ﷺ عما كان يدور فى المجلس. وعما قاله ﷺ.

وقد صوَّر النظم الحكيم هذا فقال حاكيًا عبارتهم: ﴿**ماذا قال آنفًا**﴾؟

وكلام الإمام الزمخشرى فى المراد من هذا الاستفهام يفيد أنه للسخرية والاستهزاء[١].

وكذلك فعل الإمام أبو السعود فقال معقبًا على الاستفهام «على طريقة الاستهزاء وإن كان بصورة الاستفهام»[٢] وجوَّز الإمام البيضاوى أن يكون الاستفهام مجازيًا مستعملاً فى الاستهزاء -كما قالا- وأن يكون حقيقيًا، حيث كانت قلوبهم مشغولة[٣].

أما الإمام الطاهر بن عاشور فقد ردَّد الاستفهام بين عدة معان منها الاستهزاء، وقد أورده آخرا كأنه ضعيف عنده[٤].

---

(١) الكشاف (٣/ ٥٣٤).
(٢) تفسير أبى السعود (٨/ ٩٦).
(٣) تفسير البيضاوى (٢/ ٤٠٣).
(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٩٩).

**والخلاصة**: أن هذا الاستفهام تباينت فيه آراء الأئمة والغالب عندهم أنه استفهام مجازى المراد منه السخرية بالقائل والمقول معًا.

والوجه الآخر أن يكون الاستفهام حقيقيًا. ولم يتحمسوا لهذا الوجه.

والذى يلوح لنا أنه استفهام حقيقى، وليس السؤال فيه عن أصل ما قال، بل عن معناه. فهم قد سمعوا ما قاله ﷺ، ولكن المنافقين لم يفقهوا معانى قوله عليه السلام، سواء كان ما قاله قرآنًا تلاه عليهم أو كلامًا من عنده.

وسيأتى بيان لهذا فى مبحث أسرار النظم وبلاغياته مع الإشارة إلى ما أورده الإمام الطاهر.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**ومنهم من يستمع إليك**﴾ استطراد فى الحديث عن الذين كفروا، الذين ورد ذكرهم قبل هذه الآية، وعقد النظم الحكيم موازنات بينهم وبين الذين آمنوا.

وجاءت هذه الآية تفرد طائفة المنافقين بهذا السلوك وهو حضور مجالس رسول الله ﷺ مع تشاغلهم عما يقوله فيها.

فالضمير فى (منهم) عائد على الذين كفروا. و(مِنْ) فيه إما تبعيضية، أو بيانية.

وقيل (يستمع) ولم يقل: يسمع ليصف حال المنافقين وصفًا دقيقًا كاشفًا عما فى طواياهم، وهو التظاهر بأنهم شديدو الاهتمام بما يقال، شديدو الحرص عليه وحالهم الظاهرة تباين حالهم الباطنة.

وذلك لأن: استمع. أبلغ من سمع، فالسماع قد يكون بغير إرادة السامع. أما الاستماع فيدل على معنيين بلاغيين يفارق بهما الاستماع السماع.

**الأول**: الاستماع لا يكون إلا بقصد وإرادة من المستمع، أما السماع فقد يكون عفويًا أو اضطرارًا.

**الثانى**: الاستماع يكون مصحوبًا بحرص المستمع، حيث يستجمع له قواه الذهنية، ويقبل على المتكلم بقلبه وعقله.

أما السماع فقد يكون مع الغفلة، وشرود الذهن وانصراف القلب.

لذلك جاء فى النظم الحكيم (**يستمع**) ليكشف عن تكلف المنافقين وادعاء ما ليس فيهم مكرًا وخداعًا.

وعُدِّى الفعل (**يستمع**) بحرف الجر (إلى) وهو متعد بنفسه إشارة إلى المبالغة فى إظهار الحرص من المنافقين، حتى لكأن كلام النبى ﷺ يجذبهم إليه جذبًا لا يملكون الإنفلات منه.

* ﴿**حتى إذا خرجوا من عندك**﴾ عبَّر- هنا- بـ(حتى) دون الفاء، حيث لم يقل: فإذا خرجوا من عندك، للدلالة إلى طول جلوسهم حوله. فـ(حتى) هنا لانتهاء الغاية، لا لابتداء الغاية كما ذهب الإمام الطاهر بن عاشور. والمعنى على ما قلناه: منهم من يستمع إليك، ويستمر استماعه حتى خروجهم من عندك.

فيكون فى (حتى) كناية عن طول الجلوس عنده ﷺ.

أما (من) فى (**من عندك**) فهى لابتداء غاية الخروج.

وجمع الضمير -هنا- فقال: (**خرجوا**) مراعاة لمعنى (مَنْ) وإن كانت مفردة فى اللفظ.

* ﴿**قالوا للذين أوتوا العلم**﴾ الذين أوتوا العلم كناية عن موصوف، هم أصحاب النبى عليهم رضوان الله تعالى، وفى صلة الموصول (**أوتوا العلم**) تعريض بالمنافقين لأنهم - بدلالة المفهوم- هم الذين أوتوا الجهل.

* ﴿**ماذا قال آنفًا**﴾؟ حمل جمهور المفسرين هذا الاستفهام على الاستهزاء.

وأورد فيه الإمام الطاهر وجوها:

منها: السؤال عن المعنى إظهارًا للاهتمام الكاذب، والذى يلوح لنا أنه استفهام حقيقى، إما عن المعنى الذى لم يفقهوه مما سمعوا وإما عن بعض ما فاتهم سماعه لشغل قلوبهم عنه، وشرود عقولهم.

والذى نرجحه هو الأول؛ لأن المنافقين كفار فى الواقع وإن أظهروا الإيمان. ولله

فى الكفار سنة، هى حرمانهم من فـقه معانى كتابه العزيز جزاء وفـاقًا على إعراضهم عنه من أول الأمر. فقد قال الله فيهم:

**﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حـجابا مستورًا* وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه، وفى آذانهم وقراً..﴾** [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

وبهذا يتجـه القول بأن الاستفهام -هـنا- حقيقى لا مجازى. وأن السـؤال فيه عن معانى مـا سمعوا لا عن (أصل) ما سـمعوا من الألفاظ والتـراكيب؛ لأن السؤال عن أصل ما سمـعوا يكشف حقيقتـهم للمؤمنين، والمنافقون شديدو الحرص علـى كتمان كفرهم وما ينبئ عنه. وعلى هذا يكون نعى القرآن علـيهم؛ لأنهم يحضرون مجالس رسول الله ﷺ، خداعًا ومكرًا، وهم فيها زاهدون.

* **﴿أولئك الذين طبع الله عـلى قلوبهم﴾**: التعبير عنهم بـاسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد إيماء إلى بعدهم عن الهداية.

وإيثار الموصول **(الذين)** وكان يمكن أن يقـال: أولئك طبع الله على قلوبهم. إشارة إلى تأصلهم فى الضلال والجهل، حتى صار سجية لهم يُعْرَفون بها.

وفى **(طبع)** استعـارة تصريحية تبـعية، حيث استـعير **(الطبع)** للمنع بجـامع عدم حصول النفع فى كل منهما أو التأثر.

وفى إسناد الطبع إلى اسم الجلالة **(الله)** تهويل لشأنه.

* **﴿واتبعوا أهواء هم﴾** وصلت هذه الجملة بالواو بما قـبلها **(طبع الله)** لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين: كمال الاتصال، وكمال الانقطاع.

وفى **(واتبعوا أهواء هم)** استعارة بالكناية سبق بيانها فى الآية (١٤) من هذه السورة وفى قوله تعالى: **(طبع الله على قلوبهم)** استعارتان أخريان:

الأولى اسـتعـارة بالكنايـة إن أجريناها فـى جملة التـركـيب لا فى طبع وحـدها وإجراؤها هو الآتى:

شبه قلوبهم بالآنية المحكم غلقها بحيث لا ينفذ إليها شىء من خارجها، ثم حذف

المشبه به ودُلَّ عليه بلازم من لوازمه وهو الطبع بمعنى الغلق والختم.

أو استعارة مركبة (تمثيلية) حيث شبه الهيئة الحاصلة من قسوة قلوبهم وعدم تأثرها بدلائل الحق بالهيئة الحاصلة من إحكام الغلق على محال، بحيث يتعذر أو يستحيل نفوذ شيء إلى داخلها. والجامع بين الصورتين هو الصورة الحاصلة من شدة المنع والنفاذ مع ما يترتب عليها من ضياع وحرمان.

وفى هذا دليل على صحة ما أبديناه من أن سؤال المنافقين كان عن معنى ما سمعوا لا عن ما قيل؛ لأن قوله تعالى: **﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾** معناه معنى قوله تعالى: **﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرًا﴾** فالأكنة التى على القلوب لا تمنع السماع، وإنما تمنع حصول المعانى فى النفس.

* * *

٥ - ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً، فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد:١٨].

**الدراسة والتحليل:**

بعد أن بيَّن الله عز وجل ما أعده لعباده المؤمنين المتقين، وما أعده لأهل الكفر والنفاق والفجور، وأزال كل الشبهات التى تحول بين العباد وبين الإيمان والتقوى والعمل الصالح. بعد هذا كله عاد للحديث عن الذين لم تثمر فيهم العظات البينات، وكأنه يقطع عليهم كل الأعذار ويقول لهم:

لقد أبطلنا الباطل، وأزلنا الشبهات، وجلينا الحق أبيض ناصعا، فما الذى ترجونه بعد ذلك حتى تؤمنوا؟ لم يبق أمامكم شيء إلا قيام الساعة، وهى لا تأتى إلا فجأة فإذا جاءت آمنتم بالحق قسرا، فلن ينفعكم ذلك الإيمان لأنه لا فضيلة فيه لكم وقد كذبتم به غيبا، ثم آمنتم به واقعا، آمنتم به لما رأيتموه كما ترون أنفسكم، وكذبتم به لما دعتكم إليه رسلى. والآن قد مضى وقت التذكر النافع. فلوموا أنفسكم، فإيمانكم وكفركم سواء فى عدم الجدوى.

هذا. وقد ورد فى هذه الآية استفهامان:

الأول: (**فهل ينظرون. .**)؟ والثاني: (**فأنَّى لهم. .**)؟

لم يقل الإمام جار الله الزمخشري رأيا صريحا في المراد من الاستفهامين، وكذلك الإمام أبو السعود، أما الإمام الألوسي فقد سكت عن الأول (**فهل ينظرون**) وحمل الثاني على الإنكار[1].

أما الإمام الطاهر بن عاشُّور فقد حمل الاستفهامين معاً على الإنكار[2].

**والخلاصة**: لم يهتم جُلُّ الأئمة، ببيان المراد من هذين الاستفهامين. سوى الإمامين الألوسي والطاهر فقد سكت الأول عن الأول، وحمل الثاني على الإنكار، كما حملهما عليه ابن عاشور.

والذي لاح لنا أن في مثل هذا الاستفهام (**فهل ينظرون إلا الساعة**) وهو كل استفهام صيغ في أسلوب الاستثناء وتعادل فيه طرفاه بالنفي والإثبات صالح لأن يحمل على الإنكار باعتبار، وعلى التقرير باعتبار آخر:

فإذا اعتبرنا جانب النفي كان الاستفهام إنكارياً وإذا نظرنا إلى جانب الإثبات كان الاستفهام تقريرياً، وقد نظر الإمام الطاهر إلى جانب النفي المستفاد من (هل) لذلك قال إن هذا الاستفهام إنكار ومن يحمله على التقرير ناظراً إلى جانب الإثبات كان محقاً. والذي يرشحه المقام - هنا - النظر إلى جانب النفي، أي خلو الشأن من بقاء أي هادٍ يهديهم إلى الإيمان، إلا هادي الساعة، التي لن ينفعهم الإيمان بما كفروا به من قبل بعد قيامها.

أما الاستفهام الثاني فهو للإنكار قطعاً، ويردف عليه من المعاني الثانية التيئيس والإقناط.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (**فهل ينظرون إلا الساعة**) استئناف مسوق لبيان قيام حجة الله على الذين كفروا، الذين لم يذعنوا للنصح، ولم يعتبروا بالنذر، وقد خلت من بين أيديهم ومن خلفهم، وأنهم أضاعوا على أنفسهم كل فرص النجاة والفاء لترتيب ما بعدها من

---

(١) روح المعاني (٢٦/ ٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٣).

النظر وما تعلق به، على ما قبلها من بسط الدلائل وإعراضهم عنها.

* فى **(ينظرون)** استعارة، حيث استعير النظر، وهو أمر حسى، للترقب، وهو أمر معنوى، وسرها البلاغى الإعلام بتحقق وقوع الساعة، حتى لكأنهم ينظرون إليها نظر العين وقت نزول الآية.

وإيثار (هل) تقرير وتوكيد لتحقق مجىء الساعة وفى **(الساعة)** كناية (شرعية) عن يوم القيامة وفى التركيب قَصْرُ صفة، هى الترقب، على موصوف، هو الساعة، قصراً تنزيليا بتنزيل ما عدا ذلك الترقب منزلة العدم.

* **(أن تأتيهم بغتة)**: بدل اشتمال من (الساعة) سره البلاغى زيادة التخويف والتحذير، لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويفكوا أعناقهم من أسر الشيطان لهم.

وفى إسناد الإيتاء إلى (الساعة) مجاز عقلى علاقته «المعمولية»؛ لأن الله هو الذى يأتيهم الساعة، وسره تهويل شأن الساعة حتى لكأنها تسعى نحوهم من تلقاء نفسها لتثأر منهم.

* **(فقد جاء أشراطها)** اعتراض مسوق لبيان قرب وقوعها لوقوع بعض علاماتها.

والفاء لتفريع مجىء الأشراط على التهديد بإتيان الساعة؛ وهم فى تمام الغفلة عنها.

* **(فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم)** الفاء للاستئناف حيث فرغ النظم من حتمية مجىء الساعة، ثم استأنف القول ببيان حالهم إذا جاءتهم الساعة. وأنَّى بمعنى: كيف، لإنكار أن يكون لهم حال تنفعهم فيه الذكرى أو بمعنى: أين لنفى مكان تنفعهم فيه الذكرى. ففى العبارة كناية لطيفة تُوصِّل بنفى الحال أو المكان فيها إلى نفى التذكر النافع، لأن الساعة حين تقدم فقد توقَّف كسب العباد خيره وشره، وكل نفس بما كسبت رهينة.

وفى تقديم **(لهم)** على **(ذكراهم)** تعجيل المساءة لهم من أول الأمر. مع توافق رءوس الآيات وفى إضافة **(ذكرى)** إلى ضميرهم **(ذكراهم)** تهكم بهم وتحسير لهم.

* * *

٦ - ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾
[محمد: ٢٢].

الظاهر أن مافى الآية خطاب للمنافقين الذين ورد ذكرهم فى قوله عز وجل: ﴿. . . فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ محكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ، فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠].

فيكون فى هذا الخطاب فضح لهم وكشف عما تضمره أنفسهم من أنهم إذا صاروا ولاة لم يكن منهم إلا الإفساد فى الأرض، وانتهاك الحرمات.

وقد ذكر المفسرون أراء أخرى فى المراد من **(توليتم)** لكن الذى اقتصرنا عليه هو الأصوب والمتبادر إلى الذهن من العبارة.

والآية - كما نرى - مُصَدَّرَةٌ بهذا الاستفهام:

**(فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض..)**؟ وفيه يقول الإمام جار الله:

«نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الإلتفات ليكون أبلغ فى التوكيد، فإن قلت: ما معنى: فهل عسيتم أن تفسدوا فى الأرض؟ قلت: معناه: هل يتوقع منكم الإفساد فإن قلت: فكيف يصح هذا فى كلام الله عز وعلا وهو عالم بما كان وما يكون؟

قلت: معناه: إنكم لما عهد منكم أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم ورخاوة عقدكم فى الإيمان: يا هؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم الإفساد إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم. . »[1].

لم يصرح الإمام جار الله بالمراد من الاستفهام، والذى يُفْهم من كلامه هذا أنه استفهام تقرير. أما الإمام أبو السعود فقد اكتفى بقوله:

**(فهل عسيتم. . )** بطريق الإلتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع. . »[2].

وكاد الإمام الألوسى يقف عندما قاله الإمامان الزمخشرى وأبو السعود، ولكن له

---

(١) الكشاف (٣/ ٥٣٦).

(٢) تفسير أبى السعود (٨/ ٩٨).

إضافة نص عليها بأن الاستفهام فى الآية لغير الله. وكان الإمام الزمخشرى قد مهَّد من قبل لهذا المعنى(١).

وقد أشار الإمام أبو حيان إلى أن المراد من الاستفهام فى الآية هو التوقيف.، قال:

«أقبل بالخطاب عليهم على سبيل التوبيخ وتوقيفهم على سوء مرتكبهم»(٢).

أما الإمام الطاهر فقد حمل الاستفهام فى الآية على الإنكار المشوب بالتهكم(٣).

**والخلاصة:** أن هذا الاستفهام لم يحظ بكبير اهتمام عند الأئمة. ولم يبين المراد منه إلا الإمام أبو حيان الذى قال إنه للتوقيف والتوبيخ، والأمر كما قال، أما ما ذهب إليه الإمام الطاهر بن عاشور من أن الاستفهام في الآية للإنكار فلا وجه له؛ لأن الله عز وجل ما أراد إلا تقريرهم بسوء سلوكهم لو آلت إليهم مقاليد الأمور. والتوقيف الذى ذكره الإمام أبو حيان هو التقرير، فالمعنى واحد وإن كان اللفظ مختلفاً.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(فهل عسيتم)** تَحرَّج بعض الأئمة، من كون هذا الاستفهام صادراً عن الله، وهو العليم بكل شيء. وقد بدأ هذا التحرج الإمام الزمخشرى، ثم أدلى بدلوه فى صرف الكلام عن ظاهره، ليتوصل إلى نسبة الاستفهام فى هذه الآية إلى غير الله عز وعلا. ولم يسلم علاجه لهذا الموضوع من تكلف، ومن نازعنا فى هذا الوصف فليرجع إلى مطالعة كلام الزمخشرى فى موضعه من الكشاف وينظر فيه - بتمامه - ليتبين له صدق ما نقول.

وهذا التحرج الذى أبدوه لا أساس له، لأن كل ما صدر عن الله تعالى من صور الاستفهام ليس من بينها صورة واحدة من الاستفهام الحقيقى، بل هى جميعا استفهامات مجازية يراد منها معان مجازية تناسب المقام. وماأكثر صور الاستفهام الواردة فى القرآن الصادرة عن الله تعالى. فلماذا لم يتحرج منها أحد من أهل العلم، وفى مقدمتهم الإمام جار الله نفسه؟ فمثلا مما تقدم قوله تعالى:

---

(١) روح المعانى (٢٦/٦٨).        (٢) البحر المحيط (٨/ ٨٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١١).

**(فهل أنتم منتهون)** [المائدة: ٩١]. وقوله تعالى: **(فهل أنتم مسلمون)** [هود: ١٤].

وغيرهما كثير كثير. والأئمة مجمعون على أن معنى هذين الاستفهامين هو: الأمر، أى أسلموا - انتهوا. فلماذا خص الإمام الزمخشرى استفهام سورة «محمد» ﷺ بالتحرج من نسبته إلى الله، ولم يُبْدِ هذا التحرج فى غيره.

والحق أن الاستفهام - هنا - استفهام مجازى صادر عن الله، ومعناه تقرير المخاطبين وتوقيفهم على سوء سلوكهم إذا مُكِّنُوا فى الأرض.

وإيثار أداة الاستفهام (هل) فيه إشارة إلى تحقق الإفساد فى الأرض من المنافقين لو صاروا هم ولاة أمور الناس.

و(عسيتم) أى رجوتم. وفى هذا كناية عما كان يعتمل فى طواياهم من مكر سيء كانوا لن يتراجعوا عن تنفيذه إذا واتتهم الفرص.

* **(إن توليتم)** اعتراض بين (عسى) وخبرها. وجواب الشرط محذوف دل عليه خبر عسى.
* **(أن تفسدوا فى الأرض)** أوثر المصدر المؤول من أن والفعل المضارع، لمناسبته للاستقبال.
* **(وتقطعوا أرحامكم)** التضعيف فى الفعل (تقطعوا) للتكثير. وفيه استعارة محسوس لمعقول على سبيل الاستعارة التصريحية أو الاستعارة المكنية.

* * *

٧ - ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

**الدراسة والتحليل:**

وهذه الآية حديث عن المنافقين، ينعى الله عليهم فيها إعراضهم عن كتابه الذى يهدى إلى التى هى أقوم، وقد ورد فيها استفهامان: الأول فى صدرها، وهو: **(أفلا يتدبرون القرآن)**؟ والثانى فى عجزها، وهو: **(أم على قلوب أقفالها)**؟

وفيهما يقول الإمام جار الله الزمخشرى:

«أم بمعنى بل، وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها

ذكر. . فإن قلت: لِمَ نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟ قلت: أما التنكير ففيه وجهان:

أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها فى ذلك. أو يراد على بعض القلوب، وهى قلوب المنافقين. وأما إضافة الإقفال فلأنه يريد الأقفال المختصة بها، وهى أقفال الكفر التى استغلقت فلا تتفتح»[1].

هذا كلام الإمام فى الاستفهام الذى تنبىء عنه الهمزة المقدرة فى (أم) وقد جزم بأنه استفهام تقرير كما ترى فى صدر كلامه.

(**أفلا يتدبرون القرآن**) ويتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتى لا يجسروا على المعاصى»[2].

هذا قوله، ولم يصرح بالمعنى المجازى المراد من الاستفهام.

وحذا حذوه الإمام أبو السعود فقال فى الثانى ما قاله الزمخشرى، وسكت عن بيان المراد من الأول كما سكت[3].

أما الإمام الألوسى فقد جمع بين ما قاله الإمامان، ثم جوَّز فى (أم) أن تكون متصلة؛ وقدَّر المعنى هكذا: (أفلا يتدبرون القرآن إذا وصل إلى قلوبهم أم لم يصل)[4].

**والخلاصة**: أن المفسرين سكتوا - جميعا - عن بيان المراد من الاستفهام الأول (**أفلا يتدبرون القرآن**) أما الثانى فالجمهور على أن (أم) منقطعة، وأن همزتها للتقرير. وخالف الإمام الألوسى فجوز فيها الاتصال ولم يوفق فى تقدير المعني على الاتصال، والصواب ما قاله الجمهور من انقطاع (أم).

والذى لاح لنا - بقوة أن (**أفلا**) ليست استفهاما وإنما هى (**ألا**) التى للحث والتحضيض. وتقديم همزتها على حرف العطف (الفاء) تشبيها لها بهمزة الاستفهام، إذ لم يُعْهَدْ قط أن تقدمت أداة العطف على الهمزة لا فى القرآن، ولا فى غير القرآن فى الكلام الفصيح وتكون (ألا) هذه فيها رائحة الاستفهام.

---

(١) الكشاف (٣/ ٥٣٦).
(٢) الكشاف (٣/ ٥٣٦).
(٣) تفسير أبى السعود (٨/ ٩٩).
(٤) روح المعانى (٢٦/ ٧٤).

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (**أفلا يتدبرون القرآن**) فى التركيب كله كناية عن صفة، هو عمق التفكر والتأمل فى القرآن الهادى لأقوم سبيل.

وفى التدبر المفهوم من الفعل المضارع (**يتدبرون**) استعارة تصريحية تبعية، لأن المراد منه إطالة النظر فى أعقاب سماع القرآن وتتبع معانيه.

وصيغة التضعيف فيه، وإيثار المضارع للدلالة على أن المطلوب معاودة النظر فى القرآن مع تعمقه تارة إثر أُخرى. إذ لايكفى النظر العابر فى فهم مراميه وأسراره.

* (**أم على قلوب أقفالها**) ذكر الأئمة، السر البلاغى فى تنكير (قلوب) ونضيف إلى ما ذكروه أن قطع (قلوب) عن الإضافة خاصة، فلم يقل (قلوبهم) والتعريف بعامة فيه إيحاء بأنها (قلوب) لا أصحاب لها يحملونها فى صدورهم. وفى هذا كناية «بديعة» عن صفة، هى: موت تلك الـ «قلوب» وموتها هو عدم تأثرها بما يتلى عليها من الآيات البينات.

* وفى (**أقفالها**) استعارة تصريحية أصلية شبهت فيها الموانع العقلية التى حجبت تلك الـ(**قلوب**) عن فقه الآيات والاهتداء بها بالأقفال المادية المحكمة التى يستوثق بها الناس أوعيتهم ومنازلهم، استعارة محسوس لمعقول تهويلا لها. وتفظيعاً لمخاطرها أما إضافة الأقفال للـ (قلوب) فقد أجاد الأئمة فى بيانها.

* * *

٨ - ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٧].

**الدراسة والتحليل:**

الحديث فى الآية عن المنافقين، يصور حالهم وهم فى غمرات الموت، أول مقدمهم إلى ما كسبت أيديهم فى الحياة الدنيا. والآية تزيح الستار عن سر من أسرار الغيب. فـفوق سكرات الموت وآلامه المؤلمة تنهال عليهم ملائكة الموت ضربا قاسيا على وجوههم وأدبارهم، إيذانا بأن العذاب لهم بالمرصاد من أمامهم ومن خلفهم، ويقال

لهم ذوقوا ما قدمتم لأنفسكم، وما الله بظلام للعبيد.

وقد صدرت الآية بهذا الاستفهام: (فكيف إذا توفتهم الملائكة..).

* لم يقل الأئمة شيئا فى هذه الصورة، وكلامهم منصرف إلى بيان معنى الآية - عموما - ما عدا الإمام الطاهر بن عاشور الذى أومأ إلى أنه للتعجيب، أى تعجيب السامع من حال المنافقين وهم فى سكرات الموت.

**والخلاصة:** أن ما يمكن أن يقال فى بيان المراد من هذا الاستفهام أنه للتهويل والتفظيع مما يؤول إليهم حالهم ساعة تتوفاهم ملائكة الموت، ويردف على هذا التهويل من المعانى الثانية التعجيب والوعيد الشديد لمن كان هذا مصيره من الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. ويخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم.

وهو استفهام صورى مما تقدمت إشارات إليه فيما قبل وإن كان أمس رحما بالاستفهام الاصطلاحى.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(فكيف إذا توفتهم الملائكة..)** الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ترتيبا مراعىً فيه ترتب المسبب، وهو توفيتهم على هذه الحالة الشنيعة على نفاقهم وكفرهم. ومراعى فيه التنسيق الزمنى، فنفاقهم وكفرهم كان أسبق وجودًا فى الزمن من توفيتهم مضروبين على وجوههم وأدبارهم. والتوفية كناية عن الإماتة.

وإسناد التوفية إلى الملائكة، مجاز عقلى علاقته السببية لأن فاعل التوفية الحقيقى هو الله. أما الملائكة فسبب مؤثر.

و**(الملائكة)** لفظه لفظ العام الشامل لكل أفراد الجنس ومعناه خاص، وهم ملائكة الموت. وإطلاق العام مراداً منه الخاص مجاز مرسل علاقته الكلية.

وسره البلاغى التخييل بأن الله كأنه حشد كل ملائكته ليضربوا المنافقين على وجوههم وأدبارهم وهم مدبرون عن الدنيا مقبلون على الآخرة.

والمراد من الاستفهام التهويل والتبشيع. وطريقة دلالته على هذا المعنى هو حذف المستفهم عنه، لأن المعنى: كيف يكون حالهم، وما هى حيلتهم التى يستطيعون بها دفع العذاب عن أنفسهم فى ذلك الوقت.

فجاء هذا الحذف كناية بديعة عن ذلك التهويل، لأن حذف ما حذف جُعل كناية عن عدم وجوده، وانتفاؤه مؤذن بأن ما ينزل بهم عند الموت شىء مهول فظيع تعجز عن درئه كل الحيل.

وبين حذفه فى اللفظ، وعدم وجوده فى الواقع تناسب حكيم، وتآلف عظيم.

* **(يضربون وجوههم وأدبارهم)** الجملة حالية إما من المفعول، وهو ضمير المنافقين فى **(توفتهم)** أى توفتهم الملائكة، مضروبين.

أو حال من الفاعل وهم الملائكة، أى توفتهم الملائكة، ضاربين وإيثار المضارع **(يضربون)** إشارة إلى تكرار ضربهم عند الموت، وأنه لايحدث مرة واحدة ثم يتوقف، بل يوالون ضربهم حتى يموتوا.

واختصاص الضرب بالوجوه والأدبار للإهانة والإذلال وتقديم الوجوه على الأدبار لأن الوجه أشرف عضو فى الإنسان، فإذا أهين كان غيره أشد هوانا وإهانة، وإضافة **(وجوه)** و**(أدبار)** إلى ضميرهم للتهكم بهم والسخرية منهم. وتبكيتهم وتحسيرهم جزاء وفاقا.

والجمع بين الوجوه والأدبار طباق إيجابى ضليع فى أصل الدلالة ليس مجلوبا لتحسين لفظ، أو تزيين معنى بعد الوفاء بأصل الدلالة؛ كما هو الغالب فى غير القرآن والمعنى: ماذا يفعلون، وكيف يكونون إذاحانت ساعاتهم واستسلموا مذلولين لاحتساء كأس الموت وتوافدت عليهم ملائكة الموت ضربا على الوجوه والأدبار، وقد انعدم الولى والنصير؟

هذا. وقد جوَّز بعض أهل العلم أن يكون فى الوجوه والأدبار كناية عن إحلال العذاب بهم من كل جهة؛ وهم مقهورون أذلاء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرًّا.

* * *

٩ - ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أن لَّنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٩].

## الدراسة والتحليل:

ما تزال سورة «محمد» ﷺ تواصل الحديث عن المنافقين، وتكشف خباياهم وما تكن صدورهم من سوء، والآية تنعى عليهم جهلهم بسعة علم الله تعالى، واستمرارهم فى الكيد لرسوله ﷺ، وللمؤمنين الأولين من المهاجرين والأنصار. فهم يدبرون المؤامرات جاهلين أن الله يعلم سرهم كما يعلم جهرهم، وأنه سيكشف لرسوله والمؤمنين عما يدبرونه لهم من سوء وإن بالغوا فى إخفائه.

وقد صُدِّرَتْ هذه الآية بهذا الاستفهام: (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض..)؟

وقد أهمل الأئمة الحديث عن بيان المراد من الاستفهام، مع قولهم أن (أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة. وكان الإمام أبو السعود قد قال فيه جملة رددها بعده الإمام الألوسى وهى: «والمعنى أن ذلك مما لايكاد يدخل تحت الاحتمال»[١].

أما الإمام الطاهر فقد صرَّح بأن الاستفهام بالهمزة المقدرة فى (أم) استفهام إنكارى[٢].

**والخلاصة**: أن هذا الاستفهام لم يحظ باهتمام كبير عند الأئمة؛ وهو استفهام إنكار كما قال الإمام الطاهر.

ويردف على هذا الإنكار من المعانى الثانية التى تناسب المقام معنيان:

الأول: النعى على المنافقين بالجهل والتسفيه.

الثانى: الوعيد والتهديد بفضحهم وتبوير مكايدهم.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **(الذين فى قلوبهم مرض)** كناية عن موصوف إذا نظرنا فى التركيب كله. ذلك الموصوف هم المنافقون. وإيثار الكناية **(فى قلوبهم مرض)** على الوصف الصريح **(المنافقون)** لما فى الكناية من تسمية النفاق مرضا.

---

(١) تفسير أبى السعود (٨/ ١٠١) روح المعانى (٢٦/ ٧٧). (٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٠).

أما إذا نظرنا إلى كلمة (مرض) منفردة، ففى هذا التعبير استعارة تصريحية أصلية، شبِّه فيها النفاق، وهو فساد معنوى فكرى بالمرض الذى يصيب القلوب. وهو أمر حسى مادى.

والجامع بين الطرفين هو شدة الضرر فى كل منهما.

وإيثار حرف الجر (فى) فى قوله تعالى (**فى قلوبهم**) إشارة إلى تمكن النفاق من قلوبهم، حتى صار مظروفا فيها وهى ظرف له.

وهذا يؤذن بإجراء الاستعارة بالكناية فى هذا التعبير (**أن لن يخرج الله أضغانهم**) معمول (حسب) فهو فى محل نصب.

و(أن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفا ففى العبارة إيجاز بالحذف.

وإيثار أداة النفى (**لن**) مبالغة فى تصوير جهلهم حتى أنهم اعتقدوا أن عدم اطلاع الله على أسرارهم أمر مؤكد.

وفى (**يخرج**) استعارة تصريحية تبعية، استعير فيها الإخراج للإظهار المرئى بالبصر.

وفى (**أضغانهم**) استعارة تصريحية أصلية، حيث استعير (الضغن) وهو الالتواء الحسى، للحقد، وهو أمر معنوى، وسرها تهويل أحقادهم وتفظيع أمرها.

وفى إضافة الأضغان إلى ضميرهم تسجيل عليهم بالمقابح وسوء المكر.

* * *

# سورة الفتح

١ - ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً، بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [الفتح: ١١].

**الدراسة والتحليل:**

قسم علماء علوم القرآن باعتبار نزول سوره، قسموا القرآن قسمين كبيرين:

القرآن المكى، والقرآن المدنى، وأشهر أسس هذا التقسيم أساسان:

**الأول:** اعتبار المكان: فالمكى مانزل بمكة المكرمة، والمدنى مانزل بالمدينة المنورة.

**الثانى:** اعتبار الزمان: فالمكى مانزل قبل الهجرة إلى المدينة المنورة. والمدنى مانزل بعد الهجرة، حتى لو نزل بمكة أو مكان قريب منها.

وسورة الفتح باعتبار الزمان من القرآن المدنى، لأنها نزلت فى السنة السادسة بعد الهجرة- عام الحديبية- وكان نزولها بمكان قريب من مكة، حين انصرف الرسول ﷺ وأصحابه من الحديبية قافلين إلى المدينة.

وكان ترتيب نزولها الثالثة عشرة بعد المائة، نزلت بعد سورة (الصف) وقبل سورة (التوبة) على المشهور ويغلب على هذه السورة تسجيل بعض الأحداث التى وقعت بعد الهجرة، وبخاصة مواقف الأعراب، ولم يرد الاستفهام فيها إلا مرة واحدة فى هذه الآية موضوع الدراسة.

ولهذه الآية قصة، خلاصتها أن النبى ﷺ لما عزم على الخروج من المدينة إلى مكة، لعمرة الحديبية ناشد المسلمين بالخروج معه تكثيراً لجيش العمرة، حتى لا تحاول قريش صده عن الاعتمار إذا خرج بجيش قليل، فبايعه المسلمون على الخروج، وبايعته ست قبائل من الأعراب كانوا مقيمين حول المدينة، ولكنهم نكصوا عن الخروج لما بدأ

المسلمون القيام بالسفر إلى مكة، وكان الأعراب حديثى عهد بالإسلام، فلم يخرج مع النبى منهم إلا بعض الأفراد وتخلف أكثرهم.

ثم أعدوا خطة، للاعتذار إلى النبى ﷺ حين يعود - إن عاد حسب زعمهم - إلى المدينة، وهى أن يقولوا له- كما جاء فى الآية-: **(شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفرلنا)** وهذا عذر كاذب.

وقد أخبر الله رسوله بما لفَّقُوه من أكاذيب، وهو فى طريقه إلى المدينة بعد صلح الحديبية، ثم لقنه الجواب الذى يرد عليهم به.

كما أعلمه بالأسباب الحقيقة التى منعتهم من الخروج وهى أنهم ظنوا أن قريشا ستقضى على النبى وأصحابه وأنهم لن يعودوا إلى المدينة أحياء؟

وفى هذا نزل قوله تعالى:

﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إلى أَهْلِيهِمْ أَبداً، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوءِ، وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ [الفتح: ١٢].

وبهذا أنار الله الطريق لرسوله الكريم، وكشف له عن أكاذيب الأعراب قبل أن يأتوه معتذرين.

أما الاستفهام الوحيد فى هذه السورة فهو فى قوله تعالى: **(قل: فمن يملك لكم من الله شيئاً)**؟

ولم نر للأئمة أية إشارة إلى بيان المراد من هذا الاستفهام، فعلى بالغ اهتمامهم ببيان المعنى العام للآية لم يقل أحد منهم أن المراد من الاستفهام فى الآية كذا، حتى الإمام الطاهر الذى عودنا ببيان مايسكتون عنه سلك - هنا - مسلكهم فى السكوت. ونرجح أن الحامل لهم على هذا وضوح المعنى المجازى المراد من هذا التركيب الاستفهامى.

أعنى أن المراد منه هو النفى أو الإنكار، أى لا أحد يملك لكم شيئا من دون الله، ويردف على هذا الإنكار هنا من المعانى الثانية التكذيب والتجهيل.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **(سيقـول لك المخلفون من الأعراب)** أوثر حرف التنفـيس، وهو السنين فى **(سيقول)** والمضارع الذى بعده، لقرب وقوع القول من قـائليه وهم الأعراب، بعد قدوم النبى ﷺ إلى المدينة، قافلا من مكة.

وفى ذكـر الجار والمجـرور (لك) بيـان لمن سـيقـول الأعراب مـا يقـولون، وهو النبى ﷺ، ولو قيل: سيقول الأعراب، لفات هذا المعنى، ولاحتمل المقام أن المقول له غير النبى الكريم.

وقال **(المخلفون)** ولم يقل : الأعراب، تحديداً للقائل منهم، وهم المخلفون، ولولا ذكر **(المخلفون)** لكان القائل كل الأعراب، وهذا غير مطابق لواقع الحال.

وحبىء بهم اسم مفعول **(المخلفون)** أى المتروكون الذين تركـهم من خرج منهم مع رسول الله ﷺ.

وحرف الجـر (من) بيانيـة. لأن بعض المسلمين من غيـر الأعراب كان قـد تخلَّف لعذر صحيح.

* **(شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفرلنا)** فى إسناد الفـعل (شـغل) إلى الأمـوال والأهل مجاز عقلى عـلاقته السببية، لأن المال والأهل سبب مـؤثر فى الشغل، لا فاعلان له. وذلك باعتبار التركيب الكلامى، أما باعتبار الواقع فقد كانوا فيه كاذبين.

* **(فاستغفرلنا)** الفاء والجـملة بعدها مسـبب، وما قبلهـا سبب جعلـوا شغلهم بالمال والولد سبـبا فى استحـقاقهم اسـتغفار الرسـول لهم حسب زعمـهم، والأمر فى **(فاستغفر)** للالتماس أو الدعاء.

وفى حذف مـعمول الاستغـفار إيجاز بالحذف، والتـقدير: فاستـغفر لنا تقصـيرنا وتخلفنا عن الخروج معك.

* **(يقولون بألسنتـهم ماليس فى قلوبهم)** استئناف مسوق لبـيان كذبهم وجهلهم، وإيثار المضارع **(يقولون)** إيذان بأنهم كـانوا يلحـون على الرسـول ﷺ، ويكررون له هذا القول تمويها ومخادعة، وكأنهم معذورون حقاً.

* **(قل فمن يملك لكم من الله شيئاً)**؟ الاستفهام للإنكار كما تقدم، وهو لإنكار الفاعل، وإيثار المضارع ليعم النفى كل الآزمان، فدلالة المضارع - هنا - هى دلالة الاسم فى الدوام والاستمرار، لا من حيث الوضع اللغوى، ولكن بدلالة المقام والواقع، فلا أحد يملك رد أمر الله إذا جاء.
* وفى تنكير **(شيئاً)** افادة العموم والشمول، أى لايملك أحد مع الله أى شىء من الأشياء عظم أو حقر.
* **(إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعًا)**: قُدِّم الضر - هنا - على النفع، لأن الذى منعهم من الخروج مع رسول الله ﷺ هو مخافة الضر من القتل والأسر وهذا توجيه حكيم أمر الله رسوله الكريم أن يواجه به المخلفين من الأعراب، أى أن الأمر كله بيد الله فإن أراد بأحد شرا أنزله به، وإن أراد به خيراً أصابه به، فلا معطى لما منع، ولا مانع لما يعطى، فكان حريا بهم أن يفوا بما بايعوا النبى الكريم عليه، غير خائفين حدوث ضرر، ولا فوات خير.
* **(بل كان الله بما تعملون خبيراً)** تذييل مقرر لمضمون ماقبله، مع إرادة تربية المهابة من الله فى قلوبهم.

* * *

# سورة الحجرات

١ - ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَافِى السَّمـوَاتِ وَمَافِى الأَرْضِ، وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦].

## الدراسة والتحليل:

سورة (الحجرات) مدنية باتفاق أهل العلم، نزلت بعد سورة (المجادلة) وقبل سورة (التحريم) وكان ترتيبها النزولى الثامنة بعد المائة، وتمتاز هذه السورة بالتوجيهات الأدبية والأخلاق الاجتماعية والمعاملات الحسنة فى السلوك العام والخاص، وتشتمل على بعض التشريعات المنظمة للعلاقات بين الأفراد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتقرير مبدأ المساواة بين الناس فى أصل الخلقة.

وجاء فى أواخرها حديث سريع عن الأعراب وهدايتهم إلى التى هى أحسن.

ولم يرد فيها الا استفهام واحد - مثل الفتح- وهو ما صدرت به الآية موضوع الدراسة: **(قل أتعلمون الله بدينكم)**.

والأئمة مجمعون على أنه استفهام إنكار وزجر وتوبيخ والذى يلوح لنا أَنَّ هذا الاستفهام قمين بأن يكون المراد منه هو: النهى، لامجرد الانكار، مع ردف الزجر والتوبيخ عليه.

والمقام يقوى هذا الفهم هذه خلاصة مايقال فيه.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قل أتعلمون الله بدينكم)** جاءت هذه الآية تعقيباً على دعوى الأعراب أنهم قد آمنوا، وكان ذلك فى أول عهدهم بالإسلام، كما كانوا يمتنون على رسول الله ﷺ بأنهم أسلموا، كأن الله ورسوله فى حاجة إلى إسلامهم، وليسوا هم الذين فى حاجة إلى أن يهديهم الله ورسوله إلى الإسلام.

وتصدير الجملة بفعل الأمر (قل) لما مر مرات عديدة من أنه للاشعار بأهمية المقول

بعده، وكونه رسالة خاصة ينبغى العناية بها والمواجهة بها، وتبليغها فور تلقيها.

وولى الفعل -**(تعلمون)**- همزة الانكار أو النهى لأنه محط الإنكار أو النهى، أى: لا تعلمـوا الله بدينكم ومن المعانى الثـانية التى تردف عليـه بعدمـا تقدم فى مـبحث الدراسة والتحليل: مـعنى التعجيب من شأنهم، وتنزيلهم أنـفسهم منزلة من يعلم بما لايعلم وصيغة التـضعيف فى الفعل (تُعَلِّمُونَ) لتكثير المـعنى المفهوم من الفعل، وهو الإعلام، وهذا ممـا يرقى هنا بالاستـفهام الانكارى إلـى درجة النهى الحاسـم والزجر الشديد.

وإيقاع الفعل **(تعلمون)** على اسم الجـلالة **(الله)** للتشنيع عليهم، ووسـمهم بالجهل والجهالة.

* **(والله يعلم مـا فى السـمـوات ومـا فى الأرض)** هذه الجملة اسـتئناف مسوق لتـشديد الانكار أو النـهى، لأن من يعلم هذا الـعلم الواسع المحـيـط بأقطار السـمـوات والأرض، وهو الله عز وعلا- لايكون فى حاجة إلى أن يعلمه أحد- مهما كان- ما لا يعلم. كيف، وهو اللطيف الخبير.

واسمية الجملة -**(والله يعلم)**- لثبوت علم الله المحيط بالكائنات.

ثم توكيد النسبة بين المسند اليه **(الله)** والمسند **(يعلم)** وذلك حاصل بتكرار الإسناد: فالفـعل ( يعلم) فاعله الضمـير (هو) العائد علـى اسم الجلالة. وهذا هو الاسناد الأول.

ثم أن الجملة من الفعل والفاعل: يعلم هو، مسندة إلى اسم الله، لأنها خبر، وهو مـبتـدأ، وهذا هو الاسناد الثانى، والمقـام يقتـضى هذا التكرار لدفع جـهل وجهـالة الأعراب.

وبين **(ما فى السموات ومافى الأرض)** طباق اقتضاه الحال.

* **(والله بكـل شىء علـيم)** تذييل مـقرر لمضـمون الكلام الذى قـبله، وتقديم الجـار والمجرور **(بكل شىء)** على **(عليم)** لتوافق الفواصل والاهتمـام بالقدم لإفادته شمول علم الله لكل شىء موجوداً ومعدومًا.

* * *

# سورة (ق)

١ - ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٣].

**الدراسة والتحليل**

سورة (ق) من السور المكية كان ترتيبها فى النزول الرابعة والثلاثين، فهى من أوائل القرآن عموما، نزلت بعد سورة (المرسلات) وقبل سورة (البلد) وموضوعاتها هى هى موضوعات القرآن المكى من الثناء على القرآن والرد على منكرى البعث وتقرير عقيدة التوحيد، ووعظ المشركين بقصص الماضين، والتهديد بعذاب الآخرة، وبشارة المؤمنين ونذارة المشركين.

وأول استفهام ورد فيها كان فى الآية موضوع الدراسة وهو:

(**أئذا متنا وكنا ترابًا..**) وهى جملة محكية عنهم ضمن كلام آخر تقدم فى الآية التى قبلها [٢] وهى:

(**بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب * أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد**).

والشىء العجيب - فى نظرهم - هو إخبارهم بأن الله تعالى سوف يحيى الموتى، ويحاسبهم على ماقدّموا فى الحياة الدنيا وتساءلوا فى الآية موضوع الدراسة منكرين أن يعيد الله الحياة لمن مات وفنى.

وقد رددوا هذه الشبهة من قبل مرات كثيرة، وتصدى لها القرآن فمحاها محوا لم يبق لها على أثر لو كانوا يعقلون، ثم بين الله تعالى فى الرد عليهم فى هذه السورة بسوق نماذج من عمل القدرة الآلهية أعظم من إحياء الموتى الذى استعظموه على الله من جهلهم وغبائهم. وكان الرد مفحما لهم ملزما إياهم بالحجة لله.

وكان مما جاء فى الرد:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنهُمْ، وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا

وَمَالَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِى، وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٤- ٨]، وقد قام هذا الرد المفحم على ركيزتين:

**الأولى**: الإشارة إلى سعة علم الله وإحاطته [٤].

**الثانية**: آثار قدرة الله فى ملكوت السموات والأرض [٦- ٨].

أما الآية [٥] فكانت لبيان السبب فى إنكارهم البعث وهو التكذيب المطلق بالحق الذى بعث الله به رسوله الكريم ﷺ.

وقدر الإمام الزمخشرى -وتابعه الإمامان أبو السعود والألوسى- المعنى فقال:

(أحين نموت ونبلى نرجع) **﴿ذلك رجع بعيد﴾**[1].

ولم يصرحوا بالمراد من الاستفهام، بل أشاروا جميعا إلى أنه للإنكار والاستبعاد. والمقام واضح الدلالة على هذا المعنى، لذلك أوجزوا فيه ولم يطيلوا وكذلك صنع الإمام الطاهر وإن خالفهم فى التعبير[2].

**والخلاصة**: أن هذا الاستفهام معناه الإنكار ثم التعجيب: إنكار وقوع الإحياء بعد الموت. وحمل المخاطب أو أنفسهم على إظهار التعجب ممن يقول هذا القول.

والإنكار -هنا- مستعمل فى التكذيب والتهكم بمن يقول أو يعتقد تلك العقيدة.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أئذا متنا وكنا ترابا)** مرَّ بنا هذا التركيب من قبل مرات، وبينا ما فيه من أسرار وبلاغيات عامة تتعلق بالتركيب نفسه. ونقتصر - هنا - على ما هو خاص بهذا التركيب من حيث المقام الوارد فيه. لأن هذه الجملة **(أئذامتنا. .)** توكيد وتقرير لتعجبهم من مجيء الإنذار إليهم فى قوله تعالى:

**(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب)** وتفصيل لبعض ما ورد فيه من إجمال، (ذلك رجع بعبد) أشاروا باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، إيذانا منهم بأن الرجوع إلى الحياة بعد الموت مستبعد فى حكم الواقع والعقل

(١) الكشاف: (٤/ ٤)، تفسير أبى السعود: (٨/ ١٢٥)، روح المعانى: (٢٦/ ١٧٣).

(٢) التحرير والتنوير: (٢٦/ ٢٨٢).

على حسب فهمهم المزعوم، وتنكير (رَجْع) لغرابته وكونه غير معهود.

وفى الآية إيجاز بالحذف، أى أبعد موتنا وفنائنا نُرجع إلى الحياة مرة أخرى؟ ولعلهم أرادوا من حذفه فى اللفظ عدم وقوعه فى المعنى والواقع.

* * *

٢ - ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾

[ق: ٦].

**الدراسة والتحليل:**

فى هذه الآية لفت إلى بعض دلائل الله فى الكون، التى هى أعظم من إعادة الحياة إلى الموتى، التى أنكرها الذين كفروا، ووصفوها بأنها رجع بعيد. وقد ورد فيها صورتا استفهام:

**أولاهما: (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم)؟**

**والأخرى: (كيف بنيناها وزيناها..)؟**

والأول اصطلاحى. والثانى صورى. لأن صورته صورة الاستفهام ومعناه التأمل فى كيفية بناء السماء.

وقد اكتفى الإمام الزمخشرى بمعنى الآية عامة، ولم يقل شيئاً عن الاستفهام[(١)].

وقدر الإمام أبو السعود التركيب الاستفهامى فقال:

**(أفلم ينظروا)**: أى أغفلوا أو أعموا فلم ينظروا **(إلى السماء فوقهم)**[(٢)].

وقد تعودنا من قبل أن الإمام أبا السعود إذا قدَّر المعنى هذا التقدير كان الاستفهام عنده للإنكار، لكنه ليس إنكاراً لما بعد حرف النفى **(ينظروا)** بل للمحذوف المقدر الذى وَلِىَ الهمزة. وهو -هنا: أغفلوا أو أعموا، وعلى كل فإنه لم يصرح بمعنى الاستفهام.

ونحا الإمام الألوسى منحى الإمام أبى السعود فى تقدير المحذوف ونقل -كعادته- عبارته لفظا ومعنى[(٣)].

---

(١) الكشاف: (٤/ ٤). (٢) تفسير أبى السعود: (٨/ ١٢٦). (٣) روح المعانى: (٢٦/ ١٧٥).

وجوز الإمام الطاهر بن عاشور كلا من الإنكار والتقرير فى هذا الاستفهام **(أفلم ينظروا)** فالإنكار - عنده - إذا كان المراد من النظر التفكر العقلى.

أما التقرير فقد رتبه على كون المراد من النظر هو المشاهدة الحسية والرؤية البصرية.

**والخلاصة**: أن الاستفهام الأول (الاصطلاحى) بعضهم جعله للإنكار، وبعضهم جوز فيه الإنكار والتقرير، وبعضهم سكت عنه.

والذى يلوح لنا فيه أنه لتقريرهم بذلك النظر. ويردف عليه إنكار عدم تفكرهم واعتبارهم بتلك الدلائل الناصعة. أما **(كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج)** فهو معمول النظر فى **(أفلم ينظروا)**، أى: إلى كيفية بناء السماء وإحكام نظامها ودقة صنعها وبداعته.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أفلم ينظروا)** الهمزة مقدمة من تأخير. والفاء عاطفة ما بعدها على ما قبلها وهو قولها **(هذا شىء عجيب. أئذامتنا)** ولا ضرورة تقتضى إعمال مذهب الزمخشرى المتكرر ذكره من قبل فى موضع الهمزة. لا ضرورة تدعو إلى ذلك وإن أعمله الإمامان أبو السعود والألوسى. والذى يرجح ما قلناه أن كلا من المعطوف والمعطوف عليه لا يترتب على تعاطفهما محظور لا لغة ولا بلاغة. بل إن البلاغة تقتضى هذا العطف.

والمراد من النظر التأمل والتفكر المترتب على النظر الحسى، لأنه وسيلته والسبب فيه. فيكون فى الترتيب إما مجاز استعارى كما تقدم، أو مجاز مرسل بإطلاق السبب وإرادة السبب.

* **(إلى السماء)** عُدِّى النظر -هنا- بحرف الجر (إلى) لأن المراد من النظر ذات لا معنى، وهذا اطراد للمنهج القرآنى الذى هدينا إليه ونبهنا عليه مرات من قبل، من أن موضوع الرؤية أو النظر إن كان معنى عقليا عُدِّيت الرؤية بنفسها. أما إذا كانت ذاتاً، مثل (السماء) هنا فإن التعدية تكون بـ(إلى).

* **(كيف بنيناها وزيناها)** كيفية بناء السماء وما عطف عليها - هنا - هى موضع

الاعتبار، والتعجيب المفضيين إلى الإيمان بوحدانية الله وكمال سلطانه وبديع صنعه، وعظمة قدرته.

وقبل (**السماء**) محذوف تقديره: أحوال، أو شئون وتقديم البناء على التزيين، لأن البناء هو الأصل، أما التزيين فهو الفرع، أو هو العرض القائم بالبناء، وإفراد (**السماء**) دون جمعها (السموات) لأن المشاهد للعباد هى السماء الأولى، فلفت الله أنظار العباد إلى ما يشاهدونه حاضراً دون ما يدركونه غائباً.

* (**وما لها من فروج**) استئناف مسوق لتوكيد مايسفر عنه النظر الواعى فى كيفية بناء السماء وتزيينها.

ودخول (من) على (فروج)- لاستغرق النفى جميع أفراد المنفى، ولدفع توهم أن النفى مسلط على الجمع (فروج) دون ماعدا الجمع كالمفرد والمثنى.

مع ما للفظ (فروج) من جمال الإيقاع الصوتى فى فواصل الآيات المبتناة على حروف (المد).

* * *

٣ - ﴿أَفَعَيِينَا بِالخَلْقِ الأَوَّلِ، بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

**الدراسة والتحليل:**

بعد أن ذكر الله عز وجل آثار قدرته فى الكون عُلُواً وسفلا ومابين العلو والسفل من الآيات التى لاتحصى، وساق فى أعقاب تلك الآثار إشارات سريعة لبعض الأمم التى كذبت رسل الله الكرام، وأنكرت الحياة الآخرة، ثم بيَّن مصيرهم فى قوله تعالى: (**كل كذب الرسل فحق وعيد**) [ق: ١٤].

لافتا بذلك أذهان مشركى العرب إلى أن ما حل بالأمم الغابرة التى كذبت الرسل سيحل بهم إذا استمروا على تكذيبهم رسوله الكريم، فهذه الآيات - جميعا - التى ذكرها الله فى مطلع السورة إلى الآية [١٤] نزلت فى الرد على منكرى الحياة الآخرة.

ثم جاءت الآية موضوع الدراسة توجه هذا الخطاب الحكيم، مُصدَّراً بالاستفهام: (**أفعيينا بالخلق الأول**)؟ يعنى خلق السموات والأرض وما بينهما وما فى الأرض.

وإذا كان الله تعالى قد خلق هذا الكون ولم يعجز فكيف يعجز عن إعادة الحياة إلى الناس بعد موتهم؟ أهذا يُتصور فى عقل عاقل؟ أو وَهْمِ واهم؟

وقد أطال الإمام الزمخشرى فى شرح هذه الآية نكتفى مما قال بما يأتى:

«الهمزة للإنكار. والمعنى: أنا لم نعجز كما علموا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الثانى، ثم قال: هم لاينكرون قدرتنا على الخلق الأوَّل. واعترافهم بذلك فى طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة..»[1]

وهكذا يصرح الإمام أن المراد من الاستفهام هنا هو الإنكار.

ويتفق الإمام أبو السعود مع الإمام الزمخشرى فى كون الاستفهام للانكار، ويزيد عليه تطبيق مذهبه- أى مذهب الزمخشرى- فى أن الهمزة قارَّة فى مكانها لم تُقدَّمْ من تأخير كما يرى الجمهور، وقدر ما ولى الهمزة هكذا:

«أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يُتَوَهَّمَ عجزنا عن الإعادة»[2]

ونقل الإمام الألوسى عبارة الإمام أبى السعود، وقال إن الهمزة للإنكار[3]

وكذلك قال الإمام الطاهر، فقد حمل الاستفهام على الإنكار والنفى.[4]

**والخلاصة:** أن الاستفهام فى الآية موضوع الدراسة استفهام إنكار عند الأئمة باتفاق. والذى يمكن ردفه عليه من المعانى الثانية التجهيل، لأن من ينكر قدرة الله على إعادة الحياة إلى الموتى غارق فى بحار الجهل. مسلوب العقل والتمييز، حتى لكأنه من جهله ينكر وجود نفسه وهو ينكر البعث.

**أسْرارُ النظم وبلاغياته:**

* **(أفعيينا بالخلق الأول)** الفاء للعطف على ماقبلها من تعديد آثار قدرة الله فى الكون، وإيلاء الإعياء للهمزة لأنه محط الانكار، ومجىء الفعل ماضياً: عيينا. لتعلقه بوقائع ماضية، أظهرها بناء السموات والأرض ومد الأرض.

والمراد من الخلق الأول - بدلالة المقام - كل ماعدده الله من آثار قدرته، ويدخل فيه خلق الانسان دخولا أولويا، لأن الكلام مسوق لبيان قدرة الله على إعادة الحياة

---

(١) الكشاف: (٤/ ٥).

(٢) تفسير أبى السعود: (٨/ ١٢٨).

(٣) روح المعانى: (٢٦/ ١٧٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٩٨)

اليـه بعـد الموت. للرد المفـحم عـلى منكريه والمعنى: لم نعـى بالخلق الأول - على عظمته - فكيف نعجز عن إعادة ماسبق لنا خلقه؟

* (**بل هم فـى لبس من خلـق جـديد**) بل للاضـراب والانتقـال من تكذيبهم بالبـعث وتوبيخـهم عليه وتجهـيلهم إلى تقرير السـبب الباعث لهم على إنكاره فـهو ليس ارتيابهم فى قدرة الله عليه، بل لأن الشيطان سـوَّل لهم فصاروا بسبب تسويله فى خلط حجب عنهم إبصار الحق وهو متألق.

ودخول حرف الجر (فى) على (لبس) مؤذن بأن فى النظم استعارة مكنية، شبه فيها جهلهم بالحـق بالظرف وهم مظروفون فيـه، لايدركون شيـئاً مما حـولهم، ثم حذف المشبه به ودُلَّ عليه بخاصة من خـواصه، وهى (فى) الظرفية وتنكير (**لبس**) للتهويل. أما تنكير (**خلق**) فهو للتعظيم والتضخيم.

* * *

٤ - ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠].

**الدراسة والتحليل:**

فى هذه الآية تصوير لبعض أهوال يوم القـيامة فبعد دخـول أهل النار النار يسألها الله تعالى فيقول لها: هل امتلأت؟ فتجيب قائلة: هل من مزيد؟

وفى إيراد هذا السؤال وجوابـه تهويل وتفظيع لمايقع يوم القيامـة من أحداث تشيب الصغير، وتعيى الكبير وقد ورد فى هذه الآية صورتا استفهام.

**الأول** قول الله للنار: (**هل امتلأت**)؟

**والثانى**: قول النار لله: (**هل من مزيد**)

وقد ذهب الزمخـشرى أن الاستفهامين سـيقامساق التخـييل الذى يثبت المعنى فى النفس[١]

وقد تعقبه الإمام السنى ابن المنير، ورفض مـا قاله - مع اعترافه بجوازه - وسبب الرفض- عنده - أننا ممنوعون من اطلاق الألفاظ الموهمة فى جانب الله، وقال إن هذا

(١) الكشاف: (٤/ ١٠).

القول سيكون حقيقة لامجـازا، وماذلك على الله بعزيز ونحن مع الإمام بن المنير فيما قال، إذ لايُلْجـأ إلى المجاز إلا إذا تعذر أو اسـتحال المـعنى الحقيـقى. . ولاتعذر ولا استحالة هنا وسـار الإمام أبو السعود سير الإمام الزمـخشرى ولكنه لم يبين المراد من الاستفهام، بل اكتفى بالقول بالتمثيل والتخييل[1].

أما الإمام الآلوسى فمع إيراده وجوها عدة فى معنى هذه الآية فقد صرَّح فى واحد منها أن الاستفهام للإنكار وبينه بقوله: «أى لا زيادة على امتلائها[2]» وهو قول موغل فى الضعف كما ترى.

وقال الإمـام الطاهر إن الاستفهـام الأول مسوق من أجل أهل العـذاب، وقال فى الثانى أنه للتَّشوق والتمنى[3].

**والخلاصة**: أن حظ هذين الاستفهامين عند الأئمة يكاد يكون معدوما، وما قالوه لم يشف غليل الباحث والذى لاح لنا أن المراد من الاستفهامين معاً:

هو أن تُسـأل جهنم هذا السـؤال فتـجـيب ذلك الجواب وسـره أو معناه البـلاغى الترهيب من النار والترغيب فى النجاة منها بالإيمان والعمل الصالح.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(يوم نقول لجهنم)** كناية عن موصوف هو يوم القيـامة وأوثرت الكناية على التصريح لما فيها من نسبة التهويل إليه وكأنه لايُعْرَفُ ولا يُمَيَّزُ عن بقية الأيام الا بمقاولة الله للنار، ومقاولة النار لله.
* **(هل امتلأت)** إيثار (هل) -هنا - للإشـعار بكثرة من أُلْقِىَ فى النار ساعـة يقال لها هذا القول، وفى العبارة إيجاز بالحذف للـعلم بالمحذوف، والتقدير هل امتلأت من الكفار والعصـاة، وصدور هذا السؤال من الله لاليعلم مجهـولاً عنه - حاشا لله - بل لتخويف العباد من النار، والعمل على النجاة منها.
* **(فتقول)** إلفاء للترتيب والتعـقيب مع إفادة معنى السببيـة وفيه إيماء إلى تلهف النار

---

(١) تفسير أبى السعود (٨/ ١٣٢).
(٢) روح المعانى (٢٦/ ١٨٨).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣١٧)

على المزيد من الكفار والعصاة، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وايثار المضارع للدلالة على أن ذلك القول يتكرر منها مرات لامرة واحدة.

* **(هل من مزيد)** وإيثار آداة الاستفهام (هل) للإعلام بأنها لاتكف عن تلقى المجرمين، فهى سجن أو سجين، لاترد مجرما ولو تراكم بعضهم فوق بعض وقول الله لجهنم، وقول جهنم لله، نؤكد مرة أخرى أنهما قولان حقيقيان لاتخييل فيهما ولاتمثيل كما ذهب الإمامان الزمخشرى وأبو السعود فالله قادر على إنطاق كل شىء، كما أنطق الجلود فى سورة «فصلت» من قبل.

ويوم القيامة يوم أهوال، والهول هو الأمر الغريب غير المألوف عند الناس، فحرى بنا ألا نختلف حول هذه الحقيقة.

* * *

# سورة الذاريات

١ - ﴿ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

**الدراسة والتحليل:**

سورة (الذاريات) مكية النزول، نزلت بعد الأحقاف وقبل سورة (الغاشية) وكان ترتيب نزولها السادسة والستين وهى من السور التى بدأت بالقسم، والمقسم به فيها متعدد أما المقسم عليه فهو وقوع كل ما وعد الله به من أمور البعث الذى أنكره مشركو العرب وأمم من قبلهم. وهذا يظهر جليا من مطلع السورة:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا* فَالْحَامِلاَتِ وِقْرًا* فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا* فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا* إِنَّما تُوعدون لَصَادِقٌ* وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

[الذاريات: ١- ٦].

أقسم الله عز وجل بالذاريات. ثم عطف على الإقسام بها الإقسام بالحاملات والجاريات والمقسمات. وجاء العطف بها بقصد الترتيب والتعقيب.

والأمور الأربعة التى وقع الإقسام بها مختلف فى معانيها والمشهور عند المفسرين أن الذاريات نوع من الرياح، وأن الحاملات هى السحب تحمل الماء. وأن الجاريات هى الأفلاك تجرى فى مداراتها جريا سهلا، كالشمس والقمر. وأن المقسمات هى طائفة من الملائكة. هذا هو القسم.

أما جوابه فأمران معطوف ثانيهما على أولهما:

**الأول**، هو: **(إنما توعدون لصادق)**. **الثانى**، هو: **(وإن الدين لواقع)**.

جاء بجواب القسم عاما شاملا لكل وعد غيبى وعد الله به عباده ويدخل فيه البعث من القبور دخولاً أوليا؛ لأنه هو الذى جرى النزاع فيه، وإن كان إنكار البعث - عند منكريه - إنما هو إنكار للحياة الآخرة بكل تفاصيلها.

وفى إطار هذا (الجو) الذى رسمته هذه السورة الحكيمة وردت الآية موضوع

الدراسة: (**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**)؟

وكان قبلها مباشرة قول الحق عز وجل: (**وفى الأرض آيات للموقنين**).

يعنى كما أن فى الأرض آيات ناطقات بجلال الله وكماله وجماله فإن فى أنفسكم آيات ناطقات بذلك الجلال والكمال والجمال ثم جاء فى عجز الآية هذا الاستفهام:

(**أفلا تبصرون**) وقد تقدمت له نظائر فى التركيب الذى هو عليه:

همزة الاستفهام + أداة عطف + أداة نفى + فعل مضارع مثل:

(**أفلا تعقلون**) و(**أفلا تذكرون**) وهذه النظائر كثيرة فى النظم الحكيم.

ونظائر فى التركيب واللفظ معاً: (**أفلا تبصرون**) وتقدم أن هذا التركيب فيه مذهبان:

**الأول**: مذهب الجمهور، وهو أن الهمزة مقدمة من تأخير؛ لأن الاستفهام له الصدارة. وأن الأصل كان: فألا تبصرون. فلما قدمت الهمزة صار: أفلا تبصرون.

**والثانى**: مذهب الزمخشرى، وهو أن الهمزة قارة فى مكانها ومدخولها محذوف وهو ما عطفت عليه أداة العطف (الواو - الفاء - ثم).

ومما نحرص على التذكير به -هنا- أن الإمام الزمخشرى لم يقل إن هذا المذهب لازم فى كل موضع اجتمعت فيه أداة عطف مع همزة الاستفهام. بل الأمر عنده قائم على الجواز. ولذلك لم يطبق الإمام الزمشخرى مذهبه هذا فى كل موضع من هذا التركيب حتى قال بعض الأئمة: إنه رجع عنه، كما سيأتى فى الخاتمة.

هذا وقد ترتب على هذا الاختلاف بين الجمهور والإمام الزمخشرى اختلاف وجهات نظر الأئمة فى المراد من الاستفهام فى هذا الموضع.

هل هو للإنكار أم هو للتقرير؟

فعلى تطبيق مذهب الزمخشرى يكون الاستفهام للإنكار لكن المنكر هو المحذوف المقدر الذى وَلِىَ الهمزة لا الفعل المضارع. وأحيانا يكون المنكر الجملتين معاً:

الجملة المقدرة بعد الهمزة. ثم الفعل المضارع، وقد تقدَّم فى كلام الإمام أبى السعود.

أما على العمل بمذهب الجمهور فالاستفهام يكون تقريراً لأن النفى الحاصل بأداة النفى نُفِىَ بالهمزة. فعاد الكلام إثباتا.

وقد أسهب الإمام الزمخشرى فى تبيين الآيات التى فى أنفس المخاطبين دون النص على المراد من الاستفهام فقال:

**(وفى أنفسكم)**: فى حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال. وفى بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر، وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان. وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعانى.

وبالألسن والنطق ومخارج الحروف، وما فى تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة، والبينات الناطقة على حكمة المدبر.

دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له، وما سوّى فى الأعضاء من المفاصل للأنعطاف والتثنى... **(فتبارك الله أحسن الخالقين)**(1).

هذا ما قاله رحمه الله فما بالك ماذا كان سيقول هذا العبقرى لو كان من أعلام عصرنا وأحاط بالدراسات الإنسانية وعلم التشريح، ووقف على الأسرار المذهلة فى تراكيب الجسم وأجهزته المختلفة؟

وقدَّر الإمام أبو السعود المعنى هكذا:

**(أفلا تبصرون)** أى: (ألا تنظرون فلا تبصرون)(2).

وردد الإمام الألوسى عبارة إبى السعود ثم قال:

(وهو تعنيف على ترك النظر فى الآيات الأرضية والنفسية)(3).

واختصر الإمام الطاهر فقال: (والاستفهام إنكار. أنكر عليهم عدم الإبصار بالآيات)(4).

**والخلاصة**: أن هذا الاستفهام إذا أجرينا فيه مذهب الإمام الزمخشرى كان للإنكار على درجتين:

---

(1) الكشاف: (4/16).

(2) تفسير أبى السعود: (8/139).

(3) روح المعانى: (27/9).

(4) التحرير والتنوير: (26/353).

**الأولى**: إنكار النظر المقدر بعد الهمزة حسب عبارة الإمام أبى السعود المتقدم ذكرها.

**الثانية**: إنكار الإبصار المترتب على إنكار النظر، والأولى أن نقول للنفى لا للإنكار. ثم يردف عليه من المعانى الثانية الحث والترغيب فى النظر والاعتبار أما إذا أجريناه على مذهب الجمهور فيكون (ألا) تحضيضا وحثا أصالة، مع إشمام رائحة الاستفهام فيه. وإذا قصرناه على الحض والترغيب كنا على صواب. ويفارقه الإنكار حينئذ، ويتحول إلى أمر أى أبصروا واعتبروا.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (**وفى أنفسكم**) وصلت هذه الجملة بالواو بما قبلها (**وفى الأرض آيات للموقنين**) لأن بين الجملتين التوسط بين الكمالين، لا تقاقهما فى الخبرية لفظا ومعنى.

وفى العبارة إيجاز بالحذف معلوم مما قبله، والتقدير: وفى أنفسكم آيات. فالمحذوف هو المسند إليه؛ وتنكير (آيات) للتعظيم والتكثير.

* (**أفلا تبصرون**) استئناف مسوق لتوبيخهم على ترك الاعتبار بما فى الأرض وبما فى أنفسهم من آثار قدرة الله الباهرة.

وحُذِفَ معمول الفعل (**تبصرون**) والتقدير: أفلا تبصرونها ونُزِّل الفعل منزلة اللازم، لأنهم لما لم يعتبروا بما أودع الله فى الكون والأنفس من الآيات البينات صاروا كأنهم لم يبصروا شيئاً قط. فالحذف للدلالة على عموم النفى.

* * *

٢ -﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤].

٣ -﴿ أَلاَ تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٧].

**الدراسة والتحليل:**

المخاطب بالاستفهام فى الآية الأولى هو خاتم النبيين ﷺ، والحديث المقصوص عليه هو حديث الملائكة الذين أرسلهم الله إلى إبراهيم شيخ الأنبياء عليه السلام.

وهذه القصة كررت فى القرآن مرات وجاءت فى (الذاريات) هكذا بعد الآية موضوع الدراسة:

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ* فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ: أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾

[الذاريات: ٢٥- ٣٠].

ولغرابة هذه الواقعة كرر ورودها فى القرآن. وهنا نرى النظم القرآنى الحكيم لا يهجم بذكر هذه الواقعة ابتداء بل مهد لها بهذا الاستفهام.

(**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم**) وهو استفهام تشويقى تقريرى، لأن هذه القصة وردت فى سور قبل هذه السورة نزولاً، منها سورة (الحجر).

وقد ورد فى أثناء القصة هنا قول إبراهيم لضيفه حين رآهم لا يأكلون الطعام:

(**ألا تأكلون**) فلننظر فى هذين الاستفهامين معاً:

الأول: (**هل أتاك..**)        والثانى: (**ألا تأكلون..**)؟

فالإمام الزمخشرى يحمل الاستفهام الأول (**هل أتاك**) على تفخيم شأن الحديث المستفهم عنه، والتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله، وإنما عرفه بالوحى[(١)].

أما الاستفهام الثانى (**ألا تأكلون**)؟ فقد حمله على إنكار تركهم الأكل[(٢)].

وكذلك صنع الإمامان أبو السعود والألوسى[(٣)].

ويضيف الإمام الطاهر إلى تفخيم شأن الحديث فى الاستفهام الأول تسلية النبى ﷺ. ووعيد السامعين من مشركى مكة[(٤)].

أما فى الثانى (**ألا تأكلون**) فقد حمله على العَرْض والإنكار[(٥)].

**والخلاصة**: أن حمل الاستفهام الأول (**هل أتاك**) على تفخيم شأن المستفهم عنه سائغ

---

(١) الكشاف: (١٨/٤).        (٢) المصدر نفسه: (١٩/٤).

(٣) تفسير أبى السعود: (١٣٩/٨- ١٤٠)، وروح المعانى: (١١/٢٧- ١٢).

(٤، ٥) التحرير والتنوير: (٣٥٧/٢٦- ٣٥٩).

بلاغة، والأئمة مجمعون على هذا مع ما أردفوه عليه من معان ثانية.

أما الاستفهام الثانى (**ألا تأكلون**) فإن حمله على الإنكار أصالة يبدو مجافيا للأصول البلاغية لأن النفى المستفاد بـ(لا) أزيل ونفى بهمزة الاستفهام فحرى أن يكون الاستفهام -أصالة- للتقرير بترك الأكل، ثم يردف عليه إنكار إعراضهم عن الأكل مع التلويح. بالحث على الأكل، والوقوف على معرفة السبب الذى حملهم عليه.

لذلك تباينت وجهات النظر حول المراد من هذا الاستفهام بين الأئمة الأقدمين، والطاهر بن عاشور.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (**هل أتاك..**) إيثار أداة الاستفهام (هل) هنا لتوكيد ما تفيده من تحقق المستفهم عنه فى تفخيم شأنه.

* (**حديث ضيف إبراهيم المكرمين**) فى إسناد الفعل (أتاك) إلى الحديث مجاز عقلى أو استعارة مكنية بتشبيه الحديث لذيوعه وغرابته بكائن عاقل يسعى بنفسه، ثم حذف المشبه به ودل عليه باسناد ما هو له إلى المشبه. وفصل جملة (هل) عما قبلها لكمال الانقطاع.

وجاء الوصف (**المكرمين**) جمعاً والموصوف (**ضيف**) مفرد، لأن معناه -هنا- الجمع، والمفرد المنكر إذا أضيف أفاد العموم أحياناً.

* (**قال ألا تأكلون**) الاستفهام فى (ألا) تقرير بعدم الأكل، ثم إنكار للترك، مع الحث والتحضيض عليه والتطلع إلى معرفة السبب فى الإعراض عن الطعام أما فصل جملة (**قال**) عما قبلها فلكمال الاتصال؛ لأنها بدل اشتمال من جملة (قربه) أو فى موضع الحال: أى قربه إليهم قائلا ألا تأكلون؟

* * *

٤ -﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّها الْمُرْسَلُونَ ﴾ [الذاريات: ٣١].

**الدراسة والتحليل:**

القـائل هو أبو الأنبيـاء إبراهيم الخليل عليـه السلام والمقـول له هم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى إبراهيم عليه السلام، وهو من تمام القصة التى بدأت من الآية (٢٤).

وقد صدر هذا القول من إبراهيم عليه السلام بعد أن عـرف أن ضيفه ليسوا بشراً، بل هم ملائكة كرام بعثهم إليه الله عز وجل.

توجه إليهم إبراهـيم عليه السلام بهذا السؤال؛ لأن مـجىء الملائكة رسلاً من عند الله لا يخلو من شأن عظيم جيئوا من أجله.

والاستـفهام الذى فى الآية استـفهام حـقيقى ليس لأهل العلم خـلاف فى تصور وتصوير معناه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (**قال..**) فصلت هذه الجملة عما قبلها لأنـها نزلت منزلة جواب عن سؤال نشأ عما قبلها، فبين الجملتين شبه كمال الاتصال.

أو هى استـئناف لغوى مـسوق لطلب إبراهيم مـعرفة الأمـر الذى أرسلهم الله من أجله.

وأوثر لفظ (**خَطْب**) لأنه يستـعمل لغة وبلاغـة فى الأمور الجليلة الشـأن. وتقديم (**خطبكم**) على (**أيها المرسلون**) لأهمية المقدم عند المستفهم.

* * *

٥ -﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٣].

**الدراسة والتحليل:**

الحـديث فى الآية عن الذين كـفروا فى كل الأمم، والضـمـير فى (به) فى قـوله تعالى: (**أتواصوا به**) عائد على ماحكاه الله عنهم قبل هذه الآية مباشرة:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾

ومناسبة ذكره ماحكاه الله عن مشركى مكة من قـبل فى مواضع كثيرة من وصفهم محمداً ﷺ بأنه ساحر أو مجنون.

والمعنى: ما من أمة بعثنا فيها رسولاً إلا كذبوه ووصفوه بالسحر أو الجنون. أحدث بينهم تواصٍ بهذا؟ كلا، لأنهم لم يلتقوا فى زمان ولا فى مكان. وإنما علة قولهم هذا أنهم جميعاً - تلاقوا أم لم يتلاقوا - مغمورون فى الطغيان فأملى عليهم طغيانهم الاتفاق فى ذلك القول الكفر، فالاستفهام فى **(أتواصوا به)** للإنكار أو النفى عند جميع أهل الذكر، وفى مقدمتهم الأئمة المفسرون ولم يُعْرَفْ بينهم خلاف.

**والخلاصة**: أن هذا الاستفهام مجازى قطعا لوروده فى كلام الله الخالص غير المحكى عن غيره.

ويردف على هذا المعنى الإنكارى من المعانى الثانية كل من التجهيل والتهديد.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(أتواصوا به)** استئناف مسوق لبيان العلة فى إطباقهم على وصف الرسل بالسحر مرات، والجنون مرات أخرى.

* **(بل هم قوم طاغون)** بل: للإضراب والانتقال من معنى إلى معنى، فقد أضرب النظم إضرابا انتقاليا من نفى التواصى بينهم على وصف الرسل بالسحر والجنون، إلى اعتماد العلة الحقيقية فى ذلك الإطباق وهو الطغيان.

والجمع بين **(هم قوم)** وكان يمكن أن يُكتَفَى بـ: بل هم طاغون، إشارة إلى أنهم وإن توزعوا زمانا ومكانا فهم فريق أو قوم واحد من حيث فساد الاعتقاد والتوغل فى الطغيان.

وإيثار اسم الفاعل **(طاغون)** على الفعل: **(يطغون)** للدلالة على رسوخ وصف الطغيان فيهم، وأنهم لا يفارقونه فى عقيدة أو قول أو عمل، وهو لم يفارقهم فى عقيدة أو قول أو عمل.

لذلك نصح الله رسوله بأن يعرض عنهم ولا يشقى بهم، بل يقف عند البلاغ المبين، والذكرى الهادئة: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٤- ٥٥].

* * *

# سورة الطور

١ - ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

**الدراسة والتحليل:**

سورة (الطور) مكية النزول، نزلت بعد (نوح) وقبل (المؤمنون) وترتيبها فى النزول الخامسة والسبعون. وهى شبيهة بسورة الذاريات (جارتها فى المصحف) فى الموضوعات التى تعرضت لها. وإن خلت من الإشارات السريعة إلى قصص بعض الرسل.

فقد بدئت مثلها بالقسم، وكان المقسم به فيها متعددًا. والمقسم عليه هو المقسم عليه فى سورة (الذاريات).

وكان أول استفهام ورد فيها هو قوله تعالى:

(**أفسحر هذا..**) وكان ما قبل هذه الآية هو قوله تعالى يخاطب أصحاب النار:

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

وكان ما بعدها هو قوله تعالى:

﴿اصْلَوْهَا فَأَصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وفى هذه الآيات الثلاث تبكيت وأى تبكيت لأصحاب النار، فقد أنكروها فى الحياة الدنيا، ثم هاهم يرونها رأى العين فى الآخرة فيؤنبهم الله على كفرهم بها قبل أن يدخلوها، ثم يؤمرون جميعًا باقتحامها، والخلود فى لظاها فإن جزعوا فلا جدوى فى جزعهم، وإن صبروا فلا جدوى فى صبرهم.

وقد ورد فى الآية استفهامان:

**﴿أفسحر هذا..﴾؟ ﴿أم أنتم لا تبصرون﴾؟**

والاستفهام الأول: استفهام إنكار وتحسير وتهكم بهم.

والاستفهام الثانى: ﴿أم أنتم لا تبصرون﴾ فقد قال فيه الإمام الزمخشرى إنه استفهام تقريع وتهكم[1].

وجاراه الإمامان أبو السعود[2] والألوسى، وردد الألوسى نقلا عن أبى حيان أن ﴿أم﴾ متصلة؛ ولكنه - أى الألوسى - رجح الانقطاع، وقال إنه أبعد مغزى»[3] أى بلاغة وكان تقدير المعنى عند الأئمة هكذا:

«أم أنتم لا تبصرون كما كنتم فى الدنيا لا تبصرون».

أما الإمام الطاهر فقد قال فى الثانى ﴿أم أنتم لا تبصرون﴾.

«أم منقطعة» والاستفهام الذى تقتضيه ﴿أم﴾ بعدها مستعمل فى التوبيخ والتهكم. والتقدير: بل أنتم لا تبصرون»[4] ومعنى هذا أن الاستفهام - عنده - للتقرير.

أما التوبيخ والتهكم فناشئان عن التقرير؛ لأنهما من المعانى التابعة دائمًا إما للإنكار، وإما للتقرير.

وكان الإمام البيضاوى قد صرَّح بأن الاستفهام الأول للإنكار مع التوبيخ[5].

**والخلاصة:** إن الاستفهام الأول لم يبين أحد ما المراد منه سوى الإمام البيضاوى الذى حمله - وهو محق - على الإنكار أصالة. والتوبيخ ردفا.

كما سكت الأئمة عن النص على المراد من الاستفهام الثانى مع نص بعضهم على انقطاع ﴿أم﴾ إلا الإمام الطاهر الذى خرَّجه مخرج التقرير.

والأول - كما قال البيضاوى - للإنكار مع توابعه، أى هذا ليس سحرًا، أما الثانى، فالذى يلوح لنا أنه للإنكار مثل الأول، أعنى إنكار عدم إبصارهم؛ لأنهم حين يقال لهم هذا الكلام يكونون أبصر ما يكونون للنار التى يعرضون عليها.

والمعنى على هذا:

أهذه النار التى ترونها الآن سحر كما كنتم تقولون فى الحياة الدنيا، أم أنتم لا تبصرونها - الآن - فلا جواب لكم على سؤالنا.

---

(١) الكشاف: (٤/ ٢٣).

(٢) تفسير أبى السعود: (٨/ ١٤٧).

(٣) روح المعانى: (٢٧/ ٣٠).

(٤) التحرير والتنوير: (٢٧/ ٤٤).

(٥) تفسير البيضاوى: (٢/ ٤٣٤).

يعنى: إن الذى يرونه إما أن يقولوا هو سحر، أم يقولوا نحن لا نبصر شيئا.

فإن قالوا هو سحر كذبوا، وإن قالوا لا نبصر كذبوا هذا هو الذى تستريح إليه النفس، ويطمئن به القلب.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أفسحر هذا﴾: الذى نرجحه أن الفاء عاطفة محذوفا على ما ذكر فى الآية قبلها: **(هذه النار التى كنتم بها تكذبون)**.

والتقدير: فما تقولون عنها الآن، أسحر هذا الذى ترونه كما كنتم تقولون فى الدنيا؟ ويكون قوله تعالى: ﴿**أفسحر**﴾ بدلاً من المقدر المحذوف، أو استئنافا مترتبا عليه.

* ﴿**أم أنتم لا تبصرون**﴾؟ لم يقل: أم لا تبصرون. لأن ما عليه النظم أبلغ من حيث صياغة المعنى فى جملة اسمية ﴿**أم أنتم**﴾ وهى تفيد الثبوت والدوام، ثم التوكيد بتكرار الإسناد مرتين: مرة إلى الفعل، وأخرى إلى المسند إليه.

* * *

٢ - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠].

## الدراسة والتحليل:

عود للحديث عن جرائم المشركين. ووصفهم لرسول الله ﷺ بأنه شاعر، وقد تقدم على هذه الآية قوله تعالى:

﴿فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون﴾ [الطور: ٢٩].

وبعدها ورد قوله تعالى:

﴿قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين﴾ [الطور: ٣١].

فمن رعاية الله لحق رسوله الكريم حصر اتهامهم له بالشاعرية بنفى الكهانة والجنون عنه. وأمر رسوله أن يهددهم بالأمر بالتربص. وأنه يتربص بهم كما يتربصون به. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

أما الاتهام بالشاعرية فقد ورد فى حيز الاستفهام الإنكارى، فبرأه الله من النقائص الثلاث: الكهانة - الجنون - الشاعرية.

وقد سكت الأئمة الأقدمون عن معنى ﴿أم﴾ والاستفهام المستفاد منها، إلا الإمام الألوسى فقد صرَّح بأن (أم) منقطعة. وقدرَّها بـ «بل» والهمزة ومعنى هذا أن الاستفهام الذى فى همزتها للإنكار[1].

ويرى الإمام الطاهر أن ﴿أم﴾ منقطعة. وأن همزتها للإنكار، ثم عزا إلى الخليل أنه قال: كل ما فى الطور من ﴿أم﴾ استفهام[2].

**والخلاصة:** لم يهتم الأئمة بالاستفهام فى هذه الآية وما بعدها - كما سيأتى - والذى نسير عليه هنا أن ﴿أم﴾ منقطعة، وأن همزتها للإنكار، وهذا بدلالة المقام ويردف على الإنكار من المعانى الثانية: التجهيل والتوبيخ لأن من كان مثل محمد ﷺ فهو بارىء من كل النقائص التى لا تليق برسل الله الكرام.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿أم يقولون شاعر﴾**؟ انتقال من اتهامهم إياه بالكهانة والجنون المنفيين فى الآية التى قبل هذه الآية، إلى إنكار اتهامهم إياه بالشاعرية - نسبة إلى شاعر.

وإيثار المضارع **﴿يقولون﴾** إشارة إلى ترديدهم هذا الاتهام مرات تلو مرات، وللتسجيل عليهم بالجهل المستمر وإصرارهم على وسم الحق بوسم الباطل.

وفى الجملة إيجاز بالحذف - حذف المسند إليه.

والتقدير: هو شاعر. وقد يكون المراد من الحذف على زعمهم أن وسمه بالشاعرية راسخ فيه ومشهور عند الناس فإذا قيل شاعر عُرِفَ أنه هو ﷺ المقصود بهذا الوصف.

* **﴿نتربص به ريب المنون﴾** أى نتركه لنوائب الدهر يهلك كما هلك الشعراء من قبله. وهذا كناية عن بغضهم إياه وضيقهم به.

* * *

(1) روح المعانى (٢٧/ ٣٦).

(2) (٢٧/ ٦٠).

٣ - ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٢ - ٣٣].

**الدراسة والتحليل:**

يواصل القرآن الحديث عن مشركى العرب، ويكر عليهم كرة قاسية، يثبت لهم عن طريق الاستفهام وما فى حيزه مساوئ اعتقاداتهم وأقوالهم وأفعالهم وفى هاتين الآيتين يسجل عليهم جُرما بعد جرم فيتساءل النظم:

ما الذى دعاهم إلى تكذيب رسوله وإنكار المعاد وإلحاقهم النقائص بمن بعثه الله رحمة للعالمين. أأمرتهم أحلامهم وعقولهم بهذا، فبئس تلك الأحلام والعقول.

أم هم طاغون فحملهم طغيانهم على الكفر والتكذيب أم يعتقدون أن رسولنا افترى القرآن من عند نفسه، فهم برآء منه ومن افترائه.

وقد جاء فى هذه الآيات ثلاثة استفهامات:

* ﴿أم تأمرهم أحلامهم﴾؟ * ﴿أم هم قوم طاغون﴾؟ * ﴿أم يقولون تقوله﴾.

عرضت هذه الآيات ثلاث علل بصدور هذا القول منهم على ما بينه من تناقض.

فقد وصفوا الرسول ﷺ بثلاثة أوصاف:

الكهانة - الجنون - الشاعرية وهى أوصاف لا تجتمع فى موصوف واحد، لأن الكاهن والشاعر لا يكونان مجنونين والمجنون لا يكون كاهنا ولا شاعرًا، والشاعر لا يكون كاهنا، والكاهن لا يكون شاعرا. فكيف ساغ لهم أن يصفوا الرسول الكريم بهذه الأوصاف؟.

إن السبب فى هذا هو طغيانهم وكرههم، ولو كانوا عدولاً مؤمنين لحمامهم الإيمان ومقتضياته من التورط فى هذه الورطة.

والأئمة لم يقولوا شيئا عن المراد من هذه الاستفهامات بل اكتفوا بالمعنى العام للآيات.

فإذا طبقنا ما نقله الإمام الألوسى عن أن ﴿أم﴾ فى الطور كلها استفهام لا عطف، كانت ﴿أم﴾ منقطعة وبل فيها للإضراب والانتقال من السابق إلى اللاحق وهمزتها

تكون للإنكار فى مواضع، وللتقرير فى مواضع أخرى بدلالة المقام.

والذى نراه - ونكاد نجزم به - أن بعض مواضع ﴿أم﴾ فى هذه السورة لا يصلح معها الإنكار ولا التقرير. وهذا يقتضى على دارس كتاب الله العزيز أن يحمل ﴿أم﴾ على معنى بل وحدها دون همزة الاستفهام لصعوبة تخريج المعنى معها. فمثلا قوله: ﴿**أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون**﴾ يسوغ لنا أن نقول فى ﴿أم﴾ الأولى أنها بمعنى بل والهمزة، والتقدير: بل أتأمرهم أحلامهم بهذا» ويكون الاستفهام بالهمزة إنكاريا.

أما ﴿أم﴾ الثانية، فهي بمعنى بل وحدها. والمعنى بل هم قوم طاغون. لأنهم طاغون فعلا وما يقع بعد (بل) يكون (يقيناً).

ولو قدرناها بمعنى بل والهمزة لكان التقدير: بل أهم قوم طاغون؟

فإذا حملنا الاستفهام معها على الإنكار لا يصح أبدًا لأنه يترتب عليه نفى الطغيان عنهم، وهذا ضد المعنى المراد.

وإذا قلنا إن الاستفهام معها للتقرير، نبا عن الذوق، ولم يساعد عليه التركيب لأن التقرير بالهمزة بعد (بل) ليس بلاغة.

وبناء على هذا نقول:

* إن الاستفهام فى ﴿أم﴾ الأولى ﴿**أم تأمرهم أحلامهم**﴾ للإنكار أما فى ﴿أم﴾ الثانية ﴿**أم هم قوم طاغون**) فهو استفهام صورى. و ﴿أم﴾ فيه بمعنى بل فحسب.

والاستفهام الثالث ﴿**أم يقولون تَقَوَّله**﴾ ﴿أم﴾ فيه منقطعة بمعنى بل والهمزة والاستفهام معها للإنكار.

ويجوز - بدلالة المقام - أن تكون بمعنى (بل) وحدها ويكون ما بعدها تقريراً بصدور هذا القول منهم[1].

أما الإضراب بـ «بل» فى قوله الثانى: (**بل لا يؤمنون**) فهو تقرير للعلة الحقيقية التى حملتهم على تلك الأقاويل.

---

(١) تقدم مرات أن كثيراً من اللغويين والمفسرين جوزوا مجىء ﴿أم﴾ ببل وحدها. وقد خرَّجنا على هذا المذهب بعض الآيات من قبل فى هذه الدراسة.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿أم تأمرهـم أحلامهم بـهذا﴾ إسناد الأمـر إلى الأحلام مـجاز عقـلى، أو استـعارة مكنية، وأيا كان التصوير البلاغى فالسر هو تهويل شدة التأثير عليهم وإيثار المضارع للدلالة على تكرار هذا الكفر عندهم.
* ﴿أم هم قوم طاغون﴾ انتقال من أمر أحلامهم إياهم إلى تـقرير طغيانهم ومجاوزتهم «الحد» فى الظلم لأنفسهم. وإن كانوا شديدى الظلم لغيرهم.
* ﴿أم يقولون تقوَّله﴾؟ التقـوُّل أخص من الكذب لأنه قول الكذب منسوبا إلى غـير القائل. والضـمير المنصـوب فى ﴿تقوَّله﴾ للقرآن، أى قـاله محمـد ﷺ من تلقاء نفسه، ثم نسبه إلى الله عز وجل.
* ﴿بل لا يؤمنون﴾ انتقـال من ما تقدم إلى تقـرير أن سبب كفـرهم التولى، وهذيان الذاهب عقله، وهو عدم إيمانهم القلبى.

وقد يكون هذا قيدًا فى نسبتـهم افتراء القرآن على الله، بدليل أنه تعالى عقب على هذا بقوله:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ، إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤].

والأمر فى ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ للإهانة والإفـحام؛ لأنهم ليسـوا أهلاً لأن يأتوا بمثل القرآن والأمر بشىء للعاجز عنه إهانة له وتهكم به وإفحام.

* * *

٤ - ﴿ أَمْ خُلِقُـوا مِنْ غَـيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَـالِقُـونَ* أَمْ خَلَقُـوا السَّمَـوَاتِ والأَرْضَ، بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦].

**الدراسة والتحليل:**

يواجه القـرآن العظيم أولئك الكفرة الفـجرة بما يزلزل من على الأرض أقـدامهم. فبعد أن أفحم مصاقعـهم فى الآيات السابقات يوجه إليهم فى هاتين الآيتين ما لا قبل لهم به من التساؤلات، وصاغ هذه المواجهة الهادرة فى ثلاث صور استفهامية هكذا:

**﴿أم خلقوا من غير شىء﴾؟. ﴿أم هم الخالقون﴾؟.**

﴿**أم خلقوا السموات والأرض**﴾؟.

يبدأ فى الصورة الأولى مشيحًا عنهم بوجهه، متحدثا عنهم مع غيرهم:

ألا يتفكرون فى مبدئهم ليظهر لهم الحق؟ هل خُلقوا بلا خالق. وهل رأوا أو سمعوا أن فِعْلا ما حدث من غير فاعل. وهم يسيرون فوق الأرض ويشاهدون فى الكون صنعا بديعا، فهل يؤمنون أنهم خُلِقوا هكذا من غير خالق.

أم أنهم هم الذين خلقوا أنفسهم؟ وهل رأوا فى حياتهم كائنا عاقلا أو غير عاقل كان فاعلا لنفسه مفعولا لها فى الوقت نفسه.

هذه محاصرة لهم فى خويصية أنفسهم. سؤالان إذا انحرفوا عن إجابتهما «الإيمانيتين» فليس لهما من الحق والصواب حبة خردل.

وبعد أن واجههم القرآن هذه المواجهة الساحقة لباطلهم، يرقى بهم درجات فى سُلَّم الإعياء والإفحام فيسألهم، أو يتحدث عنهم سائلا:

﴿**أم خلقوا السموات والأرض**﴾ فى الآية الأُولى. جرَّدهم من كل حول وطول فى خويصية أنفسهم. وفى هذه الآية يجرعهم كأس القهر مرة لاذعة:

أهم خلقوا السموات، فيكون لهم من القوة ما يصادرون به شئون الله فى كونه، ويكذبون رسله، ويصيرون آلهة على الأرض تحكم من فى السماء.

ثم يثبت لهم ما جهلوه هم من أنفسهم، وكان وراءه كل شيطانياتهم وكفرياتهم:

﴿**بل لا يوقنون**﴾ هذا هو مصدر حماقاتهم، وليس أن خلقا لهم أو جدهم، ولا خلقا لهم أو جد السموات والأرض.

فى المواجهة التى بدأت بقوله تعالى: ﴿**أم تأمرهم أحلامهم بهذا..**﴾.

كانت الجرعة المرة التى سُقُوها: ﴿**بل لا يؤمنون**﴾.

وفى هذه المواجهة كانت جرعتهم القاتلة: ﴿**بل لا يوقنون**﴾.

هذا، والاستفهامات الثلاثة، لم يذكر الأئمة المراد منها، وهى كلها إنكارية، سبقت للإنكار والافحام والتوبيخ والتجهيل.

لأن من كان شأنه هو ما حكاه القرآن من الكفر والعناد كان جاهلا كذابا لا يقره

عاقل على مـا يقول. بل يكيل له بعد التـجهيل والتكذيب والإفحـام ما هو أهله من صنوف التوبيخ.

### أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أم خلقـوا من غيـر شىء﴾: أى: بل أخلقـوا من غـيـر شىء انتـقل بـ «بل» من التسجيل عليهم بعدم الإيمان، وكشف عـجزهم عن الإتيان بمثل القرآن، وتوبيخهم على هذه المقابح، إلى إنكار قـدرتهم على أن يكون لهم أثر ما فى صنع أنفـسهم، ثم توبيخهم على عنادهم وكفرهم.

والإلزام بالحجة عليهم لله - هنا - طريقة البـرهان العقلى. فهم حوادث مخلوقة، ومحال فى حكم العـقل أن يوجد موجود حادث من غـير موجود قديم لا يفـتقر فى وجوده إلى مؤثر.

ثم خطا النظم الحكيم خطوة إفـحامـية أخرى، وبـنى هذه على إقرارهم القـسرى واعترافهم الضرورى بأن شيئًا ما هو الذى خلقهم.

فتابعهم النظم وسد الطريق أمامهم فقال:

* ﴿أم هم الخالقون﴾ يعنى هل ذلك الشىء الذى أقروا به قسرا وإلجاء هو أنفسهم؟.

مَنْ منهم يؤمن بأنه خلق نفسه، أو خلقه حادث مثله؟.

هل آباؤهم هم الذين خلقوهم، فيصدق أنهم هم الخالقون ومن الذى خلق آباءهم يا ترى.

لقـد وقفـهم القرآن - عن طريق الحكم الـعقلى - على أن أيا من الفـرضين غيـر صحيح عقلا.

فلا هم خلقوا من غير شىء. هذا هو حكم العقل.

ولا هم الذين خلقوا أنفسهم. وهذا هو حكم العقل فأين يذهبون؟.

* ﴿أم خلقوا السـموات والأرض﴾ هذا ترق حكيم فى إفـحـام الخصم، لأنه بعـد أن وقفهم على عجزهم عما هو متصل بهم، انتقل إلى توقيفهم على عجزهم عما هو منفصل منهم.

لأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس وقد ثبت - يقينا - أنهم لا أثر لهم فى إيجاد أنفسهم فكيف يكون لهم قدرة على خلق السموات والأرض، أن العقل - هنا - ليتوارى خجلا من أن يدعى مدع - ولو كان مجنونا - أنه كان قد طال السموات فصنعها أو عمد إلى الأرض فكوَّنها.

ما أبعد ما بين الناس وبين السموات. هذه قضية قد حسمها العقل.

ثم الأرض التى تحت أقدامهم كيف تكون لهم قدرة على خلقها ومدها وبسطها. فأين كانوا واقفين حين خلقوها؟.

أكانوا واقفين فى الهواء؟ حسنا، فليعمد أحدهم ويرينا كيف يقف فى الهواء مستغنيا عن الأرض أيبقى بعد ذلك شبهة يتمسك بها كافر؟ أو يتشبث بها مجنون.

وهذه قضية مثل الأولى قد حسمها العقل. . فأين - يا ترى يذهبون.

وفى الآيات من الأسرار والبلاغيات فنون وصور فتأمل بناء الفعل ﴿**خلقوا**﴾ لما لم يسم فاعله، ثم تدَّبر حتى تقف على سره البلاغى البديع أو الاعجازى فعلا، فليس الأمر فيه مجرد إيجاز بحذف الفاعل، كلا بل السر فيه معنى تتجمع فيه البلاغة لفظا ومعنى؛ لأن الفكرة التى يواجه بها النظم أولئك الطغاة تنزيلهم منزلة من يدعى أنه مخلوق من غير شىء، أى: مخلوق ليس له خالق، فكان حذف الفاعل وبناء الفعل ﴿**خُلِقُوا**﴾ لما لم يسم فاعله تعبيرا بلاغيا طابق اللفظ فيه المعنى مطابقة، لا يكفى أن توصف بأنها بديعة بليغة. إن كان فوق البداعة والبلاغة المعجزة وصف جمالى يوصف به الكلام.

ثم انظر المقابلة الحكيمة بين الافتراضين:

* الخلق من غير شىء ﴿**خُلِقوا**﴾ بحذف الفاعل.

* كونهم هم الذين خلقوا أنفسهم ﴿**الخالقون**﴾.

لقد اختفى الفاعل فى الفرض الأول، حتى كاد ينعدم ثم ظهر فى الفرض الثانى ﴿**الخالقون**﴾ حتى كاد يصك الآذان.

وتأمل لماذا قال (**من غير شىء**﴾؟ ولم يقل من غير خالق وهل بين التعبيرين فرق؟

نعم، لأنه لو كان قال: من غير خالق «لكان لفظ» «خالق» مجافيا للفكرة التى واجههم بها النظم، وهى تنزيلهم منزلة من ادعى أنه لا خالق له. لأن فى «من غير خالقاً» منصوصا فيه على الفاعل وإن كان منفيا.

أما ما عليه النظم ﴿**من غير شىء**﴾ فإن لفظ ﴿شىء﴾ لا دلالة فيه مباشرة على وجود (**خالق**) أضف إلى هذا الاستغراق والعموم الذى يدل عليه ﴿شىء﴾ ومن أجل هذه الدقائق آثر النظم لفظ ﴿شىء﴾ على لفظ خالق.

* * *

٥ - ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الطور: ٣٧ - ٣٨].

**الدراسة والتحليل:**

كان المشركون يرون أنفسهم أكبر من حجمهم، فلم يكتفوا بكفرهم وشركهم، بل أقحموا أنفسهم فيما ليس لهم فيه شىء. ومن أجل ذلك تابع النظم الحكيم فى هذه المواجهات المتواصلة يكشف لهم عن حقيقتهم من العجز والحقارة.

لذلك نراه يتساءل منكرا: أعند هؤلاء المغرورين خزائن ملكوت الله فهم أحقاء بالولاية على شئون الكون من خالقه العظيم؟ فيعطون من يشاءون ويحرمون من يشاءون أم هم أصحاب السلطان القاهر، الذى يخول لهم السيطرة على تدبير الأمور، وإصدار الأوامر والنواهى أو أطلعوا على علم الله وقضائه وقدره وأسرار حكمته فصاروا أحقاء أن يكونوا وكلاءه فى إدارة ملكوته.

هذه المواجهة صيغت فى الصور الاستفهامية الآتية:

﴿**أم عندهم خزائن ربك**﴾؟. ﴿**أم هم المصيطرون**﴾. ﴿**أم لهم سلم يستمعون فيه**﴾؟.

وكلها استفهامات إنكارية، مع المعانى الثانية التى تردف عليها، وهى: الإفحام والتجهيل والتوبيخ، والأئمة لم يقفوا أمام هذه الاستفهامات من حيث بيان المراد من كل واحدٍ واحدٍ منها.

والخلاصة: هى التى قدمناها - هنا - فيها.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أم عندهم خزائن ربك**﴾ فى ﴿**خزائن**﴾ استعارة تصريحية أصلية، والمراد - بدلالة المقام - أسرار الله الغيبية من قضائه وقدره وتقسيم الحظوظ بين العباد.. شبهت تلك الأمور بالخزائن، والجامع بين الطرفين أمران:

**الأول:** الغنى: فهم بها أغنياء حتى عن الله نفسه عز وجل.

**الثانى:** الخفاء: لأن أمور الله الغيبية لا يعلمها أحد. وهذه استعارة تهكمية بهم، وتنعى عليهم غرورهم واستعلاءهم.

وأطلقت ﴿**خزائن ربك**﴾ من الوصف المخصص بالرحمة، كما قال عز وجل فى آية الشورى:

﴿**أهم يقسمون رحمة ربك**﴾ لأن تجريد الخزائن من الوصف المخصص هو المناسب لوصفهم بالغرور لما فى هذا التجريد من العموم، فهم يتوهمون أنهم يملكون النفع والضر، والعطاء والحرمان. والإسعاد والاشقاء. فما أشد غرورهم؟ وما أحمق حماقاتهم وفى ﴿**هم المسيطرون**﴾ قصر: قصرت فيه صفة السيطرة وهى السلطان الواسع، على ضميرهم ﴿**هم**﴾ وفى هذا تصوير بعد تصوير لبلوغ غرورهم المدى كذبا وإدعاءً.

* ﴿**أم لهم سُلَّم يستمعون فيه**﴾؟ مناسبة ذكر أن يكون لهم سلم يصعدون عليه للإطلاع على أسرار الغيب الإلهية عقب قوله تعالى: ﴿**أم عندهم خزائن ربك**﴾ تضييق عليهم فى الإفحام، فهم ليس عندهم خزائن الله، وكذلك ليس لهم سلم ينفذون به من أقطار الأرض حتى يخترقوا حجب السماء، ويحصلوا على تلك الأسرار فينصبوا أنفسهم آلهة أو أنصاف آلهة فى الأرض ليديروا شئونها.

وفى وصف السلم بـ ﴿**يستمعون فيه**﴾ كناية عن تمكنهم واستقرارهم فى سلم أمين يتيح لهم فرصة التصنت وهم آمنون، فيحصلون على الأسرار الإلهية غير قلقين ولا متعرضين لسوء فى رحلتى الصعود إلى السماء ثم الهبوط إلى الأرض.

وتنكير ﴿**سلم**﴾ للانعدام لا للتحقير ولا للتعظيم هذا باعتبار الواقع الخارجى. أما باعتبار تصوير غرورهم فالتنكير ينبغى أن يكون للتعظيم.

* ﴿**فليأت مستمعهم بسلطان مبين**﴾ الأمر للإفحام والإهانة والتعجيز.

وقيل ﴿**مستمعهم**﴾ ولم يقل: فليأتوا. بإسناد الفعل إلى جمعهم. لأنه لو قيل: ﴿**فليأتوا**﴾ لفات معنى ذو شأن باعتبار المقام، وهو إنكار أن يكون منهم مستمع حقا - ولو واحداً - متلبس بالاستماع، وهو محط الإنكار لذلك أوثر ذكره.

* وفى ﴿**سلطان**﴾ استعارة تصريحية أصلية للدليل، وسرها قوة النفوذ.

* * *

٦ - ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٣٩ - ٤٠].

**الدراسة والتحليل:**

هذه المواجهات الهادرة فى سورة الطور تتعقَّبُ دعاوى المشركين دعوى إثر دعوى فتحصدها حصدًا، وفى هاتين الآيتين يواجه القرآن دعوى المشركين أن الله له البنات، ولهم هم البنون، مدعين أن لهم شركة، مع الله فى ملكوته، وهم أنفسهم مملوكون له، مقهورون له.

ثم يدع هذه الدعوى ويعمد إلى سبب آخر قد يكون لهم فيه عذر إذا صدوا عن رسوله الكريم، وهو أن يكون الرسول يتقاضى منهم أجورًا باهظة مكافأة له على دعوته إياهم إلى الهدى، وتبليغهم ما أنزل الله عليه.

وصور النظم الحكيم هذه المواجهة فى هذين الاستفهامين:

﴿**أم له البنات ولكم البنون**﴾. ﴿**أم تسألهم أجرًا فهم من مغرم مثقلون**﴾؟.

والاستفهام فى كلٍ منهما إنكارى توبيخى.

أما الانتقال فهو من إفحام وتوبيخ إلى إفحام وتوبيخ. من إبطال وتكذيب إلى إبطال وتكذيب، من محاصرة وتطويق إلى محاصرة وتطويق. من تخذيل وتسفيه إلى تخذيل وتسفيه.

### أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾؟ التفات من الغيبة فى الآيات السابقات إلى الخطاب فى هذه الآية[1].

والسر البلاغى فى هذا الالتفات - كما لاح لنا - أن الحديث عنهم فى الآيات السابقات كان بتنزيلهم منزلة من يدعى ما أنكره الله عليهم، إلا فى موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿أم يقولون تقوَّله﴾.

أما فى قسمة البنات والبنين بينهم وبين الله عز وجل فالدعوى بهذا التقسيم كانوا قد أدعوها فعلا، فلزيادة التوبيخ وتشديد الإنكار التفت إليهم، منكراً عليهم وموبخا ومكذبا لهم.

وفى الآية مقابلة اقتضاها المقام، وهى بين:

* له البنات من جهة. * ولكم البنون من جهة أخرى.

وتقديم ﴿له البنات﴾ على ﴿لكم البنون﴾ لأنه محط الإنكار لخسة البنات - على زعمهم - وشرف البنين. فجعلوا الأخس - عندهم - لله. واستأثروا هم بالأشرف.

وفى ﴿مثقلون﴾ استعارة تخييلية هى قرينة الاستعارة بالكناية، حيث شبه الأجر فى بهاظته بالحمل المادى، ثم حذف المشبه به - الحمل المادى - ورمز له بخاصة من خواصه، هى «الثقل» المدلول عليها باسم المفعول ﴿مثقلون﴾.

* * *

٧ - ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤١ - ٤٢].

### الدراسة والتحليل:

ويواجههم فى هاتين الآيتين بطريقين من طرق الإفحام والتحسير: الطريق الأولى طريق النفى والإنكار، والطريق الثانية طريق الإثبات والتقرير. وقد صوَّر النظم هاتين المواجهتين فى صورتى الاستفهام الآتى:

﴿أم عندهم الغيب..﴾؟ ﴿أم يريدون كيداً..﴾؟

(١) سيأتى تفصيل لهذه الآية فى الخاتمة.

إن غـرورهم البـالغ، وتطاولهم الفظيع فى حق الله وحق رسـوله لا يصـدران إلا عمن خرج عن نطاق البشرية والملائكيـة، حالهم حال من وضع يده على أسرار الحياة ما كان، ومـا هو كائن وما سيكون. فـأضفوا على الأصنام وصف الآلهـة، وعبدوها ودعوا غيـرهم لعبادتها، وشـرعوا فحللوا وحرمـوا. وكأنهم أحاطوا علما بـالغيوب الآلهية فراحوا يكتبون للناس نواميس حياتهم.

وفى الاسـتـفـهام الأول نسـف القرآن أن يـكون لهم بالغـيب صلة، لأن همـزة الاستفهام المقدرة فى ﴿أم﴾ همزة إنكار بدلالة المقام.

وهذا هو طريق النفى والإنكار، يعنى: ليس لهم بالغيب أدنى صلة.

أما طريق الإثبات والتقرير، فقد تضمنه الاستفهام الثانى ﴿أم يريدون كيدًا﴾ و﴿أم﴾ فيه بمعنى «بل» وحدها أما إذا قدرنا معـها همزة هكذا «بل أيريدون كيدًا» لتردد المعنى بين الإنكار والتقرير. والإنكار - هنا - لا يصح، لأنهم يريدون كيدًا فعلا. فالمقام مقام تقرير وإثبات لا مقام نفى وإنكار. اللهم إلا إذا حمل الإنكار على إرادتهم الكيد، فهذا سائغ؛ لأنه إنكار مُفَرَّعٌ عن التقرير الذى دل عليه المقام.

**والخلاصة:** إن الاستفهام الأول ﴿**أم عندهم الغيب**﴾ استفهام إنكار قطعا وأصالة.

والاستفهام الثانى ﴿**أم يريدون كيدًا**﴾ استفهام تقـرير بدلالة المقام وأم فيه بمعنى بل فحسب.

### أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أم عندهم الغيب**﴾ إنكار ونفى، وفى الكلام إيجاز بالحذف والتقدير: علم الغيب، أو أسرار الغيب. والتعبير كنـاية عن نفى اتصافهم بالألوهية لأن علم أسرار الغيب لا يحيط به إلا إله (الله) وهذه الكناية من أبدع وألطف الكنايات.
* ﴿**فهم يكتبون**﴾ هذه الجـملة، من قبـيل نفى الشىء بايجابه لأن العـبارة من حـيث اللفظ إثبـات وتقرير، ومن حـيث المعنى نفى وإنكار. لتـرتبهـا على تحصـيل علم الغيب، فلما انتفى علمهم بالغيب انتفت الكتابة أو التشريع الحق.
* ﴿**أم يريدون كـيدا**﴾ أى بل هم يريدون كـيـدا بالرسـالة والرسـول والكيـد الأذى والضرر، وتنكيره للتهويل والتفظيع.

* ﴿**هم المكيدون**﴾ أسلوب قصر، قصرت فيه صفة الكيد على موصوف هو ضميرهم ﴿هم﴾ وإيثار ذكر ﴿**الذين كفروا**﴾ قبل ﴿هم﴾ وكان يمكن أن يقال: فهم للتسجيل عليهم بالكفر الذى من أجله استحقوا أن يُكادوا.

* * *

٨ - ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الطور: ٤٣].

**الدراسة والتحليل:**

بعد أن أنكر الله على المشركين كل أسباب الحول والقوة، التى يستحقون بها ذلك التعاظم فى الأرض، وجردهم من تلك الأسباب تجريدًا كاشفًا عن حقيقتهم من الوضاعة والحقارة والقهر، وترك تعاظمهم بلا أسباب إلا الأسباب السلبية من عدم الإيمان والايقان، عاد هنا فى هذه الآية فنفى أن يكون سبب كبريائهم وكفرهم أن لهم إلهًا غير الله يدفع عنهم غضب الله إذا أحله بهم. وذلك فى هذا الاستفهام الغاضب:

﴿**أم لهم إله غير الله..**﴾ وهو استفهام إنكارى أى ليس لهم إله غير الله يستمدون منه قوتهم، ويتلقون أوهامهم وأضاليلهم. فالله الذى كذبوا وحيه ورسوله هو ربهم ورب كل شىء.

**والخلاصة:** إن هذا الاستفهام إنكارى مع ما يردف عليه من المعانى الثانية كالإفحام والتكذيب والتجهيل والتوبيخ والوعيد الشديد.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أم لهم إله غير الله**﴾ تدرج النظم الحكيم فى تجريد المشركين من أسباب القوة، وانتقل بنا، وهو يعريهم ويفضحهم، من خلال صور استفهامية بلغت خمس عشرة صورة، كلها مصدرة بأداة الاستفهام ﴿أم﴾ وهى الأداة الوحيدة التى تنقل ذهن السامع من معنى إلى معنى، ومن فن إلى فن من فنون البيان. وكان محط الرحال فيها هو هذا الموضع:

* ﴿**أم لهم إله غير الله**﴾ وقد جىء به آخرا لأنه القذيفة الحارقة لكل مدعياتهم، المحطمة لكل كبريائهم. والتدرج فى الحوار مع الخصوم إلى الأعلى أسلوب مفحم بالغ

الحكمة. وهكذا كان حوار سورة «الطور» مع المشركين. ولم نجد له مثيلا فى الطول فى سورة أخرى من سور القرآن.

* وتنكير ﴿إله﴾ للانعدام كما تقدم مرات من قبل، ومن السهو أو الخطأ أن نقول أنه للتحقير، لأن الحقارة صفة لموصوف له وجود، وليس فى الكون إله غير الله. لذلك نجزم - هنا - أن المراد من تنكير ﴿إله﴾ هو الإعدام، أو هو الانعدام إذا أردنا الدقة فى التعبير.

* ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ سبحان: مصدر ناب مناب فعله، وهو مؤكد له، والتقدير نسبح الله تسبيحا. والجملة استئناف مسوق للثناء على الله العلى القدير، بعد تلك النقائص التى حكيت عن المشركين. ومجيؤها عقيب ﴿أم لهم إله غير الله﴾ لتوكيد نفى التعدد فى الألوهية وتقرير وحدانية الله عز وجل وعلا.

ووضع المظهر ﴿الله﴾ موضع المضمر: سبحانه، لأن المقام يستدعى هذا لإظهار. كيدًا للمشركين الذين دعوا مع الله آلهة تعبد، ويُلْجأ إليها فى جلب المنافع ودفع المضار. ثم إغاظة لهم إثر إغاظة.

والموصول وصلته ﴿عما يشركون﴾ كناية عن معبوداتهم الجمادية التى لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع، ولا تبصر، ولا تغنى عن عابديها شيئا، إلى يوم القيامة.

وبهذا تكون سورة (الطور) قد دمرت الشرك وأهله تدميرا، فلم تبق له على أثر، ثم عقبى الكافرين النار.

* * *

# سورة النجم

١ - ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَايَرَى ﴾ [النجم: ١٢].

**الدراسة والتحليل:**

سورة (النجم) من بواكيـر سور القرآن، حيث كان نزولها بمكة تحـمل الرقم الثالثة والعشرين، يعنى نزل قبلها اثنتان وعشرون سورة.

وجاراتها فى النزول سورتا الإخلاص وعبس. الأولى قبلها، والثانية بعدها. وورد أنها أول سورة يعلنها النبى ﷺ للملأ بمكة.

وقد وقع فى النفس شىء من هذا النزول المبكر يحتاج إلى تحقيق من الباحثين؛ لأن هذه السورة أشارت فى مطالع آياتها إلى قصة المعراج، وكانت قصة المعراج فى أواخر العهـد المكى فكيف ترد هذه الإشارة مع حمل سـورة «النجم» الرقم المبكر فى ترتيب نزول السور.

هذه مجرد خاطرة أذكرها - هنا - بدون تحمس لنفـيها أو إثباتها لعلها تحظى بعناية أهل العلم.

والآية موضـوع الدراسة جاءت تعـقيبا عـلى موقف المشركين المشكك فى حـقائق الإيمان. وكانت السـورة قد ذكرت قـسما فى أولى آياتـها على عصـمة النبى ﷺ من الخطأ فيما يبلغه عن ربه:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىَ * مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوىَ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوىَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى﴾ [النجم: ١-٤].

وبعد هذا التوكيد القسمى على صدق صاحب الرسالة ﷺ بدأت السورة تُلَمِّحُ إلى وقائع المعراج فى عرض لطيف مس المعانى مسا رقيقاً، هكذا:

﴿عَلَّمَـهُ شَدِيدُ الْقُـوَى * ذُوْ مِرَّةٍ فَـاسْتَـوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَى

فَتدَلَّى * فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَـأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَاكَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَى﴾ [٥-١١].

أهل العلم على أن هذه الوقائع المقصوصة فى هذه الآيات وقعت لصاحب الرسالة ﷺ ليلة الإسراء والمعراج. وقد قـصها الرسول على قومه صبيحـة تلك الليلة فأكثروا اللجج، وبالغوا فى الخصومة، فجاءت الآية موضوع الدراسة تحمل هذا الاستفهام فى التعقيب على لجحهم الفارغ (**أفتمارونه على ما يرى**)؟

وفى هذه الآية يقول الإمام جار الله الزمخشرى:

(**أفتمارونه**): من المراء وهو الملاحاة والمجـادلة. واشتقاقه من مَـرَى الناقة - يعنى: مسح ضـروعها لتدر الـلبن - كأن كل واحد من المتجـادلين يمرى ما عند صاحـبه»[1] اكتفى الإمام بهذا القول، ولـم يبين المراد من الاستفهام كما ترى.

وكذلك صنع الإمام أبو السعود، لكن بيـانه لمعنى المماراة يشعر بقوة إلى المراد من الاستفهام وإن لم يصرِّح هو به. قال رحمه الله:

(**أفتمارونه على ما يرى**): أى أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة.

أو أبعد ما ذكر من أحواله المنافية للمماراة تمارونه»[2].

وردد الإمام الألوسى ما قاله الشيخان الزمـخشرى وأبو السعود. ولـم يضف جديداً لم يقولاه، لا فى معنى الآية، ولا فى المراد من الاستفهام[3].

**والخلاصة**: أن الأئمة لم ينصوا على المراد من هذا الاستفهام حتى الإمام الطاهر.

وهو استفـهام إنكار وزجر وتوبيخ، لأن محـمداً ﷺ لم يجربوا عليـه كذبه واحدة قبل أن يكون رسولاً، حتى أطلقوا عليه فى الجاهلية أكمل الأوصاف الخلقية: الصادق الأمين.

فكيف إذا زاده الله كمـالا فوق كمـال واختاره رسـولاً عاما لـكل الناس. كيف، وشأنه هذا، يكذب، وهو أمين وحى السماء.

---

(١) الكشاف (٤/ ٢٩).

(٢) تفسير أبى السعود (٨/ ١٥٦).

(٣) روح المعانى (٢٧/ ١٤٩).

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (أفتمارونه) إيثـار المضارع فى (تمـارونه) لأن محط الإنكار وقـوع الممـاراة منهم فى نفـسهـا فى أى وقت لا فى وقت معـين. والمضارع هـو المتعـين للدلالة على هذا المعنى.

وفى المماراة استعارة تصريحية تبعيـة. شبهت فيها المجادلة التى يريد كل طرفيها أو أطرافها أن يستدر ما عند خصـمه من موافقة لما يقوله. بمرى الناقة أو الدابة الحلوب، وهو المسح على ظهرها وضرعها لتدر بما عندها من لبن.

والجامع بين طرفى الاستعارة هو حصول النفع.

* **(على ما يرى)** عديت المماراة بحرف الجر (على) لتضمن المماراة معنى المغالبة.

وفى إيثار المضارع (يرى) على الماضى: رأى، إيذان بأن مـا رآه من التأييد الذى لا ينقطع. وكأنه يجرى ساعة وجَّه الله إليهم هذا الإنكار.

أما التركيب برمته **(ما يرى)** فهـو كناية عن موصوف هو مـا رآه ﷺ ليلة الإسراء والمعراج من آيات ربه الكبرى.

* * *

٢ - ﴿أَفَـرَأَيْتُـمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الـثَّالِثَـةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَـرُ وَلَهُ الأُنْثَى﴾ [النجم: ١٩ - ٢١].

**الدراسة والتحليل :**

بعد أن أنكر الله على مشركـى العرب مماراتهم لرسوله ﷺ لفت نظرهم إلى بعض أصنامهم التى لهـا عندهم شأن، وأى شأن، كى يسـتحضـروها فى أذهانهم، ثم كرَّ عليهم كرة من كرات الإنكار والتوبيخ، كما حدث من قبل فى سورة (الطور).

وقد يكون السـر فى ذكر هذه الأصنام - هنا - أن يقـارنوا بين عظمة الله وكـرامة رسوله الذى كذَّبوه، وبين حـقارة أصنامهم. ولهذا حرَّك أذهانهم حولهـا لتتضح لهم تلك الفروق الهائلة، بين الله الحق، وبين أصنامهم التى هى أتفه من التفاهة.

وقد ورد فى الآيات الاستفهامان الآتيان: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى**﴾؟

﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾؟

والمعروف أن الأئمة يفسرون الاستفهام الأول بمعنى أخبرونى، وليس هذا بمستساغ فى كل موضع من مواضع هذه الصورة (**أرأيت**) وما جرى مجراها، والذى يتعين - هنا - أن (**أفرأيتم**) المراد منها استحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن ليُحكم عليها وهى حاضرة فيه، ليكون حضورها أعون على إدراك قيمة الحكم الذى يُحكم به عليها. وهنا نجد الحكم هو قول الحق عز وجل ﴿**إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى**﴾ [النجم: ٢٣].

وأنت خبير أن استحضار صورة أصنامهم الجمادية فى أذهانهم حين يسمعون الحكم عليها بأنها أسماء لا مسمى لها هو البلاغة فى أبهى حللها.

هذا ماينبغى قوله - بلاغة - فى الاستفهام الأول، أما الاستفهام الثانى والحكم عليه ﴿**تلك إذن قسمة ضيزى**﴾ فهو من حيث الوضع النظمى اعتراض بين الاستفهام الأول (**أفرأيتم**) وجوابه أو الحكم عليه ﴿**إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم**﴾ أما من حيث المراد منه - أعنى من ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى**﴾ فهو الإنكار مع التقريع والتوبيخ.

وسر مجيئه اعتراضا بين الاستفهام الأول وجوابه أو والحكم عليه، هو الاهتمام به؛ لأن المشركين حين يسمعون ذكر أصنامهم تتوقد أذهانهم وتنشط مشاعرهم، وفى هذه اللحظة من وفرة النشاط ينزل عليهم هذا الاستفهام كالصاعقة المباغتة، ويستقر المعنى الإنكارى فى أنفسهم أيما استقرار.

وهذا ما يسمى فى علم النفس الحديث بـ(الاسقاطات) ولها شأن عظيم فى التأثر والتأثير.

**و الخلاصة**: أن الاستفهام الأول (**أفرأيتم**) المراد منه استحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن ليحكم عليه وهو حاضر ماثل فيه.

أما الاستفهام الثانى ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى**﴾؟ فالمراد منه الإنكار والتوبيخ والتقريع.

**أسرار النظم وبلاغياته :**

* ﴿**أفرأيتم اللات والعُزَّى**﴾ الرؤية مزيج من البصرية والعلمية، وكلتاهما لها مدخل في تصور المعنى المراد، وهوحقارة الأصنام:

فالرؤية البصرية تُرى الناظر إليها أنها كتل جمادية صماء. وهذه حقارة.

والرؤيا العلمية تُرى المفكر فيها أنها والعدم سواء لا تنفع ولا تضر، ولذلك فإننا نقول:

* إذا حملت الرؤية على البصرية اندمج فيها معنى الرؤيا العلمية، لأنها مسببة على البصرية.

* وإذا قلنا إن الرؤيا علمية اندمج فيها معنى الرؤية البصرية لأنها سبب فيها.

أى استحضروا صورة اللات والعزى ومناة فى أذهانكم ثم اسمعوا الحكم عليها.

* ﴿**ومناة الثالثة الأخرى**﴾ مناة كانت أعظم أصنامهم فعُبرِّ عنها بشىء من التمييز تصويراً لمنزلَتها عندهم فقال: الثالثة الأخرى. ثم كر عليها جميعها وحكم عليها بالإعدام.

وقد يكون فى (**الثالثة الأخرى**) إشعار بالذم والتهكم وهما الوصفان اللذان أجراهما النظم الحكيم على مناة: (الثالثة الأخرى) أشبه ما يكونان بفن التوجيه البديعى، وهو كل كلام صالح أن يكون مدحًا أو ذمًا دون ترجيح ظاهر لأحد المعنيين - المدح والذم - على الآخر.

* ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى**﴾ فى سورة (الطور) قدم ما زعموه لله على ما زعموه لأنفسهم. ﴿**أم له البنات ولكم البنون**﴾؟

وهنا قدم ما زعموه لأنفسهم على ما زعموه لله، والذى لاح لنا أن سر تقديم ما أخروا هنا، لأن الخطاب بدأ معهم قبل ذكر هذه العبارة، حيث قال: (**أفرأيتم..**) فناسب تقدم الخطاب معهم أن يقدَّم ما زعموه خالصًا لهم.

أما فى سورة (الطور) فكان حديث الله عنهم على طريق الغيبة. فخلا المقام هناك من الداعى البلاغى لتقديم ما زعموه لهم.

وولى الجار والمجرور (لكم) همزة الإنكار لأنه محط الإنكار من أول الأمر.

والجمع بين الذكر والأنثى طباق إيجاب من مقتضيات الحال.

وفى الذكر والأنثى خصوص المراد منه العموم، أى ألكم الذكور وله الإناث. وأوثر لموافقة رءوس الآيات المبتناة على الألف المقصورة.

* * *

٣ - ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ [النجم: ٢٤].

**الدراسة والتحليل:**

الله عز وجل مالك الملك. عالم بما يصلح عباده وما يفسدهم والإنسان طماع بطبعه، يحب الخير لنفسه، وبعض الناس عنده من فراغ القلب ما لو ملك الدنيا كلها لتطلعت نفسه إلى المزيد منها، وأصحاب الأهواء الجامحة يركضون فى الدنيا ركوض الوحش فى البرية، ويتخذ من هواه وشهواته وملذاته إلهًا يعبد من دون الله، حتى نعيم الآخرة، نر فريقا من الناس لا يؤدون ما فرض الله ولا يتورعون عن اقتراف المعاصى، ومع هذا يطمعون فى أن يكونوا من ذوى الحظوة عند الله وعند رسوله، ويتكلون على شفاعة الشافعين.

والآية موضوع الدراسة تحسم هذه الفوضى فى سلوكيات الناس وتبين أن الأمور تجرى بحكمة من الله وتقدير، والحظوظ لا تنال بمجرد التمنى، وإنما يصرفها الله كيف يشاء فى الدنيا وفى الآخرة. ولذلك ورد بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ [٢٥].

فليس كل ما يتمناه الإنسان فى الدنيا يجده طوع هواه، وليس كل ما يتمناه الإنسان فى الآخرة يجده طوع أمره، والاستفهام الذى فى الآية:

**(أم للإنسان ما تمنى)** أم فيه منقطعة عند جميع الأئمة، والهمزة المقدرة فيها للإنكار.

وفى هذا الاستفهام يقول الإمام البيضاوى: (أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار، والمعنى: ليس له كل ما يتمناه. والمراد نفى طمعهم فى شفاعة الآلهة)(١).

---

(١) تفسير البيضاوى (٢/ ٤٤٠).

وهذه محاولة من الإمام البيضاوى للربط بين هذه الآية (**أم للإنسان ما تمنى**) وبين الآية التى قبلها وهى قوله تعالى:

﴿إِنْ هِىَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾.

والآية التى بعد هذه تؤكد هذا الربط، وهى قوله تعالى ﴿**وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى**﴾ [٢٦].

فالآية - كما ترى - توسطت آيتين كلتاهما يقويان ما ذهب إليه الإمام.

**أسرار النظم وبلاغياته :**

* ﴿**أم للإ نسان ما تمنى**﴾: إذا اعتبرنا هذه الآية استئنافا كانت (أم) للاضراب والانتقال عما قبلها، وهو تحقير الأصنام، إلى ما بعدها، وهوتقرير أن الأمور فى الدنيا والآخرة تخضع لحكمة الله وإرادته. وإن ما يتمناه الإنسان إن وافق ما أراده الله واقتضته حكمته حصل. وما لم يوافق إرادة الله ومقتضى حكمته لم يكن.

وهذا المعنى أكدته الآية (**فلله الآخرة والأولى**) والأمر كما أجمع الأئمة أن همزة (أم) للإنكار. ولما كان أبرز ما يطمع فيه الإنسان فى الآخرة - من غير عمله - هو شفاعة الشافعين. وردت الآية (**وكم من ملك....**) لتبين أن أمور الآخرة أظهر خضوعا لله. وما أكثر من تقبل شفاعتهم يوم القيامة. ولا يستطيع شافع أن يشفع لمن يشاء كما يشاء. بل لابد فى حصول شفاعته أن يأذن الله له، ويرضى شفاعته.

والألف واللام فى (**الإنسان**) لتعريف الجنس، فيعم جميع الأفراد. فهو من الخاص - لفظا - المراد به العام معنى.

* * *

٤ - ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى * أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾؟ [النجم: ٣٣ - ٣٦].

**الدراسة والتحليل :**

لهذه الآيات قصة - أعنى سبب نزول - هى أن رجلا كان ينفق أمواله فى الخير - رجاء أن يغفر الله له ذنوبه، فقال له آخر: إنك لن تبقى من مالك شيئا - ينصحه بعدم الانفاق - فقال المنفق إن لى ذنوبا أطمع أن يغفرها الله لى. قال الناصح له: أعطنى بعضا من مالك وأنا أتحمَّل عنك ذنوبك يوم القيامة؟ فأعطاه، ثم توقف عن الإنفاق. فنزلت هذه الآيات.

والمفسرون وأهل العلم مختلفون فى تعيين صاحب هذه القصة:

فمنهم من يقول إنه الوليد بن المغيرة. ومنهم من يقول إنه العاص بن وائل.

ومنهم من يقول أنه أبو جهل. ومنهم من قال أنه عثمان بن عفان.

ونحن نستبعد أن عثمان رضى الله عنه يفعل ذلك، حتى وإن قيل إن ذلك وقع منه فى أول عهده بالإسلام.

كما نستبعد أن يكون صاحبها واحدًا من المشركين؛ لأنهم لا يرجون مغفرة ذنوبهم إلا بشفاعة أصنامهم.

والمرجح أن صاحبها مؤمن يجهل أن الله لا يُحَمِّل أحدًا إثم آخر، بل كل نفس عنده بما كسبت رهينة.

والعبرة لا بخصوص السبب بل بعموم اللفظ كما قال الأصوليون وعلى هذا نسير فى هذه الدراسة. اللهم إلا ما دلت القرائن على خصوصية سببه وخصوصية المراد منه.

هذا وقد ورد فى هذه الآيات ثلاثة استفهامات:

الأول: ﴿**أفرأيت الذى تولى**﴾؟ الثانى: ﴿**أعنده علم الغيب. .**﴾؟

الثالث: ﴿**أم لم ينبأ بما فى صحف موسى**﴾؟

ومذهب الأئمة فى الاستفهام الأول (**أفرأيت**) معروف لقارئ هذه الدراسة، فهم يفسرونه بقولهم: أخبرنى. وفى هذا الموضع طووا ذكر (أخبرنى) ولم يذكروه إلا الإمام الألوسى فقد ذكره وعزاه إلى أبى حيان.

كمـا أن قارئ هذه الدراسة يعـرف رأينا فيه، وهو أن المراد منه اسـتحضـار صورة المستفهم عنه فى الذهن ليُحْكم عليها وهى حاضرة ماثلة فيه.

أما الاستفهام الثانى (**أعنده**) والثالث (**أم لم ينبأ**) فلم يُبد الأئمة، فيهما شيئًا[1].

**والخلاصة**: أن الاستـفهـام الأول عند الأئمة بمعنى: أخـبرنى وأما الثـانى فللإنكار والثالث للتقرير والتوبيخ. ويضاف إلى الإنكار فى الثانى: التعجب من شأنه.

**أسرارُ النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أفرأيت الذى تولى**﴾ هذا الاستفهـام يحمل شحنات كثيفة من الإلهـاب والتهييج والإثارة، وهز المشاعر وتشويقها نحو المسـتفهم عنه، ولهذا نجزم - وبكل ثقة - أن هذه الصيغة الاستفهاميـة فى النظم القرآنى الحكيم يراد منها حيث وردت استحضار صورة المستفهم منه فى الذهن لإثارة تلك المعانى التى أشرنا إليها، حتى إذا حُكم - عليها - أعنى على حقيقة المستفهم عنه - تمكن الحكم فى النفس بكل قوة.

أما تفسيره بمعنى: أخبرنى. فإن المعنى معه يكون شاحبا أو عقيما.

والمستـفهم عنه - هنا - هو الذى تولـى عن طاعة الله بعد الاشـتغـال بها، وهى صورة من الغـرابة بحيث يُعَجَّبُ منها وتُـلْفَتْ الأنظار إليها. وبخاصـة أن هذه الحالة اقتـرنت بدعوى أشد ما تكون نكـارة وغرابة وهى ادعاء أو تجويز أن الله يعـذب أحدًا مكان آخر، وهذا فيه إساءة إلى عدالة الله وحكمـته، لذلك استحقت هذه الصورة أن يعبر عنها بهذا الاستفهام المثير المُدَوِّى الصاخب.

وفى (**تولى**) إيجاز بحذف صلة الفعل (تولى) أى عن طاعة الله بعد الإقدام عليها.

* (**وأعطى قليلا وأكدى**) من تمام صلة الموصول (الذى) يعنى أنه جمع بين أمرين:

* التولى عن طاعة الله عز وجل.

* إعطاء القليل ثم التوقف عنه.

والتوقف بعد العطاء مدلول عليه بقـوله تعالى (تولى) فجاءت هذه الجملة إما بدل اشتمال من الأولى، أو تفصيلا بعد إجمال.

---

(١) الكشاف (٤/ ٣٣) أبو السعود (٨/ ١٦٢) روح المعانى (٢٧/ ٦٥) البحر المحيط (٨/ ١٦٦).

وأيا كان توجيهها البلاغى فإن سرها البيانى تهويل شأن المتحدث عنه، وزيادة تشنيع عليه.

وفى (**أكدى**) استعارة تصريحية، تبعية، استعارة محسوس لمعقول:

حيث شبه التوقف عن الطاعة، وهو أمر معنوى عقلى بالتوقف عن الحفر فى الأرض إذا اعترضت الحافر كُدية وهى الصخرة. والجامع بين طرفى الاستعارة قطع الفائدة فى كل منهما، أو الحرمان من الثمرة المرجوة من العمل، والعجز عن الحركة.

والمعنى: استحضر هذه الصورة العجيبة فى ذهنك ثم اسمع ما يقال عنها:

* ﴿**أعنده علم الغيب فهو يرى**﴾؟: الهمزة للإنكار، وتقديم الظرف (عنده) وإيلاؤه همزة الإنكار لأنه محط الإنكار. والمراد من (**علم**) سر الغيب الذى لا يعلمه إلا الله.

(**فهو يرى**) معمول الرؤيا محذوف والتقدير: يرى أن الله يعذب غير المذنب مكان عذاب المذنب.

والفاء للسببية؛ لأن الرؤيا مسببة عن ذلك العلم المنفى.

وجملة (**فهو يرى**) وإن كانت إثباتا فى اللفظ فهى نفى فى المعنى؛ لأنها مرتبة على حصول علم الغيب عند المتحدث عنه، وهو معدوم. وهذه من صور نفى الشىء بإيجابه.

* ﴿**أم لم ينبأ بما في صحف موسى**﴾ أم منقطعة. وبل التى فيها للإضراب والانتقال من إنكار أن يكون عنده علم الغيب إلى تقرير معرفته بما فى صحف موسى عليه السلام من أن الله لا يعاقب أحداً مكان أحدٍ.

وهمزة (أم) المقدرة فيها بعد (بل) للتقرير: والمعنى بل ألم ينبأ بما فى صحف موسى، وصحف موسى كناية عن التوراة، وسر التعبير بها يسر إضافتها إلى موسى عليه السلام. وأن هذا المعنى لم يذكر مرة واحدة فى رسالة موسى بل مرات.

ولو قيل: فى توراة موسى، لما فهم تكرار ذكره ولتبادر إلى الذهن أنه ذكر مرة واحدة.

والنبأ فى القرآن يُطلق على الخبر العظيم الشأن. وبناء الفعل (ينبأ) لما لم يسم فاعله، لإفادة عموم الفاعل، وهذا كناية لطيفة عن اشتهار هذا المعنى حتى لكأن من المستحيل أو المتعسر حصر فاعليه.

وقد استطرد النظم الحكيم فى توكيد هذا المعنى وشيوعه فى رسالات الرسل السابقين التى جاء القرآن مطابقا ومصدقا لها. فعطف على ما جاء فى صحف موسى ما جاء فى رسالة إبراهيم أبى الأنبياء عليه السلام. فقال:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٧-٤١].

فهذه المبادئ المذكورة بعد **(وإبراهيم الذى وفى)** منصوص عليها فى الكتب السماوية الثلاثة:

* صحف إبراهيم عليه السلام.
* صحف موسى عليه السلام.
* القرآن الكريم.

والتقدير: فى صحف موسى وصحف إبراهيم الذى وفَّى، فالمضاف إلى إبراهيم محذوف، وهو: صحف. بدليل مجيئه مجرورًا بالفتحة، لأنه ممنوع من الصرف.

وإجمال المعنى فى الكتب الثلاثة:

أن الله لا يأخذ أحدًا بذنب أحد، وأن كل نفس رهينة بما كسبت، وسيرى كسبها يوم القيامة. ثم يجازى عليه جزاء وفاقًا.

* * *

٥ - ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ [النجم: ٥٥].

**الدراسة والتحليل :**

سورة (النجم) حـفلت من أولها بذكر النعم لأهل الإيمـان، وفى مقدمـتهم النبى ﷺ، والنقم لأهل الكـفر والـعصـيـان، وكل مـا يُنْزِلُهُ الله بـأهل الكفـر نعم لأهل الإيمان. فهم المستفيدون من النعم والنقم معًا.

وقد عـددت السورة أنواعًا كثـيرة من النعم الخاصـة بالنبى وحده والشاملة لجـميع المؤمنين. بدءًا من قوله عز وجل فى أول السورة:

**﴿ما ضل صاحـبكم وما غوى﴾** إلى قوله تعالى قبل آية الدراسـة مباشرة فى إهلاكه المؤتفكة(١):

**﴿فغشاها ما غشى﴾** [النجم: ٥٤] أى: حل بهـا ما حل مـن عذاب الله، بعـد هذا جاءت الآية موضوع الدراسة.

**(فبأى آلاء ربك تتمارى)** والتمارى هو التشـاكك والترايب: أى حدوث شك وريب فى قيمة هذه النعم جميعا والاستخفاف بها.

**وهذا الاستفهام :**

**(فبأى آلاء ربك تـتمارى)** لم يهتم ببـيان المراد منه - بلاغيا - الأئمـة المفسرون إلا اثنان. وقد اختلفت وجهتا نظريهما فيه.

فالإمام الألوسى قدَّم فيه هذه الفقرة:

**(فبأى آلاء ربك تـتمارى)** تتـشكك.. والخطاب قيل لرسـول الله ﷺ على أنه من باب الإلهاب والتعريض بالغير. وقيل للإنسان على الإطلاق، وهو أظهر.. والاستفهام للإنكار. والألاء النعم (والمراد بها ما عُدّ فى الآيات)(٢).

يعنى أن الخطاب إذا كان المقـصود به النبى ﷺ فالاستفـهام للتعريض بغـيره عليه السلام. أمـا إذا كان الخطاب عـاما لجـميع الناس، وقـد رجح الألوسى هذا الرأى،

---

(١) المؤتفكه: هى قرى قوم لوط الذين كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء فقلب بهم قراهم وجعل عاليها سافلها.

(٢) روح المعانى (٢٧ / ٧١).

فالاستفهام للإنكار أن يكون من بين نعم الله تعالى التى ذكرها فى (النجم) نعمة واحدة يستخف بها، أو يتشكك فى فضلها العظيم.

أما الشيخ الطاهر بن عاشور فكره أن يحمل الاستفهام على الإنكار مغلبا أن يكون الخطاب خاصًا برسول الله ﷺ.

ولذلك قال: (والمقصود من الاستفهام تذكير النبى ﷺ بهذه النعم)[1].

**والخلاصة:** أن هذا الاستفهام المراد منه إظهار التكرم والتفضل على رسول الله وعلى المؤمنين، وأن الإنكار الذى فيه لم يرد منه أن المخاطب شاك فى عظمة هذه النعم، بل هو كناية لطيفة عن أن هذه النعم - لجلالها - ليست محلا للإنكار ومستحيل أن نجرد الخطاب للرسول، أو نجرده لغيره، فهو خطاب عام ويدخل فيه صاحب الرسالة دخولا أوليًّا.

ومع تقديرنا لكلام الشيخ الطاهر نقول إننا لسنا فى حرج من القول بالإنكار فى هذا الاستفهام، إذا صرفناه إلى المعنى الكنائى على الوجه الذى تقدم.

**أسرار النظم وبلاغياته :**

* **(فبأى آلاء ربك تتمارى)** أى أداة استفهام يطلب بها فرد أو نوع متعين من جنس عام يحمل كل فرد من أفراده خصائص الجنس، والمقصود من هذا الاستفهام بيان جلال نعم الله تعالى وتساميها عن الشك والريب. وقد دُلَّ على هذا المعنى عن طريق الكناية البديعة اللطيفة. لأن السؤال عن الشيء يقتضى عدم وجوده. وعدم وجوده يقتضى نفى الوصف عن ذلك الموصوف غير الموجود.

وفى هذا الاستفهام وقع السؤال عن النعمة التى هى محل للتمارى فيها، والسؤال عنها اقتضى عدم وجودها فى جملة ما ذكره الله من هذه النعم.

والإنكار مسلط على القيد دون المقيد، لأن المقيد هو نعمة من نعم الله توصف بالاستخفاف والشك والقيد هو: الشك والاستخفاف. أى أن نعم الله موجودة. والمعدوم هو الاستخفاف بها والشك فى اعتبارها نعمة جليلة.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٥٦).

وإضافة (آلاء) إلى (ربك) تفخيم لشأنها، وإضافة (رب) إلى ضمير المخاطب (ك) وهو الكاف لتشريف المضاف إليه.

وفى إيثار المضارع **(تتمارى)** ليعم عدم التشكك فــى نعم الله جميع الأوقات. من الحال والاستقبال.

والفرق بين لفظى: آلاءِ والنعم، أن النعــمة تطلق على ما ينعم الله به كبــيرة كانت أو صغيرة. دائمة أو مقطوعة أما الآلاء فتطلق على النعم الجليلة.

ولهذا قيل - هنا - **(فبأى آلاء ربك تتمارى)** كما ورد فى سورة الرحمن **(فبأى آلاءِ ربكما تكذبان)**.

* * *

٦ - ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩].

**الدراسة والتحليل:**

بعد أن ساق النظم الحكيم صوراً من مصارع الأمم التى عتت عن أمر ربها وكذبت الرسل، ساقها تهــديداً وتخويفا لمشركى العرب، لعلهم يرعوون عما هــم فيه من كفر وعناد. بعد هذا قال:

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى * أَزِفَتِ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٦-٥٨].

وكان المشركون يهزأون بما يقصه عليهم القرآن من أخبار الماضين، ويبلغ بهم الهزؤ مــداه من عقــيدة البــعث بعــد الموت، فجــاءت هذه الآية تنكر عليــهم تلك المواقف السخيفة، وتوجههم إلى ما هو خير لهم فى الدنيا والآخرة.

وقد أوجــز القرآن لهم ذلك الخير فى قــوله تعالى: ﴿وَتَضْــحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا﴾.

والاستفهام فى آية الدراسة:

**(أفمن هذا الحديث تعجبون)**؟ استفهام إنــكار عند أهل الذكر، إنكار وقوع العجب منه من المشركين؛ ثم توبيخ لهم عليه - على العجب - لأنهم لو كانوا يعقلون لبكوا

من خشــية الله بدل أن يضــحكوا، وهـم (**سامدون**) أى لاهون فكهون بسخـريتهم منه وإنكارهم لجدية ذلك الحديث.

**والخلاصة**: أن هذا الاسـتفـهام للإنكار أصـالة باتفاق، ويضـاف إلى هذا الإنكار التوبيخ ثم تجهيل المخاطبين باعتبار ما وصفوا به.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أفمن هذا الحـديث تعجـبون**﴾ الهمـزة - كما يرى الجـمهور مـقدمة من تأخـير، والأصل: فأمن هذا الحديث، وجئ بالفاء للعطف، ولو لم يُرد العطف لقيل: أمن هذا الحديث؟ والـسر البلاغى فى هذا الـعطف التعجـيب من جَعْلِ المعطـوف عليه سببا للاستهزاء به والسـخرية منه، وعطف الإنشاء على الخبر ليس بممتنع فى النظم الحكيم، ولهذه الصـورة نظائر أخرى، مثل قـوله تعالى فى سورة البـقرة: ﴿**وبشر الذين آمـنوا..**﴾ [٢٥]، حـيث عطـف الإنشـاء (وبشـر) علـى الخـبـر: ﴿**أُعِدَّت للكافرين**﴾ [٢٤].

* (**تعجبون**) كناية عن الاستهزاء به وإنكاره؛ لأن العجب لا يكون إلا من الأشياء غير المألوفة.

وتقديم (**من هذا الحـديث**) علـى (**تعجبون**) حيث لـم يقل: أفتـعجبـون من هذا الحديث؟ لأن محط الإنكار ليس هـو مجرد العجب، بل كون الحـديث المشار إليه هو المتعجب منه.

وإيثار المضارع (**تعجبون**) إشارة إلى أن هذا السلوك يتكرر منهم، ولم يـفعلوه مرة واحدة، وفى هذا زيادة تشنيع عليهم، حيث لم يهتدوا إلى الحق.

* * *

# سورة القمر

١ - ﴿وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

[القمر: ١٥، ١٦].

**الدراسة والتحليل:**

سورة القمر من السور المكية باتفاق أهل العلم، نزلت بعد سورة (الطارق) وقبل سورة (ص) وكان ترتيب نزولها السابعة والثلاثين. ومن خصائصها الموضوعية الاهتمام بقصص الماضين من مكذبى الرسل والإشارة إلى مصارعهم بعد بيان جرائمهم.

وكان أول ما بدأت به الإشارة إلى قرب قيام الساعة وذكر بعض المعجزات، ثم إعراض مشركى مكة، عنها واتباعهم أهواءهم، وتصبير النبى ﷺ على ما يراه منهم من كفر وعناد، والإيماء إلى مصيرهم المحتوم عند الله.

ثم سوق أخبار الماضين تسلية لرسوله الكريم، وتخويفًا لمن أشرك من قومه.

أما خصائصها البيانية، فهى قصر آياتها، وسرعة إيقاعها، وبناء فواصلها على حرف الراء فى جميع آياتها الخمس والخمسين آية، وقل أن يتفق هذا فى سور القرآن إلا فى قصار المفصَّل.

وأول قصة ذكرت فيها قصة نوح مع قومه.. وقد تم الانتقال من الحديث عن مشركى مكة إلى الحديث عن قوم نوح عليه السلام فى إبداع ولطف. وذلك فى قوله تعالى: **﴿كذبت قبلهم قوم نوح، فكذبوا عبدنا، وقالوا: مجنون وازدجر﴾**

[القمر: ٩].

فودَّع النظم مشركى مكة، بالضمير العائد عليهم فى قوله (قبلهم) تم استهل حديثه عن قوم نوح عليه السلام بقوله: (.. قوم نوح..) حيث جعلهم فاعلاً للفعل (كذَّبت)

وبهذا تحول مشركو مكة، من مستمـعين لحال أنفسهم وهو يتلى عليهم، إلى مستمعين لمصارع من كان قبلهم من المكذبين.

والآيتان موضوع الدراسـة جاءتا تعقيبا على ما حل بقوم نوح بعـد ذكر جرائمهم، وقد ورد فى كل منهما استفهام.

فى الأول ورد: (.. **فهل من مدكر**)؟ وفى الثانى ورد: (**فكيف كان..**)؟

ولم نجد للأئمة بيانا فى هذين الاستفـهامين سوى قول بعضهم فى الأول (**فهل من مدكر**) أنه تحضيض وفى الثانى (**فكيف كان..**) أنه تعجيب.

**والخلاصة:** أن الاستفهام الأول: (**فهل من مدكر**) استفهام تقرير وحث على تحصيل الأدِّكار، وهو الاتعاظ والاعتبار بما ذكر فى تدمير قوم نوح وإنجاء نوح نفسه ومن آمن له من الهلاك.

أما الاستفهام الثانى فهو للتوقيف على هول عذابه الذى أنزله بهم، والتعجيب منه وتفخيم شأنه بقصد الاتعاظ به.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**ولقد تركناها آية**﴾: فى ترك استعارة تصريحيـة تبعية لـ«أبقى» لأن الترك هو كون الشىء على ما هو عليـه. سواء كان للتـارك قصد من الترك أو لم يكن له قـصد. ويكون الشىء المتروك موجودًا من قبل.

أما الإبقاء فيكون لقصد من المبقى. ويكون الشىء المُبْقَى وجوده مصاحبًا للإبقاء.

وإهلاك قـوم نوح، وإبقاء ذكـره بعد هلاكـهم مقـصود لله عـز وجل. ولم يكن هلاكهم موجودًا قبل إبقائه للتذكر والاعتبار، بل حدث مصاحبًا لإبقائه، ويلوح لنا أن السر البلاغى فى اسـتعارة الترك للإبقاء؛ لأن الشأن فى الشىء المتـروك استمراره على ما هو عليه، دون أن ينال منه عارض. وفى هذا إلماح إلى خلود العبرة والعظة بما حل بهم، وتناقله عبر الأجيال إلى يوم القيامة وهذا هو الواقع الملموس.

والهاء فى (**تركناها**) جوَّز المفـسرون أن تكون عائدة على سـفينة نوح. وهذا الرأى يذكرونه أولاً. أو تكون عـائدة على «الفَعْلَة» نفسـها، وهى إغراقـهم بالطوفان وهذا

الرأى يذكرونه ثانيًا فى تفسير مرجع الضمير.

والذى يلوح لنا أن مـرجع الضميـر هو الحدث الضـخم، وهو إغراقهـم بالطوفان الذى كان موجـه كالجبال كمـا وصفه القرآن نفســه. ويؤيد هذا أن الذى يذكره الناس الآن وقبل الآن، وبعد الآن هو الطوفان. أما السفـينة، فلم يرها من الأجيال اللاحقة أحد. وهذا المعنى هو الذى استـعيرت من أجله كلمة (ترك) لكلمة (أبقى) كـما تقدم آنفًا وتنكير (آية) للتعظيم والتفخيم، وهى بمعنى عظة لا القطعة من الكلام المنثور.

* **(فهل من مدكر)**؟ الفاء تفريع على ترك الآية فى صدر الكلام، وإيثار أداة الاستفهام (هل) على أدوات الاستفهـام الأخرى، لما فيها من الإشعار بتحـقق المستفهم عنه، وهو الأدكار والاعتبار. ونوسط حرف الجر (من) بين أداة الاسـتفهام والمستفهم عنه لزيادة الحث والترغيب فى الاتعـاظ ولتفخيم التركيب وإيقاعـه فى السمع. والفرق جد ملحوظ بين:

 **(فهل من مدكر)** وبين: فهل مدكر؟

* **(فكيف كـان عذابى ونذر)**؟: استئناف مـسوق للتعجيب مما ذكـر قبله، والدعوة إلى عمق النظر والتأمل؛ لاستخراج مواضع العبرة والعظة. وإضافة العذاب والنذر إلى ضمير اسم الجلالة للتهويل والتفظيع.

وإفراد العذاب وتقديمه، وجمع النذر وتأخيرها لأن المراد منه عذاب واحد هو الذى حل بقوم نوح. وهو أشد وقعًا من النذر، لأن العـذاب واقع محسوس مؤلم، والنذر أخبار ولفت أنظار. وأما جمعه فباعـتبار تعدد وقوع العذاب بالمكذبين كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهما.

* * *

٢ - ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِنُّ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

**الدراسة والتحليل:**

فى هذه الآية تركيب استفهامى هو (**فهل من مدكر**) تكرر فى هذه السورة (القمر) خمس مرات، كان أولاها فى الآية الـ(١٥) فى التعقيب على مهلك قوم نوح: (**ولقد تركناها آية فهل من مدكر**) وكنا قد درسنا هذه الآية فى المبحث السابق مباشرة. والأربع المرات الأخرى وردت فى هذه الآية - موضوع الدراسة هنا، حيث تكررت بلفظها ومعناها ثلاث مرات أخرى فى الآيات المشار إليها، وهى:

الثانية والعشرون. الثانية والثلاثون. الآية الأربعون. كلها هكذا:

(**ولقد يسرنا القرآن للذكر، فهل من مدكر**).

لهذا أردنا جمعها -هنا- فى مبحث واحد خشية التكرار، وقد تقدم فى دراسة الآية (١٥) التى جاء المقطع الاستفهامى فيها تعقيبًا على مهلك قوم نوح بيان المراد من الاستفهام بلاغيًا، وهو التحضيض والحث على الإدكار والترغيب فى الاتعاظ والاعتبار بما حل بالمجرمين من قوم نوح.

أما فى الآيات التى اتحدت فى اللفظ والمعنى، وهى أربع آيات جاء المقطع الاستفهامى فيها تعقيبًا على تيسير الله القرآن للذكر. فإن معنى الاستفهام فيها وإن كان المراد منه -بلاغيًا- واحدا، هو الحث والترغيب. فإنه يختلف من حيث المتعلَّق، فهو فى التعقيب على مهلك قوم نوح عليه السلام كان الحث والترغيب فى الاعتبار مما أحله الله بأولئك المجرمين من عذاب الاستئصال الذى أودى بهم جميعًا.

أما فى الآيات الأربع: (**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**) فإن الاستفهام فيها إنما هو دعوة للحث على الإقبال على القرآن نفسه؛ لتلاوته وفهمه وتدبر معانيه والاعتبار بها والتمسك به والعمل بما فيه أمرًا ونهيًا.

ويدخل فى هذه المعانى -ضمنًا- الاعتبار والاتعاظ بما ورد فى القرآن كله من مصارع الأمم العاتية. هذه خلاصة وافية للمراد من هذا الاستفهام فى الآيات الخمس التى تقدم بيانها.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر**﴾ أكد الخبر باللام وقد، لأن مضمونه حقيقة من الحقائق الإلهية العظيمة، والقرآن يصوغ هذه الحقائق فى أسلوب ضخم عظيم مماثل لفخامة المعانى وجلال شأنها. وللعلماء مذاهب فى هذا التيسير والذى نميل إليه أن هذا التيسير عام فى القرآن كله، مفرداته وألفاظه وتراكيبه ونظمه ومعانيه. ومنهجه المعتدل وجمال جَرْسِه. ويسر العمل به لمن اهتدى بهداه، وفواصل آياته وبناؤها بناء محكمًا رخيمًا، وحسن وقعه فى السمع، وسرعة معانيه إلى القلب، وحلاوة تلاوته وسهولة حفظه، وقوة تأثيره عند سامعيه وتالييه ومتدبريه. وخصائصه البيانية التى أكسبته شخصية فريدة بين أنماط البيان، بحيث يقطع من يسمع شيئًا منه أن الذى يسمعه هو القرآن ويلوح لنا أن من سمات تيسير الله القرآن للذكر مزجه بين الأغراض والمعانى. فالسورة الواحدة، مهما قصرت ترى فيها تنويعًا فى أغراضها، فمثلاً سورة (الكوثر) وهى مكونة من ثلاث آيات جمعت بين ثلاثة أغراض بيانية:

**الأول:** الثناء والبشرى: (**إنا أعطيناك الكوثر**).

**الثانى:** الأمر والشكر: (**فصل لربك وانحر**).

**الثالث:** التهديد والوعيد: (**إن شانئك هو الأبتر**).

فإذا صرفت نظرك إلى طوال السور ترى القرآن يحلق بك فى آفاق المعانى الرحبة، ويتنقل بك - وأنت جالس فى مكانك - بين فنون القول، وضروب المعانى، آمرًا ناهيًا، مبشرًا منذرًا موجهًا محذرًا. قاصًّا مجاورًا مخبرًا منشئًا.

مشاهد سماوية، صور أرضية. عظات تحلق بين السماء والأرض، وأخرى فى أعماق البحار، أو فى جوف الأرض أو فى كتل الجبال أو فى نفوس العباد والأنعام والطيور والدواب.

وهذه سمة من سمات الإعجاز، تنشيطًا للنفس، وتحريكًا للمشاعر، وإيقاظًا للقلوب فهو وحدة فى تنوع، وتنوع فى وحدة، يقرب بين المتباعدات، ويجمع بين المتفرقات أو يباعد بين المتقاربات، ويفرق بين المجتمعات، وله فى كل ذلك إمتاع أو إقناع، أو إمتاع وإقناع: خذ إليك قوله تعالى: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقت**﴾

وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت* وإلى الأرض كيف سُطحت﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

إن فـريقًـا ممن أعـمى الله أبصـارهم، وطبع علـى قلوبهم يتـسـاءلون فى دهشـة واستـغراب: مـا هذا التنافر والشـذوذ؟ وأين خلق الإبل من رفع السمـاء، ونصب الجبال، وتسطيح الأرض؟ وأين علاقة كل من هذه الأربع بالأخرى؟

لقد عمّى عليـهم - جهلهم- الرباط المحكم بين هذه المتبـاعدات. ولو كان لديهم عـقل يعى، وفـهم يُدرك، لزالت الغـشـاوة من على أبصـارهم، ولعـرفـوا أن هذه المعروضات للتأمل والاعـتبار محزومة برباط واحد، هو أنها -جـميعًا- من آثار قدرة الله الخارقة، وحكمتـه البالغة، وعلمه المحيط. وهذا بحر خِضم يحـتاج من يعبره أو يغوص فيه إلى مهارة مفتاحها بيد الله رب العالمين.

وفى إيثار الماضى (**يسرنا**) إشعار بتحـقق ذلك التيسير، لا أنه موعـود به متوقع، لكنه حقيقة واقعة، وفى إسناده -أعنى: يسر- لضمير اسم الجلالة (**الله**) بنون العظمة تفخيم لشأن التيسير وتشريف. والجار والمجرور (**للذكر**) تعليل للتيسير، واللام الجارة لام العاقبة.

* (**فهل من مدكر**) تهييج وإلهاب وحث فى تلطف خطاب وتودد كلام.

* * *

٣ - ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦، ١٨، ٢١، ٣٠].

**الدراسة والتحليل:**

هذا الاستفهام ورد فى سورة القمر أربع مرات فى الآيات المشار إلى أرقامها ، فى ثلاث مرات جاء آية مستقلة، وفى آية واحدة جاء جزءًا منها مكملاً لها. ودفعا لتكرار الحديث عنه متفرقًا آثرنا جمعه فى موضع واحد -هنا- توخيا للإيجاز، وهذا هو متن الآيات الأربع مع ما تقدم كل آية منها أو ما تأخر عنها:

**﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر* فكيف كان عذابى ونذر﴾** [١٦].

**﴿كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر﴾** [١٨].

**﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابى ونذر﴾** [٢١].

**﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾**(١)[٣٠].

وقد تقدم عند الحديث عن مهلك قوم نوح فى المبحث المتقدم على هذا مباشرة، تقدم بيان المعنى المراد من التركيب الاستفهامى **﴿فكيف كان عذابى ونذر﴾** وأنه استفهام توقيف وتعجيب من كيفية عذاب الله للمجرمين، وأن فيه وعيدًا لمشركى مكة، وزاجرًا عن الكفر لعلهم يتقون.

كما تقدم بيان أسرار نظم التركيب وبلاغياته، وإن كان لابد من عرض سريع للأسرار والبلاغيات -هنا- فهو حول موقع هذا التركيب فى النظم من حيث المقام الذى ورد فيه.

## أسرار النظم وبلاغياته:

فى الحديث عن عاد قوم هود ورد هذا الاستفهام مرتين: الأولى كانت جزءًا من آية هكذا:

* **﴿كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر﴾** وقد حمل هذا الاستفهام تشويقًا إلى معرفة «كيفية ذلك العذاب، وتلك النذر وتهيئة للنفوس لترقب عقبى الكلام كيف تكون. وهذه وسيلة بيانية من وسائل تحريك المشاعر، وبث النشاط فى النفوس. ولما أحدث هذا التركيب ذلك التأثير فى الأذهان، سارع النظم إلى قذف الحقائق التى مَهَّد لها فكان قوله تعالى: **﴿إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا فى يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾** جاء هذا الكلام تفصيلاً للإجمال فى قوله عز وجل: (**فكيف كان عذابى ونذر**) مع توكيد الخبر بـ«أن» واسمية الجملة، ثم تنكير (ريحا) للتهويل والتبشيع، وإضافة اليوم إلى (النحس) ووصفه بالاستمرار، وتشبيه صرعى القوم بأعجاز النخل البالية كناية عن شدة النكاية بهم.

وبعد تقرير هذه المعانى عاد الاستفهام مرة أخرى فى أعقاب مهلك قوم هود:

---

(١) يلاحظ أننا اكتفينا بذكر رقم الآية الاستفهامية فحسب دون ارقام ما ذكر معها مقدمًا عليها أو مؤخرًا عنها.

(**فكيف كان عذابى ونذر**) وهذا توكيد للأول لتأخذ العظة مكانها فى القلوب.

أما المرة الرابعة فجاءت تمهيدًا لمهلك قوم صالح عليه السلام وهم قبيلة ثمود:

**﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابى ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾**.

ومن الخصائص المشتركة بين المهلكين توكيد الخبر، استعلاء العذاب (عليهم) التشبيه المدمر. سرعة التدمير، فالوظيفة البيانية لهذا الاستفهام فى مواضعه الأربعة هى الدعوة إلى تركيز الانتباه والاتعاظ بما حل بالمجرمين.

* * *

٤ - ﴿ فَقَالُو أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِى ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ* أَأُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥].

**الدراسة والتحليل:**

الحديث فى هذه الآيات عن ثمود قوم صالح عليه السلام فقد جاء قبل هاتين الآيتين قوله تعالى ممهدًا للحديث عنهم:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ كذَّبوا رسولهم صالحا، وأنكروا أن يكون رسولاً من عند الله اختصه الله بإنزال الوحى وبنوا كفرهم به على أوهام كان الشيطان يروجها كثيرًا بين مكذبى الرسل؛ وهى كما ذكرها القرآن -هنا-:

* كونه بشرا. والرسول لا يكون بشرًا فى شريعة الشيطان وهو وليهم وهم حزبه.

* كونه واحدًا، لا جماعة. * كونه فرداً منهم وهم جمع.

لهذا اتهموه بأنه كذاب مطبوع على الكذب وأنه بَطِرٌ متعاظم متكبر يريد أن يكون ملكا. وقد ورد فى هاتين الآيتين الاستفهامان الآتيان:

* **(أبشرا منا واحدًا نتبعه)**؟ * **(أألقى الذكر عليه من بيننا..)**؟

والاستفهامان إنكاريان عند جميع الأئمة، يقول الإمام الزمخشرى رحمه الله:

«فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشرًا منهم واحدًا؟ قلت قالوا: أبشرًا إنكاراً لأن

يتبعوا مثلهم فى الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس آخر أعلى من جنس البشر، وهم الملائكة، وقالوا: منا؛ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة، أقوى.

وقالوا واحدًا إنكارًا لأن تتبع الأمة رجلاً واحدًا»[1].

وردد الإمام أبو السعود بعض عبارات الإمام الزمخشرى، ولم يصرح بالإنكار، وإن كان كلامه مشعرًا به[2].

ونحا الإمام الألوسى منحى الإمام أبى السعود، فلم يصرح بالإنكار وقد أشعر به كلامه[3].

والإمام الطاهر صرح بالإنكار فى الأول (**أبشرًا منا واحدًا نتبعه**)؟ وسكت عن الثانى (**أَأُلقى الذكر عليه من بيننا**).

**والخلاصة**: أن الاستفهامين للإنكار ويردف على الإنكار فى الأول التحقير والاستخفاف.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (**فقالوا..**) **عطفت هذه الجملة على ما قبلها (كذبت ثمود بالنذر) لإفادة**:

* أن التكذيب القلبى كان سببا فى التكذيب القولى السلوكى.

* وأن التكذيب القلبى السلوكى ظهر عليهم بدون تباطؤ أو تفكير.

كما أن ما بعد الفاء فى (**فقالوا**) تفصيل للإجمال فى (**كذبت**) وهو فن بلاغى وظيفته تمكين المعانى فى النفوس.

* (**أبشرًا منا واحدًا نتبعه**)؟ وَلِىَ بشرًا أداة الاستفهام لأنه محط الانكار -أصالة- والوصفان التابعان له، وهما (منا) (واحدًا) من تمام مبررات الإنكار حسب زعمهم وتقديم (منا) على (**واحدًا**) للإشعار بأن كلا منهما: البشرية المماثلة، لبشريتهم. والوحدة، سبب كاف فى الإنكار فما بالك إذا اجتمعا. وهذا على ما زينته لهم أنفسهم.

والسر البلاغى فى ذكر الوصفين -كما تقدم فى الدراسة- لأن كونه منهم أقوى فى

(١) الكشاف (٤/ ٣٩). (٢) تفسير أبى السعود (٨/ ١٧١). (٣) روح المعانى (٢٧/ ٨٨).

تحقق المثلية، وكــونه واحدًا أدعى إلى ترك اتباعه؛ لأن الأمة لا تنقاد لـفرد خاصة إذا خالفهم فى المعتقد والسلوك.

وقالوا: (**أبشرًا**) منكرًا واليا همزة الإنكار، ولم يقولوا: أنتبع بشرًا لتحقيق غرضين بلاغيين:

**الأول:** قصد التحقير المدلول عليه بالتنكير.

**الثانى:** أن الإنكار لا يقصد بــه نفى مجرد الاتباع، وإنما المقصــود به أن يكون المتَّبَعُ بشرًا. لذلك قدموا ما قدموا، وأخروا ما أخروا.

* (**إنا إذًا لفى ضلال وسـعر**) هذه الفقرة مرتبة على مـحذوف تقديره إذا اتبعناك وأنت كما وصفناك نكون ضالين مـجنونين، ففى الكلام إيجاز بالحذف، لقوة الدليل على المحذوف ودخول حـرف الجر (فى) على (ضلال) مؤذن بوجود استـعارة مكنية فى الكلام. فصلنا القـول فى نظائرها مرات من قبل وتنكيـر الضلال والسعر للتـهويل والتبشيع.

* (**أألقى الذكر عليـه من بيننا**) استـئناف مسوق لتقـرير معنى ما قـبله من الإنكار وما ترتب عليه.

وبناء الفعل (ألقى) لما لم يسم فاعله، كراهة أن ينسبوا ما كان يدعوهم إليه إلى الله عز وجل.

وقدموا الفعل (**ألقى**) واليا لهمزة الإنكار، ولم يقولوا: أعليه ألقى الذكر، لأنهم لا يؤمنون بوحى قط، نزل على صالح أو على غـير صالح. وبهذا يتـضح السر البلاغى فى تقديم (**بشرًا**) وتأخير (**نتبع**) فى الصورة الأولى. وتقديم (**ألقى**) وتأخير (**عليه**) فى الصورة الثانية، عكسوا المعنى فعكسوا اللفظ وتقدم أن النظم هنا المعانى دون الألفاظ، ولكنه يصوغ التراكيب على وفق المعانى التى تضمنها كلامهم.

* (**بل هو كذاب أشر**) إضراب إبطالى عن كـونه رسولاً إلى كونه مـتكبرًا لا يريد إلا الزعامة والملك.

* * *

٥ - ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيرٌ مِّنْ أُولَئِكُم أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِـى الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ ﴾؟ [القمر: ٤٣، ٤٤].

**الدراسة والتحليل:**

بعد أن عرض الله عز وجل صورًا من مصارع الأمم التى أهلكها الله بذنوبها:

قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وآل فرعون، وكانت هذه الأمم ضالعة فى القوة والحضارة فلم تمنعها قوتها ولا حضارتها من عذاب الله لما أراده بهم.

بعد هذا العرض الزاجر، التفت إلى مشركى العرب مذكرًا لهم ما عسى أن يكون غاب عنهم، ومحذرًا من أن يكون مصيرهم مصير من قبلهم ممن كذَّبوا الرسل التفت إليهم يقول:

أمن كفر منكم وعصى أقوى وأشد من تلك الأمم التى قصصنا عليكم أنباءها ومصارعها. ألكم قوة ومنعة أو فر منهم ترد عنكم السوء إذا أريد بكم؟ أم لكم براءة عند الله ألا يعذبكم بذنوبكم فأنتم تفعلون ما تفعلون غير خائفين من عذاب الله.

أم تقولون أن من كان قبلكم فهلك كانوا متفرقين وأنتم جمع متحد متماسك، لكم حصانة ذاتية تحامى عنكم، وتصد عنكم كل بأس متوقع؟ إن حالكم حال من يرى نفسه كذلك. وهذا وَهْمٌ وخداع.

وقد صاغ النظم الحكيم هذه المعانى فى الاستفهامات الثلاثة الآتية:

**﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾**. **﴿أم لكم براءة فى الزبر﴾**.

**﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾**.

وقد مس الأئمة هذه الاستفهامات مسًا خفيفا، وبخاصة الزمخشرى. وإن كان كلامهم يشير إلى أن الاستفهام فى الصور الثلاث استفهام إنكار وتبكيت، وقد صرح الإمام الألوسى بمعنى الإنكار.

وجوز الإمام الطاهر أن يكون الأول: **(أكفاركم خير من أولئكم)** باقيا على حقيقته، من الفن البديعى المسمى عند السكاكى: سوق المعلوم مساق المجهول، وعند غيره: تجاهل العارف.

وهذا سهو من الإمام لا يجارى عليه، أما ما عدا هذه الصورة فإن الاستفهام -كما قال- للإنكار فى الأصل ويردف عليه التوبيخ، وغيره كما يردف التبكيت[1].

**والخلاصة:** أن الاستفهام الأول (**أكفاركم خير من أولئكم**) استفهام إنكار وتبكيت، والثانى (**أم لكم براءة فى الزبر**) إنكار وتكذيب وتوبيخ. والثالث (**أم يقولون نحن جميع منتصر**) للإنكار والتكذيب وأن (أم) فى الموضعين منقطعة؛ ويجوز أن تكون متصلة، جوازًا قوياً.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* (**أكفاركم خير من أولئكم**) التفات من الغيبة إلى الخطاب عند من لم يشترط فى الالتفات اتحاد مرجع الضمير. وسره البلاغى التهديد والوعيد، لأن المخاطب وهم مشركو العرب سادرون فى الغى والضلال شأنهم شأن من لم يخش وصول أذىً أو عقاب إليه.

وأوثر الخطاب بوصف الكفر مضافًا إلى ضميرهم؛ لأن الكفر هو علة التهديد والوعيد، لذلك لم يقل: أأنتم.

و(**خير**) إما بمعنى أقوى وأشد. أو بمعنى أقل منهم كفرًا وعنادًا. وأيا كان فهو أفعل تفضيل.

* (**أم لكم براءة فى الزبر**) أم منقطعة، مقدرة بـ(بل) والهمزة، وبل للإضراب الإبطالى والانتقال من إنكار خيريتهم والتوبيخ عليها إلى إنكار ثبوت براءة لهم فى الكتب السماوية. ثم تبكيتهم وتوبيخهم عليها. والمعنى: بل ألكم براة فى الزبر. أى لا براءة لكم، وتنكير (**براءة**) للإنعدام -كما تقدم فى مثله- ومن السهو أو الخطأ البين أن يقال: إن التنكير هنا للتحقير؛ لأن الحقارة وصف لموصوف موجود وهذه الـ(براءة) معدومة لا وجود لها نعم يجوز أن توصف الأصنام بالحقارة لأن لها شكلاً ماديًّا، فلها وجود محسوس، ولما كانت لا تملك نفعًا ولا ضرًّا توصف بالحقارة كما توصف بالعجز.

---

(١) الكشاف (٤/ ٤١) أبو السعود (٨/ ١٧٣) روح المعانى (٢٧/ ٩٠) تفسير النسفى (٤/ ٤٠٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢١٠).

* ﴿**أم يقولون نحن جميع منتصر**﴾ إضراب وانتقال من الإنكار السابق عليهم وتوبيخهم عليه إلى إنكار جديد وتوبيخ عليه.

وفصل هذه الجملة، عما قبلها؛ لأن (أم) فيها معنى العطف مع إفادتها الاستفهام. وهي منقطعة قولاً واحدًا.

بخلاف الأولى؛ لأنها لا معادل لها أما الأولى فمعادلها ما بعد الهمزة.

والمعنى: بل أيقولون نحن جميع منتصر. والإنكار مسلط على الواقع دون الوقوع، لأنهم قالوا هذا الكلام فعلاً.

وإيثار المضارع إشارة إلى تكرار القول المنكر عليهم وأنهم لم يقولوه مرة واحدة.

و(**جميع**) بمعنى جمع، وقد عدلوا عن جَمْع إلى (**جميع**) لمجيئه على وزن الصفة المشبهة باسم الفاعل رَوْمًا إلى تحقق معناها فيهم، وهو استمرار تماسكهم وقوتهم.

ولهذا رد الله عليهم فقال: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [٤٥].

وقد كان ما أخبر الله به من هزيمتهم المنكرة في غزوة بدر وغيرها.

* * *

# سورة الرحمن

١ - ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣](١).

**الدراسة والتحليل:**

سورة الرحمن من السور المكية على الراجح، ووردت روايات تفيد أنها مدنية، وهذا لايصح، وترتيبها النزولى مختلف فيه كما اختلف فى مدنيتها كما اختلفوا فى النازل قبلها والنازل بعدها. ونحن نعتمد - هنا - على الأقوى من أوجه الخلاف فنقول:

من حيث المكى والمدنى هى سورة مكية، أما من حيث توسطها بين النازل قبلها والنازل بعدها، فقد ورد فى كتاب البرهان فى علوم القرآن للزركشى أنها نزلت بعد سورة الرعد وقبل سورة (الإنسان) وهذا على القول أنها مدنية، وهو لايصح كما تقدم.

أما على الصحيح فإنها نزلت بعد سورة الفرقان، وقبل سورة الحجر وسورة النحل.

ويرجح الإمام الطاهر بن عاشور أن ترتيبها فى النزول الثالثة والأربعون، وعلى هذا فإنها من أوائل السور التى نزلت بمكة، قبل الهجرة.

ومما يتعلق بهذه السورة من المباحث اختلافهم فى سبب نزولها كلها. وهذا معناه أن هذه السورة نزلت مرة واحدة غير منجمة.

أما الاختلاف فى سبب النزول فعلى وجهين:

الوجه الأول: أن سبب نزولها هو قول المشركين الذى حكاه الله عنهم فى سورة

---

(١) وردت هذه الآية فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة، والآية موضوع الدراسة أول مرة تأتى فيها من تلك المرات الإحدى والثلاثين.

الفرقان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ، أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [ آية ٦٠].

وتكون السورة التى كانت أول كلمة، فيها هى (الرحمن) ثم جاء كل ما بعدها من (علم القرآن) إلى آخر آية فيها (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) تمجيداً لله (الرحمن) عز وجل، وتعريفا طويلا لكلمة (الرحمن) التى تجاهلوها وأنكروا معرفتهم بها.

وفى هذا تخذيل لهم وتبكيت، وأن (الرحمن) الذى تجاهلوه هو ملء السموات والأرض بآلائه وآثار قدرته علوا وسفلا وما بين العلو والسفل.

ومن هذا نرى أن هذا سبب وجيه للغاية فى نزول هذه السورة.

أما الوجه الثانى: فإن سبب نزولها هو قوله تعالى فى سورة النحل محكيا عن مشركى العرب (... **إنما يعلمه بشر**) أى أن القرآن ليس من عند الله تعالى، وإنما هو كلام تعلمه محمد ﷺ من رجل من البشر.

وتكون سورة الرحمن قد فندت هذه الفرية، ونسبت تعليم القرآن إلى الله (الرحمن) فى قوله تعالى: (**الرحمن * علم القرآن**) وهذا - كما ترى - سبب وجيه - كذلك - فى تنزيل هذه السورة المباركة.

كان هذا الخلاف قديما، ويمكن التوفيق بين الوجهين بأن سورة (الرحمن) يصلح أن يكون الوجهان - معا - وراء الحكمة من نزولها.

فالمشركون قالوا: (وما الرحمن) وقالوا: (إنما يعلمه بشر) فنزلت السورة تواجه هذه الحماقات مواجهة عامة، وإن كانت سورة (النحل) قد ردت على ما حكته عنهم رداً مباشرا ونسفته ببرهان عقلى هكذا:

﴿لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

يعنى أن الذى زعموا أنه عَلَّمَ محمدا ﷺ القرآن، كان أعجميا لا دراية له باللغة العربية، فكيف يكون أستاذا لمحمد عليه السلام وهو لا دراية له بلغة ذلك الأعجمى؟

أهذا يجوز فى عقل عاقل، أو حتى فى وَهْمِ واهم: ما أصدق الشاعر الذى قال:

ومكلـف الأشـيـــاء ضـــد طبـــاعـــهـــا
مُـــــــتَـطَلِّـبٌ فـى الماء جـــــــذوة نـار؟!

ولم يرد فى هذا السورة إلا استـفهامان فحسـب، الأول تكرر بلفظه ومعناه إحدى وثلاثين مرة - كما تقدم - وهو (**فبأى آلاء ربكما تكذبان**)[1].

أما الاسـتفهام الثـانى فقد ورد مرة وهو قـوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْـسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ وسيأتى الحديث عنه قريبا إذا شاء الله.

أما الاستفهام الأول - والذى سنكتفى بمثال واحد منه. فنقدم عنه هذه الخلاصة:

ورد هذا الاستـفهام أول مـا ورد فى السورة فى ا لآية [١٣] وقـد تقدم عليـه اثنتا عشرة آية، وهى:

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُـرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَـيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَـمَرُ بِحُسْـبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَـسْجُدَانِ * وَالسَّمَـاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمـيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمـيزَانِ * وَأَقِيـمُوا الْوَزْنَ بِالْقِـسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِـيزَانَ * وَالأَرْضَ وَضَعَـهَا لِلأَنَامِ * فِـيهَـا فَاكِـهَةٌ وَالنَخْلُ ذَاتُ الأَكْـمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَـصْـفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١ : ١٢].

بدأت هذه السورة بـالاسم الجليل (الرحمن) وقد عـد هذا الاسم الآية الأولى فى هذه السورة. ولما كـانت أىّ آية لابد أن تكون جملة على الأقل، فـإن أهل العلم من لغويين ومفسرين يقولون إنها إما خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هو الرحمن.

وإما مبتدأ خبره محذوف يقدَّر حسب ما يقتضيه المقام[2]، وكون (الرحمن) وحدها آية هو رواية حفص عن عاصم.

وعند غيره من القراء (**الرحمن علم القرآن**) عدُّوا (الرحمن) كلمة،من الآية الأولى.

(١) الآيـات: (١٣ - ١٦ - ١٨ - ٢١ - ٢٣ - ٢٥ - ٢٨ - ٣٠ - ٣٢ - ٣٤ - ٣٦ - ٣٨ - ٤٠ - ٤٢ - ٤٥ - ٤٧ - ٤٩ - ٥١ - ٥٣ - ٥٥ - ٥٧ - ٥٩ - ٦١ - ٦٣ - ٦٥ - ٦٧ - ٦٩ - ٧١ - ٧٣ - ٧٥ - ٧٧ )

(٢) التنوير والتحرير (٢٧/ ٢٣٠).

وعلى هذا تكون مبتدأ، ومـا ذكر بعدها أخباراً متعـددة عنها. وعلى هذا نهج الإمام الزمخشرى فقال:

«الرحمن: مـبتدأ، وهذه الأفـعال - يعنى: علم - خلق - علمه - مع ضـمائرها أخبار مـترادفة، وإخلاؤها من العـاطف لمجيئهـا على نمط التعديد، كمـا تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل. كثَّرك بعد قلة.. فما تنكر من إحسانه»؟[1].

وسـر البدء بـ «الرحـمن» شدة التناسـب مع سببى النزول المتقـدمين، ولأن هذه السورة عدَّد الله فيها من أفضاله ونعمه ما لم يرد فى أية سورة أخرى من سور القرآن.

فى مقدمة هذه النعم الجليلة تعليم الله القرآن، وهذا رمز إلى رسالة الإنسان السامية فى الحيـاة، وهى الدين والخشوع لله والإقـرار بوحدانيته وإفـراده بالعبادة والتـصديق برسله وما أنزل الله عليهم، والإيمان بالحياة الآخرة.

والنعم التى ذكرها الله فى هذه السورة قسمان:

نعم دينية، ونعم دنيـوية، وفى تقديم القرآن، وهو رمز الدين، إشـارة إلى تفضيل نعم الآخـرة التى لاتنال إلا بالإيمان والعـمل الصالح، على نـعم الدنيا الزائلة وكـان مقـتضى الظاهر أن يقدم خلق الإنسـان على تعليم القرآن، لأن تعليم القـرآن مرحلة تاليـة على خلق العبـاد، ولكن النظم الحكيم خـالف هذا الظاهر، لأن تعليم القـرآن أعظم شأنا من الخلق.

فهاتان نعمتان جليلتان: تعليم اللهِ القرآنَ. وخلقه للإنسان.

أما النعمة الثالثة، فهى قوله تعالى: **(علمه البيان)** يعنى المعنى العام للبيان الذى يبدأ من النطق، ثم الإفصـاح عما فى النفس فى طرق مـتباينة من الوضوح والغـموض، على قدر مـا تتسع له مواهب الناس، وهذا مما فضل الله به الإنسـان على المخلوقات الأرضية الأخرى.

وقد ذُكِرَ فى النظم مفعول الفعل (علَّمه) فى **(علمه البيان)** وهو الضمير العائد على **(الإنسان)** ولم يُذْكَر المفعول فى **(علم القرآن)** حيث لم يقل:

---

(١) الكشاف (٤/ ٤٣).

علم الإنسان القرآن، أو: علمه البيان، لأن فى ذكر المفعول محظورين، سواء كان مظهراً أو مضمراً. لم يقل: علم الإنسان القرآن؛ لأن خلق الإنسان ورد فى النظم بعد هذه الجملة التى رأينا الحكمة الإلهية فى تقديمها.

ولم يقل: علمه القرآن، لأن هذا الضمير لم يتقدم له مرجع فى الكلام.

أضف إلى هذا أن حذف المفعول فى (**علم القرآن**) أفاد - بلاغة - العموم فيه. فليس الإنسان وحده هو الذى علمه الله القرآن، بل علمه الملائكة، وعلمه الجن. وهم أحد الثقلين المذكورين فى هذه السورة (**سنفرغ لكم أيها الثقلان**) [٣١].

فانظر إلى بلاغة هذا الحذف البديع، والمعانى التى نجمت عنه.

وفى (**الإنسان**) مجاز مرسل حيث أُطْلِقَ الخصوص، ثم أُريد منه العموم. لأنه مفرد فى اللفظ، جمع فى المعنى بقرينة الفعل (خلق).

(**الشمس والقمر بحسبان**) عد الإمام الزمخشرى هذه الجملة خبراً رابعا لـ (**الرحمن**) وقدَّر الرابط بينها وبين المبتدأ (**الرحمن**) ضميرا محذوفا مضافا إليه والتقدير: بحسبانه. أى بحسبان الله ونظامه والحسبان: الحساب. وهذا من جملة المنافع فى الشمس والقمر، كما قال عز وجل:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيلَ والنَّهارَ آيَتَيْنِ، فَمَحَوْنَا آيةَ اللَّيلِ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

ومن أجل أهمية الشمس والقمر فى الحياة قُدِّم الحديث عنهما على ما بعدهما. وهما النعمة الجليلة الرابعة فى السورة أما النعمة الخامسة فهى الزروع والثمار المشار إليها فى قوله تعالى (**والنجم والشجر يسجدان**) والنجم هو الزروع التى لا ساق لها، بل تفترش الأرض، والشجر ما كان له سوق يقوم عليها، وهى أشكال وألوان.

وقد جيء بالعاطف فى (**والنجم..**) بعد تركه فى الجمل الأربع الأولى.

وقد أشار الإمام جار الله الزمخشرى وغيره إلى حكمة البيان فى هذا بما ملخصه:

إن الوصل بين فنون الكلام وضروب المعانى نوعان:

* الأول وصل لفظى، ويكون بأدوات العطف بين الجمل والفقرات.

* والثانى وصل معنوى، يكون بترك ذلك العطف، وهنا فى مطلع السورة أوثر الوصل المعنوى فترك العاطف، وبعد الآيات الأولى أوثر الوصل اللفظى فجىء بالعاطف والمقصود - هنا - بالوصلين تبكيت وتخذيل الذين تجاهلوا الرحمن حين قيل لهم: **(اسجدوا للرحمن)** فقالوا: **(وما الرحمن)**؟

وكأن السورة تقول لهم: هذا هو الرحمن الذى تجاهلتموه هو كل شىء فى الوجود بقدرته وعلمه وتدبيره وحكمته، فما الذى تنكرونه من هذه «الشوامخ» التى هى لولا الرحمن ما كان لها من أثر.

**(والسماء رفعها ووضع الميزان)** نقلة أخرى فى ذكر آلاء الله وأفضاله الجليلة.

السماء مرفوعة - هكذا - بلا عمد. فهل هذا فى مقدور مخلوق أيا كان؟ كلا. وإنما هو صنع الرحمن وحده.

وهو الذى شرع العدل، وأمر بالتزامه ونهى عن الظلم، وَوَضْعُ الميزان، هو تشريع العدل، والتعبير عن العدل بالميزان استعارة تصريحية أصلية، استعارة محسوس (الميزان) لمعقول: العدل. وسرها تمثيل المعقول المعنوى، فى صورة الحسى المادى. مبالغة فى تصويره وتصوره، واعتناءً بشأنه.

أما الفعل **(وضع)** فاستعارة تصريحية تبعية استعير فيها: وَضَعَ لأنزل. وسرها استقرار الأمر بالعدل كما يستقر الجسم إذا وُضِعَ على الأرض.

وكل من الاستعارتين ترشيح للأخرى، لملاءمة معنى كل منهما لمعنى الأخرى.

**(ألاَّ تطغوا فى الميزان)** كناية عن اجتناب الظلم **(وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)** توكيد بديع للالتزام بالعدل، واجتناب الظلم وفى **(أقيموا)** إما كناية عن الوفاء، أو استعارة تصريحية، تبعية، استعيرت فيها الإقامة وهى أمر حسى، للوفاء، وهو أمر معنوى. وسرها مثل ما تقدم فى سر استعارة الميزان للعدل. وكذلك القول فى **(ولا تخسروا)** لأن المراد: لاتخونوا، شبهت الخيانة بالخسران، بجامع سوء المصير فيهما ويجوز أن تكون مجازا مرسلا بإطلاق المسبب وإرادة السبب، لأن الخيانة سبب فى الخسران.

وبعد هذا التشريع الرحيم العادل، لفتت السورة الأنظار إلى الأرض التى عليها معاش العباد.

**(والأرض وضعها للأنام)** أى هيأها وجعلها مهداً ومصدراً لمصالح العباد، وأودع فيها من الدقائق والأسرار ما يغرس الإيمان بالرحمن فى القلوب غرساً ولم يكتف ببسط الأرض تحت الأقدام، بل هيأ فيها ما يكفل الإقامة الهانئة عليها:

**(فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان).**

هذه رموز خاطفة، لما سخره الله لعباده مؤمنهم وكافرهم. طائعهم وعاصيهم. ولو لم يكن فى الدنيا إلا ما ذكرته السورة حتى هذا الموضع، لكان ذلك كافيا فى الإيمان بالرحمن الخالق المدبر الرازق المشرع الحكيم، وبعد أن خاطب القرآن الخلق، وحرك مشاعرهم، وأيقظ قلوبهم وسرّح بعقولهم وأبصارهم وآذانهم فى أرجاء هذا الكون العظيم، بعد هذا المشوار الإيمانى الرائع حانت اللحظة، التى يرد فيها هذا الاستفهام الحكيم فى السورة لأول مرة.

**(فبأى آلاء ربكما تكذبان)؟**

أتكذبان بإنزال القرآن؟! أتكذبان بأنكم مخلوقون أحياء؟ أتكذبان بأنكم متكلمون بُيَناءُ؟ أتكذبان بالشمس والقمر ومنافعهما التى لا تحصى؟ أتكذبان بالنبات والأشجار؟ أتكذبان برفع السماء والتشريع العادل؟ أتكذبان بخلق الأرض وإقامتكم منعمين هانئين عليها؟ أتكذبان بما تجود به لكم من خيرات؟

إن استطعتم أن تكذبا - يا معشر الثقلين - ولو بخلق أنفسكم - ويكون لتكذيبكم تصديق عند أنفسكم صح لكم أن تكذبوا بالرحمن. وإن لا، - ولابد من لا - فلا يصح لكم أن تكذبوا بالرحمن.

وهذا الاستفهام - وقد تقدم نظيره فى سورة النجم، يصح أن يكون استفهام إنكار، ويصح أن يكون استفهام تقرير:

يكون استفهام إنكار: أى لا تجدون نعمة من نعم الله عليكم موصوفة بوصف يقبل

جحدها منكم؛ لأنها نعم شوامخ رواسخ. فمن منكم ينكر رفع السماء مثلا؟

ومن منكم ينكر وجود الأرض وهو مقيم عليها؟

ويكون استفهام تقرير، أى: تقرير المخاطبين واعترافهم بأن نعم الله لايمكن إنكارها.

والفاء فى التركيب الاستفهامى - هنا - للتفريع، تفريع عدم الإنكار على الإشارة إلى النعمة السابق ذكرها على جملة الاستفهام. أو تفريع التقرير على ذلك الذكر.

وإضافة (**آلاء**) إلى (**رب**) للتشريف والتعظيم والتفخيم.

وإضافة (**رب**) إلى ضمير المخاطبين (كما) للامتنان والتفضل.

وإيثار المضارع (**تكذبا**) على الماضى: كذبتم لأن المراد إنكار التكذيب فى الحال والاستقبال معاً. أما الماضى فلأنه سابق على الخطاب، وإنشاء الأمر أو النهى، وما يتولد عنهما من تقرير، وإنكار، لا تعلق لهما بما مضى، بل تعلقهما يكون دائما بما هو كائن الآن، وبما سيكون.

* * *

٢ - ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلاَّ ٱلْإِحْسَانُ﴾؟ [الرحمن: ٦٠].

**الدراسة والتحليل:**

هذا الاستفهام ورد بعد عديد من الآيات المذكرة بنعم الله تعالى، وكان ما قبله، وصفا للحور العين اللاتى أعدهن الله لعباده المؤمنين الطائعين، لأن ذلك من تمام النعمة على أهل رضوانه ورحمته. وإشباع للفطرة الإنسانية فى أعلى مراتب العفة، والطهارة.

والاستفهام مجازى المراد منه النفى عند أهل العلم. هذا هو المراد منه - أصالة - أما ما يردف عليه من المعانى الثانية فأبرزها - فيما يلوح لنا - بشارة المحسنين وتبكيت المسيئين.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

لنا فى الأسرار والبلاغيات فى هذا الاستفهام ملحظان:

الأول: فصل هذه الجملة عما قبلها، وهى لو عطفت لكان عطفها على قوله تعالى: (**فبأى آلاء ربكما تكذبان**) لأنها إنشائية مثلها. وإنما فصلت عنها لكمال الانقطاع لأن ركنى الإسناد فيهما متباينان. ففى الأول المسند (تكذب) والمسند إليه، ضمير الاثنين وهما الثقلان. والثانية المسند إليه فيها هو (جزاء) والمسند هو: الإحسان.

والملحظ الثانى: أن الجملة قصرية، قُصِير فيها موصوف، وهو: (جزاء) على صفة، وهى (**الإحسان**). قصرا حقيقيا تحقيقياً. وإيثار أداة الاستفهام (هل) إشارة إلى تحقق الموعود به للمحسنين.

الخصائص البيانية والموضوعية لسورة (**الرحمن**).

سورة (**الرحمن**) متميزة بخصائص بيانية وموضوعية عن جميع سور القرآن، مع اشتراك سور النجم والقمر والواقعة معها فى بعضها.

فمن أبرز خصائصها البيانية ما يأتى:

* قصر آياتها، وقد وردت فيها آيتان كل منهما كلمة واحدة هما:

(**الرحمن**) ثم (**مُدْهَامَّتَانِ**) وهذا باعتبار اللفظ المذكور فعلا فى النظم الحكيم، مع مراعاة أنهما يختلفان عن الحروف الهجائية التى وردت فى مفاتح بعض السور.

* تكرار تركيب واحد فيها إحدى وثلاثين مرة (**فبأى آلاء ربكما تكذبان**).

وليس لهذا التكرار نظير فى القرآن كله.

* تعقيب كل آية فيها بالاستفهام بدءاً من الآية [١٧] حتى الآية [٧٧] ما عدا أربع مرات أعقب الاستفهام فيها آيتين آيتين[(١)].

وتكثيف الاستفهام بهذه الصورة لم يرد فى أى سورة أخرى من سور القرآن.

* بناء فواصلها على حرف المد (الألف) وعلى حرف النون بعده فيما عدا ست آيات وقع فيها الميم بعد حرف المد (الألف)[(٢)].

---

(١) هى المواضع الآتية [١٤-١٥-١٦] - [١٩-٢٠-٢١] - [٢٦-٢٧-٢٨] - [٤٣-٤٤-٤٥].

(٢) وهى آيات: [١٠-١١-٢٧-٤١ -٧٢-٧٨].

وآيتين وقع فى إحـداهما اليـاء قبل النون (المـغربين) وفى الثـانية الواو قـبل النون (**المجرمون**)[1].

وآيتين كانت فاصلتهما حرف (الراء) بعد الألف: (الفخار) ثم (نار)[2].

* ونجم عن هذا كله إيقاع صوتى مـتميز سريع الأداء، إذا سُمِعت مـن قارئ متمكن هز القلوب هزا، وجذب النفوس جذباً، وأمتع المشاعر إمتاعا، وطوَّف بالسامع فى آفاقٍ رحبة، حتى لكأنه طائر يرفرف بجناحيه فوق حدود الزمان، وحدود المكان.

أما خـصائصهـا الموضوعية، فـإنها - بعد التـمهيـد - تبنت موضوعـاً واحداً هو الامتنان على العباد بجلائل النعم وأمهاتها. ثم إنها قراءة بالصوت والصورة فى كتاب الكون العظيم، أو آلة تصوير بارعة تلتقط المناظـر الآسرة، والمشاهد الباهرة مع تجوال ممتع فى ما أعده الله للعـباد الذين آمنوا بالله واعتصمـوا به وأخلصوا له الدين. تجوال فى رياض الجنة ونعـيمهـا بعد مـشهد مـأساوى تراه يحـيق بالمجرمين مـشدودين من نواصيـهم وأقدامهم ليُلْقَـواْ فى أتون الجحيـم، تراهم وقد كبكبـوا فيهـا يطوفون فى دركاتها فى حـميم آن يشوى الوجوه، ويقطع الأمعـاء، كلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.

وقد خلت السورة مما حفل به القرآن المكى من مواجـهات المشركين، وتعدد آلهتهم المدعاة، وإنكارهم البعث وسوق القصص الزاجرة لهم.

وكمـا بدأت السورة بالثناء على الرحـمن المنان. كان ختـامها الثنـاء على الرحمن الكريم المنان:

**(تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام).**

* * *

---

(١) وهما أيتا [١٧-٤٣].

(٢) وهما آيتا [١٤-١٥].

# سورة الواقعة

١ - ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩].

**الدراسة والتحليل:**

الواقعة سورة مكية، نزلت بعد سورة (طه) وقبل سورة الشعراء، وترتيبها النزولى السادسة والأربعون فهى من أوائل سور القرآن نزولاً.

ولها خصائص بيانية قريبة الشبه من خصائص جاراتها الثلاث:

النجم - القمر - الرحمن - ولهذا كان وضعها إثر بعض فى الترتيب المصحفى من الحكمة بمكان.

أما خصائصها الموضوعية فتكاد تكون هذه السورة وقفا على أحداث القيامة والحياة الآخرة. مع فصل ممتع سيق للاستدلال على كمال قدرة الله، وعميم أفضاله على عباده، ثم الثناء على القرآن العظيم، والإشارة إلى عجز من عدا الله من المخلوقات.

وكان أول استفهام يرد فيها هو ما فى الآيتين موضوع الدراسة.

*** (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة)؟ * (وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة)؟**

وقد أجمع الأئمة على أن الاستفهام الأول (**ما أصحاب الميمنة**)؟ للتفخيم والتعجيب من رفعة شأنهم عند الله يوم القيامة.

وأن الاستفهام الثانى (**ما أصحاب المشأمة**) للتفظيع والتعجيب من انحطاط منزلتهم عند الله يوم القيامة[1].

ويضاف إليهما من المعانى الثانية البشارة فى الأول. والنذارة فى الثانى.

---

(١) الكشاف (٤/ ٥٣) روح المعانى (٢٧/ ١٣٠) تفسير أبى السعود (٨/ ١٨٩). التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٨٦) وما بعدها.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(فأصحاب الميمنة مـا أصحاب الميمنة)**؟ هذه الجملة، والتى بعدها تفـصيل للإجمال الذى فى قوله تعالى:

**(وكنتم أزواجا ثلاثة)** [٧] والفاء للتفريع. وهذا تقسيم للناس يوم القيامة، وهم كما ورد فى السورة:

* السابقون السابقون. * أصحاب الميمنة. * أصحاب المشأمة.

وهم - كـذلك - فى الترتيب، وإن ذكـر **(السابقون السابقون)** مؤخراً. فهو مقدم على الصنفين المـذكورين. وتـأخيـره فى اللفظ لا يمـنع من أولويتـه فى المعنى؛ لأن الأصل كان أن يقال:

فالسابقون السابقون. فأصحاب الميمنة. . فأصحاب المشأمة. هذا على الإجمال.

أما على التـفصيل الذى ورد بعـد الإشارة إلى الأصناف الثلاثة فـيكون ذكرهم فى تفصيل أجزيتهم وفق ذكرهم فى مجمل الإشارة إليهم.

والنظم طوى ذكر **(السابقون)** فى الإجمال، وأتـى به مقدما على أصحـاب اليمين وعلى أصحاب الشمال فى التفصيل وهذا من الإدماج البديع، والإيجاز البليغ. فقال: ﴿**والسابقون السابقون، أولئك المقربون، فى جنات النعيم..**﴾ إلى قوله عز وجل:

﴿**لايسمعون فـيها لغوا ولا تأثيما، إلا قيلا سـلاما سلاما**﴾ [٢٥-٢٦] ثم عطف عليهم تفصيل ما أعـد لأصحاب اليمين. وقُدِّم فى الإجمال أصـحاب اليمين أو الميمنة على أصحـاب الشمال أو المشـأمة، لشرف المقـدم على المؤخر، وأصحـاب اليمين هم من يؤتَوْن صحائف أعمالهم بأيمانهم، أو أهل اليمين والخير عند الله.

وسموا فى الإجـمال أصحاب الميمنة ضد الميـسرة، وسموا فى التفصـيل أصحاب اليمين ضد الـشمال. . إما تفنّنًا فى العـبارة وإما للجمع لهم بين الوقـوف فى المحشر ناحية اليمين. وفى السعادة كانوا أصحاب الميمنة. لما فى هذا من التفاؤل الحسن.

وفى نظم الجـملة **(فأصـحاب الميمنة مـا أصحـاب الميمنة)** جُعِل الخـبر هذه العـبارة

الاستفهامية كناية عن التعجب من قدر سعادتهم عند الله، لأن الشيء الخارج عن المعهود يُسأل عنه ويتعجب منه.

ووضع المظهر (**ما أصحاب الميمنة**) موضع المضمر: ماهُم إشارة إلى شرف الوصف الذي وصفوا به، لأنه أدخل في إسعادهم وحسن مصيرهم.

وحذف جواب الاستفهام (**ما أصحاب الميمنة**) وهو سؤال عن حالهم عند الله. هذا الحذف إشارة إلى تفخيم الجواب المحذوف، حتى لكأن اللغة تعجز عن تصويره، وليذهب الخيال فيه كل مذهب يستدعيه المقام.

* (**وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة**) يقال فيه ما قيل في نظيره. إلا المراد من الاستفهام فإنه يختلف عن المراد من الاستفهام في الأول.

ذلك كان للتفخيم والتعجيب من فرط سعادتهم، وهذا المراد منه التهويل والتفظيع وفرط شقاوتهم، والمشأمة: الشمال، أو الشؤم، وهي كنايات كانت العرب تستعملها في الدلالة على الشر. كما كانت تستعمل اليمين واليمن كناية عن الخير.

* والجمع بين الميمنة والمشأمة طباق إيجابي اقتضاه الحال؛ لأن الكلام مسوق للمقارنة بين الفريقين.

* * *

٢ - ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧].

**الدراسة والتحليل:**

أعيد الاستفهام في هذه الآية تمهيداً لتفصيل جزاء أصحاب اليمين بعد أن فرغ النظم من تفصيل جزاء (**السابقون السابقون**) وهذا التمهيد من شأنه لفت الأنظار إلى عقبى الكلام كيف تكون. وقد بين النظم جزاءهم في الآيات الآتية ﴿**في سدر مخضود وطلح منضود. وظل ممدود. وماء مسكوب وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة، إنا أنشأنا هن إنشاء. فجعلناهن أبكارا. عربا أترابا. لأصحاب اليمين**﴾ [٢٨-٣٨].

**أَسْرارُ النظم وبلاغياته:**

تقدم مبـحث الاستفهام آنفا. والذى نقـوله - هنا - إن جملة الاستفهـام استئناف مسوق لتفصيل الإجمال الذى تقدم فى قوله تعالى:

* ﴿**فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة**﴾ وقد تقدم أن هذه الآية كانت - مع نظائرها - تفصيلا للإجمال فى قوله تعالى (**وكنتم أزواجا ثلاثة**).

فهى تفصيل باعتبار، وإجمال باعتبار آخر.

تفصيل باعتبار بيـان المراد من الأزواج الثلاثة. وإجمال لأن جزاءهم ومنزلتهم عند الله لم تذكـر فى المرة الأولى. ولما أريد ذكـرها مـفـصلة، مُـهِّـد لهـا بإعـادة ذلك الاستفهام. تحريكا للمشاعـر، وتهيئة للذهن لحسن التلقى ويلاحظ فى عناصر الجزاء: قصر الآيات، وازدواجها. وبناء فواصلها على كلمات مـتوازنة، سريعة الإيقاع شجية الألحان مع ما فى النظم من كنايات وسجع واستعارات.

* * *

٣ - ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ [الواقعة: ٤١].

**الدراسة والتحليل:**

وأعيد هذا الاستفهام لما أعيـد له نظيره السابق، وليكون الوصف تاليا للموصوف. وسَموا هنا (**أصحاب الشمال**) وكانوا من قبل (**أصحاب المشأمة**) ليجمع لهم بين شؤم الحظ والمصيـر، وكونهم فى مكان لاخير ولا سـعادة فيه مع الإشـارة مرة أخرى إلى التهويل مما يحل بهم، وفظاعة متقلبهم ومثواهم.

**أسْرار النظم وبلاغياته:**

انتقى النظم الحكيم لكل زوج أو صـنف من الأزواج الثلاثة ما يناسبـه من المعانى والألفاظ. فـهى فى جانب (**السابقون**) و(**أصحاب اليمين**) فيها إبهـاج ورَوْح وانتشاء ودعة.

وهى فى (**أصحاب الشمال**) غامَّة مقـبضة، محزنة، مزكمـة للأنوف مثيرة للقلق والاضطراب.

قارن بين ما وصف به نعيم أهل الجنة، وما وصف به شقاء أهل النار:

* ولدان - مخلدون - كأس - أكواب - يشتهون - حور عين - كأمثال اللؤلؤ المكنون - سلاما سلاما.

* سدر مخضود - طلح منضود - ظل ممدود - ماء مسكوب - فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة - فرش مرفوعة - أبكارا.

* سموم وحميم - ظل من يحموم - لا بارد ولا كريم.

إن الألفاظ - بَلْهَ المعانى - فى رسم نعيم أهل الجنة هى نِعمٌ فى نفسها برسمها وجرسها، وحلاوة مذاقها.

والألفاظ - بَلْهَ المعانى - فى جزاء أهل النار جنود باطشة، خانقة، وزبانية غلاظ شداد مع ما شاع فى النظم من كنايات ومجازات وتمثيلات أدَّتْ معانيها أجمل تأدية.

* * *

٤ - ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧-٤٨].

**الدراسة والتحليل:**

هاتان الآيتان وردتا ضمن أيات يُعلِّلُ فيها القرآن مصير أهل الشمال وكونهم فى ذلك اللون من العذاب المؤلم. وقد جاء النظم وهو يعلل دخولهم النار هكذا:

﴿إِنَّهُم كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٥-٤٦].

يعنى أن هذا المصير السيء استحقوه بالجرائم الآتية:

* الترف فى الحياة الدنيا وغفلتهم عن الحياة الآخرة. * الإصرار على الإثم الكبير. * كفرهم بما جاءت به الرسل، وإنكارهم الحياة الآخرة.

وقد ورد فى الآيتين موضوع الدراسة هذان الاستفهامان:

* **(أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون)؟** * **(أوَ آباؤنا الأولون)؟**

ومذاهب الأئمة فى هذين الاستفهامين قد وقفنا عليها من قبل فى مواضع كثيرة.

وخلاصة ما قيل فيها من قبل هو الآتى:

أن الهمزة فى **(أئذا)** للإنكار والاستبعاد بانين هذا الإنكار على استحالة عودة الحياة إلى الأجساد بعد فنائها وصيرورتها ترابا وعظاما.

والهمزة الثانية فى **(أئنا)** توكيد للأولى عند الأئمة يعنى أنها لتوكيد الإنكار الذى تقدم، هذا ما قاله الإمام أبو السعود من قبل ولم يعترض عليه أحد منهم فصار مذهبا لهم.

وقد كنا أبدينا فهما جديداً مخالفا لما استقر عندهم خلاصته:

أن الاستفهام الثانى الداخل على جملة مؤكدة بـ «أن» واسمية الجملة، ليس لتوكيد الإنكار؛ ولكنه لإنكار المؤكد.

ذلك أن منكرى البعث ورد إليهم الخبر بالبعث عن لسان الشرع مؤكدا. فأرادوا نفيه فى صورته المؤكدة. وليس التوكيد فى ما حكاه النظم عنهم - هنا - **(أئنا لمبعوثون)** من إنشائهم، بل هو حكاية منهم لمجىء الخبر بالبعث عن لسان الشرع مؤكداً. وهذا الفهم الجديد صالح للتطبيق على جميع المواضع من هذا القبيل. وليس وقفاً على موضع دون آخر.

أما الاستفهام الثانى **(أو أباؤنا الأولون)** فهو معطوف على الأول وحكمه حكمه. فكلاهما للإنكار، والمعنى أبعد تلك الحالة نبعث نحن ويبعث آباؤنا؟

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(وكانوا يقولون)** أوثر الماضى فى (كانوا) والمضارع فى **(يقولون)** لأن هذا سيكون حكاية عنهم يوم القيامة أما المضارع فإشارة إلى أن قولهم هذا كانوا يرددونه كثيراً، مرات إثر مرات.
* **(أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما)** تنكير (ترابا) وعظاما للمبالغة فى تصوير الفناء الذى صاروا فيه وتقديم (ترابا) على (عظاما) لأنها أدخل فى تبرير الإنكار حسب زعمهم.
* **(أئنا لمبعوثون)** الهمزة توكيد للاستفهام الأول ومعنى الإنكار فيه. إما توكيد الخبر

**(إنا لمبعوثون)** فهو - كما تقدم حكاية لورود الخبر بالبعث فى لسان الشرع مؤكداً.

واشتقاق اسم المفعول (**مبعوثون**) الشبيه بالفعل الذى لم يسم فاعله، كراهية إسناد البعث إلى الله عز وجل، لأن أنفسهم - لعنادها - لاتساعدهم على ذلك.

* **(أو آباؤنا الأولون)** الواو للعطف والمعطوف عليه هو ﴿**مبعوثون**﴾ والهمزة مقدمة من تأخير على مذهب الجمهور. والتقدير: أنبعث، وأيبعث آباؤنا؟

ووصف ﴿**أباؤهم**﴾ بـ ﴿**الأولون**﴾ لأن ذلك أدخل فى تبرير الإنكار.

يعنى أن آباءهم الأقدمين طال الزمن على موتهم ولم يبعث منهم أحد. فكيف نبعث نحن إذا متنا وبليت أجسادنا؟ لذلك جاء الرد عليهم بأمر الله رسوله الكريم أن يقول لهم: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

وكفى بهم غباوة وجهلا أن دعاهم موت أبائهم وعدم عودتهم إلى الحياة إلى إنكار البعث الذى سيكون عند أجله المعلوم.

* * *

٥ - ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾؟ [الواقعة: ٥٨، ٥٩].

**الدراسة والتحليل:**

بدءًا من هاتين الآيتين، تعقد سورة الواقعة فصلا ممتعا من الحوار العلمى المحكم، لبيان طلاقة قدرة الله وبديع حكمته، وعجز المخلوقين. حوار يُنْطِقُ الجماد، ويحيى الموتى، ويبهر العقول، فَتَخر جاثية أمام جلال الله وكماله وجماله وبديع صنعه.

يبدأ هذا الحوار بمثل يسوقه الله للناس من أنفسهم فيقررهم بما يأتى:

إن الأزواج يلتقون، ويستقر ماء كل منهم فى الرحم، وهم يشعرون برحلة ذلك الماء من أصلابهم، والزوجات من ترائبهن أهذا الماء الذى يراق ويُمْنَى، وقد تحول

عَبْرَ مراحل غيبية، تحول بعد تسعة أشهر إلى خلق آخر مكتمل التكوين أهم الذين تعهدوه ورعوه حتى خلقوه خلقا آخر سوياً؟

من منهم يدعى ذلك وإن كان مجنونا؟ لا أحد منهم يفعل ذلك. وإنما هو صنع الله وحده.

وقد ورد فى الآيتين الاستفهامان الآتيان:

**﴿أفرأيتم ما تمنون﴾. ﴿أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾؟**

أهمل الأئمة الحديث عن الاستفهام الأول. وأشار الإمام الألوسى إلى أنه مثل نظائره السابقة - يعنى بمعنى أخبرونى.

كما نص هو والإمام أبو السعود على جواز أن تكون ﴿أم﴾ منقطعة، وأن تكون متصلة؛ وقدرا المعنى على كلا الوجهين[1].

وجزم الإمام الطاهر بأن ﴿أم﴾ متصلة معادلة لما بعد الهمزة[2].

**والخلاصة**: إن الاستفهام الأول على مذهب الأئمة والجمهور بمعنى أخبرونى، وعلى ما رجحناه من قبل فى كل مواضعه المراد منه استحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن ليُحكم عليه وهو حاضر ماثل فيه، ولن نمل من ترديد هذا الفهم؛ لأنه الأنسب بلاغة، وبخاصة فى بلاغة القرآن. ويردف على هذا المعنى التشويق إلى المستفهم عنه.

أما الاستفهام الثانى: **﴿أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾** فالذى نجزم به أن **﴿أم﴾** فيه متصلة لا منقطعة كما قال بعضهم.

وصدر الاستفهام **﴿أأنتم تخلقونه﴾** للإنكار قطعًا أما **﴿أم نحن الخالقون﴾** فهو للتقرير قطعًا.

ومن الإسراف الذى يبرأ منه كتاب الله العزيز القول بأن ﴿أم﴾ فى هذه الآية وفى ما بعدها منقطعة، وأن المعنى - هنا -: بل أنحن الخالقون؟ تقول من الإسراف المذموم هذا القول. ولا يمنع من القول بأن ﴿أم﴾ هنا متصلة أن ما بعدها جملة

---

(١) تفسير أبى السعود (٨/ ١٩٧) وروح المعانى (٢٧/ ١٤٦). (٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١١٤).

والمتصلة لا تليهـا الجملة؛ فهذه قاعدة أغلبيـة لا مطردة، ودلالة المقام أقوى من دلالة القواعد الصناعية.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أفرأيتم ما تمنون**﴾ أفرأيتم تنبيه وقرع عصى لتخليص النفوس من الشواغل، وتمثيل المستفهم عنه أمام ناظريها ليتمكن المعنى - بعد وروده - فى الذهن كل تمكن.

﴿**ما تمنون**﴾ كناية لطيفة عن قذف الماء المعهـود من الآباء والأمهات، والرؤية علمية لا حسيـة، كما ذهب بعضـهم، وإن كان يُحَسُّ بها؛ لأن الإحساس بهـا ليس طريقه البصر بل الانفعال النفسى. أما المستفهم عنه ﴿**ما تمنون**﴾ فهى أمر غيبى بالنسبة للبصر وهذه حقيقة لا نزاع فيها.

* ﴿**أأنتم تخلقونه**﴾ ولى ﴿**أنتم**﴾ همزة الإنكار لأنه مـحط ذلك الإنكار، فالنزاع ليس فى الفـعل وإنما هو فى الفـاعل: والتـقـدير: أنتم لا تخلقـونه. وإيثـار المضـارع ﴿**تخلقونه**﴾ على الماضى خلقتموه كناية عن شمول الإنكار كل الأوقات.

* ﴿**أم نحن الخالقون**﴾ أم متصلة والتقدير. بل نحن الخالقون. وتقديم المسند إليه على المسند المعرف بالألف واللام لإفادة القصر الحقيقى التحقيقى وخولف فى بناء المسند فجاء فعلا فى الأول ﴿**تخلقونه**﴾ واسم فاعل فى الثانى ﴿**الخالقون**﴾ لأن الفعل ورد فى حيز الإنكار. والثانى ورد فى حيز التقرير. فدلالة الاسم عليه أنسب وأبلغ ولما فيه من تناسب فواصل الآيات.

* * *

٦ - ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾

[الواقعة: ٦٣، ٦٤].

٧ - ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩].

٨ - ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾

[الواقعة: ٧١، ٧٢].

**الدراسة والتحليل:**

فى هذه الآيات الست ستة استفهامات كلها جاءت على نسق الاستفهام السابق. وما قيل فيه يقال فيها لذلك آثرنا جمعها فى مبحث واحد. وفى هذه الآيات استدلال على باهر قدره الله، وبديع صنعه، وعميم فضله على العباد، وإظهار عجزهم، وتبكيت الذين كفروا وأنكروا قدرة الله على البعث والنشور.

ونوجز المراد من الاستفهام فى البيان الآتى:

| م | الاستفهام | معناه المجازى |
|---|---|---|
| ١ | أفرأيتم ما تحرثون | الرؤية بصرية - ومعناه: أخبرونى |
| ٢ | أأنتم تزرعونه | إنكارى - إنكار الفاعل |
| ٣ | أم نحن الزارعون | تقريرى - وأم متصلة |
| ٤ | أفرأيتم الماء الذى تشربون | الرؤية بصرية - ومعناه أخبرونى |
| ٥ | أأنتم أنزلتموه من المزن | إنكارى - إنكار الفاعل |
| ٦ | أم نحن المنزلون | تقريرى - وأم متصلة |
| ٧ | أفرأيتم النار التى تورون | الرؤية بصرية- ومعناه: أخبرونى |
| ٨ | أأنتم أنشأتم شجرتها | إنكارى - إنكار الفاعل |
| ٩ | أم نحن المنشئون | تقريرى - وأم متصلة |

**أسرار النظم وبلاغياته:**

الاستفهامات الاثنا عشر التى فى هذه الآيات الثمانى بدءًا من قوله تعالى:

* **﴿أفرأيتم ما تمنون﴾** إلى قوله عز وجل **﴿أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾** اتخذت من أصول النعم على العباد منفذا تنفذ منه إلى أعماق القلوب، فبدأت بنعمة خلق الإنسان، ثم ما ينبت الله من النباتات التى تختلف ألوانها وطعومها وأحجامها ومنافعها فى حياة الناس مما يطعمون وتقوم عليه حياتهم.

ثم رتبت على هاتين النعمتين نعمة الماء الذى به قوام الحياة، ويحتاج إليه العباد وبخاصة بعد تناول طعامهم، ثم انتهت إلى النار وما فيها من متاع ومنافع يحتاج إليها الإنسان فى إنضاج طعامه، وفى الصناعات التى تناسب كل عصر.

فالنسق الذى سارت عليه الآيات نسق حكيم كما ترى، ومن السمات البيانية أن الآيات الثمانى آثرت ذكر الفعل - مضارعا وماضيا فى الإسناد المنفى عن المخاطبين أما فى جانب الله فقد آثرت ذكر الاسم المثبت إسناده إلى الله عز وعلا هكذا.

**﴿أأنتم تخلقونه، أم نحن الخالقون﴾**.

**﴿أأنتم تزرعونه، أم نحن الزارعون﴾**.

**﴿أأنتم أنزلتموه** من المزن، أم نحن **المنزلون﴾**.

**﴿أأنتم أنشأتم** شجرتها، أم نحن **المنشئون﴾**.

وهذه هى بلاغة القرآن، تنتقى التراكيب والصيغ المناسبة للدلالة على المعانى، ودلالة اسم الفاعل على إسناد هذه «الوقائع» إلى الله فى اللفظ، هو المناسب للمعنى، لأن اسم الفاعل يفيد قيام الصفة بالموصوف أما إسناد الفعل - ماضيا أو مضارعاً - إلى غير الله فى هذه الوقائع، مع وروده منفيا فى اللفظ، فهو المناسب لتجريد الفعل عن الفاعل. لأن دلالة الأفعال الانقطاع ودلالة الأسماء الاتصال.

ومما يلفت النظر - بلاغيا - أن فعلين مما أسند منفيا إلى غير الله جاءا مضارعين، وهما: **﴿تخلقونه - تزرعونه﴾**.

وفعلين جاءا ماضيين، وهما: ﴿**أنزلتموه - أنشأتم**﴾.

ويلوح لنا أن السر البـيانى فى ما جاء مـضارعا، الدلالة على أن العـباد لهم صلة سـببـية بهـذين الفعلين، فـهم الذين يمنون، وهم الذين يزرعـون فى حدود قـدرتهم المحدودة كغشيان النساء، وحرث الأرض وبذر الحب فى الأرض. وهذه النشاطات لا يخلو منها زمن - فناسب أن يكون المضارع هو المؤدى لها.

أما إنزال الماء من السحاب، وإيجـاد أصل النار فليس للإنسان صلة ما به، بل هو عمل خالص لله. فناسب أن يكون الماضى هو المؤدى عنها؛ لأن الله قدر الأقوات يوم خلق السموات والأرض كما جاء فى سورة فـصلت من قبل. فسبحان الذى أنزل هذا القرآن العظيم.

* * *

٩ - ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ [الواقعة: ٨١].

**الدراسة والتحليل:**

هذه الآية لهـا ارتباط وثيق بآيات قـبلهـا، بدأت بقسم من الله، على رفـعة شـأن القرآن، وكونه منزلاً من الله. وتلك الآيات هى:

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[الواقعة: ٧٥ - ٨٠].

ثم جاءت الآية موضوع الدراسة، تخاطب المشركين خاصة، والناس عامة، مشيرة باسم الاشارة ﴿هذا﴾ إلى القرآن الكريم، الذى امتـدحه الله قبل هذه الآية، وصدرت - كما ترى - بهذا الاستفهام الذى هو الآية كلها: ﴿**أفبهذا الحديث أنتم مدهنون**﴾.

والدهن التهاون والتراخى، والمراد - هنا - الإعراض عن القرآن.

وهو استـفهام إنكارى قطعـا، ينكر الله عليهم أن يكون كتـابه الكريم موضع زهد وإعراض، أو تراخ وتهاون.

ويردف على هذا الإنكار التقريع والتجهيل، لأن من زهد فى القرآن وتهاون به كان أجهل الجهلاء، وأغبى الأغبياء.

وبخاصة بعد ما بين الله لهم منزلته عنده، ورفعة شأنه وتشريفه وحفظه. ونزوله من عند رب العالمين.

إن الشقى - كل الشقاء - هو من أدار ظهره لكلام الله.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أفبهذا الحديث**﴾؟ الهمزة مقدمة من تأخير، والفاء للعطف على ما قبلها من الثناء على القرآن، وبيان منزلته عند الله.

وأوثرت الاشارة إليه باسم الاشارة الموضوع للمشار إليه القريب، لقرب الحديث عنه، وكونه قريبا منهم هدايته ونفعه. والأمور النافعة - وفى مقدمتها القرآن - كما لها قربها ممن ينتفع بها، مصداق هذا قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ..﴾ [الإسراء: ٩].

* ﴿**أنتم مدهنون**﴾: الإدهان التهاون. وفى ﴿**مدهنون**﴾ استعارة محسوس لمعقول. لأن الإدهان هو الإلانة والميل جانبا فى الأمور التى تتطلب قوة وصلابة شُبِّه إعراضهم عن القرآن، وسهولة انصرافهم عنه، وهو أمر معنوى، بالتراخى والتلاين الجسدى، بجامع ما يترتب على كل من فوات المرغوب فيه. والبوء بالخسران.

وقد أكد النظم نسبة التهاون بالقرآن إليهم بتكرار الإسناد فى الجملة مرتين. ثم باسمية الجملة رأساً، فاسم الفاعل مسند إلى واو الجماعة، وهو الضمير العائد إليهم.

ثم أسند الخبر (**مدهنون**) إلى ضميرهم المنفصل: ﴿**أنتم**﴾ مع اسمية الجملة رأسا، ثم مجىء الخبر اسما. وفى هذا تشديد للإنكار عليهم، وتعريض بغباوتهم الداعية إلى السخرية منهم. والنعى عليهم بالجهل.

* * *

# سورة الحديد

١ - ﴿ وَمَالَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الحديد: ٨].

**الدراسة والتحليل:**

سورة الحديد مختلف فيها اختلافا شديداً حول متى وأين نزلت؟ هل هى مكية أم مدنية؟ أم صدرها مكى وماعداه مدنى؟ أم مكى ومدنى؟

والذى يبدو أنها مدنية، نزلت على الأقل بعد صلح الحديبية فى العام السادس الهجرى. ولنا على ذلك دليلان:

**الأول:** وهو عام فى السورة كلها، إذ نجد أغراضها وموضوعاتها هى الموضوعات التى اهتم القرآن بها بالمدينة بعد الهجرة.

**الثانى:** أن فيها آية تقطع بمدنيتها، وهى قوله تعالى:

﴿ . . لاَ يَسْتَوِى منكُم مَّنْ أَنفَقَ من قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا، وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠].

وعلى هذا - وهو مذهب الجمهور يكون نزول سورة الحديد بعد سورة الزلزلة، وقبل سورة (محمد) ﷺ وترتيبها فى النزول هو السادسة والتسعون.

وكان أول استفهام ورد فيها هو قوله تعالى:

**(وما لكم لا تؤمنون بالله..)؟**

هذا التركيب الاستفهامى عرضنا له مرات من قبل وعالجناه فى ضوء الأصول البلاغية وآراء الأئمة المفسرين، ورأينا أنهم يحملونه على معنى واحد فى كل مواضعه، وبينوا كيفية دلالته -بلاغيا- على ذلك المعنى.

وكنا قد وضعنا له ضابطا تندرج تحته كل صوره، ولا بأس من إعادته - هنا - فى إيجاز:

هو كل استفهام كانت الآداة فيه (ما) تاليـا لها حرف الجر (لـ) جاراً لضمير المتكلم أو الغائب أو المخاطب، ومن صوره ما يأتى:

مالى - مـالنا - مالك - مالك - مـالكما - مـالكم - مالكن - ماله - مـالها - مالهما - مالهم - مالهن.

هذا الاستفـهام عند جميع الأئمـة، سؤال عن السبب الحامل على المسـتفهم عنه، كقول إخوة يوسف لأبيهم- وقد تقدم **(مالك لا تأمنا على يوسف)**؟

فهم يسألون أباهم عن السبب الذى حمله على منع خروج يوسف معهم، والسؤل عن الشىء مطلقاً - ومنه السبب الخاص هنا - يقتضى عدم وجوده وعدم وجوده كناية عن إنكاره أصلاً. فقد كنى اخوة يوسف بالاستفهام عن سبب المنع بأن المنع لاسبب له أصلاً. وهذا هو الإنكار.

ومعنى الاسـتفهـام فى الآية- موضوع الدراسـة- هو الإنكار أى أن الله عز وجل ينكر على عبادة عدم الإيمان به، ويُخرج الـكلام مُخرج أن عدم إيمانهم ليس له سبب فى الوجود، وهذه خلاصة ماقيل ويقال فيه. ويضاف إلى الإنكار التوبيخ والتجهيل.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(ومـا لكم لاتؤمنون بالله)** الواو عاطفـة على قوله تعـالى قبل هذه الآية: **(آمنوا بالله ورسوله)** والاستفهام **(ما لكم)** من الكنايات اللطيفة، التى كُنِىَ فيها بنفى السبب عن نفى المسبب وهو عدم الإيمان بالله. عز وجل.

وفى إيثار وقوع المضـارع فى حيز النفى **(لاتؤمنون)** لأن الإنكار مسلـط على الحال والاستقـبال. وأداة الدلالة عليهما هى الفعل المضـارع والجار والمجرور **(بالله)** لتشديد الإنكار وتقويته.

* **(والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم)** جملة حالية، وهى مسوقة لتشديد الإنكار وتقبيح عدم الإيمان. وفى هذه الجملة من المؤكدات اللفظية مايأتى:

* اسمية الجملة **(والرسول يدعوكم..)**

* المضارع **(يدعوكم)** لما فيه من تكرار الدعوة مرة بعد مرة.

* إيثار الصفة (**الرسول**) على الموصوف (محمد) لما فى الصفة من دلالة على شرعية الدعوة وتفخيم شأنها لأن الذى يدعوهم هو الرسول وإن كان اسمه محمداً ﷺ.
* الجار والمجرور (**بربكم**) مضافا إلى المخاطبين، ترقيقا فى الخطاب، وتليينا فى الطلب، وأن المدعو للإيمان به هو ربهم المنعم عليهم.
* وإيثار (**رب**) من بين الأسماء الحسنى، ولم يقل (**الله**) مثلا لأن صلة (**الله**) بالمخاطبين معنوية فحسب، أما صلة (**رب**) فمعنوية ولفظية حيث أضيفت اليهم، واسم الجلالة (**الله**) لا يضاف، وما فى صلته اعتباران معنوى ولفظى فهو أدخل فى باب الإلزام بالإيمان مما صلته باعتبار واحد.
* (**وقد أخذ ميثاقكم**) جملة اعتراضية- -مسوقة للتذكير بالميثاق الغيبى الذى أخذه الله على الخلق: (**ألست بربكم؟ قالوا: بلى**) وسره البلاغى الحث على الإيمان.
* (**إن كنتم مؤمنين**) تهييج وإلهاب وحث شديد على الإيمان واستفراغ مافى النفوس من نخوة ومروءة ودعوة للتغلب على الأهواء والمعاندة.

* * *

٢ - ﴿ وَمَالَكُمْ ألاَّ تُنفقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلله مِيرَاثُ السَّمَوات والْأَرْضِ، لاَ يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنفَقَ مَن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ، أُولَئكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا، وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنَىَ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

[الحديد: ١٠].

**الدراسة والتحليل:**

وهذا خطاب من الله للمؤمنين خاصة، ينكر عليهم فيه إحجامهم عن الانفاق فى سبيله، ويحثهم على ذلك الانفاق، ويبين لهم أن الله غنى لأن له مافى السموات والأرض، فهو إذا دعاهم إلى الانفاق دعاهم إلى مافيه سعادتهم العاجلة والآجلة، وهو لأنه غنى يجزل الثواب لمن أنفق طاعة فى سبيله وإبتغاء مرضاته، ثم يبين لهم أن الذين بادروا بالإنفاق والجهاد فى سبيله أعلى درجة من الذين تباطؤا ثم أنفقوا وقاتلوا بعد أن فتح الله على رسوله وعلى المؤمنين ومع ذلك التفاوت بين الذين بادروا والذين

تباطؤا فإن لكل منهم جزاءه المناسب عند الله والله محيط علما بأحوالهم.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام:

**(ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله)؟**

وقد تحدثنا بمافيه كفاية عن نظير هذا الاستفهام فى المبحث المتقدم مباشرة، وقلنا إنه استفهام إنكار، إنكار سبب المستفهم عنه توصُّلاً إلى إنكار المسبب.

والمسبب المنكر فى الآية المتقدمة على هذه كان عدم الايمان بالله أما المسبب المنكر فى هذه الآية فهو عدم الانفاق فى سبيل الله وطريق الانكار فيهما معاً هو الكناية اللطيفة، وهى التكنية عن إنكار المسبب بإنكار السبب، وهى كناية لها حضور ملحوظ فى النظم القرآنى الحكيم، وتكون بإنكار السبب أو الحال أو المكان أو الزمان أو الفاعل أو المفعول. وقد مرت الأمثلة على ذلك كله فى غضون هذه الدراسة.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(ومالكم)** الواو عاطفة على قوله تعالى من قبل **(وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)** [الحديد: ٧].

والاستفهام إنكار عليهم لتركهم الانفاق فى سبيل الله بعد أنكر على من لم يؤمن منهم عدم الإيمان بالله وطريق الانكار -هنا- هو الكناية التى بسطنا القول فيها من قبل كثيراً أى لاعذر لكم فى عدم الإنفاق ولاسبب لكم فى تركه.

* **(ألا تنفقوا فى سبيل الله)** الفعل منصوب بـ(أن) المدغمة فى (لا) والتقدير: فى أن لاتنفقوا أى فى ترك الانفاق، وجىء بالمصدر المؤو ل- هنا -: **(ألا تنفقوا)** وقد خلا منه قوله تعالى من **(ومالكم لاتؤمنون بالله)** ولابد من داع بلاغى آثر ذكره هنا وعدم ذكره فى الأول.

وهو - كما لاح لنا - أن الفرق بين الموضعين أن دواعى عدم الانفاق لها وجود مرغب فيه عند المخاطبين وهو الحرص على المال وخشية ضياعه. أما عدم الإيمان بالله فليست له دواع إيجابية، وإنما دواعيه سلبية لاوجود لها فى طبيعة الإنسان.

والمصدر المؤول أقوى معنى من مجرد الفعل، لأنه يؤُول إلى اسم ودلالة الاسم

أدوم وأرسخ من دلالة الفعل، فسبحان من أنزل هذا البيان المعجز حقًّا.

* (**فى سبيل الله. ولله ميراث السموات والأرض**) فى قوله تعالى (**فى سبيل الله**) صورتان بلاغيتان:

**إحداهما**: فى التركيب كله، وهو كناية عما يرضى الله تعالى من أعمال البر، كناية عن موصوف

**والثانية**: استعارة تصريحية أصلية، حيث شبه دين الله وهو أمر معنوى عقلى، بالسبيل، وهو أمرحسى مادى، أى المنهاج والطريق ثم حذف الشبه منهاج الله، وأقيم المشبه به (**سبيل الله**) مُقامه.

والقرينة هى الإضافة إلى الله. والعلاقة هى الوضوح والاستقامة وفى الإنفاق مضافا إلى سبيل الله تشديد للإنكار وحث على فعل الإنفاق المنكر تركه.

أما ( **ولله ميراث السموات والأرض**) فهو إما حال من المضاف اليه - **الله** - أو استئناف مسوق لتشديد الانكار من جهة ولزيادة الحث على الانفاق من جهة أخرى.

وفى (**ميراث**) استعارة أصلية، شُبِّه فيها ترك المالكين مايملكون بالموت الشامل يوم القيامة، بالميراث بجامع تعاقب الملكية فى كل منهما.

وفى هذا كناية خفية- أى فى التركيب كله- عن هلاك الخلق جميعا وتركهم ماخولهم الله وراء ظهورهم.

ويجوز أن يكون فى كلمة (ميراث) كناية منظور فيها إلى قوله تعالى قبيل هذه الآية (**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**) أى أن المال ملك لله، والناس خلفاء فيه والكناية فى (**ميراث**) هنا- بمعنى: ولله كل ما فى السموات والأرض.

ويجوز أن يكون المراد من (**ميراث السموات والأرض**) كناية عن غنى الله المطلق، وسرها ترغيب المخاطبين فى الانفاق، لأن الذى أمرهم به غنى يكافؤهم فيجزل لهم المكافأة..

وعلى التقدير الأول يكون فى الكلام إيجاز بالحذف: أى ميراث أهل السموات وأهل الأرض.

وإعادة اسم الجلالة فى (ولله ميراث السموات والأرض) مع قوله تعـالى قبله: (فى سبيل الله) لتربية المهـابة فى النفوس وزيادة تشديد فى الإنكار، ومبـالغة فى الحث على الانفاق.

* (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) تقديم الانفاق على القتال لأن الانفاق أعم من القتال افراداً وزمانا وقدرة فما أكثر من لهم قدرة على الانفاق ولاقدرة لهم على القتال. وفيه ترق فى المدح من الصعب إلى الأصعب.

وفى حذف مفعول (أنفق) ومتعلق (قاتل) إيجاز بالحذف سره البلاغى توفير العناية بالحدث وحده: الانفاق والقتال.

* (أولئك أعظم درجة من الـذين أنفقوا من بعـد وقاتلوا) عُبِّر عن المبـادرين إلى الانفاق والقتال فى سبـيل الله - وكان المسلمون لضعفهم قبـل الفتح فى حاجة إلى المؤازرة بالمال والنفس - باسم الإشارة الموضوع للـمشار إليه البعيـد (أولئك) إيماء إلى رفعة شأنهم عند الله، وأنهم استحقوا أن يوصفوا بما بعد باسم الاشارة لمابذلوه من عمل طيب ذكر قبل اسم الإشارة أولئك.

* وفى (أعظم درجة) كناية عن وافر حظوظهم عند الله هذا من حيث مجموع الأمرين (أعظم) و(درجة) أما (درجة) على حدة فـهى تمثيل لرفعة شـأنهم وعلو منزلتهم فى تقدير الله عز وجل.

* (من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) مُفَضَّلٌ عليه وبناء الظرف (بعد) على الضم لقطعها عن الإضافة لفظا لامعنى: أى من بعد الفـتح، وقد دل على المحذوف ذِكْرُهُ قُبَيْلَهُ. ففيه إيجاز بالحذف مع استثمار أقل مايمكن من الألفاظ فى اكثر مايمكن من المعانى.

* (وكلاً وعـد الله الحسنى) جمع بعـد تفريق، وهو فن من فنون البديع فقـد فرَّق بين الطائفتين أولاً فى رصد الجزاء، ثم جمع بينهم هنا فى الوعد بالحسنى.

* و(كلا وعد الله الحسنى) إيجاز بالحذف ، حيث حذف المضاف اليه فى (كلا) وعوض عنه بالتنوين والتقـدير: وكل الفريقين المبادر إلى الانفاق والقـتال والمتباطىء فيـهما وعدهما الله الحسنى.

وكلاً مفعول (وعــد) قدِّم لإظهار الاهتمام به، أو مفعول لفــعل محذوف دل عليه المذكور بعده، والتقدير وعد كلا وعد الله الحسنى وفيه توثيق للوفاء بالوعد.

* (**والله بما تعملون خبير**) تذييل مؤكد لمعنى الكلام قبله.

* * *

٣ - ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ، قَالُوا بَلَى، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ، وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ، وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم باللهِ الغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤][(١)].

## الدراسة والتحليل

هذه الآية لايظهر معناها الا فى ضوء ماقبلها، وماقبلها كان حديثاً عن المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يبشرهم الله بجنات تجرى من تحتها الأنهار، فيقول المنافقون والمنافقات لهم- للذين آمنوا- قفوا نقتبس من نوركم، فيقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، ثم يُعْزَلُ بينهم وبين المؤمنين فإذا بالمنافقين والمنافقات ينادون المؤمنين والمؤمنات ويقولون لهم: ألم نكن معكم؟ يعنى فى الحياة الدنيا، فيقول لهم المؤمنون والمؤمنات أجل: كنتم معنا بأجسادكم ولم تكونوا معنا بقلوبكم وإيمانكم وصدقكم بل كنتم تروحون وتغدون فى النفاق والخداع والكذب حتى جاءنا وجاءكم أمر الله (الموت) وكان الشيطان وليكم فخسرتم آخرتكم ولم تدم لكم دنياكم.

هذا وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام: (**ألم نكن معكم**).

وهو استفهام تقرير وتذكير وتودد، ولاخلاف فى هذا بين أهل العلم.

تقرير وتذكير بما كان لهم من علاقات بالمؤمنين فى الحياة الدنيا وتودد اليهم لعلهم ينجون من العذاب كما نجوا، ولات حين مناحى

---

(١) تجاوزنا الآية رقم [١١] وهى: «من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له، وله أجر كريم» لأن صيغة الاستفهام التى فيها درسناها دراسة وافية من قبل فى آيتى البقرة [٢٤٥-٢٥٥] وما قلناه هناك يغنينا عن إعادته هنا، وليرجع إليه من يشاء فى السفر الأول من هذه الدراسة مبحثى الآيتين المشار إليهما.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(ينادونهم ألم نكن معكم)**؟ أوثر فعل النداء - هنا - إشارة إلى طول الفاصل المكانى بينهم وبين المؤمنين، لأن النداء هو رفع الصوت إلى أقصى درجاته، ومنه قيل للأذان نداء.

وإيثار المضارع للدلالة على تكرار النداء والإلحاح على المؤمنين والضمير المرفوع (واو الجماعة) للمنافقين، والمنصوب (هم) للمؤمنين.

* **(ألم نكن معكم)** تقرير وتذكير وتودد وتعطف، والمعية هى مخالطتهم المؤمنين فى الحياة الدنيا، وتأديتهم رسوم الإسلام شكلا لا معنى، نفاقا لا إيمانا، كذبا لا صدقا.

* **(قالوا: بلى)** بلى للإيجاب بعد النفى[١] وليس معنى الايجاب هنا أنهم صادقون فى معيتهم، بل هذا اعتراف من المؤمنين بالمعية الظاهرية الشكلية، ولذلك استدركوا فقالوا **(ولكنكم فتنتم أنفسكم)** أى استمرأتم الخداع والنفاق.

* **(وتربصتم)** أي بالمؤمنين أن ينالهم شر وهزيمة، وقد استعير التربص- هنا - وهو الانتظار والترقب عن كثب للرجاء القوى، والجامع بين الطرفين شدة الحرص على وقوع المرغوب.

* **(وارتبتم)** أى لم تصدقوا أن ماجاء به محمد ﷺ هو الحق. بل كفرتم به قلوبا، وصدقتم به ألْسُنًا.

* **(وغرتكم الأمانى)** أى خدعتكم أوهامكم وطمعكم فيما لا مطمع فيه.

وفى إسناد الغرور إلى الأمانى الخادعة مجاز عقلى علاقته السببية أو استعارة مكنية مبالغة فى قوة الخداع.

* **(حتى جاء أمر الله)** أمر الله -هنا- كناية عن الموت الذى تنقطع به الأعمال وتطوى الصحف، وتجف الأقلام، وفى إسناد المجيء إلى الأمر مجاز عقلى، علاقته السببية كذلك، وحقيقته: حتى أماتكم الله.

وإضافة الأمر إلى اسم الجلالة (الله) لتهويل شأنه وتفظيع وقعه.

---

(١) المراد النفى اللفظى بـ(لم)، والمعنى هو التقرير و(بلى) يجاب بها بعد الإيجاب وستأتى فى الخاتمة.

* **(وغركم بالله الغرور)** التغرير: الخداع: والجار والمجرور (بالله) لتقبيح ذلك التغرير الملتبس بشئون الله عز وجل، وهو أقبح أنواع الغرور.

والغرور صيغة مبالغة فى اسم الفاعل (الغارّ) وهو كناية عن الشيطان.

وفى إسناد التغرير إلى الشيطان مجاز عقلى، لأن الشيطان هو السبب المزين للتغرير.

وعطف هذه الجملة **(وغركم بالله الغرور)** على ماقبلها من عطف العام على الخاص، وهو مسوق لتوكيد ماقبله، وبهذا يكون المؤمنون قد بكّتوا المنافقين بأربعة سيئات شديدة القبح:

* فتنتهم أنفسهم. * تربصهم بالمؤمنين. * ارتيابهم فى حقائق الايمان.

* وقوعهم فريسة للغرور والخداع.

فماذا- إذاً- ينفعهم قولهم لهم فى بادىء الأمر: بلى، والتبكيت قد أحاط بهم من كل جهة.

* * *

٤ - ﴿ أَلَمْ يأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ، وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

**الدراسة والتحليل:**

نرى فى هذه الآية انتقالا من مشهد أُخروى فيه أعظم بشرى للمؤمنين، وأقسى وعيد للمنافقين، إلى حث وترغيب فى ذكر الله والعمل بكتابة العزيز للذين آمنوا، ويأتى هذا الترغيب فى مكانه من بلاغة القرآن، لأن ما تقدم عليه من وصف المؤمنين نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم القيامة، يجعل لهذا الحث والترغيب موقعا فى القلوب فتسارع إلى ذكر الله وطاعته، والاهتداء بالحق الذى أنزله على خاتم رسله ﷺ وقد صُدِّرَتْ الآية موضوع الدراسة بهذا الاستفهام:

**(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله، ومانزل من الحق)؟**

ولم نجد لأحد من الأئمة القدماء قولا يبين فيه المراد من هذا الاستفهام مجازيا.

والإمام الطاهر بن عاشور ردده بين الإنكار والتقرير مقدماً الأول على الثانى[1] وكأنه المختار عنده.

**وهذا خلاصة** ماقيل فيه عند الأئمة جميعاً.

**أسْرارُ النظم وبلاغياته:**

* **(ألم يأن..)** الاستفهام فى هذه الآية، وفى غيرها، إذا جاء على هذه الصيغة: همزة الاستفهام + أداة نفى + فعل مضارع. كان معناه التقرير، وهو- كذلك هنا- استفهام تقرير والمعنى: قد أنى للذين آمنوا، وقد سها الإمام الطاهر حين جوَّزَ فيه الإنكار، لأنه لو كان إنكاراً لكان معناه أن الله تعالى ينفى أن يكون الوقت الذى ينبغى أن يهتم فيه المؤمنون بذكره تعالى وتدبر كتابه، ينفى أن يكون هذا الوقت قد قرب، وهذا تحريف صارخ لمعنى الآية كما ترى.

كما يترتب عليه أن قوله تعالى لرسوله الكريم: **(ألم نشرح لك صدرك)** معناه أن الله ينفى أن يكون قد شرح صدر رسوله ﷺ.

والإمام الطاهر - كما قلنا من قبل- كثير الغرائب فى آرائه الاجتهادية فى فن الاستفهام، وربما فى غيره من فنون البلاغة.

* **(أوتوا الكتاب من قبل)** كناية عن موصوف هم اليهود والنصارى وفى قوله تعالى: **(ولايكونوا)** تعريض بأهل الكتاب، وأنهم انحرفوا عن طاعة الله، وعما أنزله الله على رسله إليهم.

* **(فطال عليهم الأمد)** أى العهد الزمنى، وفى إسناد الطول إلى الأمد مجاز عقلى علاقته الزمانية.

* **(فقست قلوبهم)** إما استعارة بالكناية شبهت قلوبهم بشىء رخو ثم صلب واشتد، ورمز إلى المشبه به المحذوف بالقسوة أو استعارة تصريحية تبعية شبهت غفلة قلوبهم عن ذكر الله بالقسوة والصلابة، استعارة محسوس لمعقول، وسرها البلاغى شدة عدم التأثر بالمؤثرات الخارجية العارضة.

* * *

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٧/ ٣٦٠).

# سورة المجادلة

١ - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوات وَمَا فِى الأَرْضِ، مَا يَكُونُ من نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ، وَلاَ خَمْسَةٍ إلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أينَ مَا كَانُوا، ثُمَّ يُنبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

**الدراسة والتحليل:**

هذه السورة مدنية، على خلاف فى بعض آياتها بين المدنى والمكى نزلت بعد سورة (المنافقين) وقبل سورة (الحجرات) وترتيب نزولها الثالثة بعد المائة. وسميت سورة (المجادلة) بفتح الدال ويروى كسرها، لأنها بدأت بالجدل بين المرأة التى ظاهر منها زوجها وبين رسول الله ﷺ.

والآية موضوع الدراسة من الآيات التى تقرر سعة علم الله عز وجل وأنه لا يغيب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء، ولا يشغله شأن عن شأن.

وهى تعرض مجالين من مجالات علم الله:

* مجال عام: هو تعلق علمه بكل كائن فى السموات والأرض.
* مجال خاص: هو تعلق علم الله بمحادثات الناس بعضهم بعضًا مهما قلوا أو كثروا. وكيف كانت محادثاتهم سرًا أو جهرًا وقد صدرت الآية بهذا الاستفهام.

**﴿ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض﴾؟**

والاستفهام ﴿ألم تر﴾ تقريرى بالإجماع، والرؤيا علمية بالإجماع -كذلك- لأن علم الله لا يرى، وإنما يدرك عقلاً ومن المعانى الثانية التى تردف على التقرير: التهديد والوعيد للعصاة. والآية وإن نزلت فى شأن المنافقين فحكمها من حيث تعلق علم الله عام فى المنافقين وغير المنافقين.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**ألم تر**﴾ الرؤيا علمية والاستفهام تقريرى والخطاب لكل من يعقل، وإيثار المضارع لشمول الرؤيا كل الأوقات وفصل هذه الجملة (ألم تر) عما قبلها لكمال الانقطاع لأن ما قبلها خبر لفظًا ومعنى، وهى إنشاء لفظًا ومعنى فهى استئناف مسوق لتقرير ما قبله، وتفصيل لمعناه المجمل.

* ﴿**أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض**﴾ توكيد الخبر (أن الله) لأن مضمونه حقيقة عظيمة. والنظم القرآنى يصوغ الحقائق العظيمة فى أسلوب عظيم مثلها. وهذا حقها بلاغة وإيثار المضارع (يعلم) لشمول علمه ما يقع فى كل زمان.

﴿**ما فى السموات وما فى الأرض**﴾ كنايتان عن شئون الكون عاليها وسافلها.

* ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم**﴾ ذكر خاص بعد عام وسره مواجهة معتقدات المنافقين ومؤامراتهم الماكرة ضد المسلمين، حيث كانوا يتنحون عنهم جماعات جماعات، ثلاثة، ثلاثة، وخمسة، خمسة ويتحدثون فيما بينهم بما يسوء المسلمين وإيثار المضارع (يكون) لتعلق الحكم بجميع الأوقات والأحوال وتنكير (نجوى) للاستغراق والعموم. ودخول حرف الجر عليها (من) لتأكيد النفى وشموله. ويجوز أن تفيد مع هذا ابتداء الغاية. و(ثلاثة) مضاف إليه، من إضافة الحدث إلى فاعله.

* (**إلا هو رابعهم**) استثناء مفرغ من جميع الأعداد، والخبر مستعمل فى التهديد والوعيد. واضافة (رابع) وهو -هنا- كناية خاصة عن الله عز وجل، المراد بها توكيد التهديد وتربية المهابة فى النفوس. أى علمه بهم حاضر معهم. ولن يقع شىء بعيدًا عن علمه عز وجل.

* ﴿**ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم**﴾ فى (أدنى) استعارة لـ: (أقل) بدليل مقابلتها بـ (أكثر) وأصل الدنو القرب المكانى. والأقل يشغل مكانًا متقارب الأبعاد والعلاقة بين الطرفين: الدنو والقلة. السهولة واليسر. وبينهما طباق من مقتضيات الحال. وفى (إلا هو معهم) كناية عن الإحاطة والشمول.

والتعبير كله (ما يـكون من نجوى) إلى (إلا هو معهم) كناية عن إحاطة علم الله بما يقوله العباد مهما قلوا أو كثروا.

* ﴿**ثم ينبئـهم بما عملوا يوم القيـامة**﴾ المراد من التـراخى فى (ثم) التـراخى الزمنى لا المرتبى كما قال الإمام الطاهر لأن يوم القيامة متأخر وقوعًا عن الحياة الدنيا.

* ﴿**إن الله بكل شىء عـليم**﴾ تذييل مؤكد لمضمون الكلام قبله. وتوكـيد الخبر فيه لأنه -كما تقدم- حقيقة عظيمة يُعبَّر عنها بأسلوب عظيم مثلها.

* * *

٢ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُـودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُـدوَانِ وَمَعْـصِيَتِ الرَّسُـولِ وَإِذَا جَـاءُوكَ حَيَّـوْكَ بِمَالَمْ يُحَـيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِـهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَـا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

**الدراسة والتحليل:**

الذين نُهُوا عن التناجى بالسوء هم اليهود وحلفاؤهـم المنافقون. كانوا يتغامزون إذا رأوا المسلمين، ويسخـرون منهم، فنهاهم رسـول الله ﷺ، ولعلهم تظاهروا بالكف، لكنهم عـادوا لما كانوا عليه. وكـان تناجيـهم -كما كـشف القرآن خبـاياهم - بالإثم والاعتداء على حـرمات الناس، والتواصى بمعصـية رسول الله الكريم. وزادهم تماديا فى جهلهم طول سلامتهم، وكانوا يقولون لو كان محمد نبيًا لعذبنا الله بما نهانا عنه، ويتمادون فى السخرية فيتـمنون أن يعذبهم الله وهم واثقون بعدم التعذيب. وفى نهاية الإخبار عنهم أخبر الله عنهم مهدداً فقال: أن جهنم هى مصيرهم وبئس المصير هى.

وقد صدرت الآية بهذا الاستفهام.

﴿**ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه**﴾؟

وهذا الاستفهـام -حسب الأصول البلاغية - استفـهام تقرير - أصالة-؛ لأن نفى النفى إثبات. وهذا حكم العقل قبل أن يكون حكم البـلاغة واللغة. ويردف عليه من المعانى الثانية معنيان:

**أحدهما:** باعتبـار المخاطب، وهو التعجـيب من شأن هؤلاء الذين لا دين لهم ولا عهد ولا خلق.

**الثانى**: باعتبار المتحدث عنهم، وهو التوبيخ والوعيد. وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**ألم تر إلى الذين نهوا..**﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها ﴿**ألم تر أن الله يعلم..**﴾ مع أنهما جملتان إنشائيتان لفظًا ومعنى (أى بينهما التوسط بين الكمالين) لتنزيلهما منزلة الجملتين اللتين بينهما كمال الانقطاع، لاختلاف طرفى الإسناد فيهما (المسند إليه والمسند). فالمسند إليه فى الأولى هو اسم الجلالة (الله) وفى هذه (واو الجماعة العائد على اليهود والمنافقين) فى (نهوا). والمسند هو (العود إلى ما نهوا عنه). لأن المعنى (الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون) ثم دخل (ألم تر إلى) فالجملة فى الأصل جملة اسمية من مبتدأ وخبر.

وتوسط حرف الجر (إلى) بين فعل الرؤيا ومعموله لأن المستفهم عنه ذات لا معنى. وفى هذا توكيد لما لحظناه من قبل مرات فى السر البلاغى لخلو فعل الرؤية فى الاستفهام من الحرف (إلى) إذا كان المستفهم عنه معنى، ووروده إذا كان المستفهم عنه ذاتا.

والموصول (الذين) وصلته (نهوا) كناية عن اليهود والمنافقين والسر البلاغى فى إيثار الكناية لاشتمالها على الصلة (نهوا.. ثم يعودون) وهى محط التعجيب والتوبيخ والتهديد.

وفى بناء الفعل (نهوا) لما لم يسم فاعله اشارة إلى أن المعنى حاصل بالحدث (النهى) دون التوقف على تعيين الفاعل.

* ﴿**ثم يعودون لما نهوا عنه**﴾ التراخى المستفاد من (ثم) صالح أن يكون فى الزمن بأن يكونوا أمسكوا قليلاً ثم عادوا وأن يكون للترقى فى الرتبة؛ لأن عودهم إلى التناجى بالسوء بعد نهيهم عنه أقبح من تناجيهم قبل النهى، وأعظم إثما والموصول (لما) وصلته (نهوا عنه) كناية عن النجوى، وأوثرت عن التصريح: ثم يعودون للنجوى لاشتمال الكناية على (النهى) لما فيه من تشنيع عليهم ورميهم بالعناد.

* ﴿**ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول**﴾ إيثار المضارع يتناجون للدلالة على وقوع ذلك منهم مرات. وفيه تعريض بهم بأنهم أهل عناد ومكابرة.

والإطناب بذكر (العدوان ومعصية الرسول) وهو من عطف الخاص بعد العام، لزيادة التشنيع عليهم، ولبيان أن نجواهم نجوى شر لا نجوى خير، نجوى معصية لا نجوى طاعة. وفى اضافة (معصية) إلى (الرسول) زيادة تقبيح وإيثار الوصف بالرسالة (الرسول) على الاسم العلم: (محمد) مبادرة إلى قبح معصيتهم من أول الأمر، لأن الوصف بالرسالة يقتضى الطاعة لا المعصية.

* ﴿**وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله**﴾ إيثار أداة الشرط (إذا) للإعلام بحرصهم الشديد على اساءة القول للنبى ﷺ.

وإيثار الماضى (حيوك) توكيد لذلك الحرص المستفاد من أداة الشرط (إذا) أى: حيوك جازمين بلا تردد بما لا يناسبك من عبارات التحية.

وفى (**بما لم يحيك به الله**) كناية عن قولهم له: السام عليك يا محمد. يدعون عليه بالموت؛ لأن السَّام هو الموت الزؤام والإسناد إلى اسم الجلالة (الله) فى (بما لم يحيك به الله)، ولم يقل: بما لم تُحَيَّ به، للإيذان بشناعة مخالفتهم، لأنهم يخالفون سنة الله فى تحيته رسوله الكريم. وهو موضع الكناية المتقدم ذكرها آنفًا.

* ﴿**ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما تقول**﴾ كناية أن هذا القول هواجس تدور فى صدورهم. والجملة حالية، أى: قائلين وهى - أى الجملة - استهزاء وسخرية. كما قال المشركون من قبل (**إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء**).

* (**حسبهم جهنم**) استئناف مسوق وعيداً وتهديداً لهم أى كفاهم جهنم.

* (**يصلونها**) استعارة لـ(يدخلونها) وسرها البلاغى شدة التخويف لأن الصلى هو الاحتراق بالنار.

أو مجاز مرسل من إطلاق المسبب، وهو الصلى، وإرادة السبب وهو الدخول.

* **(فبئس المصير)** ذم وشدة وعيد. والفاء سببية، ما بعدها وهو الذم مسبب عما قبلها، وهو الصلى.

* * *

٣ - ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ، فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُم فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

**الدراسة والتحليل:**

لهذه الآية وما قبلها قصة، فقد كان المسلمون حريصيين على اللقاء برسول الله ﷺ، كثيرى زيارته والجلوس حوله، بل كان بعضهم يدعوه وينتحى به جانبًا ويطيل الحديث معه، لا لحاجة إلى الحديث، ولكن ليقضى معه وقتا ممتعًا. وكان هذا يؤذى النبى ﷺ، ويضيع عليه أوقاتا هو أحوج ما يكون إليها لينظر فى شئون الدعوة ويدبر أمرها ولكنه كان يستحى أن يخيب رجاء راجٍ، أو يرد طلب طالب، ثم تدخل الله -عز وجل- ليزيح عن رسوله هذا العبء الثقيل فأمر المسلمين إذا أراد أحدهم أن يناجى الرسول، أو ينتحى به جانبًا، فعليه أن يقدم صدقة من المال. جاء هذا الأمر فى قوله تعالى:

**﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة، ذلك خير لكم وأطهر. فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾** [المجادلة: ١٢].

ولما نزل هذا الأمر أقل المسلمون من الاستبداد بوقت رسول الله ونظَّم الله هذه الظاهرة بعد أن كانت فوضى. وشق على الصحابة أن يبذلوا تلك الصدقات ما داموا واجدين لأنهم فى حاجة إلى ما يجدونه من مال لأمور المعيشة. وبعد أن حدث بعض من التنظيم. وأدرك الصحابة أن الهدف من ذلك التنظيم هو الحرص على وقت النبى، عاد الله ورفع عنهم الحرج ما دام المقصود من فرض الصدقات قبل مناجاة النبى عليه السلام قد حقق المراد من منع تلك الفوضى. وكان قوله تعالى: (أأشفقتم..) وما بعده هو الرافع لذلك الحرج.

وهذا الاستفهام أمسك الأئمـة عن بيان المراد منه بلاغيًا أهو إنكار أم تقرير لم يقل أحد منهم شيئًا فى هذا المجال ما عدا الإمام الطاهر فقال أنه مستعمل فى اللوم[1].

**والخلاصة**: أن هذا الاستـفهـام للتقرير بالاشـفاق الذى كـانوا يحسـونه من أمرهم بتقديم صـدقات كلما أراد الرجل منهم أن يناجى رسول الله ﷺ. والاشـفاق الخوف والمشقة، ويردف على هذا التـقرير بالمعنى الذى شرحناه العتـاب واللوم على الاشفاق المقرر به.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (**أأشفقتم**) أوثر الماضى إشارة إلى تحقق الإشـفاق عندهم. والجملة استـئناف مسوق لتقريرهم بالاشفاق ولومهم عليه وللتمهيد لرفع الحرج عنهم.
* ﴿**بين يدى نجواكم صـدقة**﴾ تمثيل على سبـيل الاستعارة شبهت فيـها النجوى بكائن حى تهويلاً لشأنهـا وثقل مؤنتها على رسول الله ﷺ، ثم حذف المشـبه به ورمز له بلازمه وهو اليدان.

وتنكير (**صدقة**) للتعظيم بدلالة المـقام. وإفراد الصدقـة -هنا- وجمعـها فى الآية السابقة على هذه الآية (١٢) لأن الأولى وردت فى مقام التشريع القولى. وهنا وردت فى مقام الأداء العملى. والمناجى إنما يقدم صدقة واحدة لاصدقات.

* (**فإذ لم تفعلوا**) الفاء للتفريع على ما قبلها مع قصد ترتيب رفع الحرج بعدها على ما قبلها، وهو الشعور بالإشفاق والمشقة.
* ﴿**فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ الفاء تفريع ثان على التفريع الأول، وإفادة أن ما قبلها سبب فيـما بعدها -أى المشقـة سبب فى رفع الحرج - وفى (**أقيمو الصلاة**) استعارة محسوس لمعـقول: أى افعلوا الصلاة مستوفـية شروطها وأركانها وهيئـاتها كالبنيان القوى المـستقـيم. وفى إيثار (آتـوا) على اعطوا لما فى الاتيان من المبـادرة بالإعطاء وسخاء النفس بها.

---

(١) ينظر الكشاف (٤/٧٦) روح المعانى (٢٨/ ٣٠) أبو السعود (٨/ ٢٢١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٤٦).

* ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ عطف عام على خاص لما فى العام من كمال التقوى والاستقامة.

وتقديم طاعة الله على طاعة رسوله لأن طاعة الله هى الأصل.

* ﴿والله خبير بما تعملون﴾ استئناف مقرر لمعنى ما قبله وتقديم (خبير) على المعمول (بما تعملون) للاهتمام بالمقدم بدلالة المقام. ولتوافق رءوس الآيات فى البناء على حرف (الواو) أو الياء والميم والنون لما فى ذلك من أثر فى جمال الأداء.

* * *

٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم، مَّا هُمْ مِّنْكُمْ وَلاَ مِنهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

**الدراسة والتحليل:**

الحديث عاد إلى المنافقين، وما تحكيه الآية سر من أسرارهم ضد المؤمنين، حيث كانوا يوالون اليهود على حساب المؤمنين ويخلصون الود لليهود، فكانوا - بحكم مخالطتهم للمؤمنين، ومعرفة بعض اخبارهم ينقلون ما عرفوه من شئون المسلمين وشئون الدعوة إلى اليهود. فكشف الله دسائسهم، وفضح عليهم أعمالهم الخبيثة. ثم ساق ذلك فى هذه الآية عن طريق هذا الاستفهام الذى تصدر الآية موضوع الدراسة.

* **﴿ألم تر إلى الذين تولوا قومًا غضب الله عليهم﴾؟**

ولم يذكر الأئمة ما المراد -صراحة- بالاستفهام، وقد اكتفوا بأن العبارة تعجيب من هؤلاء المنافقين. والتعجيب معنى ثان فى الاستفهام. لا معنى أول كما تقدمت الإشارة إلى ذلك مرات.

**والخلاصة:** أن الرؤيا - هنا علمية، لأن سعى المنافقين يعرف بقرائن الأحوال المعنوية والعقلية. وإن شوهدت اتصالاتهم باليهود بالبصر، فهى ليست المقصودة - وحدها - هنا.

أما المراد من الاستفهام فهو التقرير، أى قد رأيت أو قد علمت. ويترتب على هذا التقرير معنيان ثانيان:

* التعـجيب بالـنظر إلى المخاطب وهو النبى ﷺ وأصـحابه رضى الله تعـالى عنهم أجمعين.

* ثم التهديد والوعيد بالنظر إلى المتحدث عنهم، وهـم المنافقون.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**ألم تر إلى الذين**﴾ اطراد للقاعدة التى استقيناها من الدراسة فيما تقدم. فقد توسط حرف الجر (إلى) بين فـعل الرؤيا ومعموله، لأن المستـفهم عنه ذات (الذين تولوا) وفى (**الذين تولوا**) كناية عن المنافقين، وإيثـار الموصول والصلة -بتمامهـا- لأنهما محط التعجيب، فالمتعجب منه هنا هو تولى المنافقين اليهود.

* ﴿**قومًا غـضب الله عليهم**﴾ هذا من تمام الصلة، وهو كنـاية عن اليهـود؛ لأنهم هم الذين غضب الله عليهم لأنهم ضلوا عن علم.

وتنكير (قومًا) للتحقير بدلالة المقام.

* ﴿**ما هم منكم**﴾ صفة كاشفة لما فى النكرة (قومًا) من غموض يعنى أن المنافقين تولوا قومًا ليسوا من المؤمنين. وإلا لكانت موالاتهم لهم صوابًا وحقًا.

* ﴿**ولا منهم**﴾ صفة أخرى كاشفة لما بقى من غموض فى النكرة (قومًا).

أى تولى المنافـقون قـومًـا لا هم من المنافقين، ولا هم مـن المؤمنين وهم اليهـود المغضوب عليهم.

* ﴿**ويحلفون على الكذب**﴾ حال أو استئناف، وإيثـار المضارع (يحلفون) للدلالة على أن الحلف كذبًا ديدنهم وعادتهم.

* ﴿**وهم يعلمون**﴾ زيادة تشنيع، لأنهم يتعمدون الحلف الكاذب وقطع للأعذار عنهم.

والجملة داخلة فى حيز التعجيب من حالهم على ثلاثة أمور :

* توليتهم اليهود، كثـرة أيمانهم الفاجرة. علمهم بأنهم على باطل. ومع ذلك هم لا يرعوون.

❊ ❊ ❊

# سورة الحشر

١ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُون لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُم لَنَنصُرَنَّكُمْ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

**الدراسة والتحليل**

هذه السورة مدنية باتفاق، نزلت بعد سورة (البينة) وقبل سورة النصر. وترتيبها فى النزول الثامنة والتسعون على المشهور. وسميت سورة (الحشر) لوقوع الحشر فى أولى آياتها. ويقال لها سورة بنى النضير، لأن قتال النبى إياهم وطردهم هو المذكور فى أول آية فيها.

والآية موضوع الدراسة تكشف جانبًا آخر من خيانات المنافقين وتآمرهم على المسلمين، وتوادهم مع اليهود. فاليهود هم المرادون من قوله تعالى فى هذه الآية:

**﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾**

والمؤامرة التى تكشف عنها هذه الآية هى اتفاق سرى عقده المنافقون مع اليهود، تعهدوا لهم فيه بمناصرتهم والاخلاص لهم حتى لو أخرجهم المسلمون من ديارهم يخرجون هم معهم. وقد كشف الله عن كذبهم حتى مع حلفائهم اليهود. وبين أنهم إن أخرجوا أو قوتلوا لا ينصرونهم ولا يخرجون معهم.

وإذا اشتد القتال على اليهود فروا من بينهم وولوا مدبرين.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ، وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١٢].

هذا هو خلق المنافقين: لا عهد لهم حتى مع حلفائهم فى الباطل وقد تصدر الآية هذا الاستفهام:

﴿**ألم تر إلى الذين نافقوا..**﴾ وقد عودنا الأئمة بعد أن أطالوا القول فى المراد من الاستفهام من أول سور القرآن إلى مراحل طويلة، عودونا فى السور الأخيرة أن يوجزوا أو لا يتعرضوا قط للمراد من الاستفهام. إحالة إلى ما قيل من قبل.

لذلك لم نكثر الرجوع إليهم فى هذه الأشواط الأخيرة، ومنها هذا الاستفهام، الذى كثر وروده فى النظم الحكيم كثرة لا تعادلها صيغة أخرى من صيغ الاستفهام الأخرى.

والاستفهام فى الآية موضوع الدراسة المراد منه مجازيًا التوقيف على سلوك المنافقين والتوقيف معنى من معانى التقرير. ويردف على هذا المعنى -هنا- التحذير من أهل النفاق.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**ألم تر إلى الذين نافقوا**﴾ الرؤيا علمية، والاستفهام للتقرير والتوقيف على أحوالهم. وقيل هنا: (**الذين نافقوا**) ولم يُقَلْ المنافقون - كما فى سائر آيات الذكر الحكيم - ولابد لهذا التخالف من سر بيانى اقتضاه. وقد بحثنا فيما قاله المفسرون، فلم نجد أحدًا منهم قال فيه شيئًا. وقد لاح لنا فيه تفسيران نحسب أنهما -أو أحدهما - كاشفان عن ذلك السر مع تفويض العلم لله علام الغيوب.

**الأول:** أوثر هذا التعبير (**الذين نافقوا**) على: (المنافقين) لمناسبة هذه الصيغة الاستفهامية: (**ألم تر**) لأن المطرد فيها أن يليها الموصول (الذى) أو (الذين) مع صلته المناسبة مثل: ﴿**ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه..**﴾ [البقرة: ٢٥٨]، و ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت**﴾ [البقرة: ٢٤٣].

أما الموصول الحرفى (اسم الفاعل - ومنه المنافقون - واسم المفعول) فلم يأت مع هذه الصيغة.

**الثانى:** نص المفسرون أن المراد من (**الذين نافقوا**) هنا رجال من بنى عوف من الخزرج. أرسلوا إلى اليهود لما حاصرهم المسلمون يقولون لهم: اثبتوا أمام المسلمين ولا تستسلموا لهم ونحن معكم.

وعلى هذا فإن قوله تعالى: (**الذين نافقوا**) مراد به هؤلاء النفر الذين ذكرهم كُتَّابُ السيرة بأسمائهم. فتكون دلالة هذا التعبير: (**الذين نافقوا**) المراد منها هذه الطائفة المخصوصة، لا جميع المنافقين، وفيها إلماح أن نفاقهم كأنه ظهر عليهم لأول مرة - بقوة - لما ترجموا نفاقهم إلى عمل وخيانة.

* ﴿**يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ إيثار المضارع تسجيل عليهم بتكرار هذا القول. وسماهم القرآن إخوانا لاشتراكهم فى الكفر والتكذيب بما جاء به محمد ﷺ.
* و﴿**الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ عطف بيان على (إخوانهم) هذا من جهة. ومن جهة أخرى: كناية عن موصوف هم اليهود.
* و(**من أهل الكتاب**) احتراس لدفع توهم غير المراد، وهم المشركون من العرب، لأنهم ليسوا أهل كتاب.

﴿**لئن أخرجتم لنخرجن معكم**﴾ اللام موطئة للقسم ولكن بم يقسم المنافقون؟ بالله كذبا لترويج بضاعتهم المغشوشة.

* ﴿**لنخرجن معكم**﴾ جواب الشرط، وخالفوا بين فعل الشرط، وفعل جواب الشرط. فالأول اسندوه إلى ما لم يسم فاعله - يقصدون المسلمين - والثانى أسندوه لما سمى فاعله -أى هم أنفسهم - أى: إذا أخرجكم المسلمون من دياركم خرجنا نحن معكم من تلقاء أنفسنا تضامنًا معكم. وفيه تزويق وتعسيل لوعودهم الخادعة.
* ﴿**ولئن قوتلتم لننصرنكم**﴾ عطفت هذه الجملة على التى قبلها للتوسط بين الكمالين؛ لأن الجملتين إنشائيتان لفظًا ومعنى.
* ﴿**والله يشهد إنهم لكاذبون**﴾ استئناف مسوق لكشف أكاذيب المنافقين، وأنهم لا وفاء ولا عهود لهم مع عدو أو صديق وقد أكد النظم نسبة الكذب إليهم من خلال:

* اسمية الجملة. * إن مكسورة الهمزة. * شهادة الله. * لام التوكيد.
* اسم الفاعل فى (كاذبون).

وكفى بذلك فضحا للنفاق والمنافقين متى وكيف وجدوا قاتلهم الله.

* * *

# سورة الصف

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢].

**الدراسة والتحليل:**

سورة الصف مدنية عند الجمهور، وهو الصواب، نزلت بعد سورة (التغابن) وقبل سورة (الفتح) وترتيب نزولها الثامنة بعد المائة.

وهذه الآية - موضوع الدراسة - توجيه حكيم لعباده المؤمنين، وتحذير من أن يكون القول عندهم غاية فى ذاته، دون أن يقترن القول بالعمل، فيما يدخل تحت طاقة الإنسان، أما أن نقول ولا نفعل فهو من أشد الذنوب مقتاً أو كراهية عند الله.

وفى ذلك أنزل الله بعد الآية السابقة هذه الآية اللاحقة ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ﴾.

وفى الآية - موضوع الدراسة - أول استفهام يرد فى سورة الصف:

**﴿لم تقولون مالا تفعلون﴾** وقد عالج الأئمة عشرات الصور من هذا الاستفهام وهو عندهم - جميعاً - استفهام إنكارى، ولا يعرف بينهم خلاف حول هذا المعنى.

ويردف عليه من المعانى الثانية: التحذير والعتاب الشديد، لقبح الاكتفاء بالأقوال عن الأفعال المتاح العمل بها بلا عناء شديد إذا كان العمل تطوعاً، هذا وقد ذكر المفسرون أسباباً لنزول هذه الآيات لكن العبرة بعموم المعنى لا بخصوص السبب، وهذا ما نعول عليه فى هذه الدراسة كما يعلم القارئ الكريم.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** هذا النداء فى القرآن الكريم من أشرف النداءات الإلهية.

ويعقبه واحد من أمرين أو ما يقوم مقامهما:

**الأول:** أن يأتى فى حيزه أمر، كقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾** [آل عمران: ١٠٢].

أو نهى، كقوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم**﴾ [الحجرات: ١١].

وهنا جاء فى حيز النداء ما يقوم مقام النهى، وهو الإنكار والمعنى: لا تقولوا مالا تفعلون.

* ﴿**لم تقولون مالا تفعلون**﴾ لِمَ سؤال عن سبب القول بلا فِعْل. والسؤال عن الشئ يقتضى عدم وجوده، وقد جُعِل نفى وجود السبب كناية عن الإنكار، وهو الطريق الذى يسميه بعض الأئمة: البرهانى.

وإيثار المضارع (**تقولون**) للدلالة على أن الأقوال التى لم يكن يصاحبها عمل كانت تقع من المسلمين كثيراً فجاءت هذه الآيات تنكر عليهم ذلك وتقبحه.

* * *

٢ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَدْ تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

**الدراسة والتحليل:**

يسجل القرآن فى هذه الآية مقولة وجهها موسى - عليه السلام - لقومه، وكانوا يؤذونه بالقول والعمل ومخالفة ما أنزل الله عليه لهم.

واليهود قوم لا يثمر فيهم وعد، ولا يكفهم عن السوء وعيد.

وقد توسل إليهم موسى - عليه السلام - بكونه رسول الله إليهم لعلهم يكفون عن مخالفته وتأذيته، ولكن هيهات هيهات لو استجاب الصخر ما استجابوا، فعاقبهم الله - عز وجل - فطمس على قلوبهم وأعمى أبصارهم وأصم آذانهم، ولهم فى الآخرة عذاب الخزى وخزى العذاب.

وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾؟

وهو - كما هو معلوم لقارئ هذه الدراسة - استفهام إنكار، وقد تقدم نظيره فى أوائل هذه السورة، فموسى - عليه السلام - يضيق ذرعاً بجلافة بنى إسرائيل، ويتودد

إليـــهم - وهو رسول الله - أن يكــفوا عن أذاه منكراً علــيهم ســوء معــاملتــهم إياه، وإعراضـــهم عما يدعــوهم إليه من الإيمان والطاعة، ويردف علــى الإنكار من المعانى الثانية: التقريع والتحذير.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(يا قوم)** هذا النداء تفسير لقوله تعالى فى صــدر الآية (وإذ قال) وهذه العبارة أحياناً يأتى النظم الحكيم مكتفيــاً بها، دون أن يذكر بعدها منادى كمــا فى قوله تعالى فى شأن موسى -نفسه- ﴿وَإِذْ قَالَ مُـوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُـوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، حيث اكتفى النظم بـ﴿**وإذ قال موسى لقومه**﴾ ولم يذكر جملة النداء **(يا قوم)**.

وأحياناً يذكر جملة النداء كما فى الآية موضوع الدراسة ولابد من سر بلاغى وراء الذكر والحذف، ولابد من فرق بلاغى بين العبــارتين، وقد لاح لنا فى الفرق البلاغى بينهما أن ما يذكر فيه النداء **(يا قوم)** آكد مما حُذِف فيه النــداء، لأن ما ذكر فيه النداء كان معناه أن القول صدر من القائل إلى المقول له مشافهة بلا وساطة بينهما من رسول يكلفه القائل بتبليغ القول.

أما ما حُذِفَ النداء فيحتمل أمرين:

* أن يكون القول صدر من القائل إلى المقول له مباشرة.
* أن يكون القول بوساطة رسول بين القائل والمقول له ولهــذا كان ما حذف فيه النداء دون ما ذكر فيه النداء من حيث التوكيد على صدور القول مشافهة مباشرة.

أما لماذا ذكر المنادى هنا فى آية (الصف) ولم يذكر فى آيــة (البقرة) المذكورة، فلأن المقام فى آية (الصف) مقام ضيق وشدة فناسبه أن يُنَصَّ على مواجهة موسى لهم وجهاً لوجه.

أما فى آية البقرة فالمقام مقام تبليغ لا شدة فيه ولا ضيق فناسبه حذف المنادى، هذا ما لاح لنا فى تفــسير هاتين السمتين، وهذا يــصلح أن يكون تفسيراً لهــما متى وأين

وجدتا، وليس مقصوراً على الحديث فى شأن موسى وقومه.

* ﴿لِمَ تُؤذوننى﴾؟ دلالة المضارع على تكرار أذى قوم موسى لموسى هى التى عينته للتعبير هنا، ولم يذكر للأذى معمول للمبالغة فى كثرته وشموله.

* ﴿وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم﴾ قد لإفادة التحقيق والمضارع لشمول العلم جميع الأوقات.

وتوكيد الخبر ﴿أنى رسول الله إليكم﴾ لتحقيق العلم بهذه الحقيقة، وفيها زيادة تشنيع عليهم، حيث لم يقيموا لرسالة الله فيهم وزناً.

وإضافة (**رسول**) إلى اسم الجلالة (**الله**) للتشريف من جهة، ولتقبيح تأذيتهم له من جهة أخرى، أما الجار والمجرور (**إليكم**) فلتأكيد الإلزام لهم بالطاعة وحسن المعاملة.

* ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ الفاء للسببية و﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ أسلوب بديعى من باب المشاكلة عُبِّر فيه عن العقاب بالإزاغة لوقوعه فى صحبته لفظاً، إشعاراً لهم بأن الجزاء من جنس العمل.

* ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ تذييل مؤكد لمعنى ما قبله، والآية تقرير لسنة من سنن الله فى العصاه لذلك أكدِّ معناها بالمؤكدات الآتية:

- اسمية الجملة، تكرار الإسناد، المضارع الدال على عدم الهداية فى كل الأوقات.

* * *

٣ - ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الصف: ٧].

**الدراسة والتحليل:**

هذه الآية إحدى الآيات الست عشرة التى وردت فيها هذه الصيغة الاستفهامية (**من أظلم**) وكنا قد جمعنا هذه الآيات الست عشرة فى موضع واحد، ودرسناها دراسة شاملة أضافت جديداً إلى دراسات الاستفهام فى الذكر الحكيم، وأزالت وْهماً كان قد شاع فى كتب التفسير أن بين هذه المواضع الستة عشر تضارباً نتجت عنه مشكلة التمس لها بعض المفسرين حلولاً، ولكنها حلول هى فى نفسها مشكلة أخرى أو مشكلات أخرى.

وقـد تم - بتوفـيق الله - وله الحمـد - إزالة ذلك الوهم، وثبت - يقـيناً - خلو الآيات من أى تضارب، ذلك ما يراه القارئ فى موضعه من هذه الدراسة[1].

ولهذا فإننا نكتفى - هنا - بهذه الإشارة الموجزة إلى أن هذا الاستفهام (من أظلم) فى جميع مواضع وروده استفهام مجازى المراد منها نفى الأظلمية ونفى المساواة فيها.

وهذه خلاصة ما نقوله فيه - هنا - محـيلين القارئ إلى ما كتبناه بتوسع حول هذه المواضع مجتمعة، مع ما قاله الأئمة فيها رحمهم الله جميعاً.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾** الاستفهام للإنكار والنفى، أى: لا أظلم من هذا الصنف من الناس، وهم الذين يفترون على الله الكذب، ونفى الأظلمية دلالة هذا الاستفهام منطوقاً، وهو يتضمن نفى المساواة لهم فى هذا الظلم مفهوماً.

وجاء الكذب - هنا - معرفاً بالألف واللام - وكان فى مواضع كثيرة منكراً - لأن المقصود - هنا - كذب معين، هو كذب أهل الكـتاب الذين كانوا يجدون البشارة فى كتبهم السماوية، بالنبى ﷺ وبأوصافه ومع هذا نسبوه إلى الإدعاء والكذب.

* **﴿وهو يدعى إلى الإسلام﴾** قيد فى نفى الأظلمية لم يرد من قبل فى المواضع الخمسة عشر، والمراد منـه - بلاغياً - التشنيع وتشـديد الإنكار، وبناء الفعل (يُدعى) لما لم يسم فـاعله، لأن الغرض حـاصل بالدعوة فى نفـسهـا، غير مـتوقف على تـعيين الفاعل، ومن أسراره البلاغية توفير العناية بالحدث - كما يقول البلاغيون والتعميم فى الفاعل.

* **﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾** تعبر هذه الآية وهى تذييل مـقرر لمعنى الكلام قبله - عن سنة من سنن الله الـتى لا تبـدل، وهى حـرمان الـظالمين من ألطافـه، ولذلك أكدت بـ: اسـميـة الجملة، تكرار الإسناد إلـى اسم الجلالة (الله) مرتـين، المضارع الشامل لعدم هدايتهم فى كل الأوقات، حاضرها ومستقبلها.

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر (١/ ٢٨١) من هذه الدراسة.

**الدراسة والتحليل:**

خطاب خاص لعباد الله المؤمنين، وتوجيه كريم فيه لهم كل السعادة فى الدنيا والآخرة، وقد وقع بعد هذا النداء الشريف: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وهو من أكرم نداءات القرآن، وقع بعده هذا الاستفهام الكريم:

﴿**هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم**﴾؟ وهو من قبيل الأمر فى المعنى، لأن هذا النداء - كما تقدم لا يقع بعده إلا طلب، سواء كان أمراً أو نهياً أو ما يقوم مقام الأمر والنهى من الحقائق التى بها سعادة المؤمنين فى الدنيا والآخرة، ولذلك أوَّل المفسرون الخبر فى الآية التى بعدها:

﴿تُؤمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾

[الصف: ١١].

أوَّلُوه بالأمر، فقالوا إن معناه: آمنوا وجاهدوا وهى قراءة لبعض القراء[١].

وهذا الاستفهام لم يبين المفسرون المراد منه، بيد أن الإمام الطاهر قال: إنه للعَرْض مجازاً[٢].

**والخلاصة**: أن هذا الاستفهام ليس لمجرد العرض كما قال الإمام الطاهر، بل هو للحث والترغيب وتزيين الأعمال الصالحات أصولاً كالإيمان وفروعاً كالجهاد.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**يا أيها الذين آمنوا..**﴾ فى هذا النداء إيجاز بالحذف، والتقدير: آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وإنما استحسن هذا الحذف - هنا - بلاغة لكثرة هذا النداء فى النظم الحكيم، لذلك نزل الفعل (آمنوا) منزلة اللازم الذى لا معمول له مع ملاحظة تلك المحذوفات.
* ﴿**هل أدلكم**﴾ إيثار أداة الاستفهام (هل) عن أدوات الاستفهام الأخرى إشارة إلى

---

(١) انظر الكشاف (٤/ ١٠٠)، وتفسير أبى السعود (٨/ ٢٤٥). (٢) التحرير والتنوير: (٢٨/ ١٩٣).

تحقق المطلوب لهذا الاستفهام، المنصوص عليه فى الآية التى بعد هذه الآية.

* ﴿**على تجارة تنجيكم من عذاب إليم**﴾ استعارة تمثيلية، شبه الإيمان والجهاد فى سبيل الله والعمل الصالح بالتجارة فى تبادل المنافع وتحقيق الربح الحلال، لكن التجارة المشبهة ربحها عظيم هو الإنجاء من العذاب الشديد الوقع على النفوس، الجالب لكل شقاء، وتنكير (**تجارة**) للتفخيم بدلالة المقام، أما تنكير (**عذاب**) فهو قطعاً للتهويل والتفظيع بدلالة المقام كذلك.

* وفى (**إليم**) مجاز عقلى علاقته المفعولية والتقدير: مؤلم فيه منزله.

* * *

٥ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ، فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤].

### الدراسة والتحليل:

القدوة الحسنة تولد حب الخير عند الناس، وتستل من النفوس ضغائنها، وتُذهب عنها الشواغل، وتُعدها لقبول الحق إعداداً.

وفى هذه الآية يستثمر النظم القرآنى هذه الطاقة المطمورة فى طوايا النفس الإنسانية، فالقرآن لما خاطب المؤمنين هذا الخطاب الكريم، ودعاهم إلى أن يكونوا جنوداً لله، ينصرون حقه، ويدحرون باطل الشيطان، أبرز لهم من التاريخ النبوى مثالاً وضيئاً، فقد كان عيسى ابن مريم - لما اشتد عليه الأمر، وهو يدعو بنى إسرائيل إلى الإيمان بالله والعمل الصالح، توجه إلى طائفة من الشباب الذين توسم فيهم الخير، وصاح هذه الصيحة فيهم: من أنصارى إلى الله؟ فانبرى ذلك النفر من الشباب - الحواريون - وأجابوا نداء عيسى - عليه السلام - فقالوا: نحن أنصار الله.

أبرز النظم القرآنى هذا المثال الإيمانى الوضئ ليقتدى المؤمنون من أمة محمد ﷺ، ويبادروا إلى الطاعة والجهاد فيكونوا أنصار محمد ﷺ إلى الله، كما كان الحواريون

من قبل أنصار عيسى - عليه السلام - إلى الله. هذا هو معنى الآية، أما الاستفهام الذى ورد فيها:

﴿**من أنصارى إلى الله**﴾ فهو استفهام حقيقى مشوب - بعد العرض والطلب - بالحث على نصرة الله والترغيب فيها.

ولذلك لم يقل فيه الأئمة شيئاً، لأنهم إنما يبحثون عن معانى الاستفهام المجازى، دون الحقيقى لأن معناه ظاهر لا يحتاج إلى بحث، وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام هنا.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**كونوا أنصار**﴾ الأمر للإيجاب، وقد وقع بعد نداء (**يا أيها الذين**) لأن هذا هو منهج القرآن فيما يلى هذا النداء من أنواع الطلب، وإضافة (**أنصار**) إلى (**الله**) للحث والترغيب وتشريف المضاف.

* (**كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله**) ظاهر النظم - هنا - هو تشبيه قول بقول، المشبه هو (**كونوا أنصار الله**)، وأداة التشبيه (**كما**) والمشبه به هو ﴿**قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله**﴾، وهذا الظاهر غير مراد من النظم وقد عالج الإمام الزمخشرى هذه المسألة فقال: «فإن قلت: ما وجه صحة التشبيه، وظاهره تشبيه كونهم أنصار الله بقول عيسى - صلوات الله عليه - ﴿**من أنصارى إلى الله**﴾؟

قلت: التشبيه محمول على المعنى، وعليه يصح، والمراد كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصارى إلى الله[1]».

قال الإمام الزمخشرى هذا وسكت، ويرد على النظم سؤال حتى بعد ما بينه الإمام الزمخشرى، حاصل هذا السؤال:

إذا كان الأمر كما قال الإمام، فلِمَ لم يأت النظم على النسق الذى بينه الإمام؟ وما فائدة دخول أداة التشبيه على قول عيسى - عليه السلام؟

---

(١) الكشاف (٤/ ١٠١).

**والجواب:**

مع رضانا تماماً بما شرحه الإمام الزمخشرى، نجيب على مالم يجب هو عليه فنقول: إن فى الكلام حذفاً على طريقة الاحتباك، وهو أن يحذف من كلام مزدوج من أحد طرفيه شئ دُلَّ عليه بذكر نظيره فى الطرف الثانى، وأن يحذف من هذا الطرف شئ دُلَّ عليه بذكر نظيره فى الطرف الأول.

والتقدير هنا على الوجه الآتى:

يا أيها الذين آمنوا أطيعوا قولى لكم فكونوا أنصارى كما أطاع حوارى عيسى قوله لهم من أنصارى إلى الله فقالوا نحن أنصار الله، وسره البلاغى المسارعة إلى امتثال الأمر، وتحقيق المأمور به مع استثمار أقل ما يمكن من الألفاظ فى أكثر ما يمكن من المعانى.

وفصلت جملة: **﴿قال الحواريون﴾** عما قبلها لشبه كمال الاتصال، لأنها جواب عن سؤال نشأ عن الأولى تقديره: ماذا قال الحواريون؟

* **﴿فآمنت طائفة من بنى إسرائيل، وكفرت طائفة﴾** الفاء للتفريع على نداء عيسى - عليه السلام - وتقديم ذكر الطائفة المؤمنة على الطائفة الكافرة لشرف الإيمان على الكفر، والمؤمن على الكافر.
* وتنكير **(طائفة)** الأولى للتعظيم والتفخيم، أما تنكير طائفة الثانية **(الكافرة)** فللتحقير والإهانة.
* **﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾** لف ونشر مرتب، التأييد للذين آمنوا، والخذلان للذين كفروا، وقد أدمج النظم الحكيم الطرف الثانى فى الحديث عن الطرف الأول، وكأن الكافرين ليس لهم أدنى وجود أمام تأييد الله للإيمان وأهله.
* وفى **﴿فأصبحوا ظاهرين﴾** تناسب بديع بين الإصباح والظهور، فالصبح يجلى حقائق الأشياء ويظهر فى ضوئه ما كان مستوراً بحجب الظلام، ولو قيل: فأمسوا ظاهرين، لفات هذا المعنى البديع.

* * *

# سورة المنافقون

١ - ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ، أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

**الدراسة والتحليل:**

سورة (المنافقون) مدنية بالإجماع. نزلت بعد سورة (الحج) وقبل سورة (المجادلة).

وقد بدأت هذه السورة بفضح المنافقين، وعنت بوصفهم عناية فائقة، ورصدت بعض مواقفهم وأقوالهم، ثم حذرت المؤمنين من الركون إلى الدنيا، والانشغال بها عن ذكر الله، والآية موضوع الدراسة، تصف المنافقين من حيث ظاهرهم ومن حيث ما يجول فى صدورهم.

فهم فى الظاهر حسنو الهيئة، بغال الأجسام، حِلوو الحديث وفى الباطن جبناء رعاديد، يتوقعون أن ينزل بهم شرفى أى لحظة.

وورد فى هذه السورة استفهامان أولهما ما فى فاصلة هذه الآية:

**﴿فأنى يؤفكون﴾؟**

وهذا الاستفهام تقدمت له نظائر كثيرة، وقد رصدنا أقوال الأئمة فيها من قبل، ولا بأس بالتذكير - هنا - يقول الإمام جار الله الزمخشرى:

**﴿أنى يؤفكون﴾**: كيف يعدلون عن الحق: تعجباً من جهلهم وضلالهم[1].

وقال الإمام أبو السعود: **(أنى يؤفكون)**: تعجيب من حالهم، أى كيف يصرفون عن الحق إلى ما هم عليه من الكفر والضلال[2].

وكذلك ذهب الإمام الطاهر، فالاستفهام عنده مستعمل فى التعجيب من حالهم على سبيل المجاز المرسل[3].

---

(١) الكشاف (٤/ ١١٠). (٢) تفسير أبى السعود (٨/ ٢٥٢). (٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٤٢).

**والخلاصة**: أن الاستفهام فى الآية إنكارى، يُنكر الله عليهم فيه الجهة، أو الحال التى ينصرفون إليها وهم معرضون عن الحق.

أما التعجيب من شأنهم الذى نص عليه الأئمة فهو معنى ثانٍ مردوف على الإنكار، الذى هو دلالة الأصل هنا.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم**﴾ تصدير الشرط هنا بـ(إذا) له دلالتان بلاغيتان:

**إحداهما**: حرص المنافقين على حضور مجالس رسول الله ﷺ.

**والثانية**: حرصهم على تزيين هيئاتهم كسلاح يؤثرون به على من يراهم، وليس حرصهم على حضور مجالس رسول الله حبًّا فيه أو فى ما جاء به، ولكن سعياً وراء منافع هم أدرى بها من غيرهم.

وفى إسناد الإعجاب إلى أجسامهم، وقطعه عن أنفسهم، حيث لم يقل: وإذا رأيتهم يعجبونك، دلالة قاطعة على فراغ قلوبهم من الإيمان، وسلوكهم من الخير، ونياتهم من الإخلاص، فهم مجرد هياكل لها طول وعرض وارتفاع، ولا شئ فيهم يُحمد لهم بعد ذلك.

* ﴿**وإن يقولوا تسمع لقولهم**﴾ كناية عن صفة، هى أن المنافقين ماهرون فى تعسيل كلامهم وتنميقه، لأن بضاعتهم المكر والخداع.

وللمضارع (**يقولوا**) دلالة بلاغية، هى أن تعسيل المنافقين أقوالهم هو دأبهم وعاداتهم لم ولن يكفوا عنها مادام فى الدنيا نفاق ومنافقون.

* ﴿**كأنهم خشب مسندة**﴾ هذه الجملة استئناف مسوق لزيادة التشنيع عليهم، ولا ضرورة لتقدير مبتدأ محذوف وقعت هذه الجملة خبراً عنه، لأن حملها على الاستئناف مغنٍ عن ذلك التقدير، وفى العبارة تشبيه طرفاه ظاهران، ووجه الشبه مختلف فيه، وقد ذكر فيه الإمام الزمخشرى وجوهاً من التأويل نوصى بالإطلاع عليها، أما المختار لدينا، فهو أن وجه الشبه بين المنافقين وقت جلوسهم فى مجلس

رسول الله ﷺ هو الاحتقار وعدم الجدوى، لأن الخشب إذا أسند على الجدران وغيرها، كان سبب ذلك الزهد فيه لعدم جدواه، إلا أن يكون وقوداً للنار، وهذا هو مصير هؤلاء المنافقين.

ومما يوحى بجعجعة المنافقين تشبيههم بالجمع (خُشُبٌ) بتوالى ضمتين، ثم التنوين المضموم، فكان لهذا الجمع دوى فى الأذن فظيع.

* ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ استئناف ثانٍ مسوق لبيان ما يجول فى صدورهم، وكناية عن جبنهم وجزعهم وسوء أفعالهم، كما قال الشاعر الحكيم:

إذا ساء فِعْلُ المرء ساءت ظنونه
وصدَّق ما يعتاده من توهُّم

فسدت سرائرهم فجبنت قلوبهم: أى يحسبون كل حركة غير عادية غارة مشنونة عليهم، حرموا أنفسهم من الإيمان فحرمهم الله من الأمان، ولهم فى الآخرة أشد العذاب.

* (هم العدو...) استئناف ثالث مسوق لتحذير المؤمنين من الانخداع بهم، وتعريف طرفى الإسناد مؤذن بأن فى الجملة قصراً تنزيلياً[1]، حيث حصر القرآن عداوة المؤمنين فيهم وحدهم - مع ما للمؤمنين من أعداء آخرين - إشارة إلى خطورة عداوة المنافقين للمؤمنين لتظاهرهم بالإيمان، ومخالطتهم إياهم.

* ﴿قاتلهم الله﴾ إنشاء فى المعنى خبر فى اللفظ، لأن هذه الجملة دُعائية عليهم بإهلاك الله إياهم.

وفى العبارة: (قاتلهم الله) إخراج على خلاف ظاهر المقام، لأن الأصل أن يقال: قاتلتهم لأن الله هو المتكلم، وسر العدول إلى الظاهر (الله) عن الضمير قاتلتهم، المبادرة من أول الأمر لتهويل قتال الله لهم، ولتربية المهابة فى النفوس.

* ﴿أنَّى يؤفكون﴾ أنَّى إما بمعنى أين فيكون الاستفهام لإنكار المكان.

وإما بمعنى كيف فيكون الاستفهام لإنكار الحال والمراد على كلا التقديرين إنكار

---

(١) البلاغيون يسمون هذا القصر إدعائياً، ففررنا إلى هذا المصطلح (تنزيلى) تأدباً مع كتاب الله العزيز، وتنزيهاً له عن الإدعاء.

انصرافهم عن الحق، وذلك عن طريق الكناية «اللطيفة» التى شرحت مرات من قبل.

ولا بأس من الإعادة الموجزة للتذكير، فنقول: كل موجود لابد له من مكان يكون حالاً فيه، ولابد له من صفة، وحالٍ يكون عليها.

فإذا انتفى المكان، أو انتفت الحال والصفة كان ذلك مؤذنا - لزوما - بنفى الحالِّ فى المكان، أو الموصوف بتلك الصفة المعدومة، وهذا هو معنى الكناية اللطيفة التى وردت كثيراً فى بلاغة النظم الحكيم وبناء الفعل (**يؤفكون**)[1] لما لم يسم فاعله إيماء بديع إلى أن الانصراف عن الحق الذى بعث الله به محمداً ﷺ لا فاعل له فى الوجود إذا فعله كان على صواب.

ولك أن تعد هذا البناء كناية أخرى شديدة اللطافة عن إنكار الانصراف عن دين الله كما أنزله على خاتم رسله ﷺ فى الأولين وفى الآخرين.

ومجيؤه مضارعاً - فوق ما تقدم - لتوافق الإيقاع الصوتى فى فواصل الآيات.

* * *

٢ - ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

**الدراسة والتحليل:**

الذى لا يؤمن بشئ لا يكترث بذلك الشئ، وإذا أردت أن تعرف رغبة إنسان فى شئ أو زهده فيه فاذكره أمامه وأرقب رد الفعل عليه عنده، فإن هش وبش ورأيت فى وجهه انبساطاً، وفى سمعه إصغاء، وفى بصره بريقاً فاعلم أن الرجل متيم بما ذكرت.

وإن رأيت فى عضلات وجهه تغوُّراً، وفى عينيه ازوراراً، وفى سمعه ثقلاً، فاعلم أن الرجل زاهد فيما تقول، نافر عنه وهذا هو ما تقرره الآية [٥] من سورة المنافقين، التى كانت تمهيداً للآية موضوع الدراسة، وهذا نصها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

فالاستغفار بضاعة مزهود فيها عند المنافقين؛ لأنها تتعلق بالنفع فى الحياة الآخرة،

---

(١) يؤفكون من الأَفك بفتح الهمزة، وهو الانصراف والإعراض وليس من الإفك بكسر الهمزة وهو الكذب وبينهما رحم ماسة.

وهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة فما هى حاجتهم إلى الاستغفار يا ترى؟ إنه - عندهم - أشبه ما يكون بـ«الشيكات» التى ليس لها رصيد، وهم لا يريدون إلا الحياة الدنيا، وحولها - كما جاء فى المثل - يدندنون. هذا شأنهم، ولذلك أخبر الله رسوله الكريم ﷺ أن الدعاء لهم لا يفيد، لأنهم قوم ظالمون، وقد قضت سنة الله أنه لا يهدى القوم الظالمين.

والاستفهام الذى فى الآية: ﴿**سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم**﴾ كنا قد درسناه مع نظائر خمسة له فى مبحث سورة البقرة، بمناسبة قوله تعالى هناك: ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾ [٦].

وتعرضنا لهذه الآية هنا من قبيل التذكير لطول الفصل بين الحديث عن هذا الاستفهام هناك، وورود نظيره هنا فى «المنافقون».

**وخلاصة**: ما قيل فى الصور الست التى يتركب الاستفهام فيها من الهمزة وأم بعد (سواء) أن المراد منه مجازياً تحقق المساواة بين المختلفين؛ أى الفعل والترك وهذا هو المقصود هنا.

فالله يقول لرسول الكريم يستوى عندنا استغفارك لهم - المنافقين - وعدم استغفارك فى عدم النفع وقد ورد ما دل على وجه الشبه صريحاً فى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**لن يغفر الله لهم**﴾.

ولم يظلمهم الله، لأنهم لم يؤمنوا بالحياة الآخرة، وهم قد زهدوا فيها وفى كل ما يتعلق بها من قول أو عمل، فحرمان الله إياهم من المغفرة جزاء وفاق.

ومعلوم أن همزة الاستفهام مقدرة قبل قوله تعالى: (**أستغفرت**) والدليل عليها تقدم (سواء) ثم (أم) المعادلة لما بعد الهمزة بعدها، أى بعد الهمزة المقدرة.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**سواء عليهم**﴾ أى: مستو عليهم، وهو استئناف مسوق لبيان حالهم عند الله، وفيه كناية عن أمر الرسول بالتوقف عن الاستغفار لهم.

وعُدِّى (**سواء**) بحرف الجر (على) إشعاراً بأن هذا القضاء الإلهى بلاء من الله

مصبوب عليهم لا نفع لهم فيه، ووزر يحملونه على ظهورهم وينوءون بحمله يوم يقوم الناس لرب العالمين.

* ﴿**أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم**﴾ تفصيل لما أجمل فى كلمة (سواء) وإيثار الماضى (**استغفرت**) للإعلام بأن حرمان الله إياهم من رحمته متحقق حتى مع تحقق استغفار الرسول ﷺ لهم يعنى: استغفارك لهم وعدم استغفارك لهم مستو أمرهما عند الله وفيه تشبيه الوجود بالعدم فى عدم الجدوى.

* ﴿**لن يغفر الله لهم**﴾ استئناف مسوق لتوكيد ما قبله وأوثرت (لن) من بين أدوات نفى المضارع لما فيها من معنى توكيد النفى.

* ﴿**إن الله لا يهدى القوم الفاسقين**﴾ تذييل مؤكد لما قبله، والآية تكرار لسنة من سنن الله فى عباده وهى حرمان أهل العناد والفجور من رحمته، وفيها من أدوات التوكيد ما فيها، لأن مضمون الخبر من الحقائق العظيمة الراسخة، ومن حقها تفخيم العبارة عنها.

* * *

# سورة التغابن

١ - ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التغابن: ٥].

**الدراسة والتحليل:**

هذه السورة مدنيـة عند الجمهور، كانت من أواخـر ما نزل من القرآن، لأن ترتيب نزولها كان السابعة بعد المائة. نزلت بعـد سورة الجمعة وقبل سورة الصف، وهى من السور الـتى بدأت بالتسـبيح والثناء على الله - عـز وجل - والآية موضـوع الدراسة خطاب لمشركى مكة، ومكذبى الرسالة يذكرهم الله فيها ويقررهم بالوقوف على أخبار الماضين الذين كذبوا الرسل، وما أنزل الله عليهم من عذاب فى الدنيا، وما ادخره لهم من عذاب الآخرة الأدهى الأمر.

وقد ورد فيها استفهامان متجاوران أولهما ما فى هذه الآية، وهو:

**﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل...﴾**.

وهذا الاستفهام استـفهام تقرير حسب الأصول البلاغية التى أشرنـا إليها كثيراً من قبل، وخلاصتها أن نفى النفى إثبات وهذا هو معنى التقرير.

وكذلك قال من أدلى بدلوه من الأئمـة فى بيان المراد من هذا الاستفهـام، كالإمام الطاهر بن عاشور(١).

ويردف على التقرير التـجهيل والتوبيخ، لأن من لم يتعظ بأحوال غـيره المشارك له فى الوصف المعاقب عليه، هو جاهل كل الجهل، ويستحق التوبيخ والتقريع.

**أسْرَار النظم وبلاغياته:**

* **﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل..﴾**؟ استفهام تقرير، أى: قد أتاكم.

وإسناد الإتيان إلى (النبـأ) مجاز عقلى أو اسـتعارة بالكناية كمـا تقدم فى نظائره،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/٢٦٨).

والسر البلاغى فيهما هو تفخيم وتهويل ذلك النبأ، وإيثار (النبأ) على الخبر لما فى معنى النبأ من فخامة المدلول عليه به وتجاوزه حدود المعهود، أى الأمر الغريب لما فيه من أهوال وأعاجيب.

و﴿ **الذين كفروا من قبل**﴾ فى صلة الموصول إشعار بسببية معنى الصلة فى ما حل بالماضين من انتقام والموصول وصلته كناية عن عاد وثمود وأهل سبأ وجميع الأقوام الذين دمَّر الله عليهم لما كفروا بالله وعصوا رسله.

وفى حذف المضاف إليه الظرف (من قبل) إيجاز، أى من قبلكم، حذف للعلم به - بداهة - ولتحقيق دلالة ما قل من الألفاظ فيما كثر من المعانى، وليشمل المعنى ما كان من الأمم قبل العرب وقبل غيرهم.

* ﴿**فذاقوا وبال أمرهم**﴾ الوبال: السوء وما تكرهه النفوس وتجزع منه.

والفاء لترتيب ما بعدها، وهو ذوق العذاب، على ما قبلها وهو الكفر، وفى الذوق استعارة لشدة الإحساس بالألم.

* ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ تذييل مؤكد لمعنى الكلام من قبل، أو عطف لعذاب الآخرة على عذاب الدنيا.

* * *

٢ - ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا، وَّاسْتَغْنَى اللهُ، وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٦].

**الدراسة والتحليل:**

شروع فى تفصيل الأسباب التى من أجلها أنزل الله عليهم ما شاء من صنوف العذاب، فقد جاءتهم الرسل منذرين ومبشرين فما رفعوا لذلك رأساً، بل أنكروا أن يبعث الله بشراً لهداية بشر، هذا ما كان الشيطان يمليه عليهم كلما جاءهم رسول من عند الله، وهذا هو السبب الأكبر الذى حمل قريشاً على إنكار رسالة محمد ﷺ، فكان جزاؤهم الوفاق أن استغنى الله عنهم، وعجل لهم من العذب ما عجلَّ، وادخر لهم من العذاب ما ادخر، وهو الغنى وإن جحدوا، الحميد وإن كفروا.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام: (**أبشرٌ يهدوننا**)، وهو استفهام إنكار وتكذيب عند جميع الأئمة وهذه خلاصة ما قيل أو يقال فيه، وسبب الإنكار والتكذيب، اعتقادهم الباطل أن الله لو أراد أن يرسل إلى عباده رسلاً لأرسل إليهم ملائكة، فالرسالة عندهم تنافى البشرية.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**ذلك..**﴾ اسم الإشارة مشار به إلى عذاب الله الذى أنزله بالذين كفروا.. وأوثر اسم الإشارة المشار به إلى البعيد لتهويل ذلك العذاب وغرابته غير المعهودة.
* ﴿**بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات**﴾ الباء سببية أى: بسبب تكذيبهم الرسل كان ذلك العذاب حائقاً بهم وتوكيد الخبر بـ«أن» وإسمية الجملة لقطع الأعذار عنهم وتشنيع كفرهم.

و(**البينات**) كناية عن المعجزات والتوجيهات الحكيمة، والألف واللام فيها لتعريف الجنس.

* ﴿**فقالوا أبشر يهدوننا**﴾ الفاء لإفادة معنييها من الفورية والترتيب، وهما كناية - هنا - فى حكم البلاغة عن رعونة الذين كفروا وتجهيلهم، حيث بادروا بهذا القول (الفج) لمجرد سماع دعوة الرسل لهم، وترتيبهم الكفر على حقائق الإيمان.
* وإيلاء (**بشر**) همزة الاستفهام لأنه محط الإنكار عندهم.
* وتنكير (**بشر**) للتحقير بدلالة المقام، و(**يهدوننا**) من تمام مسوغات الإنكار عندهم.
* ﴿**فكفروا وتولوا واستغنى الله**﴾ تشنيع عليهم بترتيب الكفر والإعراض عن مقولتهم الباطلة، وفى (**استغنى**) تهديد ووعيد لهم، لأن من استغنى الله عن هدايته ضل وهلك
* ﴿**والله غنى حميد**﴾ تذييل مقرر لمعنى ما قبله.

* * *

# سورة التحريم

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ، تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم: ١].

## الدراسة والتحليل:

هذه السورة مدنية باتفاق، نزلت بعد سورة (الحجرات) وقبل سورة (الجمعة) وترتيب نزولها الخامسة بعد المائة، فهى من أواخر القرآن نزولاً.

والآية - موضوع الدراسة هى أولى أياتها الإحدى عشر، ولهذه الآية وما بعدها سبب نزول يُرجع إلى معرفته فى مظانه التى بسطت القول فيه من كتب التفسير وعلوم القرآن، أما الذى نذكره - هنا - فى إيجاز أن خلافاً ما حدث بين النبى ﷺ وبين أزواجه الطاهرات، فاسترضاهن عليه الصلاة والسلام، وكان مما استرضاهن به الامتناع عن بعض ما أحله الله له.

فنزلت هذه الآية وما بعدها تعاتب النبى ﷺ على تسرعه وامتناعه عما أحل الله له، ثم وضع حلولاً لذلك الخلاف الذى بدر بين النبى - عليه السلام - وبين زوجاته، وسيأتى هذا فى الآية التالية.

هذا، وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام:

**﴿.. لم تحرم ما أحل الله لك﴾؟**

ومن فضول القول أن نقول إن هذا الاستفهام للإنكار والنفى كنظائره التى تقدمت قريباً، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم، فلنكتف بهذه الإشارة إليه.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿يا أيها النبى..﴾** نداء تكريم وتشريف، حيث لم ينادِ الله رسوله الكريم محمداً ﷺ باسمه المجرد إلا فى موضعين على بعض الآراء، هما (طه) و(يس)، أما (محمد) فلم يناده به مجرداً قط، بينما كانت نداءاته عز وجل للأنبياء السابقين بأسمائهم

المجردة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

وصيغة النداء نفسها **(يا أيها)** تحمل من الفخامة والجلال ما تحمل.

* ﴿**لم تحرم ما أحل الله لك**﴾؟ استفهام نفى وإنكار، وقد توصل النظم الحكيم إلى هذا الإنكار بنفى السبب الحامل على ا لتحريم، أى: لا سبب عندك يدعوك إلى أن تحرم على نفسك ما حرمت - يعنى منعت.

وهى الكناية اللطيفة التى حفل بها النظم القرآنى الحكيم، وإيثار الماضى (أحل) لتأكيد النفى والإنكار.

* ﴿**تبتغى مرضات أزواجك**﴾ استئناف مبين لعلة المنع المعبر عنه فى النظم بـ(التحريم)، وهو ليس تحريماً شرعياً وإنما امتناع عن الاستمتاع بالشئ كنوع من الحزم يأخذ به المربى نفسه، وحاشَ أن يحرم الرسول ما أحل الله، وفى إطلاق التحريم على المنع استعارة سرها البلاغى شدة التصميم على المنع حتى لكأنه محرم تحريماً شرعياً.

* ﴿**والله غفور رحيم**﴾ استئناف مسوق لبيان عفو الله عن رسوله، من اجتهاده فى إرضاء زوجاته، بأخذ نفسه بالشدة والحرمان، وإذهاباً لما قد يكون علق بنفسه الطاهرة ﷺ من أثر العتاب.

* * *

٢ - ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا، قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [التحريم: ٣].

**الدراسة والتحليل:**

هذا هو ملخص الخلاف: حديث أسره ﷺ لواحدة من زوجاته (حفصة ابنة عمر - رضى الله عنهما) فكان ينبغى حفظ ذلك السر لكنها - رضى الله عنها - لم تستطع كتمانه فأخبرت به أخرى (عائشة ابنة أبى بكر - رضى الله عنهما) ثم فشا السر بين زوجاته جميعاً[1].

---

(١) تراجع القصة بالتفصيل فى كتب السيرة، أو كتب التفسير لئلا نثقل بذكرها هنا.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام: ﴿**من أنبأك هذا**﴾.

وهو استفهـام حقيقى عند أهل الذكر، لأن أم المؤمنين مـا كانت تعرف أن النبى - عليه السلام - عرف بإفشاء السر الذى أسره إليها.

فيكون هذا الاستفهام الحقيقى مشوباً برائحة التعجب والدهشة.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**إلى بعض أزواجه**﴾ أوثرت الكناية (**بعض أزواجه**) على التصريح (حفصة) لما فى الكناية من الستر اللائق بأمهات المؤمنين، ولأن منهج القرآن ينحو ـ دائماً - نحو ما يصور المعنى المراد دون التفصيلات المتسمة بالفضول.

* ﴿**فلما نبـأت به وأظهره الله عليـه عـرَّف بعضـه وأعـرض عن بعض**﴾ نبأت: خـبَّرت وبالغت فى ذكر تفاصيل السر الذى أسرَّ به إليها.

واستعيـر الإظهار للإعلام بجامع حصول المعرفـة فى كل منهما يعنى أن الله - عز وجل - أعلم رسوله الكريم بما حدث من إفشاء سره على لسان حفصة.

وفى ﴿**عرَّف بعضـه وأعرض عن بعض**﴾ كناية عن كرم خلقه ﷺ، ورفـقه بأمهات المؤمنين، ثم لم يفاجئ السـيدة حفصة بكل مـا أذاعته، بل ذكر لها بعـضه تكرماً منه ورأفة بها.

* ﴿**قالت من أنبأك هذا**﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها لوقوعها جواباً عن سؤال مقدر نشأ عمـا قبلها، هو ماذا قـالت لما نبأها بإفشائها سـره؟ فبين الجملتين شبـه كمال الإتصال.

* ﴿**قال نبأنى العليم الخبير**﴾ أما فصل هذه الجملة فله تفسيران:

**الأول:** إمـا لإنه جواب الـسؤال المذكـور: ﴿**من أنبـأك هذا**﴾ وهو الذى نميـل إليـه ونختاره.

**الثانى:** أن يكون لشبه كمال الاتصـال، بتنزيله منزلة جواب عن سؤال مقدر، وهذا مجرد احتـمال، وقال فى الجواب: (**نبأنى**) ولـم يقل: أنبأنى، قـصداً للمبالغـة فى ما أخبره به الله وهى - أعنى المبالغة - مستفادة من صيغة: **فعَّل بتضعيف عين الفعل.**

* ﴿**العليم الخبير**﴾ لم يقل: الله العليم الخبير، لما فى العليم الخبـير من سرعة ومبادرة من أول الأمر، بإعلان علم الله وخبرته المناسبين لموضوع السؤال والجواب.

* * *

# سورة الملك

١ - ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا، مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

**الدراسة والتحليل:**

هذه السورة لها ثمانية أسماء أشهرها (الملك) وهى مكية وترتيب نزولها السادسة والسبعون، نزلت بعد سورة (المؤمنون) وقبل سورة (الحاقة) وقد بدأت بالثناء على الله تعالى ولفت الأنظار إلى آثار قدرته.

وفى هذا الإطار جاءت الآية موضوع الدراسة تُعَجِّبُ من خلق الله السموات السبع، وإحكام خلقها من العيوب وفيها ورد هذا الاستفهام:

**﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾؟**

وهو استفهام نفى عند أهل العلم. أى ما ترى فى خلق الرحمن شقوقا أو صدوعا أو أى عيب من العيوب.

وسها الإمام الطاهر فحمل الاستفهام على التقرير، وهذا لا يصح إلا أن يكون مراده: التقرير بالنفى. فإن كان هذا مراده فصحيح، ولكن لا حاجة تدعو إليه.

**والخلاصة:** لم يول الأئمة أية عناية لبيان المراد من هذا الاستفهام -لظهوره- وهو -أصالة- استفهام نفى. ويردف على هذا المعنى (النفى) التعجيب من كمال خلق الله تعالى وسلامته من العيوب التى تصيب ما يعمل النَّاس. ومن البديه أن الملفوت إليه النظر -هنا- هى السماء الدنيا التى نراها. وبراءتها من العيوب دليل على براءة غيرها من السموات العلا.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿الذى خلق سبع سموات طباقا﴾** أوثر فى سورة الملك التعبير عن اسم الجلالة (الله)

بالموصول وصلته، من أول آية فـيها: (**تبارك الذى بيده الملك**) ثم فى الآية موضوع الدراسة، وذلك لأن صلات الموصول تدل على كمـال قدرة الله. فقد كانت الصلة فى الآية الأولى (**بيده الملك**) وكانت فى الآية مـوضوع الدراسة (**خلق سبع سموات طباقا**) فهاتان الصلتان تنبئان عن كمال قدرة الله وتنكير (**سموات**) للتعظيم والتفخيم بدلالة المقام.

* ﴿**ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت**﴾ استئناف مسوق لبيان وتوكيد سلامة خلق الله من الاختلاف وعدم التناسب. فهو كله فى الكمال والإتساق سواء و(**من**) فى قوله تعالى (**من تفاوت**) لتأكيد النفى.
* (**فارجع البـصر هل ترى من فطور**) إرجاع البصر كـناية عن تدقيق النظر والفحص. والاستفهام فى (**هل ترى من فطور**) للنفى.

وإيثار (هل) لتحقيق معنى السلامة من العيوب أما (من) فلاستغراق النفى.

أى لا ترى فيه أى شقوق ولا أى صدوع.

* * *

٢ - ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَـيْظِ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَـزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

**الدراسة والتحليل:**

هذه الآية واحدة من آيات تحكى مصير الذين كفروا بربهم، وهم يقذفون فى النار. وقبلها مباشرة كان قوله تعالى:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* إِذَا أُلْـقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾.

وبعدها كان قوله تعالى:

﴿قَـالُوا بَلَى قَدْ جَـاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَـا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ﴾.

فهذا المصير الذى تحكيه هذه الآيات هم الذين صنعوه بأيديهم، وقد اعترفوا هم بذلك، وذكروا أمهات جرائمهم، وهى تكذيب الرسل وإنكار الوحى وقد ورد فى الآية موضوع الدراسة هذا الاستفهام (**ألم يأتكم نذير**)؟ يعنى فى الحياة الدنيا.

والاستفهام تقريرى بلا خلاف؛ لأن همزة الاستفهام سلطت على النفى المستفاد من (لم) فعاد المعنى إلى الإثبات. وهو التقرير: أى: قد جاءكم نذير. ويردف على التقرير من المعانى الثانية: التنديم والتحسير. والتيئيس.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**تكاد تميز من الغيظ**﴾ كناية عن شدة هيجانها وفورانها واندفاعها نحو المجرمين. والتميز هو أن ينفصل الشىء الواحد أجزاء، ولما كان هذا الانفصال أو التفتت له أسباب عدة، بين النظم أن سببه الوحيد -هنا- هو الغيظ. وهذه الكناية يتولد عنها كناية أخرى هى تهويل شأن العذاب الذى أعده الله للذين كفروا.

* ﴿**كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير**﴾؟ بناء الفعل (ألقى) لما لم يسم فاعله لتوفير العناية بالحدث، وهو (الإلقاء) ولأن المعنى حاصل بالفعل نفسه لا يتوقف على تعيين الفاعل.

وإيثار كلمة (فوج) على كلمة: جماعة؛ لأنه المتعين التعبير به عن المعنى المراد، وهو أن تكون الجماعة متجانسة، وأن تكون متحركة والجماعات التى تلقى فى النار يتحقق فيها هذان الوصفان: التجانس فى الكفر، والحركة وهى الهُوِىُّ فى النار. هذه هى دلالة الفوج، أما الجماعة فلا يشترط فيها هذان الشرطان، لذلك آثر النظم الحكيم كلمة (فوج) على: جماعة.

والخزنة هم الحراس، شبهوا بالخزنة لما فى كلمة الخازن من شدة الحرص على المخزون. فهى استعارة تصريحية أصلية، والجامع بين طرفيها شدة الترقب.

* * *

٣ - ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

**الدراسة والتحليل:**

هذه الآية معناها منسوق على معنى الآية التى قبلها وهى قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

فالأمران اللذان فيها: (اسروا) و(اجهروا) مستعملان مجازاً فى التهديد، ومجموعهما كناية عن أن الله عز وجل لا يخفى عليه شىء، فالسر معلوم عنده كعلمه بالجهر.

ثم جاءت الآية موضوع الدراسة تؤكد هذا المعنى وتقرره بدليل قطعى. فهو الذى خلق الإنسان وغير الإنسان. وما يدور فى نفس الإنسان هو نوع من الخلق، فكيف لا يعلم الله شيئًا لولا خلق الله لذلك الشىء ما كان لذلك الشىء وجود؟

والاستفهام الذى فى الآية:

**﴿ألا يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير﴾**؟

استفهام تقرير: أى يعلم؛ لأن نفى النفى إثبات كما تقدم. ومن يقول إنه للإنكار انصرف معناه إلى إنكار عدم العلم.

ويردف على التقرير من المعانى الثانية الوعيد والتهديد لمن يخالف ما أمر الله به أو نهى عنه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿ألا يعلم من خلق﴾**؟ استئناف مؤكد لمعنى الكلام قبله. ووجه التوكيد إثبات الخلق له عز وجل ولذلك أوثر الموصول (من) وصلته (خلق) لما فى الصلة من دليل برهانى على إحاطة علم الله بكل كائن.

وقد حذف مفعول (**خلق**) لإفادة العموم، أى خلق كل شىء، ومنها الأقوال التى يسرونها أو يجهرون بها.

كما أوثر المضارع (**يعلم**) ليشمل علمه المحيط بكل كائن جميع الأوقات. كما حذف مفعول (يعلم) لاستغراق علمه جميع أفراد المعلوم، ما كان، وما هو كائن،

وما سيكون. لذلك نزل المتعدى منزلة ما لا معمول له، مع ملاحظة ذلك المعلوم.

* ﴿**وهو اللطيف الخبير**﴾ تذييل مؤكد لمعنى ما قبله والجمع بين الأسمين الجليلين: (**اللطيف الخبير**) من مراعاة النظير.

وترك عطف الثانى على الأول لأنهما بمنزلة الخبر الواحد لتقارب معنييهما.

وتقديم اللطيف على الخبير، ليقع الخبير فاصلة الآية لتحقيق التناسب بين الفواصل التى بنيت على حرف الراء فيما قبلها وما بعدها. ولما فى معنى (اللطيف) من الرحمة والإحسان.

* * *

٤ - ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ أن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا، فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾

[الملك: ١٦، ١٧].

**الدراسة والتحليل:**

تبدأ هاتان الآيتان موجة هادرة زاجرة من الوعيد والتهديد، بقصد إزاحة ستار الغفلة وظلمات الكفر والعناد عن المشركين، فقد طالما أُنْذِرُوا وَوَعِظُوا دون أن يثمر وعظ، أو يرقق قلوبهم للإيمان بيان، فجاءت هاتان الآيتان تسوقان لونين من ألوان العذاب إذا أراد الله إحلال أحدهما أو كليهما بهم فلا راد لما أراد:

الأولى تهددهم بخسف الأرض تحت أقدامهم فإذا هى مائرة غائرة.

والثانية تهددهم بتساقط كُتَل من الحصى والحجارة فوق رءوسهم وعلى أبدانهم، فإذا حدث هذا فسيعلمون عمليا ما أنذروا به قوليا، ولن يدفع عذاب الله عنهم دافع، لا من أنفسهم، ولا من غير أنفسهم.

وقد ورد فى الآيتين هذان الاستفهامان:

﴿**أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض..**﴾؟

﴿**أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا..**﴾؟

هذان الاستفهامان لم يقف أمامهما الأئمة طويلاً ولم ينصوا -صراحة- على المعنى المجازى المراد منهما. بيد أن الإمام الطاهر بن عاشور. أشار إلى أنهما للإنكار والتعجيب[1].

**والخلاصة:** أن هذين الاستفهامين للإنكار أصالة ويردف عليهما من المعانى الثانية التهديد والتخويف أما التعجيب الذى أشار إليه الإمام الطاهر، فلا أرى له وجها هنا، وللإمام الطاهر إسراف فى كثير من المواضع.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض..﴾؟**

هذا انتقال من خطاب عام لكل العباد، وهو قوله تعالى قبل هذه الآية مباشرة:

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

إلى خطاب خاص للكفرة والعصاة فى قوله عز وجل: (**أأمنتم..**).

لأن الآية الأولى فيها امتنان لا يختص به فريق دون فريق آخر. وإنما هو عام فى الانتفاع به لجميع الناس.

وإيثار الماضى (**أأمنتم**) لتشديد الإنكار، لأنهم نُزِّلوا منزلة من أعتقد جازمًا أن الله لن يعاقبهم على كفرهم وعنادهم ولم يقع منهم ذلك على سبيل الظن. فدُلَّ بالماضى على هذا الاعتقاد المغلوط.. والانخداع المذموم.

* **﴿من فى السماء﴾** ظاهر النظم أن المراد بالوصول (مَنْ) وصلته (**فى السماء**) هو الله عز وجل. ولكننا رأينا كثيراً من الأئمة يتحرجون من إبقاء هذا الظاهر على ظاهره، ويتأولون تأويلات عسير على العقل والقلب قبولها.

فالإمام الزمخشرى يرى أن هذه العبارة (**من فى السماء**) المراد بها الله عز وجل، وإنما عُبِّر عنه بها جريا على زعم المخاطبين. وغيره يرى أن المراد بها ليس الله عز

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٩/ ٤٣) وما بعدها.

وجل بل الملائكة. أو خَلْق آخر مكلفون بالقيام بهذه المهمات؟

والباعث لهم على هذه التأويلات تنزيه الله عن المكان والزمان. وهذا حق. ولكن ما أشرنا إليه من تأويلات لا يبعث على الراحة. فالأولى ترك هذه العبارة على ظاهرها مع تفويض العلم فيها لله واعتقاد نفى المماثلة عنه للحوادث.

* ﴿**أن يخسف بكم الأرض**﴾ المصدر المؤول هو المخوف به. وإيثار الجار والمجرور (**بكم**) إشارة إلى أن الله إن أراد بهم ذلك خسفوا هم كما تخسف الأرض، ودفنوا فى أجوافها.

* ﴿**فإذا هى تمور**﴾ الفاء تفريع على الخسف، والمور الحركة وشدة الاضطراب، وإيثار المضارع إشارة إلى أن المور - إذا أراده - لن يحدث مرة واحدة بل يتكرر حدوثه فمن نجا من مورة أهلك بمورة أخرى حتى يبادوا جميعًا.

أما (إذا) فهى الفجائية المؤذنة بمفاجأة الخسف بهم.

* ﴿**أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا**﴾؟

أم: منقطعة، بمعنى بل والهمزة، فبل للإضراب والانتقال من الإنكار عليهم أمنهم العذاب، وتهديدهم بخسف الأرض إلى إنكار أمنهم العذاب وتهديدهم بلون آخر منه، وهو إرسال الحاصب تحمله الريح العاصف.

والهمزة فيها للإنكار، والمعنى: بل أأمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فيهلككم كما أهلك من كان مثلكم فى الكفر والعناد من قبل.

وتنكير (**حاصبا**) للتهويل والتبشيع بدلالة المقام.

* (**فستعلمون كيف نذير**) الفاء للتفريع على إرسال الحاصب، والجملة مستعملة فى التهديد والوعيد و(كيف) للتعجيب من تهديد الله إذا وقع.

وفى (**نذير**) مجاز مرسل بإطلاق السبب، وهو الإنذار. وإرادة المسبب، وهو وقوع العذاب المنذر به على ألسنة الرسل عليهم السلام.

وأداة الاستفهام (**كيف**) مجردة عن معنى الاستفهام واقعة موقع المفعول لـ(ستعلمون) والمعنى:

إذا حل بكم ما أنذرتكم به على لسان رسولى فسيظهر لكم وتعرفون كيفية انتقامى منكم، جزاء وفاقا على عنادكم المستمر، وكفركم بى وبرسولى.

* * *

٥ - ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

**الدراسة والتحليل:**

بعد أن هدد الله مشركى العرب بلونين من العذاب يمكن أن يحل بهم أحدهما. عاد النظم فساق عبرة من عبر الماضى، وهو إهلاك الله المكذبين من قبلهم، لئلا يقع فى أوهامهم أن تلك التهديدات لمجرد التخويف فذكر لهم الله عز وجل أن ما هددناهم به أوقعناه من قبل بأمثالهم، وما هو منهم ببعيد.

وجاء فى ختام الآية موضوع الدراسة هذه العبارة (**فكيف كان نكير**) وهو استفهام صورى تقدمت أمثلة له من قبل، والمراد من هذه العبارة التعجيب والتهويل مما وقع من عذاب الله على الأمم الغابرة لما عتت عن أمر ربها. فذاقت وبال أمرها.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**ولقد كذب الذين من قبلهم**﴾ الموصول وصلته كناية عن جميع الأمم التى كفرت بالله وعصت رسله، وهو من إيجاز القصر الدال على معانٍ وأقوام كثيرين، دل عليهما بثلاث كلمات فحسب (**الذين من قبلهم**).

* (**فكيف كان نكير**) الفاء للتفريع، والنكير كناية عن انتقام الله منهم. والآية كلها خبر مستعمل فى التهديد.

* * *

٦ - ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

**الدراسة والتحليل:**

النفوس فى ظلال الخوف تكون أكثر ما تكون نشاطا ووعيا. وقد انتهز النظم القرآنى حالة التوقد الذهنى عند المخاطبين فى هذه الآيات الزاجرة الهادرة، وأتى بهذه الآية المختلف الغرض منها عما قبلها وعما بعدها ليلفت تلك الأذهان المتقدة، والمشاعر الملتهبة، ويقذف فيها هذه اللمحة السريعة الكاشفة عن طلاقة قدرة الله من كل القيود:

منظر فضائى يرون فيه جماعات من الطير تحلق فى جو السماء لها قدرة هائلة على سرعة (العدو) أو الارتفاع والهبوط والصعود والنزول، والإسراع والإبطاء والانحراف فى يسر يمينا وشمالاً، بل وتغيير الاتجاه إلى الخلف. إن حركاتها وسيرها فى الهواء غير محمولة على حوامل مادية أيسر من حركات المتحركين على الأرض، وآمن من سيرهم على الأرض.

من الذى وهب الطير هذه الخصائص البديعة؟ إنه الله عز وجل، الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء فهو -إذاً- إذا أراد أن يخسف الأرض خسف، وإذا أراد أن يرسل حاصبا أرسل. لأنه -كما يشاهدون حركة الطير فى جو السماء- على كل شىء قدير.

وقد صُدِّرت الآية بهذا الاستفهام:

**﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات..﴾**.

وهذا الاستفهام للتقرير، أى يرون هذه الرؤية ويردف عليه من المعانى الثانية التعجيب من كمال قدرة الله عز وجل.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم..﴾** الرؤية -هنا- رؤية بصرية، وإيثار المضارع (يروا) معها إشارة إلى تكرار هذه الظاهرة المذهلة.

وعدى فعل الـرؤية بحرف الجر (إلى) اطراداً لما كنا قد لحظناه من قـبل من أن فعل الرؤية يُعَدَّى بـ(إلى) إذا كان المسـتفهم عنه ذاتا - مثل الطير هنا - ويُعَـدَّى بنفسه إذا كان المستفهم عنه ليس ذاتاً.

* ﴿**صادفات ويقبضن**﴾ جىء بالوصف الأول اسمـاً (صافات) وبالثانى جملـة فعلية (ويقبضن) لأن رؤية الطير فى الجو صافـات أجنحتهن -أى ما دات لها فى حركة- هى الأصل فإذا أرادت الـهبوط أو النزول قـبضت أجنحـتهـا. فقدم النـظم ما هو الأصل ودل على استـمراره بالاسم، وعطف عليه ما هو الفـرع، ودل على حدوثه وتجدده بالجملة الفعلية.

* (**ما يمسكهن إلا الرحمن**) جملة قصرية. قصرت حـالة الطير وأمساكها على الله لأنه هو الذى وهبها هذه الخواص.

* (**إنه بكل شىء بصير**) تذييل مقرر لمعنى ما قبله. وأوثر (**بصير**) على: عليم لغرضين بلاغيين:

**الأول**: لمناسبة الرؤية البصرية المستفهم عنها.

**والثانى**: لتوافق فواصل الآيات فى بنائها على حرف الراء بعد حرف المد (الياء).

* * *

٧ - ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْـمنِ، إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِى غُرُورٍ* أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَل لَجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠، ٢١].

**الدراسة والتحليل:**

عذابُ الله إذا جـاء فلا مـرد ولا دافع له، وإن أمسك الله عـن الناس رحمـة فلا مرسـل لها من بعـده، هو وحده النافع الضـار.. هذا هو ما تعـرضه هاتان الآيـتان والخطاب مـوجه -أسـاسا- للذين كـفروا، وبخـاصة المشـركين منهم، الذين عـبدوا الأصنام وأعتقدوا أنها تنفع وتضر، وأنها تدفع السوء عن عابديها.

تصدت الآيتان لإقتلاع هذه العقائد الفاسدة من جذورها إن كان للفساد جذور.

فالآية الأولى تتسـاءل وتتحدى المشركين أن يعينوا وبالإشارة الحـسية من هو الذى

يكون جنداً حاميا لهم من دون الله. ثم تعقب بأن الكافرين مغمورون فى الغرور والآية الثانية تتساءل وتتحدى أن يعينوا رازقا لهم يرزقهم إن أمسك الله أسباب رزقه، ثم تعقب بأن الكافرين سادرون فى الظلم والنفور عن الحق.

وهذان الاستفهامان إنكاريان باتفاق ويردف على الإنكار فيهما التبكيت والتيئيس:

إنكار وتيئيس أن يكون لهم جند يدفعون عنهم عذاب الله أو يحققون لهم نصراً لم يرده الله، ولو كان ذلك النصر على عدو باغ مثلهم.

وإنكار وتيئيس أن يكون لهم رازق يرزقهم من السماء أو الأرض إن أمسك الله رزقه عنهم. وهذه خلاصة ما يقال فى هذين الاستفهامين.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أَمَّن هذا الذى هو جند لكم**﴾ أم منقطعة والهمزة فيها للإنكار، وبل للانتقال مما ذكر إلى إنكار جديد والمعنى: بل أمن هذا الذى هو جند لكم يحقق لكم نصرا على الله أو على غيره.

والجمع بين اسم الإشارة (هذا) والموصول (الذى) وضمير الفصل (هو) لتشديد الإنكار وتوكيد التحدى وتبكيت المخاطبين، وهم الكفار.

* ﴿**إن الكافرون إلا فى غرور**﴾ أسلوب قصر، قصر فيه حال المكذبين بالرسل على انغماسهم فى الغرور.

ودخول حرف الجر (من) على (غرور) مؤذن بأن الكلام استعارة بالكناية، وسرها إحاطة الكافرين بالغرور كما يحيط الظرف بالمظروف فيه.

وتنكير (غرور) للتهويل والتبشيع.

* ﴿**أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه**﴾؟

أم منقطعة، والهمزة فيها للإنكار، وبل للإضراب والانتقال من إنكار وتيئيس إلى إنكار وتيئيس جديدين والجمع بين اسم الإشارة والموصول وصلته لتشديد الإنكار وتوكيد التيئيس.

وفى (أمسك) استعارة لمنع. شبه فيها المنع بالإمساك، والجامع بين الطرفين هو شدة

الحرمان. وإيثار المضارع (يرزقكم) لتعلق المعنى المهدد به بالزمن الآتى.

* **(بل لجوا فى عتو ونفور)** بل للإضراب الانتقالى من تيئيسهم وتبكيتهم على ما ذكر إلى بيان حالهم الذى هم عليه من الكفر والضلال.

وفى الفعل الماضى (لجوا) التفاوت من الخطاب فى (يرزقكم) إلى الغيبة فى (لجوا) للإشعار بأنهم حرى أن يُعرض عنهم بعد ما عـدَّد من جرائمهم وانغماسهم فى الضلال.

ودخول حرف الجر (فى) على (عتو) مؤذن بأن الكلام استعارة مكنية، شبه فيها العتو وهو الظلم والطغيان بمكان مظلم موحش مهلك، وقد ألقى فيه الكافرون بأنفسهم لا يلوون على شىء وتنكير (عتو) للتهويل والتشنيع.

وفى عطف (نفور) على (عتو) مبالغة فى ذمهم والتشنيع عليهم. بأنهم نفروا عن دعوة الحق وما فيه سعادة لهم فى الدنيا والآخرة، فأعرضوا عن هذا الخير والفضل وغربوا فى وادى الكفر والضلال المبين.

وفصل الجملتين **(أمن هذا الذى هو جند لكم)** **(أمن هذا الذى يرزقكم)** وترك العاطف بينهما، لأن الجملة الثانية نزلت منزلة التوكيد لما قبلها. فبين هاتين الجملتين كمال الاتصال.

* * *

٨ - ﴿أَفَمن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

**الدراسة والتحليل:**

هذه الآية الحكيمة، عقدت تنظيراً بين الكافر والمؤمن وسلكت فى هذا التنظير مسلك التصوير الحسى الذى يمثل أمام الناظرين، فيتضح الفرق واضحاً بين الفريقين. فالمؤمن ترى صورته سوية على سنن الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها، والكافر تراه فى صورة منكسة مزرية، تشمئز منها النفوس، لأنها قلب للفطرة السوية.

وقد استعان النظم الحكيم على إظهار ذلك التنظير فى هذين الاستفهامين:

**﴿أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى﴾**؟

**﴿أمَّنْ يمشى سويا على صراط مستقيم﴾**؟

والاستفهام باتفاق أهل العلم للإنكار أو النفى والمعنى: ليس الذى يمشى مكبا على وجهه أهدى من الذى يمشى سويا على صراط مستقيم.

وهذه خلاصة ما قيل أو يقال فى هذا الاستفهام.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى﴾** الاستفهام كما تقدم للإنكار، إنكار أن يكون من يمشى وهو مكب على وجهه أهدى مسلكا ممن يمشى معتدلاً على طريق ممهد قويم وتقديم الذى يمشى وهو مكب على وجهه على الذى يمشى معتدلاً، لأن ما قبل هذه الآية كان حديثاً عن الذين كفروا، فناسب أن يتلوه المثل المضروب لهم لتجاور الصفة موصوفها.

هذا من حيث المعنى، أما من حيث اللفظ فإن تأخير **﴿أمَّنْ يمشى سويا على صراط مستقيم﴾** فيه توافق لفواصل الآيات. لأن فى (مستقيم) حرف المد وهو الياء، ثم الميم، وهذان الحرفان بنيت عليهما فواصل الآيات فى مواضع كثيرة.

وفى الآية تمثيلان:

الأول مضروب مثلا للذين كفروا. حيث شبه الكافر فى أعوجاج عقيدته وسلوكه وسقوطه المتكرر فيما يعتقد ويقول ويعمل بالسائر على طريق متوعر ملتو، يكثر تعثره فى السير عليه فيهوى، ثم يعتدل ثم يهوى. حتى كأنه لكثرة تعثره وسقوطه لا يرى إلا وهو مكب على وجهه منكس الهيئة، والثانى مضروب مثلا للمؤمن الموحد. فقد شبه فى صحة اعتقاده وسلامة سلوكة وبلوغ مقصوده بمن يسير على طريق معتدل ممهد لا اعوجاج فيه. ثم نفى النظم أن يكون الأول أهدى من الثانى. وهذا الفرق مما يدركه العقل ببديهة النظر.

وإيثار الفعل (يمشى) على (يسعى) نكته البلاغية مقصودة قصداً بالنظر إلى التمثيل

الأول، لأن من يمشى الهوينا ويتعـثر فى مشيه كـان أكثر تعثرا وانكبـابا لو كان يسعى سعيا، لأن السعى أسرع من مجرد المشى. أما مجيئوه فى الثانى، وهو التمثيل المسوق فى جانب المؤمن فـهو على ما سبق بيـانه من باب المشاكلة اللفظية، وليس مـقصوداً قصداً بلفظة ومعـناه لعدم الافتقار إليه فى الدلالة المرادة، وظاهر أن هذين التـشبيهين مركبان، شبهت فـيهما هيئة بهيئة، والإمام البيـضاوى يرى أن المثلين مضروبان للكافر وملته، ولـلمؤمن الموحد وملـته. بدليل قولـه تعالى فى جانب المـؤمن الموحد **(على صراط مستقيم)** ويكون ذكره هنا فى غنى عن ذكره فى الأول على سبـيل الاحتباك فى بعض طرفيـه. ونكتة حـذف ملة الكافر إشـارة إلى أنها لبطلانها لا يـصح أن تسمى صراطاً[1].

والغرض من التمثيل الأول التنفير، ومن الثانى الحث والترغيب.

* * *

٩ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَـمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

**الدراسة والتحليل:**

من المواقف التى كان المشركون يقفونها من الرسول ﷺ تمنيهم الموت له ليستريحوا منه كما حكى عنهم القرآن هذا من قبل:

﴿**أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون**﴾ أى صروف الدهر، ومنها الموت. فأمر الله رسولـه أن يقول لهم: هبـوا أن الله اماتنى وأمـات من معى من المؤمنين، أو رحـمنا فأطال أعمـارنا فمن الذى يمنعكم ويحميكم من عـذاب الله. يعنى أن الأمرين سواء. فموتنا لا يكف عنكم عذاب الله إذا أراده بكم، وحـياتنا لا تكف عنكم ذلك العذاب ولا تجعلكم مـرحومين برحمـة الله التى يتفضل بهـا على المؤمنين، وقد ورد فى الآية الكريمة استفهامان:

الأول: ﴿**أرأيتم**﴾؟

---

(١) تفسير البيضاوى: (٢/ ٥١٢).

والثانى: ﴿فمن يجير الكافرين﴾؟

والأول بمعنى: أخبرونى عند الجمهور. وعلى مختارنا هو لاستحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن - كما تقدم - وهذا الموضع - والذى سيأتى بعده - إذا فهم منه معنى أخبرونى، فهو - كما لاح لنا - يفهم من قوله تعالى من الاستفهام الثانى، وهو: **(فمن يجير الكافرين)** لا من **(أرأيتم)**.

أما الاستفهام الثانى **(فمن يجير الكافرين من عذاب اليم)** فهو للإنكار قطعا. ويردف عليه من المعانى الثانية: الإقناط والتبكيت. لأن عدم من يدفع عنهم العذاب فيه إقناط وتبكيت فعلاً لهم.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿قل: أرأيتم﴾** تصدير هذه الجملة بفعل الأمر (قل) للإشعار بأهمية الكلام المقول بعده، ووجوب الاهتمام به، وكونه رسالة خاصة ينبغى تبليغها فور تلقيها، ومواجهة من نزلت فى شأنهم بها، أى: استحضروا صورة موتنا أو حياتنا ثم تفكروا من الذى يدفع عنكم عذاب الله إذا أراده بكم، إن الأمر كله بيد الله لا بأيدينا بل نحن مثلكم خاضعون لسنة الله فى عباده إيجاداً ثم إعداما.
* **﴿إن أهلكنى الله ومن معى﴾** إيثار أداة الشرط (إن) لما فيها من جواز تخلف المشروط عن الشرط، لأن الكلام جار مجرى الفرض والاحتمال، لا مجرى القطع واليقين وفى **(ومن معى)** كناية عن المؤمنين، والتعبير بالمعية دون وصف الإيمان كناية أخرى عن اجتماع أهل الإيمان رسولاً وأمة.

و**(أو)** فى **(أورحمنا)** للتنويع، أى: أى الأمرين حدث. فالأمر سواء فى نفى دفع العذاب عنكم.

* **﴿فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾** الفاء للتفريع على ما تقدمها. وإيثار التعبير بـ(الكافرين) على سبيل الغيبة، على الخطاب كما لو قيل:
(فمن يجيركم) لما فى (الكافرين) من تعليل إحلال العذاب بهم.

وتنكير (**عذاب**) للتهويل والتبشيع بدلالة المقام وإيثار (أليم) على مؤلم لبنائه على صيغة الصفة باسم الفاعل. لما فى معناها من الدوام والاستمرار أى: عذاب فظيع شديد الإيلام مستمر.

❋ ❋ ❋

١٠ - ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠].

**الدراسة والتحليل:**

تذكر هذه الآية العباد، وبخاصة الذين كفروا، بنعمة عظيمة من نعم الله بها قوام الحياة، وهى الماء الذى أنزله الله من السماء لمنافع الأحياء، فسلكه ينابيع فى الأرض ينهل منه الناس ويعلون، وتشرب منه أنعامهم ودوابهم وينبت به الأرض ألوانا من النبات فيه متاع للناس ولأنعامهم.

هذه النعمة الجليلة، الله قادر -لولا رحمته- على إذهابها ولن يستطيع أحد ردها أو الإمساك بها.

لذلك نرى هذه الآية -موضوع الدراسة- تدعونا إلى أن نفكر:

هل إذا غار هذا الماء فى أعماق الأرض بعيداً بعيداً أو جفت منابعه، أو بخرته الرياح. فمن -بعد الله- عز وجل يمدنا بماء نستبقى به حياتنا، ونصرفه فى منافعنا التى كنا نصرفه فيها.

ليسأل الناس أنفسهم -مؤمنهم وكافرهم- أيستطيع أحد أن يعيد إلينا الماء الذى غوّره الله عز وجل؟ الإجابة -حتما- لا أحد غير الله الولى الحميد.

وفى الآية -كما ترى- استفهامان:

**﴿أرأيتم﴾؟ ﴿فمن يأتيكم بماء..﴾؟**

والاستفهام الأول قد كررنا ما قلناه فيه من قبل فى الآية السابقة على هذه، فلا داعى لإعادته هنا لقرب العهد به.

أما الاستفهام الثانى (**فمن يأتيكم بماء معين**) فهو كنظائره استـفهام إنكار ونفى، أى لا يملك أحد بعد الله أن يمد الخلق بماء عذب صاف تقوم عليه الحياة.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* كرر فعل الأمر (**قل**) قبل جملة الاستفهام الأول للأغراض البلاغية التى أشرنا إليها فى مبحث الآية المتقدمة.
* والخطاب فيها لصاحب الرسالة الخاتمة ﷺ.
* وإيثار أداة الشرط (إن) فى قـوله تعالى (**إن أصبح ماؤكم غوراً**) لأن الكلام مسوق مســاق الفرض والتقدير، وتذكـير الناس بفضل الله عليــهم ومجىء (**أصبح**) فعلاً للشرط، دون أمسى أو صــار مثلا، لشدة احتيــاج الناس إلى الماء عند كل صباح، يشربون ويزرعون ويسقــون ماشيتهم ويتطهرون ويستـعملون الماء فى أغراض شتى. ولو قيل: أمــسى لأوهم هذا الفعل أن الناس فى غنىً ما ولو نسبــيًا عن الماء. وفى هذا تهوين لشأن النعمة المراد التذكير بها.
* ووضع المصدر (**غوراً**) موضع اسم الفاعل: (غائراً). لتهويل غياب الماء عن الحياة. لما فى المصدر من المبالغة فى تصوير المعنى المراد.

* * *

# سورة القلم

١ - ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم: ٢٨].

**الدراسة والتحليل:**

سورة (القلم) هذه مكية باتفاق أهل العلم، وتسمى سورة (ن) كذلك؛ لأنها بدأت بحرف النون مع عطف (القلم) عليه، وهى من السور التى ورد القسم فى أول آية فيها، هكذا:

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ هذا هو القسم، أما المقسمُ عليه فهو قوله تعالى نافيا الجنون عن رسوله الكريم لما تكرر اتهامه به من المشركين:

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾

ولأهل العلم خلاف غير محسوم فى ترتيب نزولها وما نزل بعدها وما نزلت هى بعده.

والآية موضوع الدراسة تمثل حلقة من حلقات الحوار الذى دار بين أصحاب الجنة التى ضربها الله مثلاً لمشركى مكة حين عزموا على جنى ثمار جنتهم ليلاً لئلا يشاهدهم المساكين فيضطروا إلى التصدق عليهم من ثمارها. فبادر الله تعالى إلى إبادة أشجار جنتهم حتى ضلوا عنها، ولم يهتدوا إليها إلا وهى كومة من الرماد القاتم، عند ذلك ندموا على ما فعلوا، وأخذوا يتحاورون حول ما حدث منهم، وما حدث لجنتهم.

والآية موضوع الدراسة تحكى قول أعدلهم وأقومهم طريقة؛ لأنه كان قد حذرهم مما عقدوا النية عليه. وقد اشتملت الآية على هذا الاستفهام:

**﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾؟**

وهو - بلا نزاع - استفهام تقرير، ويردف على التقرير من المعانى الثانية التذكير

والعتاب أو التوبيخ؛ لأن أوسطهم وأعدلهم موقفًا، وأصوبهم رأيًا يذكرهم بما كان منه ويوبخهم على سوء مسلكهم الذى كان من ثماره أن عاقبهم الله بالحرمان مما مكروا من أجله. وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(قال أوسطهم)** فصلت هذه الجملة ولم تعطف على شىء قط مما قبلها لا بالواو ولا بغير الواو ومحال أن تكون مفصولة على شبه كمال الاتصال، لأنه يقتضى أن تكون -هى - جوابًا عن سؤال نشأ عما قبلها، ولا تصور لهذا السؤال هنا. والظاهر أن فصلها يرجع إلى أنها عنصر من عناصر جواب لما فى قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ. .﴾ فهى جزء من الجواب، أو هى بدل من **(قالوا)** فإن كانت بدلاً فالفصل لكمال الاتصال. وإن لم تكن بدلاً فالفصل باعتبار أن ما قالوه جميعهم، وما قاله أوسطهم شىء واحد.

* **﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾** الجملة مقول القول. وإيثار ذكر الجار والمجرور (لكم) لتشديد التذكير والتوبيخ وإيثار المضارع فى **(تسبحون)** إشارة إلى الحث على التسبيح فى كل الأوقات. وحذف مفعول الفعل، وهو الله عز وجل إشارة إلى فضيلة التسبيح فى نفسه، وأن المسبَّح لا يكون إلا الله سواء ذكر أو لم يذكر.

* * *

٢ - ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلمينَ كَالْمُجرمينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كتابٌ فِيه تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيمَانٌ عَلَيْنَا بَالغَةٌ إِلى يَوْمِ القيَامَة إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [القلم: ٣٥-٤١].

**الدراسة والتحليل:**

عاد القرآن الحكيم إلى مُحاجَّة مشركى العرب، بعد أن ذكر لهم قصة أصحاب الجنة الذين مكروا فمكر الله بهم، وكانت جريمة أصحاب الجنة المضروبين مثلاً لمشركى

العرب، جريمة عادية، هى مجرد معصية، أما جريمة المشركين فهى جريمة كفر وعناد، ومع يسر جريمة أصحــاب الجنة فإن الله عاقبهم بالحرمان مما حرصــوا عليه. فما بالكم بجريمة الكفر وهو أعظم الذنوب؟

وقد مهد النظم الحكيم لهذه المحاجة بهذا الاستفهام (**أفنجعل المسلمين كالمجرمين**).

ثم أخذت الاســتفهــامات تتتــابع بعده من الآية (٣٦) إلى الآية (٤١) مــا عدا آية واحدة هى رقم (٣٨) قد خلت من الاستفهام، وآثرنا ذكرها حسب ورودها بين آيات الاستــفهام لأن لــها صلة بالاستــفهام الذى قــبلها كــما سيــأتى فى مبــحث الأسرار والبلاغيات.

والاستفهامات التى فى الآيات بلغت سبعة استفهامات، وهى على ترتيب ورودها:

* (**أفنجعل المسلمين كـالمجرمين**)؟ * (**ما لكم كـيف تحكمون**)؟ * (**أم لكم كـتاب فـيه تدرسون**)؟ * (**أم لكم أيمـان علينــا..**)؟ * (**.. أيهم بذلـك زعـيم**)؟ * ( **أم لهـم شركاءُ..**)؟

وهى كلها اســتفهامات مـجازية. ونوجز المراد من كل استــفهام فيــها فى العرض الآتى:

**الأول**: (**أفنجعل..**) المراد منه الانكار والتهديد. **الثانى**: (**ما لكم..**) المراد منه الانكار والتوبيخ. **الثالث**: (**كـيف تحكمون**) الانكار والتعــجيب. **الرابع**: (**أم لكم كـتـاب فيـه تدرسون**)؟ النفى والتــحسـير. **الخــامس**: (**أم لـكم أيمان علـينا..**) الانكار والتــوبيخ. **السادس**: (**.. أيهم بـذلك زعيم**) النفى والتوبيخ. **السابع**: (**أم لهم شـركاء..**) المراد منه الإنكار كذلك، وسيــأتى توضيحه فى مبحث الأســرار. هذا ما يتعلق بالمراد من هذه الاستفهــامات. أما أداة الاستفهام (أم) وقــد ذكرت فى الآيات ثلاث مرات فهى (أم) المنقطعة: وبل فيها للإضراب والانتــقال من إنكار إلى إنكار. أما همزتها فهى للإنكار المنقول إليه بـ (بل)..

## أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**أفنجعل المسلمين كـالمجرمين**﴾: استــفهــام إنكارى.. إنكار أن يكون بين المسلمين

والمجرمين مساواة عند الله فى المحيا والممات، فالمسلمون مرضى عنهم فى الدنيا والمجرمون مسخوط عليهم.

والمسلمون فى عليين فى الآخرة، والمجرمون فى سجين وفى (**المجرمون**) كناية عن موصوف هم المشركون وسرها البيانى الحكم على الكفر والشرك بأنه إجرام وفى الآية إيجاز بالحذف والتقدير: فى حسن المصير وسوء المصير.

* ﴿**ما لكم كيف تحكمون**﴾ إنكار لحكمهم أنهم مساوون للمسلمين فى الفضل، وتعجيب من ذلك الحكم، وفى (**ما لكم**) التفات من الغيبة فى (المجرمين) إلى الخطاب فى (**لكم**) والإنكار فى (**ما لكم**) مسلط على سبب حكمهم، وقد توصل النظم بإنكار السبب إلى إنكار المسبب، وهو الحكم بالمساواة، وهذا من الكنايات اللطيفة التى أشرنا إليها كثيراً فى هذه الدراسة.

وإيثار المضارع (**تحكمون**) لإفادة غرضين بلاغيين:

**الأول**: تعاقب الإنكار لحكمهم فى كل الأوقات.

**والثانى**: توافق فواصل الآيات على حروف المد بعدها حرف النون، وبناء الفواصل على هذه الحروف سمة من سمات الإعجاز، وتيسير الله القرآن للذكر.

* ﴿**أم لكم كتاب فيه تدرسون**﴾ انتقال من إنكار حكمهم والتعجيب منه إلى إنكار أن يكون لهم كتاب ينطق بالحق درسوه وعلموا منه أنهم متساوون مع المسلمين فى الفضل عند الله.

وتنكير (**كتاب**) إشارة إلى الإنعدام، أى ليس لهم كتاب قط استندوا إليه فى إصدار أحكامهم الباطلة وإيثار المضارع (**تدرسون**) لما مرَّ فى (**تحكمون**) من معاودة الدراسة وتوافق فواصل الآيات.

* ﴿**أن لكم فيه لما تخيرون**﴾ أى: ليس لهم كتاب يجدون فيه ما يوافق أهواءهم وما يختارون من المنافع، واللام فى (لما) لتوكيد الاختيار، وهذه الآية داخلة فى حيز الإنكار؛ لأنها صفة لموصوف مُنْكر لا وجود له. وهذا مما يعنيه البلاغيون بقولهم:

(على لا حب لا يُهتدى لمناره)[1].

* ﴿**أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة**﴾: انتقال من إنكار أن يكون لهم كتاب يستندون إليه فى إصدار أحكامهم، إلى إنكار أن يكون لهم عند الله عهود ومواثيق يكونون بمقتضاها مساوين للمسلمين فى الفضل والتكريم، وأن تكون تلك العهود معمولاً بها إلى يوم القيامة، يوم يدخل المسلمون الجنة، فيدخل معهم المجرمون الجنة بدلاً من النار، وهذه الصفات مسلط عليها الإنكار الذى سلط على الموصوف، وهو: الأيمان.

أى: لا إيمان بالغة لهم على الله إلى يوم القيامة، بل هذه مزاعم من شأنها أن يقولها المشركون بإدعائهم أنهم مماثلون للمسلمين فى الفصل عند الله.

* ﴿**إن لكم لما تحكمون**﴾ صلة هذه الجملة بما قبلها أنها صفة جملة تابعة لـ(أيمان) أى أيمان تمنحكم الحق بأن تحكموا أنكم فى حسن المصير مساوون للمسلمين.

والتوكيد بـ(أن) واللام لتشديد الإنكار، أى ليس لكم أيمان عند الله تؤكد لكم حرية الحكم والاختيار بل أنتم فى أسفل سافلين.

* ﴿**سلهم: أيهم بذلك زعيم**﴾ الأمر فى (سلهم) للتهكم والتعجيز، وفيه تمهيد للانتقال من الحديث معهم بطريق المخاطبة إلى الحديث عنهم بطريق الغيبة: (أيهم - لهم - فلياتوا - إن كانوا) وسر هذه الالتفاتات من الخطاب إلى الغيبة - فيما يبدو - إشارة إلى وجوب الإعراض عنهم والإزدراء بهم، وتقديم (**بذلك**) على (**زعيم**)[2] لأنه محط الإنكار ومجئ (ذلك) وهو اسم إشارة موضوع للمشار إليه البعيد مؤذن ببعد أن يكون ما ادعوه حاصلاً لهم، أو أن ما ادعوه من المساواة بالمسلمين منزلة رفيعة لا يَرقى إليها من مصيره دركات النار الغائرة فى أعماق الأرض.

كما أن فى تأخير (**زعيم**) توافقاً لبناء الفواصِل على حروف المد، وهو من أبرز سمات النظم الحكيم.

---

(١) اللاحب الطريق، وقد كنوا بنفى الاهتداء لمناره عن نفى الطريق نفسه، أى لا لا حب ولا اهتداء.

(٢) الزعيم: الكفيل والضامن.

أما تنكير (**زعيم**) فللانعدام كما تقدم فى أمثاله فى بعض النكرات.

* ﴿**أم لهم شركاء..**﴾ انتقال وإنكار جديدان.

والمعنى أَلَهُم شركاء ضمنوا لهم ما يريدون فيتحقق لهم ما أرادوا من حسن المآل كالمسلمين، والشركاء بهذا المعنى هم الذين سلط عليهم الإنكار، فلا يقال كيف أنكر النظم شركاءهم وهو موجودون كاللات والعزى ومناة.

لأنا نقول: إن الإنكار فى الآية مسلط على هذا المعنى الذى شرحناه لا على الشكل المادى لأصنامهم وأوثانهم وجميع من عبدوه من دون الله، ولو كانوا من الملائكة فالمنكر هو الوصف بالضمان لا الموصوف من حيث مادته الجمادية.

* ﴿**فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين**﴾؟ الأمر للتهكم والتعجيز والتبكيت، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها، وإضافة (**شركاء**) إلى ضميرهم للتهكم بهم والسخرية منهم ولتسفيه عقولهم.

* * *

٣ - ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [القلم: ٤٦، ٤٧].

**الدراسة والتحليل:**

هاتان الآيتان متصلتان بالآيات ذوات الاستفهام المتقدمة، وكان النظم قد فصل بينهما وبين ما لهما صلة به من حيث الاستفهام الحجاجى بأربع آيات عرضت لمعانى فى سياق الحديث عن المجرمين.. ثم استأنف النظم حجاجهم مرة أخرى قاطعاً عنهم كل الأعذار التى تسوغ لهم كفرهم وإشراكهم وإعراضهم عن نداءات الحق.

فالآية الأولى تنفى أن الرسول يفرض عليهم أجوراً باهظة فى نظير أن يؤمنوا، فتثقل تلك الأجور والمغارم عليهم كالأحمال المضنية.

والآية الثانية تنفى أن يكون عندهم إطلاع على الغيوب المستأثر بها الله - عز وجل - فرأوا فى مطالعاتهم للغيب أن الله سيسوى بينهم وبين المسلمين فى التكريم والفضل إذا حشر الناس لرب العالمين.

وقد صوَّر النظم هذه المعانى فى الاستفهامين الآتيين:

**الأول:** ﴿أم تسألهم أجراً. .﴾؟ **الثانى:** ﴿أم عندهم الغيب﴾؟

وهما استفهامان مجازيان، والمراد منهما هو الآتى:

(أم) فى الاستفهام منقطعة، للإضراب والانتقال الإبطالى، وهمزتها للإنكار يعنى: أن محمداً ﷺ لم يفرض عليهم أجراً من أجل دعوتهم إلى الإيمان، ولا هم عندهم علم من الغيب أضاء لهم الخفايا واستندوا إليه فى زعمهم أنهم سيكونون عند الله مساوين للمسلمين فى الفضل والنعيم.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أم تسألهم أجراً**﴾ إيثار المضارع (تسألهم) الواقع فى حيز الإنكار، لدلالته - لو كان الأمر إثباتاً - على إلحاح النبى ﷺ بتقاضى ذلك الأجر منهم حيناً فحيناً، وأنه لم يطالبهم به مرة واحدة بل مرات متتابعات، فعبَّر النظم الحكيم بالمضارع ليكون الإنكار مسلطاً على السؤال فى كل الأوقات، والمعنى: أنت لا تسْألهم أى أجر مَّا.

* ﴿**فهم من مغرم مثقلون**﴾ الفاء لتفريع ما بعدها وهو ثقل المغرم عليهم، على ما قبلها وهو سؤال النبى الأجر.

و﴿**هم من مغرم مثقلون**﴾ من باب نفى الشئ بإيجابه لأنه فى اللفظ موجب ثابت، وفى المعنى منفى لا وجود له.

وطريق نفيه أنه مرتب على أمر منفى، وهو سؤال الأجر، وهو سبب المغرم الثقيل، ونفى السبب يقتضى نفى المسبب ضرورة، وهو كناية لطيفة من قبيل (على لا حب لا يهتدى لمناره).

* وفى (**مثقلون**) استعارة تصريحية تبعية شُبِّه فيها بهاظة المغرم، وهو أمر معنوى عقلى بوطأة الحمل الكبير الحجم والوزن، وهى أمر حسى مادى وتقديم الجار والمجرور (**من مغرم**) على (**مثقلون**) لأنه محط الإنكار، ولوقوع (**مثقلون**) موقع الفاصلة تحقيقاً لتوافقها مع الفواصل قبلها وبعدها، وتنكير (**مغرم**) للتهويل بدلالة المقام.

* ﴿**أم عندهم الغيب**﴾ للإضراب والانتقال الإبطالى مما تقدم، لإنكار جديد.

وتقديم الظرف (**عندهم**) لأنه محط الإنكار.

* ﴿**فهم يكتبون**﴾ الفاء فرَّعت ما بعدها، وهو (**يكتبون**) بمعنى: يحكمون حكماً مستنداً إلى أدلة صحيحة وإيثار المضارع لما تقدم من التجدد والتكرار، ولما فيه من توافق فواصل الآيات.

وهى (**هم يكتبون**) منفية فى المعنى وإن كانت مثبتة فى اللفظ، لأن (**عندهم الغيب**) سبب فى صحة حكمهم المعبر عنه بـ(**يكتبون**).

ولا علم عندهم من الغيب، وهذا يستلزم نفى أن يكون حكمهم صواباً، وفى هذا كناية لطيفة كما تقدم، وإعمال لقول البلاغيين:

(على لا حبٍ لا يهتدى لمناره).

* * *

# سورة الحاقة

١ - ﴿أَلْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [ الحاقة: ١ - ٣].

**الدراسة والتحليل:**

هذه السورة مكية بإجماع أهل العلم، نزلت بعد سورة تبارك وقبل سورة المعارج، وترتيب نزولها السابعة والسبعون نزلت فى السنة الخامسة من البعثة المباركة، ولم يرد فيها الاستفهام إلا فى الآيتين الثانية والثالثة إذ ورد فيهما استفهامان هما:

**﴿ما الحاقة﴾؟**

**﴿وما أدراك ما الحاقة﴾؟**

وقد أورد الإمام جار الله الزمخشرى كلاماً رائعاً فى بيان المراد من هذين الاستفهامين، قال - رحمه الله -:

الحاقة: الساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المجئ. **(ما الحاقة)**، والأصل: الحاقة ما هى؟ أى: أىُّ شئ هى تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ لأنه أهول لها، **﴿وما أدراك ما الحاقة﴾**؟ أى: أىُّ شئ أعلمك ما الحاقة، يعنى أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها، على أنه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه، وكيفما قدَّرت حالها فهى أعظم من ذلك(١)، ونحا الإمام الطاهر منحى الإمام الزمخشرى، وقد أطال نوعاً ما فى توجيه الاستفهام فى الآيتين(٢).

**والخلاصة:** أن الاستفهام فى الآيتين المراد منهما التعجيب والتهويل وغرابة الشأن، ويردف عليها من المعانى الثانية التهديد.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿الحاقة﴾** أجمع المفسرون على أن الحاقة مبتدأ، وما بعدها هو الخبر، وأن إعادة

---

(١) الكشاف (٤/١٤٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/١١٣) وما بعدها.

اسمها الظاهر هو الرابط بين جملة الخبر والمبتدأ، ولكن وقوع المفرد غير المخبر عنه آية مستقلة خلاف ما عليه النظم الحكيم، فضلاً عن القواعد النحوية واللغوية، فكان حرياً أن يقدروا قبلها مبتدأ تكون هى خبراً عنه، فعلينا أن نبحث عن سر بلاغى فى مجئ المفرد آية، وقد سبق هذا فى سورة الرحمن.

والسر البلاغى - فيما لاح لنا - تفخيم شأن هذا المفرد الذى وقع آية مستقلة، وكان الإمام الطاهر قد قال فى (الرحمن) حيث وقع آية وهو مفرد، قال: إنه من الكلمات التى يراد فهمها فى نفسها ولفت الأنظار إليها - يعنى أنها لفخامة شأنها - لا تحتاج إلى خبر.

وهذا كلام وجيه يحمد للإمام الطاهر، ونحن نستحسنه هنا، فالحاقة فى قوله تعالى (**الحاقة**) المراد منها تحريك الأذهان نحو معناها ولفت الأنظار إليها، وليس بلازم أن يكون ما بعدها خبراً لها، فهى - لفخامة شأنها - المبتدأ والخبر من حيث المعنى.

* (**ما الحاقة**) استفهام تهويل وتفظيع، وقد توصل النظم إلى هذا المعنى عن طريق الاستفهام، لأن الشئ غير المعهود يسأل عنه.

* ﴿**وما أدراك ما الحاقة**﴾ عطفت هذه الجملة على ما قبلها للتوسط بين الكمالين، والاستفهام إنكارى، إنكار أن يكون للمخاطب وسيلة يعرف بها حقيقة المستفهم عنه، فهو لا يعرفها بنفسه، ولا يعرفها بغيره، والتهويل والتفظيع تابعان للإنكار، والاستفهام الثانى للتشديد فى بيان الأوصاف والأهوال المتصلة بالحاقة، أما الحاقة نفسها فهى كناية عن يوم القيامة، ومهما اختلفت وجهات نظر العلماء حول: لم سميت الحاقة؟ فإن أجمع الأراء أن الله يحق فيها الحق ويبطل الباطل، وأنها هى نفسها عنوان من عنوانات الحق فى صدق الوعد بها وصحة وقوعها.

* * *

# سورة المعارج

١ - ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج: ٣٦-٣٨].

**الدراسة والتحليل:**

سورة المعارج مكية باتفاق، نزلت - على المشهور - بعد سورة الحاقة، وقبل سورة النبأ. وترتيب نزولها الثامنة والسبعون.

ولم يرد فيها الاستفهام إلا مرتين فى آيتين تفصل بينهما آية من تمام معنى الأولى. ولذلك أثرنا ذكر الآيات الثلاث وإن خلت الوسطى من الاستفهام. وهذه الآيات الثلاث تتحدث عن ظاهرة اجتماعية فاشية عند الذين كفروا. وهى أنهم يتسارعون إلى مجالس رسول الله ﷺ، ليسمعوا القرآن ويعقبوا عليه مستهزئين، وكانوا إذا سمعوا من القرآن وعودًا للمؤمنين بالجنة، يسخرون ويقولون: لئن دخل أصحاب محمد الجنة لندخلنها نحن، فنحن أولى بها منهم.

وظاهر الآيات يدل على أنهم لم يقولوا هذا استهزاء بل حقيقة، لكن قولهم هذا مبنى على جهل من جهة، وعلى غرور من جهة أخرى. لأنهم كانوا يرون أنفسهم أكرم من المؤمنين الأولين. وسيأتى بيان شاف لهذا فى مبحث الأسرار والبلاغيات.

وقد ورد فى الآيتين الأولى والثالثة هذان الاستفهامان:

الأول: ﴿**فمال الذين كفروا. .**﴾؟

الثانى: ﴿**أيطمع كل امرىء منهم. .**﴾؟

والاستفهامان كلاهما إنكاريان. الأول لإنكار السبب الذى من أجله يجتمع الذين كفروا حول النبى ﷺ.

والثانى لإنكار طمعهم فى دخول الجنة. ويردف عليه من المعانى الثانية: التيئيس والتجهيل، أما الأول فيردف عليه التوبيخ.

وهذه خلاصة ما يقال فى هذين الاستفهامين.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**فمال الذين كفروا قبلك مهطعين**﴾ الفاء فرعت الاستفهام الذى بعدها على ما ذكر من جزاء المؤمنين والمعنى، هذا شأن المؤمنين عند الله، فلأى سبب يجتمع الذين كفروا حولك. وليس لهم من رحمة الله نصيب لكفرهم وعنادهم.

وإيثار الموصول وصلته ﴿**الذين كفروا**﴾ لتوكيد الإنكار. وقد توصل النظم الحكيم إلى هذا الإنكار عن طريق الكناية اللطيفة التى لا تفارق هذا التركيب الاستفهامى (**فمال**) كما تقدم ذلك مرات فى هذه الدراسة. إذ اتخذ من إنكار السبب وسيلة لإنكار المسبب.

والإنكار مسلط على مجموع الأمرين: (**قبلك**) و(**مهطعين**) ولسنا مع الإمام الطاهر الذى جعل الإنكار مسلطا على أحدهما. دون الآخر[1].

إذ لا مانع بلاغة ولا ذوقا من تسليط الإنكار على الاثنين معًا، وإن كان أحدهما (**قبلك**) أدخل فى تصور الانكار. ولذلك قُدِّم فى النظم على ﴿**مهطعين**﴾.

* ﴿**عن اليمين وعن الشمال عزين**﴾ فى هذه الآية صور بلاغية باعتبارات مختلفة، ففيها كناية عن صفة هى الإحاطة، بمجلس رسول الله ﷺ وبين (**اليمين**) و(**الشمال**) طباق إيجاب اقتضاه المقام، فهو داخل فى أصل الدلالة، وليس حلية معنى أو حلية لفظ، لأن المعنى الكنائى متوقف عليهما.

وتقديم ﴿**اليمين**﴾ على ﴿**الشمال**﴾ لشرف المقدم على المؤخر.

وفى ﴿**عزين**﴾ إيجاز قصر، لأن معناه: جماعات جماعات، أو فرَقًا فِرَقًا.

* ﴿**أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم**﴾؟ الاستفهام إنكارى كما تقدم. إنكار طمع كل واحدٍ منهم أن يدخل جنة نعيم.

والعدول إلى ﴿**كل امرئ منهم**﴾ عن: أيطمعون. لأن ما عليه النظم يفيد أن هذا

---

(١) ٢٩/ ١٧٧.

الطمع كان يراود كل فرد منهم - لجهلهم وغرورهم - ولو قيل: أيطمعون. لفات هذا المعنى، لخلوه مما يفيد العموم يقينا.

* وبناء الفعل (يُدْخَلَ) هكذا من الفعل الرباعى المتعدى إلى مفعولين المبنى لما لم يسم فاعله فلم يُقَلْ (يَدْخُلَ) من الثلاثى المتعدى إلى مفعول واحد مبنيًّا للفاعل، للدلالة على ما فى الأول (يُدْخَل) من منازعة وصعوبة، وما فى الثانى من يسر ووفاق، يعنى أنهم لما ساءت سيرتهم وفسدت عقيدتهم ساورهم شك فى أن تكون لهم قدرة ذاتية على دخول الجنة. فعبَّر النظم الحكيم عن ذلك الشك الذى ساورهم ببناء الفعل لما لم يسم فاعله المتعدى إلى مفعولين حتى لكأنهم تصوروا دافعا يدفعهم عن دخول الجنة ويوصد أمامهم أبوابها.

ويلوح لنا أن تنكير (جنة) وتنكير (نعيم) فيه توكيد للمعنى الذى فهمناه من بناء الفعل على الهيئة المشار إليها.

فالنظم الحكيم لم يَقُلْ: جنة النعيم. ولو كان قد قيل هذا لكانت (جنة) مُعَرَّفَةٍ بإضافتها إلى المعرفة (النعيم).

ولكن النظم أثر التنكير فى المضاف والمضاف إليه ليطابق اللفظ معتقد الذين كفروا. لأنهم لم يكونوا يؤمنون بالحياة الأخرى. فهم كافرون بالنار كافرون بالجنة وطمعهم الذى حكاه القرآن عنهم لم يكن متعلقا بجنة الخلد التى وعد الله عباده المتقين، وإنما قصارى ظنهم أنه لو كانت الحياة الآخرة حقا، وفيها نار مؤلمة، وجنة مسعدة لكنا أحق بها - بالجنة - من أصحاب محمد.

فالتنكير فى (جنة) وفى (نعيم) كناية من أدق الكنايات اللطيفة لطفا عن كفرهم بالحياة الآخرة. وهذا من أعاجيب الإعجاز القرآنى العظيم. ولم نر أحدًا من ساداتنا المفسرين أشار إلى السر الدلالى فى هذا التنكير على الوجه الذى هدانا الله إليه.

وبين بناء الفعل (يُدْخَل) على ما لم يُسمَّ فاعله وبين التنكير فى (جنة) و(نعيم) من التناسب والتآلف ما لا يخفى على ذى فهم.

* * *

# سورة نوح

١ - ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُـونَ للهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَـكُمْ أَطْوارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٣-١٥].

**الدراسة والتحليل :**

سورة نوح مكية باتفاق أهل العلم، نزلت بعد نزول أربعين آية من سورة النحل، وقبل سورة الطور، أما ترتيب نـزولها فهو الثالثة والسبعون. فهى من أواسط ما نزل من القرآن مكيِّه ومدنيِّه.

ولم يرد فيها من الاستفهام إلا فى آيتين توسطتهما آية لا استفهام فيها.

والآيات الثلاث تحكى طرفًا من الأقوال التى خاطب بها نوح عليه السلام قومه. يوبخهم على استخفافهم بأمر الله، وعدم تقديره حق قدره، ويؤمىء إلى بعض نعم الله عليهم، وإلى بعض آثار قدرته فى الكون.

وقد ورد فى الآية الأولى والثالثة هذان الاستفهامان:

**﴿ما لكم لا ترجون لله وقارًا﴾؟ ﴿ألم تروا كيف خلق الله . .﴾ ؟**

والاستفهام الأول (**ما لكم. .**) استفهام إنكار أنكر عليهم استخفافهم بالله ورسالته إليهم وإعراضهم عن الخوف منه والرجاء فيه. ويردف عليه من المعانى الثوانى التقريع والتوبيخ والتجهيل.

أما الاستفهام الثانى **﴿ألم تروا﴾** فهو استفهام تقرير. يقررهم نوح عليه السلام بما يرونه من خلق الله سبع سموات طباقا. ويردف عليه من المعانى الثانية توكيد الإنكار فى الأول، والتذكير بجليل قدرة الله عز وجل، وبديع صنعه فى الكون.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿ما لكم لا ترجون لله وقارًا﴾** الاستفهام إنكارى كما تقدم، وقد توصل النظم إلى

هذا الإنكار بإنكار سببــه ونفيه. ونفى السبب يستلزم نــفى المسبب فى حكم العقل البديه.

وإيثار المضارع فى (**لا ترجون**) للتشنيع عليهم بتكرار هذا العـمل القبيح، الذى لم يختـص بـه وقت دون وقت. بل هويتكرر مـنهم فى كل الأوقـات وتنـكيـر (**وقارًا**) للانعدام؛ لأن نوحا عليه السلام يخاطب قومًا كافرين بالله عز وجل.

* وتقديم اسم الجلالة (الله) على (**وقارًا**) لأنه محط الإنكار والتقريع. ولما فى تأخير (**وقارًا**) من التناسب لفواصل الآيات؛ لأن مـا قبلها وما بعـدها بنيت فواصله على حرف الراء قبلها ألف المد.

* ﴿**وقد خلقكم أطوارًا**﴾ تذكير بجـلال قدرة الله فى أنفسهم. حيث خلقــهم متنقلين بين مراحل متباينة خارج الأرحام وداخل الأرحام.

ثم توكيد للإنكار؛ لأن هذا الخلق العجيب يقـتضى الإيمان بالله عز وجل وتوقيره وامتـثال أوامـره واجتناب نـواهيه، وقـومه غـفلوا عن هذه الدلائل الناطقة بالإيـمان والإذعان فكفروا بالله وبرسالاته.

* ﴿**ألم تروا..**﴾ الرؤية - هنا - مزيج من البصرية والعلمـية مع تغليب العلمية على البصرية. فالرؤية بصرية حسية بالنظر إلى السماء الدنيا.

وعلمية قلبية بالنظر إلى السموات الأخرى، التى طريق العلم والإيمان بها هو الخبر الصادق عن الله عز وجل. هذا إذا كان المراد هو معـاينة خلق الله السموات السبع من حيث ذواتها ونظامها.

أما إذا كان المراد هو خصوص العدد (سبع) مع طبقية الخلق فالرؤيا علمية خالصة، ويكون النظم قد نزَّل العلم القلبى باعتبار صـدق الخبر به من الله منزلة العلم البصرى والجامع بين الطرفين ثبوت التحقق اليقينى فيهما.

وهذا هو الظاهر بدليـل قوله تعـالى: ﴿**كيف خـلق الله سبع سـموات**﴾ معجبا نوح قومه من كيفية ذلك الخلق البديع.

* ﴿**كيف خلق الله سبع سموات طباقا**﴾ هذه الجملة هى معمول الرؤيا.

* و﴿**كيف**﴾ استفـهام صورى كمـا تقدم بسط القول فيـه - وذكر ضوابطه البـلاغية الفاصلة له عن غيره وتنكير (**سموات**) للتعظيم والتفخيم.

* و﴿**طباقا**﴾ حال مؤولة بمشتق، أى متطابقة بعضها فوق بعض.

ثم استطرد النـظم بعد ذلك ساردًا من آيات الله فى الكون مـا فيـه تشديد الإنكار وتقوية التقرير.

* * *

# سورة الجن

١ - ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

**الدراسة والتحليل:**

هذه السورة مكية باتفاق، وترتيب نزولها الأربعون، نزلت بعد سورة الأعراف، وقبل سورة «يس» وقد اشتركت هذه السورة مع سورة الأحقاف فى الحديث عن الجن الذين سخرهم الله لاستماع القرآن من تلاوة الرسول نفسه ﷺ.

وقد ورد فى هذه السورة الاستفهام مرتين فى آيتين إحداهما، وهى الأولى، من كلام الجن المحكى عنهم، والأخرى من كلام الله الذى لقَّنه رسوله الكريم ليواجه به المشركين، والاستفهامان صوريان كما سيأتى.

والآية موضوع الدراسة يظهر فيها الجن عدم درايتهم بالوضع الجديد للبشرية عقيب بعثة محمد ﷺ أهو خير أراده الله بأهل الأرض أم هو شر. وفيها يقولون **﴿لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا﴾** وهذا الاستفهام مما أسميناه الاستفهام الصورى الذى يشتمل الكلام فيه على أداة أو أداتى استفهام ومعناه معنى غير الاستفهام. لأن معناه فى بعض صوره ترديد حكم بين أمرين ترديدًا مستوى الطرفين دون الجزم أو ترجيح أحدهما على الآخر. والاستفهام الذى معنا من هذا القبيل. فالجن أعلنت ترديد أو تفسير الأوضاع التى حلت بالبشر بعد بعثة الرسول ﷺ بين أن تكون لشرٍ أراده الله بهم أو لخير ورشاد. ولم يجزموا بأحد الأمرين أو يرجحوا جانبا منهما على آخر.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿وأنا لا ندرى. .﴾** الواوعاطفة لما بعدها على ما قبلها من حكاية الله أقوال الجن بعد أن سمعوا القرآن يتلوه محمد ﷺ لأول مرة يسمعونه منه.

وإيثار المضارع (**لا ندرى**) ليشمل النفى وعدم الدراية كل الأوقات بعد سماعهم القرآن لأول مرة حين صدر منهم هذا الكلام.

وقالوا: (**لا ندرى**) ولم يقولوا: لا نعلم، لأن الدراية أول حصول العلم. ويكثر استعمالها فى سياق النفى كما فى هذه الآية.

* (**أشر أُريد بمن فى الأرض**)؟ مفعول (**لا ندرى**) معلق عن العمل أعنى الفعل «ندرى».

وتنكير (**شر**) للتهويل، وتنكير (**رشدًا**) للتفخيم.

وبناء الفعل الأول (**أريد**) لما لم يسم فاعله تأدبا من الجن - بعد سماعهم القرآن - مع **الله**. بدليل نسبة (رشدًا) إليه (**أم أراد بهم ربهم رشدًا**) فقد أسندوا الخير إلى الاسم الجليل (**ربهم**) وعدلوا عن إسناد الشر إليه وتقديم الشر على الرشد لما كانت تعرفه الجن من ضلالات الناس قبل البعثة المباركة - فيما لاح لنا - ولوقوع (**رشدًا**) فاصلة تحقيقا للتوافق الصوتى فى رءوس الآيات.

* ﴿**أم أراد بهم ربهم رشدًا**﴾ أم هذه هى المتصلة، لو كان الاستفهام اصطلاحيا.

أما ﴿**من فى الأرض**﴾ فهو كناية عن بنى آدم وقت بعثة محمد ﷺ.

* * *

٢ - ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا﴾ [الجن: ٢٥].

**الدراسة والتحليل:**

هذا كلام من **الله** لقنه رسوله الكريم ﷺ ليواجه به المشركين ومنكرى البعث. معلنا لهم أن الوعد بالبعث والنشور والحشر والحساب والثواب والعقاب آتٍ لاريب فيه.

أما متى يأتى فهذا علمه عند الله. أهو قريب أم بعيد لا أحد يعلم من ذلك شيئًا.

وهذا الاستفهام صورى كالذى سبق؛ لأن من جرى على لسانه هذا الكلام لا يسأل أحدًا عن تعيين أحد المتعادلين: القرب والبعد. وليس هذا هو المقصود بل المقصود هو إعلان عدم الدراية بذلك التعيين لذلك كان هذا الاستفهام صوريا لا اصطلاحيا وهذه خلاصة لما يقال فيه.

**أسرارُ النظم وبلاغياته :**

* (قل...) تصدير الجملة بفعل الأمر (قل) للإشعار بأهمية المقول وسرعة تبليغه والمواجهة به، باعتباره رسالة خاصة. وهذه المعانى لا تنفك عن هذا الفعل الذى خاطب به رسوله فى القرآن كله. .[1].

* ﴿**ما توعدون**﴾ الموصول (ما) وصلته (**توعدون**) كناية عن العذاب الذى أعده الله تعالى لمنكرى البعث المكذبين بالرسالة والرسول. وبناء الفعل (توعدون) لما لم يسم فاعله للعلم بذلك الفاعل، وهو الله عز وجل وفى هذا البناء فخامة وإرهاب يحس بهما الذوق. هذا من حيث اللفظ.

أما من حيث المعنى ففيه تخييل بعموم الفاعلين، حتى لكأن كل شىء فى الوجود يعد المشركين بالويل والثبور وعظائم الأمور. أى كل شىء صار فى حكم العدو لهم.

وبين (**قريب**) و(**أمدا**) طباق إيجابى فيه دقة وخفاء؛ لأن (أمدًا) بمعنى: بعيد: وهذا الطباق من مقتضيات المقام، إذ أن أصل الدلالة هو ترديد الحكم - هنا - بين القرب والبعد.

* و(أم) هى المتصلة لو كان الاستفهام اصطلاحيا وإيثار المضارع (**يجعل**) على الماضى: جعل يناسب معناه معنى الترديد بين قرب مجئ الموعود به وبعده لدلالة المضارع على الحال والاستقبال. ولو كان قد قيل (جعل له امدا) لكان ذلك جزما باعتقاد بُعْد وقوعه. وهذا يتنافى مع الترديد الذى هو العمدة فى دلالة هذا الكلام.

وفى الآية التفات من الغيبة فى (**رأوا ما يوعدون - فسيعلمون**) إلى الخطاب فى (**ما توعدون**) لقصد الترهيب والتخويف.

* وتقديم (**قريب**) على (**أمدًا**) لزيادة الترهيب الذى يناسبه القرب، هذا من حيث المعنى، أما من حيث اللفظ فلتناسب (**أمدًا**) لفواصل الآيات.

* * *

---

(١) ما عدا موضعا واحدًا هو قوله تعالى: ﴿**وقل لهما قولا كريمًا**﴾ [الإسراء:٢٣] فهو خطاب للأبناء فى معاملة الآباء.

# سورة المزمل

١ - ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

**الدراسة والتحليل :**

سورة المزمل فيها اتفاق وخلاف بين أهل العلم فالذى اتفقوا عليه أنها مكية. إلاَّ الآية الأخيرة (العشرون) ففيها خلاف ظاهر هل هى مكية أم مدنية؟

أما الذى كثر خلافهم فيه حول هذه السورة فأمران:

الأول: ترتيب نزولها بين الثانية والثالثة. والثانى: حول ما نزل قبلها وما نزل بعدها.

وجزم الإمام الزركشى بأنها السورة الثالثة فى ترتيب النزول، نزلت بعد (**ن. والقلم وما يسطرون**) وقبل سورة المدثر[1].

وهذا كما تقدم وقع فيه الخلاف الكثير بين العلماء مع تفاوت الأدلة فى القوة والضعف[2].

وليس فى هذه السورة إلا استفهام واحد، هو الذى تراه فى الآية موضوع الدراسة:

**﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوما. . .﴾؟**

وقد وردت هذه الآية فى سلك آيات منذرة زاجرة لها دَوِىٌّ كدوى الرعد القاصف. وفيها وعيد شديد للمشركين وتخويف لهم إن ظلوا عصاة أن يكون مصيرهم فى الدنيا والآخرة مصير فرعون وقومه الذى عصوا رسول الله إليهم فأخذهم أخذًا وبيلاً:

**﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهدًا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا﴾** [المزمل: ١٥، ١٦].

ثم جاءت آية الدراسة:

---

(١) البرهان فى علوم القرآن (١/ ١٩٣).

(٢) أنظر التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٣).

﴿فكيف تتقون إن كفرتم. . . ﴾؟

وفى هذا الاستفهام يقول الإمام الزمخشرى رحمه الله. «أى: فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهَوْلَه، إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا صالحا؟

ويجوز أن يكون ظرفا، أى: فكيف لكم بالتقوى فى يوم القيامة إن كفرتم فى الدنيا؟

ويجدر أن ينتصب بـ (كفرتم) على تأويل جحدتم، أى: فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء؛ لأن تقوى الله خوف عقابه.

و﴿يجعل الولدان شيبا﴾ مثل فى الشدة. يقال فى اليوم الشديد: يوم يشيب نواصى الأطفال، والأصل فيه أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب[1].

وأيا كان التقدير الإعرابى فإن معنى هذا الاستفهام - بلاغيا - هو الإنكار والتهديد الشديد.

ويرى الإمام الطاهر بن عاشور أن الاستفهام فى الآية للتعجيز. وهذا هو الإنكار؛ لأن معنى الإنكار فى هذا الاستفهام أن الله عز وجل ينكر عليهم أن تكون لهم طاقة على تحمل عذاب الآخرة. فمهما كان اللفظ فإن المعنى يؤول إلى الإنكار. فلم يأت الإمام الطاهر بجديد سوى المغايرة فى اللفظ. وهذه خلاصة ما يقال هنا[2].

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿فكيف تتقون﴾؟ الاستفهام إنكارى كما تقدم، والإنكار فيه مسلط على الوقوع.

وقَدْ توصل النظم الحكيم إلى الإنكار عن طريق الكناية التى وسمناها باللطافة من قبل، لأن الإنكار بـ (كيف) مسلط على الحال.. وكل موجود لا بد له من حال يكون عليه ضرورة ومحال أن يكون شىء ما موجوداً وليس له حال. فكما أنكرت (كيف) حال الاتقاء اقتضى ذلك الإنكار إنكار وجود الاتقاء نفسه، الذى هو صاحب الحال المنفية بـ«كيف» وهذا أبلغ مما لو قيل: لن تستطيعوا وقاية أنفسكم من عذاب يوم

---

(١) الكشاف (٤/١٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٥).

القـيامـة؛ لما هو معلوم - بلاغـة - أن الكناية أبلغ من التـصريح لأن دليل الدعـوى مقرون بها فى الأساليب الكنائية.

* ﴿**إن كفرتم**﴾ المخاطبون كافرون حقيـقة حين خوطبوا هذا الخطاب، فكيف خاطبهم النظم خطاب المؤمن الذى يتوقع منه الكفر؟

خرَّج الأئمة هذا الكلام على أن المراد دوام الكفر لا اسـتحداثه، والمعنى: إن دمتم على كفـركم حتى الموت.. وهذا تخريج وجـيه. لكنهم لم يبينوا السـر البلاغى فى العدول عـن: إن دمتم على كفـركم إلى (**إن كفرتم**) وحينمـا وقفنا أمام هذا التعـبير باحثـين عن نكتته أو سره البـلاغى لاح لنا فيه مـعنى رأيناه من وجهة نظرنا وجيـها وصالحًا لتفسير المراد من هذا العدول. وها نحن نذكره كما لاح لنا عسى أن يكون له قبول عند أهل العلم.

معلوم أن سورة المزمل كانت من أوائل ما نزل من سور القرآن الكريم، حتى عُدَّت الثالثة نزولاً كما تقدم فى مبحث الدراسة والتحليل.

ومعنى هذا أن الله تعالى خاطب بهذه الآية قوما كانوا كافرين ساعة المخاطبة، والله يعلم أن منهم عددًا كبيرًا سيؤمن فى يوم مـا ويعمل صالحا قبل أن يموت، وأن عددًا منهم علم الله بقاءه على كـفره حتى النفس الأخير من حـياته. لذلك - والله أعلم - كان التعبير:

(**إن كفرتم**) منزِّلاً لهم منزلة من هو مؤمن يُحَذَّر من الكفر مراعاة لحال من علم الله أنه سيؤمن كما حدث يوم فـتح مكة المكرمة حيث دخلت قريش فى دين الله أفواجًا، ولم يتخلف منهم إلا القليل أما معنى: إن دمتم على كفركم، وهو الذى قاله المفسرون فهذا مراعاة لحال من علم الله مـوته على الكفر منهم كأبى لهب وامرأته، وأبى جهل وصرعى غـزوة بدر الكبرى. وهكذا صلح الخطاب فى الآية أن يكون لكلا الفـريقين مع اختـلاف حاليهـما، فتأمل - مـعى - أيها القارئ إلى صنعـة البيان المعـجز كيف تكون. واهتف معى قائلا ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى**﴾ [الزمر: ٢٣].

* ﴿**يوما يجعل الولدان شيبا**﴾: تنكير (يوما) للتهويل والتفظيع. وهو كناية عن موصوف، هو يوم القيامة.

وإسناد الإشابة إليه مجاز عقلى علاقته الزمانية لأن الذى يشيب الولدان هو الأهوال الواقعة فى ذلك اليوم ثم فى إسناد الإشابة إلى الأهوال مجاز عقلى كذلك لأن فاعل الإشابة الحقيقى هو الله تعالى.

وعلاقة هذا المجاز هى السببية؛ لأن الأهوال سبب فى الإشابة وليست فاعلاً لها.

وكان الإمام الطاهر بن عاشور هو الذى لفت أنظارنا إلى ازدواج المجاز فى هذا الموضع، طيب الله ثراه.

* * *

# سورة المدثر

١ - ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ ﴾ [المدثر: ٢٧].

**الدراسة والتحليل:**

سورة المدثر هذه مكية، والخلاف حول ترتيب نزولها طويل وكذلك ما نزل قبلها وما نزل بعدها. ومن أهل العلم من ذهب إلى أنها أول القرآن نزولاً، والمشهور أن أول السور نزولاً هى سورة العلق، والقدر المشترك بين أوجه الخلاف أن سورة المدثر من أوائل ما نزل. فلنكتف بهذا، مفوضين العلم لله فى ما دار بينهم من خلاف.

وأول استفهام ورد فى هذه السورة هو قوله تعالى:

**﴿وما أدراك ما سقر﴾** وهى الآية موضوع الدراسة.

وهذا التركيب الاستفهامى مرَّ بنا قريبا فى صدر سورة (الحاقة) والذى سبق الحديث عنه فى موضعه. وهذا التركيب كيفما وقع يتكون من استفهامين لا استفهام واحد.

الأول -هنا- قوله تعالى **﴿وما أدراك﴾**؟

وأما الثانى -هنا كذلك، فهو قوله تعالى: **﴿ما سقر﴾**؟

والمراد من الاستفهام الأول هو النفى أو الإنكار أما المراد من الاستفهام الثانى فهو التعظيم والتفخيم والتعجيب ومجموع الاستفهامين مستعمل فى تهويل المستفهم عنه والدعوة إلى التعجيب من شأنه، وهذه خلاصة ما يقال فيهما.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

تتضح القيمة البلاغية لهذين الاستفهامين من معرفة المقام الذى وردا فيه. وهو الرد على الذى كفر بالقرآن ووصفه بأنه قول البشر، أو هو سحر يؤثر ينقله اللاحق عن السابق من الأجيال. وقد حكى القرآن تفصيلات ذلك الموقف فقال:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ

وَبَسَـرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَـرَ * فَـقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِـحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَـوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨- ٢٥]، هذا ما كان من الرجل الذى كفر بالقرآن. ثم كان الرد عليه هو قوله تعالى:

﴿سَأُصْلِيـهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَـقَرُ * لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِـلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦- ٣٠]، لقد عنف الله القـول فى الرد على هذا الكافر العنيـد، وهو رمز لطائفـة من الناس، لا فرد واحـد. والمقام كله قـائم مقام تـهويل العقاب لهول الجريمة. فناسب هذا تهويل الـنار التى أعدها الله لهؤلاء الكفرة الفجرة، فبعد أن أخبـر الله بأنه سيدخل هذا الكافر - وأمثاله - سقر، أنشـأ يهوِّل من شأنها، ويقول للمخاطب: وأى شيء أعلمك ما هى سقر؟ إنها أعظم من أن يخبر بها مخبر، أو يصفها واصف. لأنهـا لا يعلم حقيقتهـا أحد غير الله. وأن لغة البشـر لتعجز عن وصفها كما هى فى الواقع فـالاستفهام الأول نفى وإنكار أن يكون عند المخاطب علم محيط بحقيقتها وشأنها الـغريب العجيب. والثانى تعجيب خالص من حالها التى هى عليها.

ثم أتبع هذا التسـاؤل ذكر بعض أوصافهـا من إفناء ما يلقى فيـها، وتغييـر طبائع الأشياء، ومن إحراق الجلود وقطع الأطراف، والحـراس الغلاظ الشداد الذين يقومون بحراستها وسجن من فيها سجنا مؤبدا.

* * *

٢ - ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَـلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـابَ، وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَـاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ، وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

**الدراسة والتحليل:**

هذه الآية الحكيمة تعقـيب من الله على موقف بدا من بعض المشركين لما أنزل الله تعالى قوله فى وصف أحوال النار:

﴿**عليها تسعة عشر**﴾ فجعل بعض المشركين يسخرون من قلة هذه العدة، وكيف أن حراس النار يقتصر عددهم على تسعـة عشر حارسا؟ ولهم -أى للمشركين- حكايات وعبارات ساخرة ذكرها المفسرون، منها أن واحداً منهم قال:

أنا أكفيكم سبعة عشر حارسا، وأنتم عليكم اثنان؟!

يعنى أنهم - المشركين - سيغلبون خزنة جـهنم ويخرجون منها إذا دخلوها. فماذا بقى من تهديد محمد ﷺ لهم؟ لا يبقى شىء فى نظرهم؟!

فبـينت الآية أن أصحاب النار وحـراسها مـلائكة وليسـوا رجالاً من البشـر حتى يصرعهم المشركون، وهم مؤيدون بعـون من الله وينفذون ما يأمرهم به، ولن يغلبهم غالب وأن الله جـعل عدتهم تسعة عـشر لأغراض حكيـمة فهى للذين كفـروا فتنة، ولأهل الكتاب أمارة يقين وللمـؤمنين زيادة إيمان، وحصن من الريب. لأنهم يعلمون أنها حق وصدق. أما المـنافقون والذين كفروا فلجهلهم بحكمـة الله الحكيم يتساءلون لماذا ساق الله هذا مثلاً. فليعلموا أن الله يضل من يشاء، ويهدى من يشاء. وأن جعله خزنة النار تسعة عشـر ليس لقلة ما عنده من جنـود الحـق، فجنـود الله لا يعلمهم - لكثرتهم - إلا الله وحده، وأن هذه ذكرى للناس، والذكرى تنفع المؤمنين.

هذا هو المعنى العام للآية الحكيمة. أما الاستفهام الذى ورد فيها وهو:

﴿**ماذا أراد الله بهذا مثلا**﴾؟ فيقول فيه الإمام جار الله الزمخشرى:

«.. والمعنى: أى شىء أراد الله بهـذا العدد العجـيب؟ وأى غرض قـصده فى أن جعل الملائكة تسعة عشـر لا عشرين سواء. ومرادهم إنكاره من أصله، وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص»[1].

واختـصر الإمام النسـفى كلام الإمام جـار الله الزمخشـرى ولم يضف جديداً إلى معناه[2].

وكذلك صنع الإمام البيضـاوى، وأضاف أن تسمية العدد مثلا منشـئوه استغرابهم إياه وأنه ليس مثلا فى الواقع[3].

كما نهج الإمـام أبو حيان منهج الإمام الزمـخشرى، ولم يزد على ما قاله شـيئًا، فلله دره من إمام[4].

**والخلاصة**: أن هذا الاستفهام للاستـغراب والإنكار وهو إنكار وقوع ذكر هذا العدد منسوبا إلى الله وقـد فطن إلى هذا الإمام الزمخـشرى الذى ترجم عما قـصدوه وهو إنكار أن يكون القـرآن وحـيـا من عند الله؛ لأنه لو كـان من عند الله لخـلا من هذا العيب، وهو ذكر العدد ناقصا حسبما توهموه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

هذه الآية حافلة بالدقائق والأسرار البلاغية ولكنا نكتفى منها بالآتى:

* ﴿**وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة**﴾ فى هذه الآية كناية وقصر:

فالكناية فى (**أصحاب النار**) وهى كناية عن العدد المذكـور فى قوله تعالى: ﴿**عليها تسعة عشر**﴾ [المدثر: ٣٠].

وأما القصـر فهو قصـر موصوف (**أصحاب النار**) على صـفة (**ملائكة**) وهو قصر قلب؛ لأن المشركين حسـبوهم رجالاً مثلهم يقـدرون هم على مصارعتـهم والانتصار عليهم فقلب الله هذا الحسبان، وبين ملائكية أصـحاب النار والجملة خبر مستعمل فى التهديد والوعيد.

---

(١) الكشاف: (٤/ ١٨٥).
(٢) تفسير النسفى: (٤/ ٣١١).
(٣) تفسير البيضاوى: (٢/ ٥٤٤).
(٤) البحر المحيط: (٨/ ٣٧٧).

* ﴿**وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا**﴾ فيها كذلك كناية وقصر.

فالكناية فى (**عدتهم**) لأنها كناية عن خصوص العدد: تسعة عشر. سواء كانوا أفرادا أو أصنافا أو صفوفاً.

وأما القصر، فهو قصر موصوف، وهى العدة المخصوصة، على صفة، وهى الفتنة، بمعنى الاختبار.

و(**للذين كفروا**) اللام للاختصاص؛ لأن الذين كفروا هم الذين سخروا من هذا العدد، ولم يدركوا -لجهلهم وعنادهم- مغزى الحكمة الإلهية فيه ﴿**ليستيقن الذين أوتوا الكتاب**﴾، أى جعلنا العدة لأغراض حكيمة أولها:

* افتتان الذين كفروا. وثانيها: * حصول اليقين للذين أوتوا الكتاب.

وفى (**الذين أوتوا الكتاب**) كناية عن موصوف، هم اليهود والنصارى. ومنشأ الإيقان عندهم أن هذا العدد المذكور فى القرآن مذكور فى التوراة والإنجيل -قبل التحريف- فوروده فى القرآن يحدث عندهم اليقين بأن القرآن وحى من عند الله، لمطابقة معناه معانى كتبهم.

* ﴿**ويزداد الذين آمنوا إيمانا**﴾ وهذا غرض ثالث لجعل العدة تسعة عشر. والذين آمنوا كناية عن المسلمين.

وقد سلك النظم الحكيم فى ترتيب هذه الأغراض مسلكا تصاعديا، بدأ بأدناها، ثم انتهى إلى أعلاها، وهو زيادة إيمان المؤمنين، الذين يؤمنون بصواب حكمة الله وإن غاب عنهم مغزاها.

* ﴿**ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون**﴾ توكيد للإيقان عند أهل الكتاب، وتقوية لزيادة الإيمان عند المؤمنين، وهو توكيد معنى لا توكيد لفظ وأخر نفى الأرتياب على الإيقان والإيمان لأنهما سبب فيه، ورتبة السبب مقدمة على رتبة المسبب.

* ﴿**وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون**﴾ غرض خامس من جعل العدة تسعة عشر، بعد الرابع الذى هو نفى الأرتياب. والذين فى قلوبهم مرض كناية إما عن

المنافقين، ويكون هذا من قبيل الإخبار بالغيوب، لأن السورة مكية، والنفاق لم يوجد إلا فى المدينة بعد الهجرة.

وإما عن فريق من أهل مكة كانوا مذبذبين بسبب الريب والشك بين الإيمان والبقاء على الكفر. فإن كان الأول فالمرض استعارة لفساد القلوب بالكفر المضمر فيها.

وإن كان الثانى فالمرض استعارة للشك والريب والجامع بين الطرفين هو ما يترتب على كل منهما من الضرر فى البدن والدين.

والاستعارة - على كلٍ - تصريحية أصلية لجريانها فى المصادر وتنكير (مرض) للتبشيع بدلالة المقام.

* وتقديم **(الذين فى قلوبهم مرض)** على **(الكافرون)** لخطورة المقدم والتواء ولائِه، ومخالفة ظاهره باطنه.

* **(ماذا أراد الله بهذا مثلا)**؟ الاستفهام للإنكار والاستغراب. وأداة الاستفهام (ماذا) للمبالغة فى الإنكار والاستغراب، لذلك أوثرت على (ما) وحدها وذلك بدلالة المقام والاستقراء. فإن مواضع مجىء **(ماذا)** فى النظم الحكيم يدل على إرادة هذه المبالغة.

وفى إسنادهم الفعل (أراد) إلى اسم الجلالة **(الله)** تهكم واستهزاء؛ لأنهم ينكرون أن يكون القرآن كله - وليس هذا المثل وحده - وحيا من عند **الله**، فهذا الاسناد -إذاً- من المجاز العقلى الذى أُسند فيه الفعل إلى غير فاعله، حسب اعتقادهم. وهم يقصدون بـ**(هذا مثلا)** جَعْلَ عدة أصحاب النار تسعة عشر.

وسموه **(مثلا)** وما هو بمثل على سبيل الاستعارة فقد استعاروا - كما قال الأئمة - كلمة (مثل) للعدد تسعة عشر، بجامع الغرابة فى كل منهما. شبهوا العدد (الغريب عندهم) بالمثل فى غرابته واشتهاره. والاستعارة فيه تصريحية أصلية وقصدهم منها التندُّر والاستخفاف.

* **﴿كذلك يضل الله من يشاء، ويهدى من يشاء﴾** الجملة أحرى أن تكون استئنافا مسوقا لإبطال مزاعمهم وسخريتهم.

وهى جملة تشبيهية المشبه به اسم الإشارة (ذلك) والمشبه إضلال من شاء الله إضلاله، وهداية من يشاء الله هدايته، والمعنى:

مثل ذلك الاضلال الذى حكيناه عن الذين كفروا، يضل الله من كان مثلهم فى الجهل والعناد، ومثل تلك الهداية التى هدى الله بها المؤمنين يهدى الله من أقبل على الحق وأذعن له. ووجه الشبه هو قوة الظهور والتمكن وتقديم الاضلال على الهداية للإيماء بأن قول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون هو الاضلال المبين.

وفى العبارة إيجاز بالحذف، حيث حذف مفعول المشيئة فى الموضعين للعلم به، والتقدير:

يضل الله من يشاء إضلاله، ويهدى الله من يشاء هدايته وهو حذف مطرد مع فعل المشيئة إلا إذا كان المفعول غريبا وليس فى الكلام ما يدل عليه فيجب ذكره، كقول الشاعر:

ولو شئت أن أبكى دَمًا لبكيته

عليه، ولكن ساحة الصبر أوسع

* ﴿**وما يعلم جنود ربك إلا هو**﴾ استئناف مبطل لاحتجاجهم على خصوص العدد (تسعة عشر) ولدفع توهم أن جنود الله قلة.

وفيه كناية عن كثرة جنود الله وعظمتهم وقوة بطشهم، وإيثار المضارع (**يعلم**) ليشمل النفى كل الأوقات وإضافة (رب) إلى ضمير المخاطب للتشريف وفيه قصر صفة العلم على موصوف، هو الضمير (هو) العائد على (**ربك**).

* ﴿**وما هى إلا ذكرى للبشر**﴾ أسلوب قصر: قصر موصوف (هى) أى سقر، أو الآيات، على صفة وهى (**ذكرى**) والاستثناء مفرغ من جميع الأوصاف أى ما هى موصوفة بوصف إلا وصف (ذكرى) وهو قصر تنزيلى.

والسلام فى (للبشر) للاختصاص، والذكرى العظة والعبرة الهادية إلى الحق.

* * *

٣ - ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾؟ [المدثر: ٤٢].

**الدراسة والتحليل:**

هذه الآية الكريمة تحكى قولاً عن أصحاب اليمين وهم يرفلون فى حلل النعيم، ولم يُنسهم ما هم فيه من رضوان الله أن يتذكروا ما كانوا يرون فى الحياة الدنيا، فيثب إلى أذهانهم من عرفوهم بالكفر والعصيان فهم - طبعاً - لا يرونهم فى الجنة، فيتساءلون عنهم فيطلعهم الله عليهم وهم يموجون فى عذاب الجحيم، فيسألونهم عن الذى أوردهم هذا المورد، وفى ذلك وردت الآيات:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إلاَّ أَصْحَابَ الْيَمين * فِى جَنَّات يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّين حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٣٨ : ٤٧].

والآية موضوع الدراسة: هى أسلوب الاستفهام **﴿ما سلككم فى سقر﴾** وللإمام الزمخشرى - وغيره - كلام فى هذا الاستفهام نتفق معه فى بعضه، ونختلف معه فى بعض آخر، أما الذى نتفق معه فيه فهو حمله الاستفهام على التوبيخ والتحسير، وهذا كلام طيب(١).

وأما الذى نختلف معه فيه فسنذكره فى مبحث الأسرار والبلاغيات، ونكتفى هنا بهذه الإشارة.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿ما سلككم فى سقر﴾**؟ هذا السؤال موجه فى ظاهر النظم إلى المجرمين، والسائل هم أصحاب اليمين، هذا ما يدل عليه النظم.

ولكن الإمام الزمخشرى أهمل ظاهر النظم مع قوة الدلالة، وذهب إلى أن أصحاب اليمين لما سألوا عن المجرمين، أو تساءلوا عنهم، قال لهم آخرون إننا سألناهم مثل سؤالكم فقالوا لنا: **﴿لم نك من المصلين﴾** إلخ الآيات.

---

(١) الكشاف (٤/ ١٨٧).

والذى حمل الإمام الزمخشرى على هذا ادعاؤه أن النظم غير مطابق للجواب؛ لأن القرآن حكى أن أصحاب اليمين يتساءلون عن المجرمين، أى يسأل بعضهم بعضاً أو يسألون غيرهم، فكيف يصح أن يكون جواب المجرمين لأصحاب اليمين؟

وقد تابع الإمام النسفى الإمام الزمخشرى على هذا كما ذكره بعض الأئمة ولم يرتضه[1].

**وخلاصة** ما حمل الإمام الزمخشرى على هذا التأويل أمران:

**الأول:** أن أصحاب اليمين فى الجنة والمجرمين فى النار.

**الثانى:** كيف يصح نقل الحديث من الغيبة إلى الخطاب.

ونقول: لا مانع أبداً أن يكون خطاب أصحاب اليمين موجهاً إلى أصحاب النار فى **﴿ما سلككم فى سقر﴾** ولا مانع قط أن يكون خطاب المجرمين **﴿قالوا لم نك من المصلين﴾** وما عطف عليه موجهاً إلى أصحاب اليمين مباشرة بلا واسطة.

أما أن أصحاب اليمين فى الجنة والمجرمين فى النار فقد ورد فى سورة الأعراف الحوار الطويل المباشر بين أصحاب الجنة وأصحاب النار. الآيات [٤٤ : ٥٠].

وأما كيف انتقل الكلام من سؤال عنهم إلى سؤال موجَّه إليهم، فهذا جار - كما يعلم الإمام الزمخشرى - على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ولذلك نجزم بأن هذا السؤال والجواب عليه جرى مباشرة بين أصحاب اليمين وبين المجرمين غاية ما فى الأمر أن فى الكلام حذفاً كنا قد قدرناه فى مبحث الدراسة، حاصله: **فأطلع الله** أصحاب اليمين على المجرمين وهم فى النار فقالوا لهم ما سلككم فى سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين.

فهذا أولى ألف مرة مما ذهب إليه الإمام الزمخشرى مما بدا عليه التكلف أوضح ما يكون الوضوح.

والحمد لله، فقد وجدنا الإمام أبا حيان قد سبقنا إلى ما قلناه، قال رحمه الله بعد أن أشار إلى كلام الإمام الزمخشري بقوله:

---

(١) انظر تفسير النسفى (٤/ ٣١٢)، والبحر المحيط (٨/ ٣٨٠)، وتفسير البيضاوى (٢/ ٥٤٥).

(هكذا قدره بعضهم. . . وفيه تعسف)[1].

ثم قال معقباً عليه:

(والأقرب أن يكون التقدير: يتساءلون عن المجرمين قائلين لهم بعد التساؤل: ما سلككم فى سقر)[2].

* ﴿**ما سلككم**..﴾ سؤال عن السبب، وهو حرى أن يكون من الفن البديعى المسمى بـ(تجاهل العارف) لأن أصحاب اليمين يعرفون الأسباب التى سلكت المجرمين فى سقر، وإنما سألوهم ليقرروهم بذنوبهم التى اقترفوها فى الحياة الدنيا، توبيخاً لهم عليها وتحسيراً وتبكيتاً لهم.

وهذا أولى من حمل الاستفهام على حقيقته، ثم التماس العذر لأصحاب اليمين كيف يسألون المجرمين عن أسباب دخولهم النار وهم يعرفونها؟ الذاهب إلى هذا الرأى التمس لهم عذراً بأنهم نسوا ما كان من المجرمين من كفر وعناد فى الحياة الدنيا.

وهذا لا يصح، لأن القرآن حكى عنهم أنهم يتساءلون عن المجرمين، فأين النسيان إذاً.

* و(**سلككم**) استعارة للمزج وشدة التقارب والاحتباس فى جهنم كما تحتبس حبة العقد فى الخيط بعد سلكها فيه.

كما أن فى هذه الاستعارة إشارة إلى قماءتهم وتضاؤلهم والاستخفاف بهم، حيث تفيد تشبيههم بالحبات فى خفتها وضآلة حجمها.

وحرف الجر (فى) للإيذان بغيابهم فى دركات الجحيم حتى لا يرى منهم أثر ظاهر، نعوذ بالله من سوء المصير، ومن عذاب السعير.

* * *

---

(١، ٢) البحر المحيط (٨/ ٣٨٠).

٤ - ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر: ٤٩].

**الدراسة والتحليل:**

عود للحديث عن مشركى العرب، فبعد ذلك المشهد المأساوى الذى عرضه النظم عن أحوال المجرمين وهم فى دركات النار يعود النظم فينكر عليهم إعراضهم عن دعوة الحق، واتباعهم نعيق الشيطان.

وقد صور هذا المعنى فى صورة هذا الاستفهام:

**﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾؟**

وهو استفهام إنكار، إنكار الواقع الذى هم عليه ويردف على هذا الإنكار التجهيل والتسفيه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿فما لهم..﴾** الفاء للتفريع على ما قبلها من بيان حال المجرمين وندمهم على ما كان منهم فى حياتهم الدنيا.

وقد توصل النظم إلى إنكار إعراضهم بإنكار السبب الحامل على الإنكار، أى لا سبب لهم يصح فيجعل إعراضهم عن الحق صواباً.

وإنكار السبب ونفيه يقتضى إنكار المسبب ونفيه، وهو من الكنايات الموسومة باللطافة والدقة.

* **﴿عن التذكرة..﴾** التذكرة كناية عن الدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وسميت الدعوة تذكرة إشارة إلى أن الحق المدعو إليه من الظهور بمكان، يكفى فى الدعوة إليه مجرد التذكير، كما يُذَكَّر الناسى بشئ هو به عالم.

* * *

# سورة القيامة

١ - ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣].

**الدراسة والتحليل:**

سورة القيامة مكية، بالإجماع، وهى من السور المبكر نزولها، لأن ترتيب نزولها الحادية والثلاثون، نزلت بعد سورة القارعة وقبل سورة الهُمَزَة.

وهى من السور المبدوءة بالقسم، والمقسم به فيها متعدد (اثنان) وليس شيئاً واحداً.

وطرقت من الموضوعات ما كان القرآن المكى يطرقه، وهى قصيرة الآيات، سريعة الإيقاع.

وأول استفهام ورد فيها هو ما ذكر فى الآية موضوع الدراسة التى تمس قضية إنكار البعث مساً سريعاً، ولكن بأسلوب جديد، كما سيأتى فى مبحث الأسرار والبلاغيات.

وهذا الاستفهام مجازى لصدوره عن الله، والمعنى المراد منه هو إنكار ذلك الحسبان، أى حسبان الإنسان (الكافر) أن الله لا يقدر على جمع عظام الموتى، يعنى: لا إحياء بعد الموت وقد أغفل الأئمة بيان المراد من هذا الاستفهام، وهو لا يخرج عما قلناه، أى: استفهام إنكار، وهو لإنكار الواقع من التكذيب بالبعث، وهذه خلاصة لما يقال فيه، ويردف عليه من المعانى الثانية: التهديد والتجهيل.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿أيحسب الإنسان﴾**؟ إيثار المضارع (يحسب) ليعم الإنكار كل الأوقات، متى وكيف وقع ذلك الحسبان وإيثار الحسبان على الظن، حيث لم يقل: أيظن الإنسان لخصوصية معنى دقيق فى الحسبان باين بها الظن، لأن الحسبان ظن، ولكنه يزيد على مجرد الظن الاعتداد بالمعنى الذى وقع عليه الحسبان، أى: تعليق رجاء وأمل عليه لجلب نفع، أو دفع ضر، أو بعبارة أجمع أن الحسبان يُدْخل الشئ الذى وقع

عليه الظن فى حساب الظان الحاسب، ويجرى على مقتضاه سلوكه فى الحياة إيجاباً وسلباً.

أما الظن فقد يكون مجرد خاطرة لا صلة لها بحسابات الإنسان العملية.

وعلى هذا يكون النظم هنا مواجهاً لسلوك عملى نشأ عن اعتقاد باطل.

و(**الإنسان**) وإن كان تعريفه - هنا - تعريف الجنس الذى يصدق على جميع الأفراد فهو من العام المراد به الخاص، أى الإنسان الكافر، وإطلاق العام مع إرادة الخاص طريقه عند البلاغيين هو المجاز المرسل، والعلاقة المختارة لنا فيه هى الإطلاق والتقييد يعنى أطلق العام من دلالته على العموم وأعيد تقييده بالدلالة على الخصوص.

* ﴿**أن لن نجمع عظامه**﴾ كناية عن إحياء الموتى يوم البعث ولم يُعبَّر عنه فى القرآن بهذه الكناية (جمع العظام) إلا فى هذه السورة، وهو الأسلوب الجديد الذى ألمحنا إليه فى مبحث الدراسة والتحليل.

ويجوز أن يكون هذا من ابتكار القرآن فى الدلالة على الإحياء بعد الإماتة.

كما يجوز أن تكون حكاية لكافر احتج بها على إنكار البعث بين يدى الرسول ﷺ، كما ذكر كثير من المفسرين كالزمخشرى وأبى حيان والطاهر بن عاشور وتكون (لن) لتوكيد الإنكار عند قائلى هذا من الكافرين.

* * *

٢ - ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ [ القيامة: ٦].

**الدراسة والتحليل:**

الحديث موصول - هنا - عن الإنسان الكافر، الذى أنكر أن يكون الله قادراً على جمع عظام الموتى، فهذا الكافر لم يقف عند إنكاره البعث، بل لج فى الخصومة، فراح يسأل متى يكون يوم القيامة، الذى يجمع الله فيه عظام الموتى، ويعيد لهم الحياة بعد أن أفناهم الموت؟ وقد حكى عنه القرآن الحكيم هذا الاستفهام:

﴿**أيان يوم القيامة**﴾؟

والأئمة مجمعون على أن هذا السؤال، أو هذا الاستفهام سؤال سخرية وتهكم وتعنت، بدأ هذا القول الإمام جار الله، ثم تابعه اللاحقون.

والاستفهام مستعمل - أصلاً - فى الإنكار، وما ذكروه من السخرية والاستهزاء والتعنت معان ثانية مردوفة على الإنكار.

### أسرار النظم وبلاغياته:

* **(يسأل)** إيثار المضارع، فضلاً عن استحضار الصورة مراد منه دلالته الوضعية، وهى تتابع السؤال وتكراره وقتاً وقتاً، يعنى أنه كثير الحجج والاستخفاف بحقائق الإيمان.

* وإيثار **(أيان)** على (متى) مبالغة فى الإنكار ولجج الخصومة، وكأنه قصد من جَرْس هذه اللفظة ودويِّها وامتدادها الزمنى إبعاد وقوع يوم القيامة؟

* * *

٣ - ﴿ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾؟ [القيامة: ١٠].

### الدراسة والتحليل:

تقدم هذه الآية ثلاث آيات عقَّب الله بها على تكذيب الكافر بالبعث، وهى الآيات الآتية:

**﴿فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجُمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾** [٧ - ٩].

وجاءت الآية موضوع الدراسة رابعة لهن، والآيات الثلاث السابقة عليها هى فى مجموعها كناية عن مجئ يوم القيامة، الذى كان يكذب به الكافرون.

وهى - آية الدراسة - تحيل بإضافة (يوم) إلى (إذ) تحيل إلى ذلك اليوم.

يعنى أن فى ذلك اليوم الذى كان يكذب به الإنسان الكافر، يقول هذا الإنسان وقد شاهد القيامة بعينيه: **(أين المفر)**؟ يطلب لنفسه مفراً ومهرباً ومنجىً من العذاب والأهوال التى لو كان بعد البعث موت لمات هلعاً وجزعاً منها، وقد صاحب الإنسان الكافر جهله الذى كان عليه فى الدنيا، فبعث معه جهله، وقد أملى عليه ذلك الجهل أنه يمكن أن يهرب ويفر من قضاء الله العادل، فيسأل: أين المفر؟

وهذا الاستفهام حقيقى سواء كان قوله: أين المفر تمنياً منه أن يجد لنفسه مفراً، أم كان بحثاً فعلاً عن مفر ينجو إذا سلكه من عذاب الله، ويبعد أن يكون الاستفهام

مجازياً محضاً، بدليل ما ذُكر بعده من أداة الردع:

﴿**كلاَّ لاَ وزر * إلى ربك يومئذ المستقر**﴾ [١١ - ١٢]، أى لا ملجأ لك ولا مهرب، وإنما استسلام لأمر الله - عز وجل.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**يقول الإنسان يومئذ**﴾ المضارع (يقـول) جواب (إذا) فى ظاهر النظم، ومن دلالاته تكرار قول الكافر فى ذلك اليوم: أين المفر؟

وإظهار الفاعل (**الإنسان**) مكان ضمـيره (**يقول**) فيـه زيادة تسجيل عليـه بالجهل، ودفع توهم أن يكون القـائل غير ذلك الإنسـان الكافر، الذى أنكر البـعث من قبل، وسخر من الإيمان بيوم القيامة.

وفى (**يومئذ**) إيجاز حذف، حُذِفَ فيه ثلاث جمل، أو ثلاث آيات:

* ﴿**فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر**﴾.

وهذا من عبقـرية اللغة العربية، وقـدرتها على تأدية المعانى الكثيـرة بكلمة واحدة قوامها حرفان (إذ) المضاف إليها (يوم)، وهذا ما يطلق عليه العلامة ابن جنى وصف: شجاعة العربية، التى من أبرزها الحذف مع الوفاء بحق المعنى.

* ﴿**أين المفر**﴾؟ حقيـقته: أين المهرب، فعبَّـر عن المهرب بالمفر على سبيل الاسـتعارة التصريحية التبعية، وسرهـا البلاغى تمنى الحصول على وسيلة تقيه العذاب، وسيلة سريعة كطيران الطائر، أو فرار الفار فى الهواء، ولكن هيهات هيهات.

وفى الآية مـوضوع الدراسـة، والآيات الثـلاث التى قـبلها مـا يضـارع الأسلوب الحكيم، حـيث سأل الكافـر عن تحديد وقت يوم القـيامة، فَـعَدَلَ النظم عـن صريح الجواب إلى بيـان علامـات يوم القيامـة، والأهوال التى تقع فيـه، وفى ذلك عظات بالغات، وعبر ناطقات، تزيد المهتدين هدى، وتقيم الحجة لله على المكذبين.

* * *

٤ - ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾(١) [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

**الدراسة والتحليل:**

على قِصر سورة القيامة نجد فيها حجاجاً حكيماً، وإفحاماً قوياً لأهل الباطل، وبراهين ساطعة، وأدلة قاطعة على نصرة الحق ودحر الباطل.

وهذا ما تبدأه الآية الأولى ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك**﴾ تريد أن تقول إن أعمال العقلاء لا تخلو من حكمة، فكيف بما يصدر عن الله - عز وجل - من خلق وتكوين، وبخاصة خلق الإنسان، هل يجوز أن يخلق الله هذا الخلق بلا هدف ولا غاية، إن من يظن هذا الظن ضال كل الضلال.

ثم تأتى الآية الثانية وتقرر الإنسان بمبادئ خلق الله إياه والمراحل التى مر بها ذلك الخلق، والتنويع الرائع بين الذكور والإناث، وحاجة كل منهما للآخر، مما يحسه الناس فى حياتهم، ثم تأتى الآية الأخيرة وتستثمر ما تقدم من آثار قدرة الله فى واقعية الإيمان بقدرة الله على إحياء الموتى، لأن الإعادة - فى واقع الناس - أيسر من البدء.

وفى هذا العرض الشيق الهادئ يجند القرآن كل العقول لمناصرة عقيدة البعث، ليؤمن بها من أراد لنفسه سعادتى الدنيا والآخرة، ولتقوم الحجة لله على من كذب وأعرض، هذا مجمل المعنى الذى تضافرت على أدائه الآيات الخمس الحكيمات.

أما معانى الاستفهامات الثلاثة، فهى كما فى الجدول الآتى، نذكرها بلا تعليق لسبق الحديث عن نظائرها من قبل مرات ومرات:

(١) يلاحظ أن الآيات (٣٨ - ٣٩) لا استفهام فيها، ومع هذا اثبتناها ضمن آيات الدراسة، لارتباط معانى الاستفهامات الثلاثة بها، فلزم التنويه.

| م | الاستفهام | نوعه | معناه |
|---|---|---|---|
| ١ | أيحسب الإنسان أن يترك سُدى. | مجازى | إنكار الحسبان ونفيه. |
| ٢ | ألم يك نطفة من منى يمنى. | مجازى | تقرير الحالة المستفهم عنها. |
| ٣ | أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى | مجازى | تقرير أن الله قادر على إحياء الموتى. |

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أيحسب الإنسان**﴾ التعريف فى الإنسان تعريف الجنس الذى يقتضى شمول جميع الأفراد، وهو من العام الذى أريد به الخاص، لأن المراد منه - هنا - الكافر فهو مجاز مرسل كما تقدم.

وسر إيثار العام - هنا - الإشارة إلى أن أكثر الناس لا يؤمنون بالحياة الآخرة.

أما إيثار المضارع (**يحسب**) وإيثار (**يحسب**) نفسه على يظن فلِمَا بيناه فى الآية الاستفهامية الأولى من هذه السورة نشير إليه - هنا - خشية التكرار.

* ﴿**أن يترك سدى**﴾ أى لا غاية له ولا هدف ولا حكمة من خلقه، وبناء الفعل (**يترك**) لما لم يسم فاعله هو المناسب - بلاغة - لاعتقاد هذا الفريق من الناس كأن الفعل - نفسه - ليس له فاعل، وهذا أدخل فى معنى الإهمال والعبث والفوضى.

* ﴿**ألم يك نطفة من منى يمنى**﴾ استئناف تعليلى لعدم ترك الإنسان سدى، وتذكير بمبدأ خلقه الثانى بعد مبدأ الترابية، وتنكير (**نطفة**) للتحقير، كما سماها القرآن فى موضع آتٍ (**ماء مهين**) و(من) فى (**من منى يمنى**) بيانية أو لابتداء الغاية.

وفى (**يمنى**) وهو صفة لـ(**منى**) بمعنى يقذف أو يراق، إشارة إلى مهانته، وبين (**منى - يمنى**) جناس من تمام دلالة مقتضى الحال، والمقام - هنا - مقام تحقير (**المنى**) الذى

هو مبـدأ خلق الإنسان الثـانى، وتذكيـر بحكمة الله وجلال صنعـه، الذى بدأ خلق الإنسان من هذا (**الماء المهين**).

* ﴿**ثم كان علقة فخلق فسوى**﴾ العطف بـ(ثم) إشارة إلى المرحلة الزمنيـة الفاصلة بين (المنى) وبين صيرورته علقـة، وهى كما جاء فى السنة أربعون يوماً، والـضمير فى (كان) عائد على (المنى) و(كان) بمعنى: صار وإيثار (كان) على: صار سرعة تحويل المنى فى آخـر مدته إلى (**علقة**) فى يسر دون إبـطاء، وفى هذا إشارة إلى طواعـية الكائنات أمام الله.

* وعطف (**فخلق فسوى**) بالفاء إيذان بـسرعة خلق الله وتكوينه لـلأجنة فى الأرحام استجابة لأمره التكوينى واطراداً لسنته فى الإيجاد.

* وعطف (فسوى) على (**خلق**) بالفاء دليل على أن التـسوية تكون مصاحـبة للخلق والتكوين، أى خلقه سوياً مُعَدَّلاً فى فور واحد.

وحذف مفعولى (**خلق - سوى**) لإفادة عموم صور الخلق والتسوية، هذا من حيث اللفظ، أما من حـيث المعنى فلِمَا فى (**سوى**) من توافق إيقاعـى فى فواصل الآيات، وهى السمة الغالبة فى نظم القرآن الحكيم.

* ﴿**فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى**﴾:

* العطف بالفاء - هنا - سمة من سمات الإعجاز العلمى فى القرآن العظيم.

لأن الطب الحـديث اكتـشف أن كـون المقذوف فى الرحـم ذكراً أو أنثى يبـدأ من اللحظة الأولى للقـاء الزوجين، فإن سبق الحـيوان المنوى بويضة الأنثى كـان المقذوف ذكراً، وإن سبقت بويضة الأنثى كان المقذوف فى الرحم أنثى.

وقد أشـار النظم إلى هذه الحقـيقـة العلميـة بعطف جعل التنويع - ذكـوراً وإناثاً بالفاء، التى تفيد الفورية والترتيب.

والضمير فى (**منه**) للمنى، أى فجعل من المنى الزوجين الذكر والأنثى، وسمى كلا منهما (الذكر - الأنثى زوجا) إما بمعنى: نوع أو صنف، وإما بمعنى احتياج كل منهما للآخر ليكمل أحدهما نقص أو حاجة الآخر.

وبين الذكر والأنثى طبـاق إيجاب عليه قامت دلالة المقام أصـلاً، وليس هى حلية لفظ ولا حلية معنى.

* **﴿أليس ذلك بقادر علـى أن يحيى الموتى﴾** ما تقدم كان مقـدمات صادقة، وهذه الآية جاءت نتيجة مسلمة عند العقل، وفى الواقع، وبدلالة النقل.

وهكذا طابقت خاتمة السورة بدايتها مقرة للحق ناصعاً وداحضة للباطل مزهوقاً.

**(قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً)**.

* * *

# سورة الإنسان

١ - ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾

[الإنسان: ١].

**الدراسة والتحليل:**

سورة الإنسان، أو سورة (هل أتى) دار حولها خلاف كبير بين أهل العلم؛ هل هى مكية أو مدنية؟ وما الذى نزل قبلها؟ وما الذى نزل بعدها.

والمشهور عندهم أنها مكية إلا آيات منها قيل أنها مدنية وقد جزم الإمام الزركشى بأنها مدنية، نزلت بعد سورة الرحمن وقبل سورة الطلاق(١).

وعليه يكون ترتيب نزولها الخامسة والتسعين بالنسبة للمكى والمدنى، والعاشرة بالنسبة للمدنى وحده.

وليس فى هذه السورة إلا استفهام واحد فى الآية الأولى منها، بل فى الكلمة الأولى من السورة كلها، وهو قوله تعالى ﴿**هل أتى**..﴾؟

والمفسرون الأقدمون منهم من نص على أن الاستفهام معها - هنا - للتقرير، وهو الإمام الزمخشرى، لكنه جعل الأصل فيها (**أهل**) واستشهد بقول الشاعر:

* أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم؟(٢) *

وخالفه الإمام أبو حيان فقال: إنها حرف استفهام ولم يقدر معها الهمزة كما فعل الزمخشرى، وأنها إذا دخلت على الفعل كانت للتحقيق بمنزلة (قد) ويمتنع هذا إذا دخلت على الأسماء، لأن (**قد**) من خواص الأفعال(٢).

ومن المحدثين الإمام الطاهر، وقد فسره بأنه استفهام تقرير وتشويق إلى ما بعده، لكن فى كلامه اضطراباً حيث قال:

(وهل حرف يفيد الاستفهام ومعنى التحقيق، وقال جمع: أصل (هل) إنها فى

---

(١) الكشاف (٤/ ١٩٤).

(٢) البحر المحيط (الدر): (٨/ ٣٩٢).

الاستفهام مثل (قد) فى الخبر، وللازمة (هل) الاستفهام كثر فى الكلام حذف حرف الاستفهام معها، فكانت فيه بمعنى قد وخصت بالاستفهام فلا تقع فى الخبر)[1].

فتراه أولاً يقرر أن (هل) حرف استفهام، ثم يعود فينقل عن (جماعة) هكذا أن كثرة استعمال (هل) فى الاستفهام سَوَّغ حذف الاستفهام معها؟

هذا الكلام وإن نقله عن غيره فهو موضع رضا عنده لأنه لم يعقب عليه بما يفيد رفضه.

وكنا قد ناقشنا هذا الإدعاء من قبل، وجزمنا بأن الاستفهام حاصل بـ(هل) وحدها ذوقاً ولغة وبلاغة ومجامعة الهمزة لـ(هل) فى الشاهد الذى ذكره الإمام الزمخشرى ليس كافياً فى تقرير القول بأن الاستفهام بـ(هل) أصله: أهل.

والبلاغيون - وهم المعوَّل عليهم فى هذا الشأن - فَرَّقوا بين الاستفهام بالهمزة والاستفهام بـ(هل) بأن الأول يفيد التصور أو التصديق، والثانى يفيد التصديق - أى التحقيق - فحسب ولو كان أصل (هل) عندهم: أهل لما صح ذلك الفرق الذى أجمعوا عليه.

**والخلاصة:** أن هذا الاستفهام للتقرير والتحقيق والتذكير.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر..**﴾؟ أوثر تقرير هذا المعنى بطريق الاستفهام دون الخبر، حيث لم يقل: قد أتى على الإنسان، لما فى الاستفهام من تحريك المشاعر وإثارة الذهن نحو المستفهم عنه وهى عوامل تهيئ النفوس لتلقى المعنى المراد وهى فى حالة نشاط متوقد، فيقع منها المعنى موقعاً حسناً ويتمكن كل تمكن.

والإنسان وإن كان مفرداً فى اللفظ فهو عام فى المعنى، والألف واللام فيه للاستغراق الشامل لجميع الأفراد بدلالة المقام؛ لأن الحكم الذى أُجْرِىَ عليه لم يختص به فرد دون آخر، ولا جماعة دون أخرى، والمعنى: قد أتى على الإنسان حين من الدهر.

والحين هو الوقت وقوله تعالى: ﴿**من الدهر**﴾ وكان يمكن أن يكتفى بقوله (حين) ليس لزيادة التوكيد كما فى قوله تعالى ﴿**ولا طائر يطير بجناحيه**﴾ [الأنعام: ٣٨].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٢).

بل الذى لاح لنا أن المراد من ذلك الحين هو الزمن الذى كان قبل خلق آدم - عليه السلام - فهو الحرى أن يكون المراد من قوله تعالى (**من الدهر**) لما تفيده هذه العبارة من طول الزمن وامتداده، ذلك الوقت لم يكن للإنسان - أى إنسان - فيه وجود، أما ما ذُكِرَ من أن المراد هو عدم وجود الناس قبل ولادتهم مع وجود أجيال منهم فهذا - مع كونه احتمالاً صحيحاً - فهو دون ما لاح لنا من المعنى الذى أشرنا إليه.

وذلك لأننا حين نحمل قوله تعالى: ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً**﴾ على الوقت الذى مضى قبل خلق آدم - عليه السلام - كانت هذه القضية صادقة كل الصدق على جميع أفراد الإنسان فى وقت واحد مرة واحدة، أما إذا حملناه على مالم يوجد الآن من الأجيال مع وجود أجيالنا الحالية كان صدق القضية صدقاً نسبياً لا كُلياً، ومتتابعاً لا مرة واحدة فى وقت واحد.

وهذا ينافى العموم الاستغراقى المتبادر إلى الذهن من لفظ (الإنسان) كما ينافى الامتداد الزمنى الطويل المتبادر إلى الذهن من لفظ (الدهر).

ويكون المعنى المراد أن الله - عز وجل - يقررنا ويذكرنا أننا لم يكن لنا -جميعاً- وجود فى الحياة قبل خلق أبينا آدم، وأن ظهر الأرض كان خالياً منا خلواً طويلاً لا يعلمه إلا الله - عز وجل - وهذا أبلغ فى العظة والاعتبار وبيان كمال القدرة الإلهية، وجلال الوحدانية التى هى أساس هذا الوجود كله.

* ﴿**لم يكن شيئاً مذكوراً**﴾ لنا فى هذه العبارة ملامح بلاغية نوجزها فى الآتى:

الأول: حذف العائد على الدهر فى جملة:

﴿**لم يكن شيئاً مذكوراً**﴾ وكان الأصل أن يقال: لم يكن فيه شيئاً مذكوراً.

والحذف - عموماً - مشروط بشرطين عند البلاغيين.

أولهما: أن يكون فى الكلام قرينة لفظية أو عقلية تدل على المحذوف حال حذفه، وهى - هنا - ضرورة وجود الرابط بين الجملة، إذا وقعت خبراً أو فى حكم الخبر بينها وبين الذى وقعت هى حديثاً عنه، هذا شرط أجمع عليه اللغويون والنحاة والبلاغيون.

ثانيهما: وجود داع بلاغى يرجح الحذف على الذكر فما هو هذا الداعى هنا؟

الذى لاح لنا أن المقام لما كان مقام نفى اقتضت بلاغة النظم الحكيم المعجز حذف الجار والمجرور (فيه) لأن فى ذلك توكيداً للنفى المراد من الكلام، أى يؤكد حذف (فيه) أن ذلك الدهر لم يكن ظرفاً للإنسان ولم يكن الإنسان مظروفاً فيه.

وقد ورد لهذا نظائر فى القرآن فى مقام النفى، منها قوله تعالى فى سورة البقرة [٤٨]:

**﴿واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً..﴾** فحذف العائد وهو كذلك (فيه).

الملمح الثانى: ذكر (شيئاً) قبل (مذكوراً) حيث لم يقل: **﴿لم يكن مذكوراً﴾** فما السر البلاغى لهذا الذكر؟ والجواب لو كان قيل: لم يكن مذكوراً، لسلط النفى على الذكر فحسب، وهذا لا يمنع أن يكون الإنسان كان موجوداً غير أنه غير مذكور، وهذا فاسد ولكن لما قال: **﴿لم يكن شيئاً مذكورا﴾** سُلِّط النفى على وجوده أصلاً.

* * *

# سورة المرسلات

سورة المرسلات مكيـة، ذكر الإمام الزركشى أنها نزلت بعد سـورة «الهمزة» وقبل سورة (ق) وأن ترتيب نزولها الثالثة والثلاثون[1].

ونريد أن نخص الاستفهامات الواردة فيها بمنهج خاص هو وضع الصور الاستفهامية فى جدول مع بيان نوع الاستفهام، ثم المراد منه، ثم ننظر فى إيجاز فى أسرار نظمها وبلاغياته، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: أن آياتها قصيرة، تتكون غالبا من ثلاث كلمات أو كلمتين بعد أداة الاستفهام.

ثانيا: ما من صورة استفهامية فيها - مع قلتها - إلا وقد سبق نظيرها مرات. وفصلنا القول فيها تفصيلا وافيا.

ثالثا: ليس فيها - لقصرها الشديد - مجال واسع للبحث، ولنذكر الآيات أولاً مع الترقيم.

﴿لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ [١٢]

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ [١٤].

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ﴾ [١٦].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [٢٠].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا[2]﴾ [٢٥].

---

(١) البرهان فى علوم القرآن (١/ ١٩٣).

(٢) أنسب المعانى لـ«كفاتا» أن تكون بمعنى المأوى والحفظ.

الجـــدول

| م | الاســـــتفهام | نوعـــه | معنـــاه |
|---|---|---|---|
| ١ | لأى يوم أجلت | مجازى | تفخيم وتهويل المستفهم عنه والتشويق إلى معرفته |
| ٢ | وما أدراك ما يوم الفصل | مجازى | تفخيم وتهويل يوم القيامة |
| ٣ | ألم نهلك الأولين | مجازى | تقرير وتهديد شديد |
| ٤ | ألم نخلقكم من ماء مهين | مجازى | تقرير وتذكير وامتنان |
| ٥ | ألم نجعل الأرض كفاتا | مجازى | تقرير وامتنان |

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(لأى يوم أجلت)** تنكير (يوم) للتهويل. . وفى بناء الفعل **(أُجلت)** لما لم يسم فاعله إيجاز بالحذف لتوفير العناية بالحدث نفسه.
* **(وما أدراك ما يوم الفصل)** استفهامان فى صورة استفهام واحد. فالأول **(وما أدراك)** للنفى، والثانى **(ما يوم الفصل)** للتفخيم وتهويل شأنه.
* و**(يوم الفصل)** كناية عن يوم القيامة. وسمى يوم الفصل لوقوع الفصل فيه بين العباد.
* **(ألم نهلك الأولين)**؟ الأولون كناية عن الذين كذبوا الرسل وكفروا بالله عز وجل. وإيثار المضارع استحضار لصورة ذلك الإهلاك حتى لكأنها تقع الآن.
* **(ألم نخلقكم من ماء مهين)** امتنان وتقرير، وتنكير **(ماء)** للتحقير.
* **(ألم نجعل الأرض كفاتا)** إيثار المضارع لفظا مع مضى المعنى للفت الأنظار إلى هذه النعمة التى لم تنقطع منذ خلق الله الأرض. وجعلها مأوى ومهدا للعباد.

* * *

# سورة النبأ

١ - ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبأ: ١].

**الدراسة والتحليل:**

هذه السورة مكية، كان ترتيبها النزولى الثمانين، نزلت بعد سورة المعارج وقبل سورة النازعات على المشهور.

وهى من السور (القليلة) المبدوءة بالاستفهام، مثل سورة الإنسان، وسورة (الفيل) وسورة (الشرح).

والآية موضوع الدراسة تصوير لما كان يدور بين مشركى العرب من تساؤل حول الإسلام، والعقائد الجديدة والمبادئ والقيم ولا وجه لقصر هذا التساؤل على عقيدة البعث وحدها. بل كل ماجاء به الإسلام.

وهذا هو منهجنا فى هذه الدراسة، وهو الميل إلى التعميم فى المعانى التى لم يرد فيها دليل قاطع على إرادة التخصيص فيها.

ولا خلاف بين الأئمة، أن هذا الاستفهام:

(**عم يتساءلون**) استفهام مجازى؛ لصدوره فى كلام الله الخالص غير المحكى.

أما معناه فيقول فيه الإمام جار الله الزمخشرى:

«ومعنى هذا الاستفهام تفخيم الشأن كأنه قال: عن أى شىء يتساءلون. ونحوه (ما) فى قولك: زيد ما زيد؟ جعلته لانقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شىء خفى عليك جنسه، فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره. كما تقول: ما الغول وما العنقاء؟ تريد أى شىء هو من الأشياء هذا أصله. ثم جرد العبارة عن التفخيم حتى وقع فى كلام من لا يخفى عليه خافية[١]».

هذا البيان الرائع، والتحليل البديع، الذى صاغه الإمام جار الله حول هذا

---

(١) الكشاف (٤/٢٠٦).

الاستفهام، هو بيان لأصل الدلالة على تفخيم الشأن كما قال الإمام، وهو غرابة المستفهم عنه وخروجه عن الأجناس المعهودة، ونسبته إلى جنس يُسأل عنه لعدم الإحاطة بمعناه.

ومع هذا فقد خلا كلام الإمام من التحديد الدقيق للمعنى المراد:

هل هو استفهام تقرير أم استفهام إنكار؟ لأن التفخيم معنى ثان يُردف على التقرير كما يردف على الإنكار.

واختصر الإمام النسفى كلام الإمام جار الله فقال:

«وهذا استفهام تفخيم للمستفهم عنه؛ لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية»[1].

وأضاف الإمام أبو حيان معانى أخرى أورد ضمنها التقرير فقال رحمه الله:

«والاستفهام عن هذا فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب[2] ومعنى هذا أن الاستفهام أصالة للتقرير، أما المعانى الأخرى التى ذكرها فهى من المعانى الثوانى، التى تردف على كل من التقرير والإنكار.

واقتصر الإمام الطاهر على أن المراد من الاستفهام هو التشويق إلى تلقى ما بعده[3].

**والخلاصة:** أن هذا الاستفهام يكاد يكون قسما بعينه لا للتقرير ولا للإنكار. بل المراد منه الإثارة وتحريك المشاعر إلى ما سيلقى من بيان. فهو على حد قول الإمام الطيبى فى أمثاله قرْعُ عصى. أى للتنبيه وتهيئة النفوس للتلقى وطرد الشواغل عنها.

وينشأ عن هذا كل المعانى التى أشاروا إليها من التفخيم والتهويل والتعجيب وعظمة شأن المستفهم عنه.

وهذه خلاصة ما قيل وما يمكن قوله فى هذا الموضع، وهو - أى الاستفهام هنا - مشوب برائحة التقرير.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **(عم يتساءلون)** إيثار المضارع للدلالة على كثرة ذلك التساؤل وتكراره، وكونه كان ديدنا لهم، لا تخلو منه لقاءاتهم ولا مجالسهم.

---

(١) تفسير النسفى: (٤/ ٣٢٤) وما بعدها.　　(٢) النهر الماد (البحر المحيط) (٨/ ٤١٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٩).

والضمير، وهو واو الجماعة (**الفاعل**) كناية عن المشركين وكان الأصل أن يقال:

عم يتساءل مشركو مكة؟ ولكن وُضِعَ الضمير موضع الظاهر، وهو صورة من صور الإخراج على خلاف الظاهر، لتأدية معنيين بلاغيين:

الأول: الإشارة إلى اشتهارهم بذلك التساؤل فقام هذا الإشتهار مقام الذكر اللفظى فصلح عود الضمير عليهم.

الثانى: لما فى - (يتساءلون) من تحقيق توافق الفواصل فى الإيقاع الصوتى لبناء الفواصل على حروف المد هكذا (يتساءلون - العظيم - مختلفون).

مع ما فى (**يتساءلون**) من امتداد صوتى يناسب كثرة التساؤل وامتداده بينهم.

* * *

٢ - ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً﴾ [النبأ: ٦].

**الدراسة والتحليل:**

لما كان تساؤل المشركين عن النبأ العظيم، وهو ما جاء به الإسلام من دين خاتم، وكتاب خالد خلود الحياة. لما كان تساؤلهم تساؤل عناد واستهزاء وتهكم، لا للفهم والاعتبار. طفق النظم الحكيم يقرع أسماعهم بما فيه إفحام لهم، وإبطال للغوهم وهذيانهم حول الرسالة والرسول فلفت أنظارهم إلى أن الذى بعث محمداً ﷺ بالإسلام، وأنزل عليه القرآن هو الله خالق الكون والحياة، وولى النعم كبيرها وصغيرها، ظاهرها وباطنها، وبدأ يقررهم بما يرونه ويحسونه فى الأرض، التى بسطها وهيأها للمعاش. والجبال التى أرساها بها وثبتها.

وخلق الزوجين - الذكر والأنثى - يركن كل منهما إلى الآخر، ويكمل بعضهم بعضا.

والنوم الذى يهنأون فيه، ويستردون نشاطهم، ثم يستيقظون خلقا جديداً يصول ويجول فى الحياة.

والليل الذى يلجأون فيه إلى الراحة ويتخففون من عناء العمل.

ثم ضياء النهـار - بما فيه - من منافع لهم لاتحصى. وهكذا ينتظم هذا الاستـفهام آيات بعد آية الاستفـهام ليس لها خالق ولا موجد، ولا مســخر إلا الله تعالى فمم - إذا - يسخر المشركون؟

وهذا الاستفهام: (**ألم نجعل الأرض مهادا**)؟ استفهام تقرير - أصالة - ويردف عليه من المعانى الثانية الامتنان على العباد.

وهذه خلاصة ما يقال فيه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* (**ألم نجعل..**) أوثر المضـارع، وهو ماض فى المعنى، لأن جَـعْلَ الله الأرض مهـاداً كان، وهو كـائن الآن، ويكون إلى قيـام الساعة. فـجىء بالمضارع منفـيا بـ (لم) لتقلب مـعناه إلى المضى فيتـحقق ذلك الجعل فى الماضى. ثم يدل المضـارع - بعد ذلك - على كينونة هذا الجعل فى الحاضر والمسـتقبل فالمضارع فى هذا النظم بمنزلة فعلين: ماض، ثم مضارع والألف واللام فى (الأرض) إما للعهد الذهنى الحضورى وإما لتعريف الجنس.

* (**مهادا**) فى (مهادا) استعارة تصريحية تبعيـة شبهت فيها الأرض بما فيها من وسائل الراحة والاستـقرار وضروب النعم، بالمهد الذى يُعَدُّ للطفل عـقب ولادته. ويجهز بكل وسائل الاطمئنان والدعة. وسرها التفخيم والمبالغة.

* أما تنـكير (**مهادا**) فهـو للتفخـيم والتعظيم وبيان فـضل الله على عبـاده، فكما أن الطفل يسعد بما يعـد له فى مهده من فراش وتهوية وغـذاء وحُسْن رعاية، فكذلك الأرض فيها من أسباب الاستقرار والتنعم ما لا يجحده إلا معاند.

* * *

# سورة النازعات

سورة النازعات مكية، نزلت بعد سورة النبأ، وقبل سورة الانفطار، وترتيب نزولها الحادية والثمانون.

ونريد أن نسلك فى دراسة صور ا لاستفهام التى فيها نفس المنهج الذى نهجناه فى سورة (المرسلات) من قبل للأسباب التى أشرنا إليها هناك. بعد رصد الآيات التى ورد فيها الاستفهام وترقيمها، توخيا للإيجاز:

وهذه هى الآيات:

١ - ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ﴾ [١٠].

٢ - ﴿أئذا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً﴾ [١١].

٣ - ﴿هَل أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [١٥].

٤ - ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [١٨].

٥ - ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ. . ﴾ [٢٧].

٦ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [٤٢].

٧ - ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ [٤٣].

**الدراسة والتحليل:**

* فى الآية الثانية حكاية عما صدر عن منكرى البعث، وقد اختلفت الحكاية عنهم.

وقد قلنا من قبل إن اختلاف الحكاية لمحكى واحد يكون له فى النظم الحكيم طريقان:

إما أن تكون حكاية معنى لاحكاية لفظ وإما أن يكون المحكى مقولاً مرات فى عبارات مختلفات. ولذلك اختلفت الحكاية فى النظم الحكيم لما قاله منكرو البعث وقولهم فى الحافرة، أى نعود فى الطريق التى جئنا منها وسيأتى له زيادة بيان فى مبحث الأسرار والبلاغيات، ووصفوا العظام بـ (نخرة) أى بالية مجوفة مبالغة فى الإنكار.

* وفى الآية الثالثة يشوق الله رسوله الكريم ﷺ إلى سماع حديث الله مع موسى،

وحديث موسى مع فرعون لعنه الله.

* وفى الآية الرابعة، يلقن الله موسى كيف يخاطب فرعون الذى أمر الله موسى بالذهاب إليه.

* وفى الآية الخامسة خطاب من الله لمشركى العرب ومنكرى البعث يقررهم بأن خلقه تعالى للسماء أعظم وأشد من إعادة إحيائهم بعد الموت، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

* وفى الآية السادسة تصوير لما كان يقوله منكرو البعث تعنتا وعنادا للنبى ﷺ عن الساعة التى أعلمهم بقيامها فكفروا بها وأعرضوا عنه.

* وفى الآية السابعة ينفى الله أن يكون عند رسوله عليه السلام علم بوقت قيام الساعة. سوى الإيمان بها، وأنها لاتأتى إلا بغتة.

وفى ذلك إيماء إلى أن عدم علم النبى - عليه السلام - بوقت قيام الساعة، ليس دليلاً على عدم قيامها. فهى آتية لا ريب فيها.

**الجدول**

| م | الاستفهام | نوعه | معناه |
|---|---|---|---|
| ١ | «أئنا لمردودون فى الحافرة» | مجازى | الإنكار والتهكم |
| ٢ | «أئذا كنا عظاماً نخرة» | مجازى | الإنكار والاستبعاد |
| ٣ | «هل أتاك حديث موسى» | مجازى | التشويق |
| ٤ | «هل لك إلى أن تزكى» | حقيقى | الغرض مشوبا بالترغيب |
| ٥ | «أأنتم أشد خلقا أم السماء» | مجازى | الإنكار + التقرير |
| ٦ | «يسألونك عن الساعة أيان مرساها» | مجازى | الإنكار والتعنت |
| ٧ | «فيم أنت من ذكراها» | مجازى | النفى |

## أسْرارُ النظم وبلاغياته:

* **(أئنا لمردودون فى الحافرة)** فى مطلع سورة النازعات وردت قبل هذه الآية أربع آيات تتحدث عن أهوال القيامة وهى:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [٦-٩].

بعدها وردت آية الدراسة، مصدرة بالفعل المضارع (**يقولون**) دون أن يتقدم للضمير الواقع فاعلا (واو الجماعة) مرجع صريح. وهذا القول معروف قائله، وهم منكرو البعث. فإن كان قوله تعالى: (**قلوب يومئذ واجفة**) كناية عنهم فالواو راجعة إليهم، وإن كان عاما لأهل الموقف. فإن مرجع الضمير هو اشتهار منكرى البعث بهذا القول. فنُزِّل اشتهارهم به منزلة ذكرهم الصريح فصح عود الضمير عليهم بهذا الاعتبار.

وإيثار المضارع (**يقولون**) للتسجيل عليهم بتكرار هذا الكفر. وذكر هذا القول عقب آيات وصف يوم القيامة لبيان شناعة كفرهم به.

* و(**الحافرة**) فى الأصل: الطريق التى قَدِم منها القائل والرد إليها هو العودة فيها إلى حيث أتى القادم منها سميت «حافرة» وهى فاعلة بمعنى مفعولة، أى محفورة من أثر سير الأقدام عليها.

كنوا بهذه العبارة عن العودة إلى الحياة بعد الموت، ومرادهم إنكار البعث عن طريق الكناية.

وكان الظاهر أن يُعَدُّوا (مردودون) بحرف الجر (إلى)، ولكنهم عَدَّوه بـ (فى) ومقصدهم - فيما لاح لنا - تمكنهم فى الحياة بعد الموت، أى إنكار أن يعودوا أحياء مرة أخرى مستقرين فى الحياة كما كانوا قبل أن يموتوا.

أما التوكيد بـ «أنَّ» واللام فى (لمردودون) فهو لإنكار المؤكد على لسان الشرع، لا لتوكيد الإنكار[1]. وقد أشرنا إإلى هذا من قبل مرات. وأعدناه - هنا - بقصد تثبيت هذا الفهم؛ لأنه من ثمرات هذه الدراسة.

* (**أئذا كنا عظاما نخرة**) فيه إيجاز بالحذف، وهو حذف جواب (إذ) والتقدير: نبعث. أو نرد للحياة مرة أخرى وهذا الحذف، وكذلك بناء اسم المفعول (لمردودون) من الفعل المبنى لما لم يسم فاعله، هذان الحذفان يكشفان عن خبايا قلوبهم فحذف

---

(١) بعض الأئمة كالإمام أبى السعود قال إن المراد هنا توكيد الإنكار ولكن المقام ينافى ما قال. والصواب أنه لإنكار المؤكد وسيأتى توضيحه فى الخاتمة.

جواب (إذا) من اللفظ ترجمة أمينة عن فراغ قلوبهم منه، وبناء الفعل لما لم يسم فاعله لأنهم لايرون له فاعلا.

* (**هل تاك حديث موسى**) تمهيد مثير للذهن، ومحرك للمشاعر وطارد لشواغل السامع ليقبل على ما يقال وقد صفا الذهن ووعى القلب فيتمكن المعنى فى النفى كل تمكن.

* (**فقل هل لك إلى أن تزكى**)؟ تصدير الجملة، بفعل الأمر (قل) لأنه رسالة خاصة لفرعون أمر الله موسى أن يواجهه بها وإيثار (هل) لتحقق الغرض والترغيب فى المستفهم عنه والظاهر أن (لك) فى (**هل لك إلى أن تزكى**) متعلق بمحذوف، والتقرير: هل لك رغبة، أو هل لك حاجة إلى أن تزكى؟

* (**أأنتم أشد خلقا أم السماء**)؟ انتقال من الحديث عن موسى عليه السلام، وفرعون لعنه الله إلى مخاطبة مشركى مكة، وهو التفات عند من لايرى اتحاد الضمير فى المتلفت عنه والمتلفت إليه.

والآية فيها استفهامان الأول إنكارى، وهو: (**أأنتم أشد خلقا**)؟ والثانى تقريرى، وهو: (**أم السماء**) و(أم) متصلة.

* (**يسألونك عن الساعة أيان مرساها**)؟ إيثار المضارع (**يسألونك**) إشارة إلى إلحاحهم بهذا السؤال وتكراره و(**أيان مرساها**) تفصيل بعد إجمال. وقد فصلنا البحث البلاغى فى هذه العبارة فى مبحث أسرار النظم وبلاغياته فى الآية [١٨٧] من سورة الأعراف. فلا داعى لإعادته هنا.

* (**فيم أنت من ذكراها**) كناية عن نفى أن يكون النبى ﷺ يعرف عن وقت قيامها شيئا. أى: أنت لاعلم لك بوقت قيامها. ولا يقال أن الاستفهام هنا للإنكار؛ لأن النبى عليه السلام لم يدع شيئا من ذلك. فإن كان إنكاراً فهو بالنسبة لغيره.

* * *

# سورة عبس

١ - ﴿قُتِلَ ٱلْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾؟ [عبس: ١٧، ١٨].

**الدراسة والتحليل:**

عبس: سورة مكية بالاتفاق. نزلت بعد سورة النجم وقبل سورة (القدر) وترتيب نزولها الرابعة والعشرون فهى من السور التى نزلت مبكرة بالنسبة لما نزل من القرآن بمكة قبل الهجرة.

ولم يرد فيها الاستفهام إلا مرتين فى آيتى الدراسة وهما متجاورتان. الآية الأولى تنعى على الإنسان كفره بالنعم، والثانية تلفت الأنظار إلى المادة التى خلق منها الإنسان.

والاستفهامان هما: **(ما أكفره)؟ (من أى شىء خلقه)؟**

وفى الاستفهامين يقول الإمام جار الله الزمخشرى رحمه الله:

**(قتل الإنسان)** دعاء عليه، وهى من أشنع دعواتهم - يعنى العرب - لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها، و**(ما أكفره)** تعجيب[1] من إفراطه فى كفران نعمة الله ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أخشن مسَّاً، **ولا أدعى سخطا**، ولا أبعد شوطا فى المذمة مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للأئمة على قصر متنه - يعنى تركيبه - ثم أخذ فى وصف حاله من ابتداء حدوثه إلى أن انتهى»[2].

وتابع الإمام الطاهر الإمام الزمخشرى، وصاغ بعض معانيه فى عبارات من عنده[3].

---

(١) فى المطبوعة «تعجب» والصواب ما ذكرناه.

(٢) الكشاف (٤/ ٢١٩).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٢٢).

**أسْرارُ النظم وبلاغياته:**

* **(قتل الإنسان)**؟ بناء الفعل لما لم يسم فاعله لأن المراد هو إعلان هلاك المتحدث عنه. ولا غرض يتعلق بفاعل معين. وهو خبر لفظا، إنشاء معنى. وإطلاق الدعاء عليه، وهو من كلام الله - مجاز؛ لأن الله هو الضار النافع فلا يتوجه بالدعاء لغيره لضر أو نفع. ولذلك قلنا: إن المراد هو إعلان هلاك المتحدث عنه.
* **(ما أكفره)** ما: تعجبية، و**(أكفره)** هو المتعجب منه هذا باعتبار التركيب اللغوى. أما باعتبار أن هذا الكلام صادر عن الله عز وجل فهو تعجيب لغيره لا تعجب منه، لأن التعجب منشؤه جهل سبب الشيء المتعجب منه، والله منزه عنه ودلالة هذا الأسلوب على التعجب أو التعجيب، هو أن كفرانه ليس له سبب ولا فاعل. فهو غريب غريب.
* **(من أى شيء خلقه)** شروع فى بيان مقابح الكفران. فخلق الله للإنسان بدأ من شيء حقير شبيه بالعدم المحض فكان حريا بهذا الإنسان أن يولى هذه النعم بالشكر ومُوليها بالولاء الخالص وأن يؤمن بكل ما أمر الله بالإيمان به من البعث وغيره.
* وتنكير (شيء) للتحقير والمهانة.

وفى هذا تدليل وبرهنة على تقرير الإحياء بعد الموت - البعث - وتعريض بمشركى العرب الذين أنكروا على الله أن يعيدهم إلى الحياة ثانية، وغفلوا عن خلقه إياهم أولاً.

* * *

# سورة التكوير

١ - ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾؟[1] [التكوير: ٢٦].

**الدراسة والتحليل:**

هذه السورة مكية، بلا خلاف نزلت بعد سورة الفاتحة، أو أم الكتاب، وقبل سورة (الأعلى) أو: (سبح اسم ربك الأعلى) وترتيب نزولها (السابعة) فهى من بواكير القرآن.

وهى من السور التى بدأت بـ (الشرط) وفعل الشرط فيها ثلاثة عشر هولاً من أهوال القيامة، أما جواب الشرط فهو علم كل إنسان بما عمل فى الحياة الدنيا.

ثم تلا الشرط قسم. والمقسم به فيه ثلاثة أشياء من آيات الله الكونية.

مجموعة من الكواكب الخنس الكنس. ثم الليل بشدة ظلامه ثم الصبح عند بدء إشراقه.

أما المقسم عليه فهو كون القرآن وحيا من عند الله لا كهانة ولا شعراً ولا وساوس شيطان.. إنما هو ذكر لكل العالمين.

وجاءت آية الدراسة اعتراضا بين مجموعتين من الآيات، المجموعة الأولى تنفى عن القرآن أن يكون من عند غير الله والمجموعة الثانية تثبت المهمة الجليلة، التى من أجلها أنزل الله القرآن العظيم. هكذا:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٢٣-٢٩].

---

(١) تجاوز الآية رقم (٩) وهى ﴿بأى ذنب قتلت﴾ اختصاراً، والمراد من الاستفهام فيها التعريض بقاتل الموءودة، وإقامة الحجة عليه.

والنظر فى الآيات يهـدى إلى أن هذا الاستفـهام مـجازى لصدوره عـن الله عَلاَّم الغيوب. لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

أما معناه فهو التعجيز والتجهيل والتبكيت. وفى ذلك يقول الإمام جار الله:

«**(فأين تذهبون)** استضـلال لهم، كما يقال لتـارك الجادة اعتسافـا أو ذهابا فى بنيان الطريق: أين تذهب»[1].

والإمام الطاهر بن عاشور صرَّح فيه بالإنكار.

**والخلاصة:** أنه استفهام إنكارى، ويردف عليه التجهيل والتعجيز والتبكيت.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **(فأين تذهبون)** الفاء لتـفريع إنكار الذهاب على إثبـات كون القرآن وحـيا من عند الله، وترتيبـه عليه، وجىء بهـذه الجملة، معـترضة اسـتضلالاً لهـم وقطعا لكل الأعذار.

ودُلَّ على إنكار الذهاب بـإنكار المكان الذى يمكن أن يذهبـوا فـيـه، وإنكار مكان الشىء يسـتلزم عدم وجـود ذلك الشىء، وهى كناية مـعدودة من الـكنايات اللطيفـة المتقدم ذكرها وهو تمثيل لحالهم المعنوية بحال الذى سُدَّت عليه الطرق من كل الجهات فوقف لايستطيع حراكـا. وهذا من قبيل الاستعارة التمثـيلية المركبة، وإلى هذا المعنى أشار الإمام جار الله الزمخشرى رحمه الله.

* وإيثار المضارع **(تذهبون)** ليعم الإنكار كل الأوقات.

* * *

---

(١) الكشاف (٤/ ٢٢٦).

# سورة الانفطار

سورة الانفطار مكيـة باتفاق. نزلت بعد سـورة النازعات وقبل سورة الانشـقاق. وترتيب نزولها الثانية والثمانون على المشهور.

وقد ورد فيها ثلاثة استفهامات فى ثلاث آيات. ومنهجنا فى دراسة استفهاماتها هى ما تقدم فى المرسلات والنازعات والآيات هى:

١ - ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [٦].

٢ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [١٧].

٣ - ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [١٨].

**الدراسة والتحليل:**

ينادى رب العالمين عباده بهذا النداء الودود العطوف، يناديهم بعنوان «الإنسانية» بما فيها من مـعانى التهذيب والإلف والحنان: **(يا أيها الإنسان)** ثم يعاتبه عتـابا يسيل رقة وعطفا وتودداً:

**(ما غـرك بربك الكريم)** إن المنادِى هو رب المنادَى، والمنادَى مـعـرض عن المنادِى، والمنادِى غنى عن المنادَى والمنادَى فقير ومحتاج إلى المنادِى. فعلام إذن هذه الجفوة من المنادَى تجاه المنادِى الذى خلق الإنسان فسواه وعدله، وجعله يبدو فى أحسن تقويم.

إن هذا النداء - فى ذاته - نعمة ينبغى على الإنسان تقديرها وقطع كل «الشواغل» عن الإقبال على الله ثم يتجه النظم فى آخر السورة فيهوِّل ويعظم يوم الدين الذى يقع فيـه من الأحداث ولا عـهد للناس به من عـجائب وغرائب، لاينجى مـنها إلا ترك الغرور ثم الإقبال على الله عز وجل بالإيمان الراسخ والعمل الطيب.

فالسورة - على قصـرها - واعظة، زاجرة، مبشَرة، منذرة. وجرعة، إيمانيـة فيها شفاء ورحمة للعالمين.

| م | الاستفهام | نوعه | معناه |
|---|---|---|---|
| ١ | «ما غرك بربك الكريم» | مجازى | انكار وعتاب وحث |
| ٢ | «وما أدراك ما يوم الدين» | مجازى | تهويل وتعجيب |
| ٣ | ثم ما أدراك ما يوم الدين» | مجازى | ترقٍ فى التهويل والتعجيب |

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **(يا أيها الإنسان)** هذا الأسلوب الندائى فيه تفخيم للمنادى وتكريم، ولهذا كثر نداء القرآن الذين آمنوا به، كثرة مستفيضة. والمراد من الإنسان الجنس الشامل إما لجميع الأفراد، أو لمن يتحقق فيهم الوصف المسوق من أجله الكلام وهو - هنا - الغرور والإعراض عن الله.
* **(ما غرك بربك الكريم)** - ما - للسؤال عن السبب فى الاستفهام الحقيقى، أما هنا فهو لإنكار أن يكون للإنسان سبب يدعوه إلى الإعراض عن الله. وإنكار السبب - هنا - يستدعى إنكار المسبب وهو الاغترار والإعراض. فهو من قبيل الكنايات اللطيفة التى حفل بها النظم القرآنى الحكيم.
* وإضافة (رب) إلى ضمير المخاطب، ووصف (رب) بالكريم لتشديد الإنكار والعتاب، والترغيب فى الحث على طاعة الله وترك الغرور.
* **(وما أدراك ما يوم الدين)** نفى لأن يكون عند المخاطب إحاطة بأهوال يوم الدين. هذا بالنسبة للاستفهام الأول. أما الثانى **(ما يوم الدين)** فهو للتعجيب والتهويل.
* **(ثم ما أدراك ما يوم الدين)** ما قيل فى الأول يقال - هنا. بيد أن العطف بـ (ثم) هنا. يفيد الترقى فى التهويل والتعجيب، كما يعتبر الترقى فى الإنكار. وهما كنايتان عن يوم القيامة وما يجرى فيه من أهوال لاعهد للناس بها. وقانا الله شره.

* * *

# سورة المطففين

سورة المطففين مـختلف فى بيئتهـا التى نزلت فيها. ففـريق ذهب إلى أنها مكية، وآخر قال إنها مدنيـة، وثالث يرى أنها نزلت بين مكة والمدينة، وهذا الخلاف انسحب على ما نزل قبلها وما نزل بعدها. .

ونجم عن هذا الخلاف قـولان آخران: أحدهمـا، أنها آخر مـا نزل بمكة، والثانى، أنها أول ما نزل بالمدينة. وحسبنا هذا القدر من التعريف بها.

وقد ورد فيها أربعة استفهامات فى أربع آيات، نذكرها أولاً ثم ندرسها على منهج الجداول الذى سنتبعه فى قصار السور التى يتعدد فيها الاستفهام أكثر من اثنين.

١ - ﴿أَلاَ يَظُنُّ أولَئكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [٤].

٢ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سجِّينٌ﴾ [٨].

٣ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا علِّيُّونَ﴾ [١٩].

٤ - ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٣٦].

**الدراسة والتحليل:**

الآية تذم المطففين فى الكيل والوزن،وهم كما وصفهم القرآن:

﴿الَّذينَ إِذَا اكْتَالُوا على النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [٢-٣].

يعنى يستوفون حقهم مع الزيادة إذا أخذوا وينقصون الكيل والوزن إذا أعطوا.

يذم القرآن هذا الفريق الغاش الجـشع بأنه غافل عن العودة إلى الله. وكأنه لايؤمن بالبعث والحساب والثواب والعقاب وكفى بذلك ذما.

أما الآية الثانية فتهول وتفظع من مصيـر الفجار وقبح مصيرهم فى الآخرة وسجل أعمالهم المسمّى (سجين).

والآية الثالثة تفخم مصير الأبرار ومأواهم عند الله تعالى بادئة بتسمية سجل أعمالهم (عليون).

أما الآية الرابعة، فتنقل لنا شماتة (الأبرار) وهم فى الجنة، فى الفجار الذين كانوا يسخرون منهم فى الحياة الدنيا ويتخذونهم مادة للتفكه والتضاحك، يتساءل الأبرار المؤمنون هل وجد الكفار ثوابا مثل ثوابنا على ما كانوا يفعلون.

الجـــدول

| م | الاستفهام | نوعه | معناه |
| --- | --- | --- | --- |
| ١ | «ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون» | مجازى | الحض والحث والتعجيب |
| ٢ | «وما أدراك ما سجين» | مجازى | التهويل والتفظيع |
| ٣ | «وما أدراك ما عليون» | مجازى | التفخيم والتعظيم |
| ٤ | «هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون» | مجازى | الشماتة والتهكم |

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون)** قال الإمام الزمخشرى إن هذا الاستفهام للإنكار والتعجيب، والتركيب الاستفهامى لايساعد عليه، لأن همزة الاستفهام لما دخلت على (لا) النافية فنفت النفى الحاصل بها. فالقاعدة المطردة أن يصير الفعل المنفى بـ (لا) إلى فعل مثبت. وقد أحس الإمام الطاهر بهذا فذهب إلى أن الإنكار موجه إلى ما سيق الاستفهام من أجله، وهو التطفيف. وهذا غير مقنع. لذلك نرجح أن (ألا) هنا تحضيضية حاثة على ذلك الظن ويترتب على هذا أن الذى حض النظم وحث عليه لا وجود له عند المتحدث عنده. لكن بطريق المفهوم لا المنطوق.

وعلى هذا يحمل كلام الإمام الزمخشرى، ووزان هذا الاستفهام أن تقول لآخر: ألا تستحى، فأنت لا تقول هذا إلا وقد رأيته عاريا من الحياء، فتريد بقولك له: ألا تستحى لومه على ترك الحياء وحثه على تحصيله.

هذا ما ينبغى أن يحمل عليه الاستفهام فى هذه الآية، أما إيثار المضارع (يظن) فإشارة إلى تحصيل ذلك الظن فى كل الأوقات.

وإيثار الظن على الاعتقاد إشارة إلى أن المطففين عَرَوا حتى من مجرد الظن بالبعث والعودة إلى الله.

والتعبير بـ (**أولئك**) إشعار ببعدهم عن الصواب؛ والعدل.

* أما (**مبعوثون**) بدل: يُبْعثون فلتأكيد البعث لما فى الاسم من الثبات والاستقرار.
* (**وما أدراك ما سجين**)؟ استفهامان فى صورة استفهام واحد:

**الأول**: (**وما أدراك**) وهو لإنكار دراية المخاطب من أى طريق بحقيقة الوقائع التى تقع يوم القيامة، ومنها (سجين) الذى هو سجل «الكفرة الفجرة».

**أما الثانى**: (**ما سجين**) فهو تهويل وتفظيع لسجل أعمال الفجار، وسمى سجينا على سبيل المجاز المرسل، لأنه سبب سجن الفجار فى النار. وبناؤه على (فِعِّيل) مبالغة فى قبح معناه وإحكام السجن (النار) على الفجار.

* (**وما أدراك ما عليون**) مجموع الاستفهامين:

(**وما أدراك - ما عليون**) كناية عن تفخيم شأن سجل أعمال الأبرار، لدرجة أن المخاطب لايدرك كنه ذلك التفخيم، وليس له وسيلة يعلم بها عظمته وجلال شأنه. أما معنى كل منهما فالأول للإنكار والثانى للتعظيم، وصيغة بناء (عليون) للمبالغة فى شرف معناه ورفعة شأنه، وفخامة ما يدل عليه.

* (**هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون**)؟ الاستفهام للإنكار أصالة، أى ما حصل ثواب كثوابنا لهم. ويردف عليه الشماتة، والتهكم بهم.

وإيثار (**هل**) لتوكيد وتحقق المعانى المستعمل فيها الاستفهام.

وبناء الفعل (**ثوّب**) لما لم يسم فاعله سره البلاغى أن إثابة الكفار إثابة حسنة ليس لها فاعل فى الوجود وهذا إيجاز بالحذف بديع الدلالة.

وإيثار (**يفعلون**) على: يعملون، لما فى الفعل - بدلالة المقام - من معانى التسرع

والفجاجة والعشوائية، والعراء من المقاصد الشريفة.

سـخر الفـجـار من المؤمنين الأبرار فى الدنيـا، فسـخـر منهم المؤمنون الأبرار فى الآخرة. وشتان ما بين الضاحك أولا الباكى آخرا. وبين الضاحك أولاً وآخرا.

**﴿تلك عقبى الذين اتقوا. وعقبى الكافرين النار﴾**.

* * *

# سورة الانشقاق

١ - ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٠].

**الدراسة والتحليل:**

الانشقاق سورة مكية، باتفاق أهل العلم، نزلت بعد سورة الانفطار، وقبل سورة الروم، وترتيب نزولها الثالثة والثمانون.

وهى من السور التى بدأت بالشرط، والشرط فيها متعدد وأفعال الشرط من أهوال يوم القيامة، وجواب الشرط محذوف، وفيها تقسيم الناس قسمين فى تلقى صحائف الأعمال وفى المصير.

وبعد عرض هذه الحقائق جرى حديث عن مشركى العرب كانت آية الدراسة بداية لذلك الحديث، وهى عبارة موجزة عن هذا الاستفهام:

**(فما لهم لا يؤمنون)**؟

وهو استفهام إنكارى تقريعى. وهذه خلاصة ما يقال فيه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(فما لهم. .)** الفاء مفرعة لما بعدها على ما قبلها. و(ما) نافية والجار والمجرور متعلق بمحذوف والمعنى أى شىء ثبت لهم؟ حتى استندوا إليه فى عدم الإيمان.

والإنكار فى هذا الاستفهام مسلط أولاً على سبب عدم الإيمان ثم جعل هذا الإنكار السببى وصلة لإنكار عدم الإيمان نفسه، مع طريق الكناية اللطيفة.

* **(لا يؤمنون)** عدم إيمانهم فى كل الأوقات. وجعل الفعل غير متعلق بمفعول كناية عن ذكره متعلقا بذلك المفعول.

* * *

# سورة البروج

١ - ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾؟ [البروج: ١٧].

**الدراسة والتحليل:**

سورة البروج مكية، بلا خلاف، نزلت بعد سورة «والشمس وضحاها» وقبل سورة (والتين) وترتيب نزولها السابعة والعشرون.

وهى من السور «الشرطيـة» والشرط فيهـا متعدد، وجوابه واحـد. واشتملت على قصتين؛ الأولى قصة أصحاب الأخدود وهى المبدوء بها، والثانية قصة فرعون وثمود، وهما قصتـان دمج القرآن الإشارة إليهما فى آية موضـوع الدراسة وهى عبارة عن هذا الاستفهام:

**(هل أتاك حديث الجنود)؟**

وهو استفهام تشويق وإثارة ذهن إلى ما يلقى من الكلام بعده.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(هل أتاك حديث الجنود)** أوثرت (هل) من بين أدوات الاستفهام لتحقق الغرض الذى من أجله سيق الاستفهام وهو الالتفات التـام لسماع ما يقال. والإمام الطيبى يسمى هذه الأساليب التى يراد بها التنبه لما بعدها. يسميها قرع عصى أى صوت لا يقصد لذاته، وإنما لما بعده.

* وفى **(أتاك)** استعـارة لـ (سمعت) استـعارة محسـوس أقوى لمحسوس قـوى. شبه السمـاع بالإتيان تفخـيماً لشـأنه، وإسناده - الإتيان - إلى (حـديث) إما استـعارة بالكناية وإمـا مجاز عـقلى. والسر البـلاغى المبالغـة فى تحقيق السـماع، وإضـافة **(حديث)** إلى **(الجنود)** إضافة اختصاص.

* * *

# سورة الطارق

١ - ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ [الطارق: ٢].

**الدراسة والتحليل:**

هذه السورة مكية نزلت بعد سورة (البلد) وقبل سورة (القمر) وترتيب نزولها السادسة والثلاثون فهى من أوائل مانزل من القرآن الكريم.

وهى من السور «القسمية» والمقسم به فيها نجم ثاقب كما ورد فى النظم نفسه. أما المقسم عليه، فهو وَكْلُ حافظ على كل نفس.

وهذا الاستفهام الذى ورد فى الآية الثانية منها **(وما أدراك ما الطارق)** تقدمت دراسته مرات فلاداعى لتكرار ما قيل فيه.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* هذا الاستفهام متى وكيف وقع المراد منه إما تهويل المستفهم عنه، وإما تفخيمه.

فالتهويل فى الشدائد والمحن، والتفخيم فى المواهب والنعم.

ونكتفى فى سره البلاغى ببيان تناسب المقسم به للمقسم عليه. فالمقسم به هو: الطارق، الذى فسره النظم بأنه النجم الثاقب.

والمقسم عليه هوالحفظ كما تقدم، والمناسبة بين النجم والحفظ فى نظم القرآن ظاهرة جلية. فقد ورد فى سورة فصلت [١٢]: **(وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا)** كما جعلت الشهب وهى نجوم، رجوما للشياطين لحفظ أسرار السماء.

* * *

٢ - ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥].

**الدراسة والتحليل:**

سلك القرآن الحكيم فى غرس الإيمان بالحق فى قلوب العباد مسالك شتى، واتخذ من آياته فى الكون وفى النفس منافذ للإقناع، ولم يقسر النفوس على الإيمان قسرا. وفى هذه الآية موضوع الدراسة يحث الإنسان على أن ينظر فى مبدء خلقه هو نفسه. إنه الماء الذى يتدفق من الأصلاب ليستقر فى الأرحام، ثم يكون خلقا سويا.

وقد تكفل بهذا هذا الاستفهام:

**(فلينظر الإنسان ممَّ خلق)**؟ وفى الآية التالية بيان لهذا النظر فقال: **(خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب)** [٦، ٧].

وهذا الاستفهام استفهام تقرير وتذكير وتنبيه للعظة والاعتبار والتعجيب من كمال قدرة الله وبديع صنعه وحسن تدبيره.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(فلينظر. .)** الفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها، وترتيبه عليه فكريا. والنظر مستعار لمطلق الإدراك وسره تعميق التفكر حتى لكأنه نظر بالعين الباصرة، والمراد من النظر الإرشاد وحسن التوجيه على سبيل المجاز المرسل. والمراد من الإنسان جميع أفراد الجنس، فهو من الخاص المراد به العام. مجازا مرسلا كذلك، أما بناء الفعل (خلق) لما لم يسم فاعله، فلتوفير العناية بالفعل.

* * *

# سورة الغاشية

١ - ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾؟ [الغاشية: ١].

**الدراسة والتحليل:**

سورة الغاشية مكية، باتفاق أهل الذكر، نزلت بعد سورة الذاريات، وقبل سورة الكهف، وترتيبها فى النزول السابعة والستون.

وهى من السور التى بدأت بالاستفهام، الذى هو أول آية فيها.

وهو استفهام تقدم البيان عنه مرات، حيث جاء بهذه الصيغة فى آيات متعددة، مع اختلاف المضاف إليه فمرة يكون المضاف إليه (موسى) وأحيانا (الجنود) وهنا الغاشية، وخلاصة ما قيل فيه أنه استفهام تشويق وحث أو قرع عصى.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

من البديه أن استعمال ﴿هل﴾ لتحقق ما بعدها من الحث والتشويق. والإتيان مستعار لفشو الحديث وانتشاره أما (الغاشية) فهى صفة لموصوف محذوف تقديره: هل أتاك خبر الأهوال الغاشية يوم القيامة؟

والغشيان مستعار إما لسيطرة تلك الأهوال على أهل الموقف وغمرها إياهم. أو مستعار لغيبوبة العقول وذهولها يوم القيامة من غرائب أهواله وغرائبه. كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

* * *

٢ - ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧].

**الدراسة والتحليل:**

بعد أن قسمت سورة الغـاشية الناس يوم القيامة قسمين، وعـبَّرت عن هذا التقسيم بتقسيم الوجوه لا بتقسيم الذوات، هكذا:

﴿وجوه يومئذ خاشعة* عاملة ناصبة* تصلى نارًا حامية﴾ [٢ - ٤].

ثم: ﴿وجوه يومئذ ناعمة* لسعيها راضية* فى جنة عالية﴾ [٨ - ١٠].

والتعبير عن الذوات بالوجوه مجاز مرسل عـند البلاغيين، عُبِّر فيه بالجزء (الوجه) عن الكل (الذات) وذلك يناسب تسـمية القيـامة بالغـاشية؛ لأن الـغشيـان - كلفح الشمس أو النَّار - مـثلاً - يتـرك أثرا واضحًا فى الوجـوه. فتأثـرت وجوه أهل النار بالكآبة، وانعكس أثر الغم الذى ملأ قلوبهم على بشرتهم ووجوههم فكلحت وقبحت وخشنت.

أما أصـحاب الجنة فصانهم الله وحـمى وجوههم فلمعت ونعـمت، بعد هذا أدار الحديث عن المشركين، وحـثهم على أن يتفكروا فى دلائل الإيمان والتـوحيد المنجى، فلفت أنظارهم إلى أشياء يشاهدونهـا لله فى خلقها وصورتها آيات واعظات. من هذه الأشياء:

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾؟

وفى هذا يقول الإمام جار الله الزمخشرى.

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل﴾ نظر اعتبار ﴿كيف خلقت﴾ خلقا عجيبا دالاً على تقدير مقـدر، وتدبير مدبر، حـيث خلقها للنهـوض بالأثقال، وجرها إلى البـلاد الشاحطة فجعلها تبـرك حتى تحمل عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت وسـخرها منقادة لكل من اقتادها.. لا تعارض ضعيفا ولا تمانع صغيرا..»[1].

والواقع أن الذى ذكـره الإمـام ليس كل مـا فى الإبل من بدائع الخلق، وعـمـيم

---

(١) الكشاف (٤/ ٢٤٧).

المنافع. لذلك حث الله المشركين على النظر إلى كيفية خلقها ليهتدوا إلى الخالق العظيم، فهى طريق من ألوف الطرق الموصلة إلى كمال الإيمان والاذعان.

والذى نختاره فى هذا التركيب ونظائره أن ﴿ألا﴾ فيه للحث والحض، وليس للاستفهام الخالص، لأننا إذا طبقنا عليه مذهب الجمهور المتقدم ذكره مرات من قبل وهو كون الهمزة مقدمة من تأخير وأن الأصل:

(فألا ينظرون) وجعلنا الهمزة للاستفهام كانت نافية لنفى ﴿لا﴾ فيكون المعنى تقريرا. وهذا لا يصح؛ لأن القرآن ينعى عليهم عدم النظر الواعظ. لذلك رجحنا أن ﴿ألا﴾ للحث والتحضيض، وهذا يقتضى أن هذا النظر المحثوث عليه معدوم عندهم فطولبوا بتحصيله.

أما على مذهب الزمخشرى فلا حرج من حمل الهمزة على الاستفهام لصلاحيته حينئذ فى الدلالة على الإنكار والتقدير: أعموا فلا ينظرون.

**والخلاصة**: إذا أعملنا مذهب الجمهور كانت ﴿ألا﴾ للحث والتحضيض وامتنع معه الاستفهام[1]، وإذا أعملنا مذهب الزمخشرى فالاستفهام معه للإنكار ثم الحث على النظر.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿أفلا ينظرون إلى الإبل﴾**؟ فى تعدية ﴿ينظرون﴾ بحرف الجر ﴿إلى﴾ أطراد للقاعدة التى كنا قد رصدناها من قبل فى فعل الرؤية إذا ولى أداة استفهام، من أن المستفهم عنه إذا كان ذاتا عُدِّى الفعل بـ (إلى) وإذا كان معنى عدى بنفسه. وينظرون بمعنى يرون فعومل فى التعدية معاملة (يرون) لأن المستفهم عنه هنا الإبل وهى ذات لا معنى.

والنظر فى الآية مستعار للتفكر العميق، حتى لكأنه يرى بالعين الباصرة.

* **﴿كيف خلقت﴾** بدل اشتمال من الإبل، لأن المراد التأمل فى كيفية خلقها العجيبة من القوة والصبر على العطش واقتيات جميع ما على وجه الأرض من أوراق

---

(١) ويكون تقديم الهمزة على العاطف حملا للتحضيض على الاستفهام.

النبات والأشجار وعدم التعفف مما يتعفف عنه غيرها، وبذلك صلحت للأسفار الطويلة دون التعرض للإعياء أو الضعف.

* و﴿كيف﴾ استفهام صورى لفظى والمراد منه الكيفية التى خلقها الله عليها.

وتقديم الإبل على ما ذكر بعدها من السماء والجبال والأرض لشدة إلفهم بالإبل، وسيرهم بها فى الصحراء المسافات البعيدة بالأحمال الثقيلة. ويجمع بين الإبل والسماء والجبال والأرض أنها - وإن تفاوتت طبائعها فهى جميعا من آثار قدرة الله الباهرة، وحكمته البالغة، وفى هذا ردٌّ على من يقول: ما المناسبة بين هذه الأنواع الأربعة، حتى يجمع القرآن بينها فى سياق واحد؟

* * *

# سورة الفجر

هذه السورة مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة «الليل» وقبل سورة «الضحى» وترتيب نزولها العاشرة، فهى من بواكير ما نزل من القرآن مطلقا.

وهى من السور «القسمية» والمقسم به فيها متعدد بلغ خمسة من الظواهر الكونية إلا اثنين، وهما ﴿الشفع والوتر﴾ ففيهما احتمال. أما جواب القسم فهو محذوف، والمقسم عليه هو قوله تعالى.

﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ [١٤] وما بين القسم والمقسم عليه اعتراض. وتوسطه بين القسم والمقسم عليه لتعجيل التهديد والوعيد للمشركين.

وقد ورد فى هذه السورة ثلاثة استفهامات هى:

١ - ﴿هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [٥].

٢ - ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [٦].

٣ - ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [٢٣].

**الدراسة والتحليل:**

فى الآية الأولى **﴿هل فى ذلك قسم لذى حجر﴾** يقرر الحق عز وجل أن ما أقسم به من الظواهر الكونية قسم عظيم لكل صاحب عقل.

وفى الآية الثانية، لفت للأنظار إلى مصارع الأمم الباغية؛ عاد، وثمود، وآل فرعون، وكيف بطش الله بهم.

أما فى الآية الثالثة ففيها تحذير شديد لمن يضيعون حياتهم الدنيا فى المعاصى. فإذا هالهم ما يرون من عذاب يوم القيامة يتذكرون سوء سعيهم، ولا ينفعهم ذلك التذكر.

الجـدول

| م | الاســـتفهـــــام | نــــوعـــه | معنـــــاه |
|---|---|---|---|
| ١ | «هل فى ذلك قسم لذى حجر» | مجازى | التقرير والتحقيق |
| ٢ | «ألم تر كيف فعل ربك بعاد» | مجازى | التشويق والتهديد |
| ٣ | «يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى» | مجازى | الإنكار والتوبيخ |

## أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**هل فى ذلك قسم لذى حجر**﴾ لما كانت ﴿هل﴾ للدلالة على تحقق ما بعدها؛ فإننا نقول فيها قولا جـديداً لم يخرج عن الأصول المقررة عند أهل الذكر، وإن لم يقله أحد منهم، وهو إن ﴿هل﴾ فى هذه الآية بمعنى (إن) التى تكون للتوكيد، والمعنى: إن فى ذلك لقسـما لذى حجـر، ولا يمنع من هذا نصب ﴿قسم﴾ معـها، وهو فى النظم مرفوع، وذلك لأمرين:

**الأول**: أن تقديرنا هذا تقدير معنى لا تقدير إعراب.

**الثانى**: إن التفسير لا يلزم أن يكون - دائما - طبق المفسر، وهذا أمر بدهى.

ويبقى علينا أن نبين لماذا أوثر الاستفهام - هنا - وهو إنشاء على الخبر؟

والجواب: لما فى الاسـتفهـام من تحريك المشـاعر وإثارة الذهن. وأنه تعـالى يقرر المخاطب هنا بأن ما أقسم به هو قسم عظيم لأصحاب العقول. ويكون تنكير ﴿قسم﴾ المراد منه التعظـيم والتفخـيم بدلالة المقام. وإيثار ﴿حـجر﴾ على عقـل. وهما بمعنى واحد لمناسبة رءوس الآيات قبلها.

كما أن فى تنكير ﴿حجر﴾ تفخيما بعد تفخيم، وتعظيما بعد تعظيم.

* ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد**﴾ الرؤيا هنا علمية المراد بها سماع ما حدث لعاد وثمود وآل فرعـون وسرها تفخيم العـلم الذهنى حتى لكأن المخاطب عـاين ما حل بتلك الأمم من كوارث بعينى رأسه، لا بمجرد السماع والرواية النظرية.

* و﴿**كيف**﴾ استفهام صورى لفظى، وهى وما دخلت عليه معمول الرؤيا، والتقدير: ألم تر كيفية فعل ربك بعاد؟

* وإضافة ﴿**رب**﴾ إلى ضمير النبى ﷺ المراد منها التشريف والتأييد.

وفى ﴿عاد﴾ مجاز مرسل، حيث أطلق اسم (الجد) وأراد القبيلة.

* ﴿**وجىء يومئذ بجهنم**﴾ بناء الفعل ﴿**جىء**﴾ لما لم يسم فاعله لتوفير العناية بالفعل، ولأن الغرض حاصل به دون الافتقار إلى تعيين فاعل.

* ﴿**يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى**﴾ يوم يتذكر بدل من ﴿يومئذ﴾ وكلاهما كنايتان عن يوم القيامة.

وفى ﴿**الإنسان**﴾ مجاز مرسل؛ لأنه عام أريد به خاص وهم الكفرة والعصاة.

* و﴿**أنى له الذكرى**﴾ أنى بمعنى كيف، فالاستفهام أصلاً لإنكار حال التذكر واستبعاده. ومستعمل كناية لطيفة فى إنكار التذكر، أى إنكار أن يعود على صاحبه بفائدة.

* * *

# سورة البلد

سورة (البلد) من القرآن المكى نزلت بعد سورة (ق) وقبل سورة (الطارق) وترتيبها الخامسة والثلاثون، فهى من السور المبكرة نزولاً.

وهى سورة (قسمية) والمقسم به متعدد من ثلاثة أشياء وهى: (هذا البلد) ثم (أنت حل) ثم: (والد وما ولد) أما المقسم عليه فهو كون الإنسان مخلوقا فى معاناة وتعب وجهد، وقد ورد فى هذه السورة أربعة استفهامات فى أربع آيات وهى:

١ - ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ [٥].

٢ - ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ [٧].

٣ - ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴾ [٨].

٤ - ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ [١٢].

**الدراسة والتحليل:**

**ينكر الله عز وجل على صنف من الناس جهلهم بقدرة الله وعظيم سلطانه. فالقوى المستبد بقوته، الذى لا يرى لأحد سلطانا عليه، والغبى الذى يظن أن أعماله تقع بعيداً عن دائرة علم الله، هذا وذاك يخيم عليهما وعلى أمثالهما غباء عظيم. ولو أنهم عادوا إلى أنفسهم لأدركوا أن الله زودهم بوسائل العلم والمعرفة، وأودع فيهم إيداعا محكما بديعا ليعملوا هذه الوسائل فى تبصُّر الحقائق فلا يقعوا فيما وقعوا فيه من ضلال وغباء.**

وقد نلمح فى الآيات ملمحًا آخر، هو أن الله العلى القدير الذى وهب الإنسان هذه الملكات كيف لا يحيط علما وهيمنة بما خلق. وفاقد الشىء لا يعطيه.

الجـدول

| م | الاســتفهــــــام | نـــــوعـــــه | معنــــاه |
|---|---|---|---|
| ١ | «ايحسب أن لن يقدر عليه أحد» | مجازى | الإنكار والتجهيل |
| ٢ | «أيحسب أن لم يره أحد» | مجازى | الإنكار والتجهيل |
| ٣ | «ألم نجعل له عينين» | مجازى | التقرير والامتنان |
| ٤ | «وما أدراك ما العقبة» | مجازى | التفخيم والتعظيم |

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**أيحسب أن لن يقدر عليه أحد**﴾ فى هذا التركيب كنايتان الأولى فى ﴿**لن يقدر عليه أحد**﴾ وهى كناية عن إنكار البعث والحساب والعقاب والثواب.

والثانية فى مجموع التركيب كله، وهى كناية عن إنكار إنكار البعث.

وإيثار ﴿**لن**﴾ لتأكـيد إنكار البـعث عند المتحدث عنهـم. أما المضارع فـاشارة إلى شمول ذلك الحسبان كل الأوقات.

* ﴿**أيحسب أن لم يره أحد**﴾ إنكار وتجهيل للمتحدث عنه الذى يظن أن الله لا يراه ولم يره حين يفـعل مـا يفـعل، ومن الملاحظ أن الـنفى فى الآية الأولى كـان بـ (لن) المختصة بالنفى فى المستقبل.

وأن النفى فى الآية الثانية كان بـ (لم) الخاصة بالنفى فى الماضى. فما السر فى هذا التخالف؟

والجواب:

لما كـان المراد فى الأولى إنكار البعث وهو لا يكون إلا فـى المستقـبل أوثرت فـيه ﴿**لن**﴾ المختصة بالنفى فى المستقبل.

أما الآية الثانية فإن النفى فيهـا مقصور على الماضى وهو عائد على ما حكاه القرآن عن المتحدث عنه من قوله:

﴿**يقول أهلكت مالاً لبدا**﴾ أى ما لا كثيرا، ظانا أن الله لم يره وهو ينفق ذلك المال فى محاربة الدعوة إلى الحق. فأوثرت معه (لم) لاختصاصها بنفى وقوع المعنى فى الماضى.

* وتنكير ﴿**أحد**﴾ فى الآيتين للدلالة على استغراق النفى جمع الأفراد القادرين عليه، والرائين له.

* ﴿**ألم نجعل له عينين**﴾ استئناف مسوق للنعى على المتحدث عنه بالجهل والغباء وضلال السلوك والاستفهام للتقرير والامتنان؛ لإن جعل العينين وما عطف عليه من النعم التى منَّ الله بها على العباد جميعا: مؤمنهم وكافرهم، طائعهم وعاصيهم وايثار المضارع ليشمل التقرير والامتنان جميع الأوقات:

الماضى - الحال - المستقبل.

* وتنكير ﴿**عينين**﴾ للتكثير والتعظيم، فهما عينان لكل مخلوق فيهما من المنافع ما لا يُحصى.

* ﴿**وما أدراك ما العقبة**﴾ قبل هذه الآية كان قوله تعالى:

﴿**فلا اقتحم العقبة**﴾ [١١] أى لم يعمل صالحا فقط وهى تمثيل للأمور الشاقة على النفس، كما بينها النظم فى قوله تعالى:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ* يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ* ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [١٣ - ١٧].

هذا ما فسَّر به القرآن: العقبة، من الأمور الشاقة عملا بالبدن، أو إنفاقا للمال.

ولما كان هذا هو معنى العقبة، فخم الله شأنها ورفع قدرها فى هذا الاستفهام.

* ﴿**وما أدراك ما العقبة**﴾؟ وهو - كما تقدم - استفهامان فى صورة استفهام واحد.

**الأول**: ﴿**وما أدراك**﴾ وهو للنفى أو الإنكار.

**الثانى**: ﴿**ما العقبة**﴾ وهو للتهويل والتصعيب ومجموعهما كناية عن غرابة المستفهم عنه وكونه فوق تصور الإنسان.

وفى ﴿**العقبة**﴾ استعارة تصريحية أصلية شبهت فيها الأعمال الصالحة من الإنفاق

والصبر والتـواصى به بما يعترض الإنسان فى طريق سيره من الموانع الماديـة كالصخور والجبال والمنخفضات مما يعوقه عن السير، أو يسبب له معاناة تنوء بها قواه.

والجامع بين الطرفين شدة المشاق ووطأة العناء وسرها تصوير المعنوى المعقول بالمادى المحسوس اعتناء بالمعنى المراد. وتوضيحا له.

* * *

# سورة الضحى

١ - ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ [الضحى: ٦].

**الدراسة والتحليل:**

سورة الضحى مكية بلا خلاف نزلت بعد سورة الفجر، وقبل سورة الانشراح. وترتيبها فى النزول الحادية عشرة فهى من بواكير القرآن نزولاً.

والآية موضوع الدراسة امتنان على رسول الله ﷺ بالهداية إلى نور النبوة، والكفالة فى اليتم، والاغناء بعد الفقر.

ولم يرد فيها إلا هذا الاستفهام:

**﴿ألم يجدك يتيما فآوى﴾.**

وهو استفهام تقرير وامتنان وتفضل، وهى خلاصة ما يقال فيه.

**أسرار النظم وبلاغياته**

* **﴿ألم يجدك يتيما فآوى﴾** الاستفهام تقريرى امتنانى والمعنى ألم تكن يتيما فآويتك. وليس المراد من **﴿يجدك﴾** أنه كان غائبا عن الله فوجده. وعُبِّر عن: كنت بـ**﴿يجدك﴾** كأنه ﷺ قبل إنعام الله عليه لم يكن له وجود، والفاء فى **﴿فآوى﴾** للتفريع على ما قبلها. والايواء استعارة لحسن رعاية الله له حيث رعاه وجعله فى (مأْوَى) حافظ له من كل سوء وشر.

* وحذف مفعول **﴿آوى﴾** لتفخيم شأن الإيواء، ولمناسبة فواصل الآى قبلها وبعدها.

* * *

# سورة الانشراح

١ - ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الانشراح: ١].

**الدراسة والتحليل:**

هى من السور المكية بالاتفاق، نزلت بعد سورة الضحى وقبل سورة «والعصر» وترتيبها النزولى كان الثانية عشرة.

وهى من السور التى بدئت بالاستفهام، وهو لم يأت فيها إلا مرة واحدة فى الآية الأولى منها:

**﴿ألم نشرح لك صدرك﴾**.

وهو استفهام تقرير وامتنان وتبهيج لقلب النبى ﷺ.

**أسرار النظم وبلاغياته**

* **﴿ألم نشرح لك صدرك﴾** عبارة فيها تبهيج وترويح عن النبى ﷺ. وإيثار الاستفهام على الخبر حيث لم يقل:

قد شرحنا لك صدرك لما فى الاستفهام من قوة الاثبات وتحريك المشاعر والايحاء بطلب الجواب لتمكين المعنى فى النفس كل التمكين.

ومن سمات الحفاوة والتكريم للنبى ﷺ ذكر الجار والمجرور فى **﴿لك﴾** حيث لم يقل: ألم نشرح صدرك. فذكر **﴿لك﴾** لزيادة الابهاج والاحتفاء وكذلك فى إضافة **(صدر)** إلى ضميره، حيث لم يقل ألم نشرح لك الصدر. بل **﴿صدرك﴾** تأليفا له وتطييبًا لخاطره.

* * *

# سورة التين

١ - ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٧، ٨].

**الدراسة والتحليل:**

سورة التين مكية، ترتيبها فى النزول الثامنة والعشرون نزلت بعد سورة البروج وقبل سورة قريش.

وهما من السور التى بدئت بالقسم، والمقسم به فيها متعدد: نوعان من الأشجار: التين والزيتون، وبقعة من الأرض: طور سينين.

والمقسم عليه إحسان الله خلق الإنسان شكلاً وصورة. وقد ورد الاستفهام فيها مرتين فى آيتين متجاورتين هما الأخيرة وما قبل الأخيرة منها:

**﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾**؟

**﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾**؟

وإقسام الله - عز وجل - بقسم من مخلوقاته كثير فى القرآن الكريم بل هو الغالب على كل أقسامه.

ولهذا سر سنعرض له فى مبحث الأسرار والبلاغيات، أما هذان الاستفهامان فقد اتفق الأئمة على أن الاستفهام الأول: **﴿فما يكذبك بَعْدُ بالدين﴾** استفهام إنكار، وليس لهذا الرأى بينهم مخالف.

أما الثانى: **﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾** فهو استفهام تقرير وإن ذهب بعضهم فى مثله إلى الإنكار فله اعتبار مخالف للقواعد اللغوية والبلاغية، والمقام يأباه، وقد أشرنا إلى هذا الرأى مرات من قبل، ومنها آية الزمر: **﴿أليس الله بكاف عبده﴾** [٣٦].

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾** بعد أن أكد الله بالتوكيد القسمى على خلق الإنسان فى أحسن تقويم، وأن هذا التقويم الحسن سيكون ملازماً للإنسان كظله إذا استقام أمره

على فطرة الله التى فطر الناس عليها وآمن به وصدَّق برسله وامتثل أمره واجتنب نهيه، فإذا كفر بالله وبارزه بالمعاصى، وكذب برسله وعاند رده الله أسفل سافلين.

والذى أقسم الله عليه آية باهرة من آياته، وأثر عظيم من آثار قدرته وبديع صنعه، يغرس الإيمان فى القلوب غرساً، لأنه من الأدلة الناطقة على وجود الله ووحدانيته، فمن كفر - بعد هذا - فليس له عذر، ولا لكفره سبب.

وهذا ما دل عليه النظم الحكيم بهذا الاستفهام:

* ﴿**فما يكذبك بعدُ بالدين**﴾ أى لا سبب لك يجعلك تكذب بالدين الذى أنزله الله وبسط أقطع الدلائل على صحته وصدقه فالاستفهام سلط الإنكار على السبب والقصد إنكار المسبب وهو التكذيب بالدين.

وغنى عن البيان أن هذا من الكنايات اللطيفة التى استثمرها النظم القرآنى كثيراً فى مقام الحجاج والإلزام وإفحام خصوم الدعوة.

والفاء فى (**فما يكذبك**) تفريعية، فرَّعَتْ الإنكار على ما ذُكِر قبلها من دلائل الإيمان والتوحيد.

والمخاطب بالكاف (**يكذبك**) هو الإنسان الذى أقسم الله من قبل على حسن خلقه، وجمال تقويمه.

وفى هذا الخطاب التفات من الغيبة فى ﴿**لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم**﴾ إلى الخطاب فى ﴿**فما يكذبك بعد بالدين**﴾ وسره البلاغى تشديد الإنكار وتقويته، ومواجهة الذين كفروا بالإلزام والإفحام.

* ﴿**أليس الله بأحكم الحاكمين**﴾ لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها وكلتاهما إنشائية لفظاً ومعنى، فبينهما التوسط بين الكمالين وهو يقتضى عطف الثانية على الأولى بالواو.

ولكن النظم الحكيم فصل الثانية عن الأولى، فما سر هذا الفصل؟

الذى يبدو عند النظر فى الجملتين، يجد اختلافاً بين أطراف الإسناد فى الجملتين.

فالمسند إليه فى الأولى هو الضمير المستكن فى (**يكذبك**) العائد على (ما) المكنى به

عند سبب الكفر المنفى الذى لا وجود له، أما المسند فهو التكذيب.

والمسند إليه فى الثانية هو اسم الجلالة (الله) والمسند هو وصفه القائم به (بأحكم).

وهذا التباين بين أطراف الإسناد فى الجملتين بجعل العلاقة بينهما سلب التناسب (كمال الانقطاع) وهو من دواعى فصل الجمل الثانية عن الجمل الأولى.

ودخول الباء على خبر (ليس) إذا اعتبره النحاة زائداً من حيث الإعراب، فهو فى البلاغة جئ به لمعنى، وهو كما أشرنا عند آية الزمر [٣٦]، لزيادة التوكيد، وإحكام الربط بين المسند إليه (الله) والمسند (بكافٍ) فى الزمر، و(بأحكم) فى التين.

* وفى **(بأحكم الحاكمين)** كناية عن صفة، هى تفرد الله - عز وجل - بالنفوذ والسلطان وحده لا شريك له فى الوجود كله.

* * *

# سورة العلق

سـورة العلق، أو سـورة (اقـرأ) أول مـا نزل من القـرآن بمكة المكرمـة، وهذا هو المعروف عند أهل العلم وفى كتب السيـرة، فهى السورة الأولى نزولاً، وإن كانت فى هذا الشأن أراء أخرى، حرية بالرد، أما ما نزل بعدها فالإمام الزركشى يذكر أنه سورة (القلم)[1].

وأياً كان الأمـر فإن سورة (العلق) كانت أول مـا نزل به جبريل - عليـه السلام - على خاتم الرسل، وعلى هذا تواترت الأخبار والأحاديث الصحيحة.

وقد ورد فى هذه السورة أربعة استفهامات فى أربع آيات وبين آيات الاستفهام آيات خلت من الاستفهام، ولكنها وثيقة الصلة بمعانى الاستفهام قبلها وبعدها، فآثرنا ذكرها جميعاً - هنا - لتيسير فهم المعنى المراد، والآيات هى:

١ - ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾

[العلق: ٩ - ١٤].

**الدراسة والتحليل:**

يميل بعض المفسرين إلى أن سبب نزول هذه الآيات كان تعرض أبى جهل لمنع النبى من الصلاة، أو منع بلال - رضى الله عنه.

وقـد استـشكل بعض العلمـاء هذه الرواية بأن سـورة العلق هى أول مـا نزل من القرآن، والصلاة فرضت ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة إلى المدينة بعام واحد؟

وأجيب على هذا الاستشكال بأن الصـلاة - هنا - لم تكن هى الصلاة المفروضة، بل صلاة تطـوع قبل طلوع الشمس وقـبل غروبهـا، وأن هذه الآيات التى تحكى هذه الواقعة تأخر نزولها على نزول أول السورة بسنتين أو أقل أو أكثر.

---

(١) البرهان فى علوم القرآن (١/ ١٩٣).

وهذه - فيما ترى - إجابة سـديدة للغاية؛ لأن ورود حكاية النهى عن الصلاة فى أول سورة نزلت دليل قـاطع على أنها واقـعة صحـيحة، وأن الـنبى، أو بلالاً، كان يصلى صلاة فعـلاً قبل فرض الصلاة قبل الهجـرة بعام، ودليل آخر، وهو الآية التى جاءت خاتمة للسورة، وفيها يقول الله - عز وجل -:

﴿كلالاً تطعه واسجد واقترب﴾ [١٩].

وهى دليل قـاطع على أن المخاطب هو الـنبى ﷺ، وأن الذى نهاه أبو جـهل عن الصلاة هو النبى لا بلال.

**الجـــــــدول**

| م | الاستفهام | نوعـــه | معنـــــاه |
|---|---|---|---|
| ١ | (أرأيـــت الـــذى يـــنـــهـــى) | مـجـازى | أخبـرنى - استحضـار صورة المستفهم عنه. |
| ٢ | (أرأيت إن كـــان علـى الهـــدى) | مـجـازى | أخبـرنى - استحضـار صورة المستفهم عنه. |
| ٣ | (أرأيـت إن كـــــــذب وتولـى) | مـجـازى | أخبـرنى - استحضـار صورة المستفهم عنه. |
| ٤ | (ألـــم يـعـــلـــم بـأن الله يـــرى) | مـجـازى | تقرير وتهديد ووعيد شديدان. |

فى الاستـفهـام الذى صيغـته (أرأيت) فى المواضع الـثلاثة أثبتنا مـعنيين، الأول: أخبرنى، وهو - رأى الجمهور - كمـا تقدم ذلك فى مواضع كثيرة فى هذه الدراسة، والثانى: استـحضار صورة المستفهم عـنه فى الذهن، وهو المذهب المختار لنا فى هذه الدراسة كلها.

## أسرار النظم وبلاغياته:

ورد الاستفهام بصيـغة (أرأيت) فى هذه الآيات ثلاث مرات، ورأينا شيخ المفسرين القدمـاء (الإمام جار الله الزمـخشرى) يفـسره عند المرة الأولى بقوله: أخـبرنى وهو التفـسير الذى يكـاد يجمع عليه المفـسرون والبلاغـيون، وفى السـفر الأول من هذه

الدراسة عرضنا لهـذه المسألة وقلنا إن هذا المذهب سرى إلى المفسـرين والبلاغيين من شيخ النحـاة سيـبويه، وآخرين من النحـاة، كمـا أثبتنا أن بعض المفسـرين فى بعض المواضع أهملوا هذا المذهب ومالوا إلى أن (أرأيت) ونظائره يراد منه استـحضار صورة المستفهم عنه فى الذهن، وهذا هو الذى رجحـناه فى جميع الصور وزدنا على قولهم هذه العبارة:

(لِيُحكَمَ عليه) - أى على المستفهم عنه - وهو حاضر ماثل فى ذهن السامع، لأن هذا أَعْـوَن على إدراك المعنى واسـتقـراره، ونجـزم - هنا - بأن المراد من (أرأيت) فى الآيات الثلاث هو أن يستـحضر السامع الصورة المسـتفهم عنها، تمهيـداً لتعقُّل الحكم الذى سيصدره المتكلـم على تلك الصورة التى أثار الاستفهام المشـاعر نحوها، وشوَّق السامـع إليها، فـالذى ينهى عبـداً عن الصلاة شـخص غريب الأطوار، وفـعله هذا يستحق أن تلتفت نحوه الأنظار وتتعجب منه لغرابته وبشاعته.

وحمل الاسـتفهـام بـ(أرأيت) فى الصور الثلاث على مـعنى: أخبرنى أمـر صعب قبـوله، وصعـب هضمـه، والذوق ينبو عنه، والمقـام يأباه، أما حـمله على التـذكر والاسـتحـضار والتـعجب منه تمهـيداً للحكـم عليه فـهو الذى ينادى به المقـام، ومما اضطربت فـيه أقـوال الأئمة فى هـذه الاستـفهـامات الثـلاث: الأُوَل تكرار (أرأيت) وبخاصة الثانية مع الأولى، ثم اختلاف المستفهم عنه اختلافاً بيِّناً.

فـ(أرأيت) الأولى جاء بعدها: **(ينهى عبداً إذا صلى)**، والثانية جاء بعدها **(إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى)**. والثالثة جاء بعدها: **(إن كذَّب وتولى)**.

ولكى يشترك معنا القارئ فى إدراك ذلك الاضطراب وصـعوبة فهم المعنى معه، أو تعقيـد المعنى تعقيداً ثقـيلاً نحيله إلى مصـدر واحد فقط، هو كشـاف الإمام جار الله الزمخشرى ليرى القارئ نفسه كيف غاب المعنى وتوارى خلف ذلك الاضطراب[1].

ولذلك، لاح لنا بعد تفكر ليس بالقصير، لاح لنا معنى يبعث على راحة النفس،

---

(١) الكشاف (٤/ ٢٧١).

واطمئنان القلب، لا تعقيد ولا التواء فيه، وجار مع بلاغة النظم الحكيم جرى النسيم فى الرياض الفيحاء.

هذا المعنى ينتظم صور الاستفهام الأربع لا الثلاث الأولى فحسب، ونثبته كما لاح لنا، فإذا كان صواباً واستراح إليه متذوقو المعانى فى كتاب الإعجاز، فهو فضل من الله، ونحمده عليه، وإن كان غير ذلك فهو قصور منا، ونضرع إلى الله طالبين العفو عنا منه، وشفيعنا لديه الإخلاص فى النية، والاجتهاد المبرأ من الهوى.

**المعنى كما لاح لنا:**

يقول الله تعالى لرسوله:

أتذكر الذى ينهى عبداً إذا صلى، ويتجرأ هذا التجرؤ؟ إن هذه حاله التى هو عليها، فتصور فى ذهنك إن كان هذا الناهى على حالة من الهدى، أو حالة من الأمر بالتقوى والنهى عن المنكر، أو كان على حالة من التكذيب والتولى مهما اختلفت أحواله وتبدلت ألم يعلم أن الله يراه ويحصى ما يفعل ويحاسبه عليه.

يعنى أن الله يعلم ويرى جميع أحواله وتصرفاته شراً كانت أو خيراً ولن يفلت من محاسبة الله إياه.

هذا ما لاح لنا أثبتناه عسى أن يكون صواباً مقبولا عند الله وعند صالحى المؤمنين.

وعلى هذا فلا زيادة فى **(أرأيت)** الثانية، ولا فى غيرها بل كل واحدة فيها استفهام برأسه، وكان الإمام جار الله قد حكم على **(أرأيت)** الثانية بأنها زائدة للتوكيد وفى **(عبداً)** التفات من الخطاب فى **(أرأيت)** إلى الغيبة فى **(عبداً)** لأن المخاطب هو محمد ﷺ، والمنهى عن الصلاة (عبداً) هو محمد ﷺ، وكان الأصل أن يقال:

أرأيت الذى ينهاك إذا صليت، ولو قيل هذا لكان الوعيد مقصوراً على أبى جهل وحده، لاختصاص إيقاع النهى منه على الرسول، ولكن لَمّا قيل (عبداً) صار الوعيد عاماً فى كل من ينهى عبداً عن طاعة الله - عز وجل.

* * *

# سورة القدر

١ - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١، ٢].

**الدراسة والتحليل:**

فى هاتين الآيتين توقيت لبدء نزول القرآن، وإشادة بالقرآن، وبالزمن الذى بدأ نزوله فيه، وسورة القدر هذه من القرآن المكى عند الجمهور، ويرى غير الجمهور ومنهم ابن عباس والضحاك أنها أول سورة نزلت بعد الهجرة فى المدينة المنورة، وساقا علي هذا بعض الدلائل لكن المعول عليه أنها مكية، وهو مذهب الجمهور كما تقدم وعلى مذهبهم فإن نزولها كان بعد سورة (عبس) وقبل سورة (والشمس وضحاها) وترتيب نزولها عندهم الخامسة والعشرون ولم يرد فيها إلا استفهام واحد كثر وروده فى السور القصار فى أواخر الربع الرابع من القرآن، ولما كان هذا الاستفهام شديد الارتباط بالآية التى قبله آثرنا ذكر الآيتين معاً.

والاستفهام هو:

**﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾**، وقد تقدم معناه أكثر من مرة، وهو أن المراد به التفخيم والتعظيم، كما ورد فى: **﴿الحاقة، ما الحاقة، وما أدراك ما الحاقة﴾** وفى:

**(وما أدراك ما يوم الدين)** فصيغة: ما أفعلك فيه هى القاسم المشترك بين جميع صوره، أما المتغير فهو ما بعد (ما) الثانية، وهو الذى يميز بين الصور.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾** الضمير المنصوب فى **(أنزلناه)** كناية عن القرآن، وقد عُبِّر عنه بالضمير دون أن يتقدم له ذكر فى الكلام إشارة إلى أنه ينبغى أن يكون حاضراً فى الذهن والعقل والقلب والمشاعر، لا يحول دون استحضاره فيها حائل؛ لأنه روح القلوب، ونور العقول، والقلوب التى تخلو منه قلوب ميتة والعقول التى يغيب عنها عقول مظلمة، كما يظلم الكون إذا غابت عنه شمسه، فهذا (الإضمار)

فيـه من الفخامة والعظمـة ما فيه، وفى التـعبير بنون (الـعظمة): (أنزلناه) والمتكلم واحد لا ثانى له فى الوجـود تفخيم وتعظيم أول لشأن المتـحدث عنه، وهو القرآن الحكيم.

وإضـافة (ليلة) إلى (القـدر) تشريـف وتكريم ثان، لأن القدر - هنا - هو الشـأن الجليل الذى لا يحاط بجلاله وفخامته.

* **﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾** استفهامان فى صورة استفهام واحد كما تقدم مرات.

**الأول:** **(وما أدراك)** وهو استفـهام نفى وإنكار، أى: لم يُدْرِكَ أحد قط بحقـيقة ليلة القدر، ولا يملك أحـد أن يدريك عنها شـيئاً إلا الله لفـخامة قـدرها فى علمه هو وحده المحيط بكل شئ.

* **الثانى:** **﴿ما ليلة القدر﴾** معمول الإدراء أو الإعلام المنفى فى الاستفهام الأول، والمراد من هذا الاستفهام هو التفخيم والتعظيم، ثم بين له شيئاً من فخامتها بدءاً من قوله تعالى: **﴿ليلة القدر خير من ألف شهر..﴾** إلى آخر السورة.

* * *

# سورة الزلزلة

١ - ﴿ وَقَالَ ٱلإِنسَانُ مَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ٣].

**الدراسة والتحليل:**

اختلف أهل العلم فى بيئة سورة الزلزلة، أهى مكية وهو ما عليه الأكثرون؟ وقيل إنها مدنية، وهذا الاختلاف ترتب عليه اختلاف فى ما نزل قبلها، وما نزل بعدها، وفى ترتيب نزولها، وعلى القول بأنها مكية، جُعِل ترتيبها الرابعة والتسعين.

ولها غرض واحد، هو الحديث عن يوم القيامة، وإجمال الإشارة إلى أهواله، وبيان عدل الله - عز وجل.

وقد ورد فيها استفهام واحد، هو تكرار لما جاء مناظراً له مما تعرضنا له فى هذه الدراسة فى مواضع كثيرة، بل وذكرنا ضابطاً بلاغياً يحكم هذا الأسلوب الاستفهامى، الذى يقع فيه حرف الجر (اللام) جاراً لضمير مفرد أو جمع فى صيغ التكلم والخطاب والغيبة.

وهو - هنا - قوله تعالى المحكى عما سيقوله الناس حين يقومون من بطون الأرض مذعورين مدهوشين يتساءلون عما حدث للأرض.

أو يكون هذا التساؤل عند الزلزلة الأولى قبل الصعق وإن كان الأول، أى عند الخروج من القبور هو الذى يتبادر من المقام[1].

**﴿وقال الإنسان ما لها﴾؟**

وقد ورد هذا الاستفهام بعد قوله تعالى فى أول السورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [١، ٢].

فقول الإنسان بعد هذين الحدثين: الزلزلة، والإخراج **(ما لها)** ناشئ من غرابة

(١) حكى العلماء أن للأرض فى آخر الزمان زلزالين، أحدهما قبل صعق الأحياء، والثانى عند الخروج من القبور بعد الصعق العام.

الزلزلة والإخراج، فإن المراد من الإخراج إحياء الموتى، كان قول الإنسان هذا بعد البعث وإن كان الإخراج لأثقال أخرى قبل الصعق كان قول الإنسان **(ما لها)** آخر ما يقال فى الحياة الدنيا.

والاستفهام فى **(ما لها)** للإنكار والتعجب، وإن كان التعجب ناشئاً عن الإنكار فإنه هو المتبادر إلى الذهن هنا.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* ﴿**وقال الإنسان**﴾ المراد بـ(الإنسان) إما تعريف الجنس الشامل لكل الناس يقولون هذا من شدة الهول، وإما أن يكون المراد منه الكافر الذى لم يكن يؤمن بالبعث، أشار إلى هذين الرأيين الإمام جار الله، وجزم بأن هذه الزلزلة تكون عند النفخة الثانية، نفخة الخروج من القبور، كما رجح أن يكون القائل هو الكافر، أما المؤمن فيقول: ﴿**هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون**﴾، فإن كان المراد من **(الإنسان)** الكافر كان مجازاً مرسلاً بإطلاق العام - الجنس - وإرادة الخاص - النوع.

وفى العبارة إيجاز بالحذف: والتقدير، وقال الإنسان ما لها زلزلت هذه الزلزلة؟

ودلالة هذا الاستفهام على الإنكار والتعجب أن النفى بـ(ما) فيه مسلط على سبب الزلزلة، والمعنى أى شئ حدث لها جعلها تتزلزل هذه الزلزلة، والسؤال عن الشئ - عموماً - يستلزم عدم العلم به، وقد كنوا بعدم العلم به عن عدم وجود الشئ نفسه، وهذا هو معنى النفى والإنكار فى هذا المثال ونظائره.

ولكن لما كان (الشئ) وهو - هنا - موجوداً مع جهل أسبابه كان هذا الاستفهام دالاً على التعجب مما حدث مما لم يعرف سببه، وهذا من الكنايات التى وسمناها فى هذه الدراسة بالبداعة وشدة اللطف، والذى نرجحه فى المراد من (الإنسان) هو العموم الشامل لجميع الأفراد وذلك لسببين:

**الأول**: لأنه المناسب لغرابة أهوال يوم القيامة وشدة وقعـها على النفوس جميعاً، لا فرق بين مؤمنهم وكافرهم، ولا بين صالحهم وفاسدهم.

**الثاني**: حصر معنى (الإنسانية) فى الكفار لا مسوغ له، وهو شرف عظيم لا يستحق الكافر أن يكون هو - وحده - المستأثر به.

* * *

# سورة العاديات

١ - ﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ ﴾ [العاديات: ٩].

**الدراسة والتحليل:**

سورة العاديات من السور المختلف فى بيئتها بين أن تكون مكية النزول أو مدنية، ومن قال إنها مكية قال: نزلت بعد سورة العصر، وقبل سورة الكوثر، وأن ترتيب نزولها هو الرابعة عشرة، فهى على هذا من بواكير القرآن.

وهى من السور (القسمية) والمقسم به فيها هو خيل الغزاة المجاهدين في سبيل الله، وقد تعدد القسم بخيل الغزاة باعتبار أوصاف وقيود خاصة بكل مقسم به:

العاديات - أى المسرعات فى السير - فالموريات قدحاً - أى الخيل التى تورى النار من الحصى لسرعة سيرها - فالمغيرات - أى الخيل التى تغير على العدو فى وقت الصباح مبكراً.

أما المقسم عليه فهو كنود الإنسان إلى ربه، والكنود هو كفر النعمة التى أنعم الله بها على الإنسان.

وبعض العلماء يرى أن المقسم به هو قوافل الحجيج ورواحلهم وهذا القول يأباه المقام، وإن رُوى عن الإمام على بن أبى طالب، لأن الرواية تحتاج دليلاً، ومجرد الرواية لا يُعوَّل عليه مطلقاً، وبخاصة أن دلالة المقام - هنا - تؤكد أن المراد خيل الغزاة.

ولم يرد الاستفهام - هنا - إلا مرة واحدة فى آية واحدة وهو قوله تعالى: **﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور﴾**؟

وهو استفهام تقرير إن حملناه على مذهب الجمهور المتقدم ذكره كثيراً مع شرحه والتطبيق عليه فى هذه الدراسة.

واستفهام إنكار إن حملناه على مذهب الزمخشرى، وأن التقدير - مثلاً -: أجهلوا

فلا يعلمون، على أن الإنكار مسلط على ما بعد الهمـزة أصالة، وما بعد الفاء حملاً على ما بعد الهمزة، هذا من حـيث اللفظ، أما من حيث المعنى فإن الكلام يؤول إلى الإثبات.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

سيق هذا الاستفهام تعقيباً على سلوك الإنسان من كفرانه لنعم الله وكثرة معاصيه، كأنه لا يعلم أن الله سيبعث الناس من قبورهم، ويفضح سرائرهم، ويجازى كل نفسٍ بما كسبت.

فالله ينكر على الإنسان كفره نعمه، ومبارزته بالمعاصى وحبه الشديد لحطام الدنيا، ثم يوبخـه على هذا المسلك القـبيح ويتـوعـده ويهدده، لأن هذه الآية مع مـا عطف عليها، وجواب شرط (إذا) وعيد شديد يبدو من مجرد تلاوة هذه الآيات:

﴿**أفـلا يعلم إذا بعثـر ما فـى القبـور * وحُصِّل مـا فى الصـدور * إن ربهم بهم يؤمئـذ لخبير**﴾.

فبعـثرة ما فى القبور كناية عن البـعث، وتحصيل ما فى الصـدور كناية عن إفشاء الأسرار التى كـانت فى الحياة الـدنيا، والجملة الخـبرية: (**إن ربهم بهم يومـئذ لخبـير**) مستعمـلة فى التهديد والوعيد على سبيل المجاز المرسل، وهـى جواب (إذا) سد مسد مفعولى (**يعلم**)، وفى الآيات من الإيجـاز الحـذفى مـا لا يخـفى أثره فى التـهـويل والتفظيع.

* * *

# سورة القارعة

هذه السورة لا خلاف فى أنها نزلت بمكة، قبل الهجرة. فهى سورة مكية. نزلت بعد سورة قريش وقبل سورة القيامة. وترتيب نزولها هو الثلاثون، فهى من أوائل ما نزل من القرآن الكريم.

وهى مثل سورة (الحاقة) فى مطلعها. وليس بين الآيات الثلاث فى السورتين فرق إلا كلمة (الحاقة) فى الحاقة (القارعة) فى القارعة، والكلمتان صفة لموصوف واحد.

وقد ورد الاستفهام فيها ثلاث مرات فى ثلاث آيات هى:

١ - ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ [٢].

٢ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [٣].

٣ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ [١٠].

**الدراسة والتحليل:**

هذه السورة كلها - مثل سورة الزلزلة - لها موضوع واحد هو الحديث عن يوم القيامة. مع ذكر بعض أهواله ثم تقسيم الناس قسمين:

قسم كثرت حسناته وقلّت سيئاته أو انعدمت. وهؤلاء لهم عيشة راضية. وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، وقسم قلت حسناتهم أو انعدمت، وهؤلاء ليس لهم من مصير إلا نار جهنم يهوون فيها وهم فيها خالدون، وقد مهد النظم لهذا التقسيم بالتهويل الذى بدأت به السورة ثم جمع الناس لذلك اليوم وتذرية الجبال وزوالها.

**الجدول**

| م | الاستفهام | نوعه | معناه |
|---|---|---|---|
| ١ | «ما القارعة» | مجازى | التهويل والتفظيع |
| ٢ | «وما أدراك ما القارعة» | مجازى | النفى - التهويل |
| ٣ | «وما أدراك ما هيه» | مجازى | الإنكار - التهويل |

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(القارعة ما القارعة)** وقعت القارعة فى هذه السورة، وهى كلمة واحدة، آية برأسها، مثل: الرحمن - الحاقة، وسواء قُدِّر معها محذوف أو لم يقدر. فوضعها فى النظم آية مستقلة يوحى بأن هذه الكلمة، ونظيرتها، سادة مسد الجملة، من حيث المعنى: يعنى هى مبتدأ خبره فيه، أو خبر مبتدؤه فيه، أى هى من الكلمات التى يكتفى بها - لفخامة معناها - فلا تحتاج إلى ما تضم هى إليه، أو يضم هو إليها. وهذا من عناصر التفخيم المقصود من الاستفهام الذى بعدها.

* **(ما القارعة)** أول استفهام فى السورة يُفرِغُ فى السمع شحنة هائلة، من التهويل والتفخيم، لأن السؤال عن الشىء معناه استغرابه وبُعْده عن الفهم والتصور المعقول الأسباب. والاستفهام بأسلوب. . ما كذا؟ يحتمل أن يكون للتحقير والتضئيل، وأن يكون للتفخيم والتعظيم، والفارق بين المعنيين هو المقام الوارد فيه هذا الأسلوب. مثل المقام الذى نتحدث عنه هنا.

ثم كرر هذا التفخيم والتهويل والتعجيب بالاستفهامين الآتيين:

* **(وما أدراك. .)**؟ وهو - كما عهدنا من قبل مستعمل فى النفى والإنكار. أى لا علم عندك، ولا مُدْرٍ يدريك لأن الأمر أعظم من أن يحيط به علم عالم سوى الله عز وجل فالناس جميعا سواء فى الجهل بحقيقة: (القارعة) ولن يحصل العلم بها عن طريق التصوير اللفظى البيانى، بل حين تُدْرك بالعين تجرى أحداثها على مسرح الواقع المحسوس. ولن يكون هذا إلا يوم يكشف الله الغطاء الحاجب. ويكون البصر حديداً.

* **(ما القارعة)** عود لبدء. كان الاستفهام الأول:

**(ما القارعة)** ثم كان الاستفهام الثالث **(ما القارعة)** وبينهما كان **(وما أدراك)**.

وليس بعد هذا التهويل البيانى بيان تهويل. وهذا هو الإعجاز فى أجلى صوره، فليس فى مقدرة أحد، مهما كان أن يصور أهوال القيامة بأسلوب أبلغ من هذا الأسلوب، أو مساوٍ له.

❋ **(وما أدراك مـاهيه)** ؟ تهـويل وتفظيع من شـأن النار، مأوى مـن خفت مـوازينه.

والقرآن سماها (أم): (فأمه هاوية ❋ وما أدراك ماهيه ❋ نار حامية).

تهويل فى اللفظ والبيان، واللفظ والبيان لايكفيان فى الوفاء بالمعنى المراد، وإن بلغا الغاية فى الـتهويل الممكن تصـويره عن طريق اللفظ والبـيان. أما حـقيقـة النار فلن يدركها إلا من يصطلى بها، نعوذ بالله منها ومما يؤدى إليها من قول أو عمل.

❋ ❋ ❋

# سورة الهمزة

١ - ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ [الهمزة: ٥].

**الدراسة والتحليل:**

سورة (الهمزة) وتسمى سورة (الحطمة) سورة مكية باتفاق أهل العلم. نزلت بعد سورة القيامة، وقبل سورة المرسلات.

وترتيب نزولها الثانية والثلاثون، فهى من أوائل مانزل من القرآن.

ولها موضوع واحد، وهو الوعيد الشديد للذين يلمزون الناس ويهمزونهم، أى: يسبونهم ويسخرون منهم، وينسبون إليهم العيوب والنقائص على سبيل الاستهزاء منهم، والتندُّر والتفكه، بغية الضحك والإضحاك وسبب نزول السورة أن جماعة من أثرياء المشركين منصوص على أسمائهم فى كتب السيرة والتفسير كانوا يسخرون من فقراء المسلمين، أو من المسلمين عامة كما تقدم فى سورة المطففين [٢٩-٣٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾.

كانوا مفتونين بثرواتهم المالية، ومنزلاتهم الرفيعة بين قومهم، فحملهم كفرهم وبطرهم وفراغ قلوبهم من القيم، وفقر أنفسهم من كرم الأخلاق. حملهم هذا كله على أن يتخذوا من المسلمين مادة للسخرية والتسلية والضحك والتضحيك.

فأنزل الله فيهم هذه السورة الهادرة الزاجرة يتوعدهم فيها بالويل والثبور وعظائم الأمور والسورة - فى عمومها - قسمان:

القسم الأول: يبدأ بإعلان الهلاك للهُمَزَة اللُّمَزة وبيان حرصهم على المال واغترارهم به. وذلك فى الآيات الآتية:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [١-٣].

والهمزة واللمزة على وزن (فُعَلَه؟) هو كثير الهمز واللمز، أى سب الناس والسخرية منهم، وبناؤهما على وزن (فُعَلَه) للمبالغة فى كثرة الهمز واللمز منهم.

أما القسم الثانى ففيه إبطال لاغترارهم بالمال، وأنه لن يدفع عنهم عذاب الله الذى سيلحقهم فى النار التى ستحطم عظامهم وتطحنهم، وتفرى قلوبهم التى كانت فى الدنيا بؤرة فساد وأحقاد. وذلك ما جاء فى الآيات الآتية:

﴿كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [٤-٩].

وقد جاءت آية الاستفهام ليفيد تهويل الحطمة، التى سينبذ فيها أولئك الهمزة اللمزة تاركين أموالهم - التى عبدوها - وراء ظهورهم.

**أسرار النظم وبلاغياته:**

* **(وما أدراك ما الحطمة)** عرفنا من قبل أن هذا الاستفهام استفهامان فى صورة استفهام واحد.

**الأول:** **(وما أدراك)**، وهو الجذر اللغوى البلاغى الثابت فى هذا التركيب فى جميع الصور التى جاءت عليه. ومعناه المجازى الإنكار بمعنى النفى.

**الثانى:** **(ما الحطمة)** وهو الجذر اللغوى البلاغى المتغير من صورة إلى صورة. ومعناه المجازى التهويل والتفظيع.

وقد أسهم فى هذا المعنى الاستفهام الأول فصار الاستفهامان كناية عن تهويل شأن الحطمة التى أعدها الله لأولئك الأشقياء الجاهلين وفى تسمية النار (الحطمة) خاصية بيانية ناسبت المقام المستعملة فيه:

فهَـؤلاَءِ الهمزة اللمزة لهم كيان ضخم فى الحياة الدنيا؛ أموال طائلة، وأثاثات فارهة، وحاشية وأتباع وقصور ومتع لا حدّ لها. واغترارهم بأنهم أقوى من الفناء يجعلهم كأنهم اعتقدوا خلودهم فى هذه الحياة فجاءت كلمة الحطمة بجرسها ومعناها ومبناها قذيفة سريعة المفعول، واسعة المدى تحطم ما بنوه من مجد زائف فى هذه الحياة وتدعه هشيما تذروه الرياح.

**ضوابط أسلوب ما أدراك:**

وإذا تتبعنا صيغة هذا الاستفهام فى النظم القرآنى الحكيم، ورصدنا نتائج هذا التتبع فإننا نلحظ فيه ما يأتى:

**أولاً**: وروده دائما - سواء كان الفعل فيه مـاضيا، كالأمثلة، المدروسة **(وما أدراك)** أو مضارعا مثل ﴿**وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا**﴾ [الأحزاب: ٦٣] فى مقام التهويل والتفـخيم والتعظيم. إلا فى مـوضع واحد فى [سورة عبس: ٣]: ﴿**ومـا يدريك لعله يزكى**﴾.

**ثانيا**: استعماله - دائما - فى الإنكار أو النفى.

**ثالثا**: استعماله - إلا فى القليل - فى تهويل يوم القيامة وما يتصل بها من تبكيت الذين كفروا وتبهيج الذين آمنوا **(وما أدراك ما عليون)**؟

**رابعاً**: تعـقيب مـا جاء بالفـعل الماضى **(وما أدراك)** بذكـر مـا سُلِبَ علمـه عن المخاطب، مثل:

**(وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر . .)**.

ومثل: **(وما أدراك ما هيه * نار حامية)**.

ومثل **(وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة)**؟

أما المضارع **(يدريك)** فلا يذكر بعده مـا سلب علمه عن المخاطب **(وما يدريك لعل الساعة قريب)**.

**خامسا**: ورودها فى الربع الأخير مـن القرآن إلا مرة واحدة وردت فيـها فى سورة الأحزاب، ثم اخـتصاصـها بقصـار السور، وبخاصـة ما نزل منها بمكة المكرمـة قبل الهجرة.

**سادساً**: إفراد المخاطب بها وقصرها على المفرد المذكر دون المؤنث. فلم تأت خطابا لمثنى أو جمع قط سواءٍ كان الفعل ماضيا أو مضارعا.

**سابعاً**: إذا كان الفعل مـضارعا اطرد النظم الحكيم أن يذكـر بعده جملة، مبـهمة، المعنى - قصدا - مع تصدير هذه الجملة بحرف الترجى (لعل) فى المواضع الثلاثة التى جاء فيها الفعل مضارعا.

﴿**وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا**﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿**وما يدريك لعل الساعة قريب**﴾ [الشورى: ١٧].

﴿**وما يدريك لعله يزكى**﴾ [عبس: ٣].

واقتران الجملة فى المواضع الثلاثة التى جاء فيها الفعل مضارعاً بحرف الترجى **(لعل)** إنما جىء به قصدا لإبهام المعنى على المخاطب كما أن إيثار الماضى **(وما أدراك)** فى المواضع التى ذكر فيها ما سلب علمه عن المخاطب للدلالة على أن النفى مختص بالزمن الماضى فحسب بدليل أن النظم بذكره لما سلب علمه فى الماضى قد أزال ذلك النفى.

أما إيثار المضارع فى المواضع التى لم يذكر فيها ما نفى علمه عن المخاطب، فللدلالة على استمرار ذلك النفى فيما يستقبل من الزمان.

وهذا من دقائق النظم القرآنى المعجز الذى لايمكن تبديل كلمة فيه عن موضعها مع الوفاء بالمعنى المراد منها.

* * *

# سورة الفيل

١ - ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ١-٢].

**الدراسة والتحليل:**

هذه السورة مكية بإجماع أهل العلم، نزلت - على المشهور - بعد سورة (قل يا أيها الكافرون). وقيل سورة (قل أعوذ برب الفلق) وترتيب نزولها التاسعة عشرة. فهى من بواكير سور القرآن نزولاً والسورة فى مجملها توطيد لأقدام النبى ﷺ فى مجال الدعوة، وتبشير له بالنصر والتأييد، فالله الذى دفع عن بيته المحرم كيد أصحاب الفيل، وأهلك أعداء الحق قبل مبعث رسول الإسلام، قادر على سحق أعداء الحق فى ظل الرسالة الجديدة التى كرَّم الله بها رسوله الكريم. وبقدر ما تحمل هذه السورة من بشرى تحمل نذارة ووعيداً لخصوم الدعوة ومناهضيها من كفار قريش الذين يعرفون ما حدث لأصحاب الفيل؛ لأن هذه الواقعة، لم يمر عليها نصف قرن من الزمان يوم نزلت هذه السورة.

وهى من السور التى بدأت بالاستفهام، وقد تكرر فيها مرتين فى آيتين متتابعتين:

**(ألم تر كيف فعل ربك . .)؟**

**(ألم يجعل كيدهم فى تضليل)؟**

وهذا الاستفهام - بصورتيه - استفهام تقرير، أى قد: رأيت. وقد جعل. وفيه يقول الإمام جار الله الزمخشرى: «والمعنى أنك رأيت آثار فعل الله بالحبشة، وسمعت الأخبار به متواترة، فقامت لك - يعنى الأخبار المتواترة - مقام المشاهدة»(١).

كلام الإمام - هنا - مقصور على الاستفهام الأول **(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)** والاستفهام الثانى مثل الأول فى إفادة التقرير، وإن اختلف معناه عنه، فالأول

---

(١) الكشاف: (٤/ ٢٨٦).

تقرير بالرؤيا. والثانى تقرير بالجعل كما لا يخفى.

وذهب الإمام الطاهر بن عاشور هذا المذهب، من حمل هذا الاستفهام على التقرير، خلافا لعادته فى حمل بعض نظائره على الإنكار كما تقدم فى هذه الدراسة[1].

**والخلاصة:** أن الاستفهام الأول للتقرير، ويردف على التقرير فيه التشويق والبشرى بالنصر والتأييد والتعجيب ثم التعريض بكفار مكة، وتهديدهم.

والاستفهام الثانى للتقرير مثل الأول، ويردف عليه ماردف على الأول من المعانى الثانية مع إيعاد خصوم الدعوة بالهلاك إذا لم يثوبوا إلى رشدهم.

## أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ألم تر)** الرؤيا هنا مزيج من البصرية والعلمية وإن كان الجانب العلمى فيها أقوى وأظهر.

والتعبير عن العلم بسماع الأخبار بالرؤية إما مجاز مرسل باستعمال السبب (الرؤية) وإرادة المسبب (العلم)؛ لأن الرؤية البصرية من روافد العلم الذهنى وإما استعارة محسوس لمعقول. بتشبيه العلم اليقينى بالمرئى بالبصر، والجامع بين الطرفين هو قوة الإدراك والحصول فى كل منهما، أى ألم تعلم. وهى استعارة تصريحية تبعية.

وإيثار المضارع (تر) فى سياق النفى بـ (لم) للدلالة على ثبوت الرؤيا فى الماضى متصلة بالحاضر وما يستقبل من الزمان.

وقد دلَّ المضارع على هذه المعانى المكثفة بمعناه، وهو المعنى لوقوعه فى حيز (لم) التى تقلب معنى المضارع إلى المضى، ثم بلفظه وصورته الدالتين - حسب الوضع اللغوى - على الحال والاستقبال.

والنظم الحكيم قصد هذه المعانى مجتمعة، من هذا التركيب **(ألم تر)** قصداً.

* **(كيف فعل ربك)** وردت (كيف) هنا فى إطار الاستفهام الصورى. لأن المعنى:

ألم تر كيفية فعل ربك بأصحاب الفيل؟ يعنى أنها كيفية عجيبة، ينبغى أن يُفكَّر

---

(1) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٤٤).

فيـها ويُتَعَجَّب منهـا، حيث أنها تصور جـماعة من الطيـر الضئيل الحجم، الخـفيف الوزن، تهزم الفِـيَلة، وهى حيوانات ضخـمة، فخـمة بل تهزم جيـشا غازيا مجـهزا بأضخم قوة مادية بالنظر إلى ذلك العصر.

وفى ذلك من آيات العجب والإعجـاب والتعجيب ما لايـخفى أثره على ذى بصر وذى لب.

وإيثار الفعل (**فَعَل**) على: عمل، أو صـنع، لما فى الفعل من الإيحاء بـقوة البطش والمفاجأة والمداهمة.

وإسناد الفعل (**فعل**) إلى (رب) مضافا إلى ضمـير المخاطب ﷺ لإيناس النبى عليه السلام. وتثبيت قلبه، وتقوية عزمه، وللإشعار بأن الله معه ينصره ويؤيده وينعم عليه بما هو أهله من الإنعام والتكريم. ومن أجل حصـول هذه المعانى لم يُقلْ: فعل الله، أو فعلنا.

* (**بأصحاب الفيل**) كناية عن أبرهة الأشرم وجنوده من الأحباش.

وإضافة (**أصحاب**) إلـى (**الفيل**) للسـخرية منهم والتـهكم عليهـم، ولبيـان روعة الانتصار عليـهم، وللإشعار بأنهم هزموا مع إعدادهم تلك القـوة القاهرة فى حروب ذلك العهد.

* (**ألم يجعل كيدهم فى تضليل**)؟ فصلت هذه الجملة عن الجملة التى قبلها (**ألم تر**) مع أن بين الجملتين التوسط بين الكمـالين، لاتفاقهما فى الإنشـائية لفظا ومعنى، وهى علاقـة تقتـضى عطف الثانية على الأولـى بالواو فما السـر البلاغى الذى اقـتضى الفصل فى مقام يقتضى ظاهره الوصل بين الجملتين؟

**والجواب**: إن النظر الدقيـق فى الآيتين يكشف أن الجملة الثـانية بدل اشتـمال من الجملة الأولى، أو عطف بيان عليها. وعلى كلِّ تقدير فإن بين الجملتين كمال الاتصال لا التوسط بين الكمالين. وكمال الاتصال يقتضى الفصل بين الجملتين.

وإيثار المضارع (بجـعل) إشارة إلى استمرار ذكر تلك الواقعـة. فالمراد من المضارع هنا هو ما أريد من المضارع فى (**تر**) قبله، وهو الدلالة على المعانى الثلاثة:

الجعل فى الماضى، والحال والاستقبال. والأول هو الأصل. والثانى والثالث مجازيان بمعنى سيرورة الأخبار بما حدث عبر الأجيال.

* (**كيدهم فى تضليل**) الضمير لأصحاب الفيل. والكيد هو نية إلحاق الأذى أو إيقاع السوء بالمكيد له.

* و(**فى تضليل**) أى فى تضييع. وهو تعبير كانت العرب تردده فى الدلالة علي بوار السعى، وإحباط العمل.

ومعنى هذا أن التضليل مستعار للتضييع، على سبيل الاستعارة التصريحية، الأصلية لجريانها فى المصدر (تضليل). والجامع بين الطرفين هو الغياب عن الأنظار، أى العدم، فى كل منهما.

وأيا كان التقدير فإن حرف الجر (فى) فى قوله تعالى (**فى تضليل**) مؤذن بإجراء الاستعارة المكنية فى هذا التعبير. حيث شبه (التضليل) بمعنى: التضييع، بالظرف المحتوى على المظروف. والمظروف هو (**كيدهم**). فقد بدَّده الله وصيره لا شىء، لأنه فى تضييع.

* وإيثار (**تضليل**) على: تضييع له ثلاث نكات بلاغية:

الأولى: **لفظية**، وهى توافق فواصل الآيات على حرف اللام بعد حروف المد، هكذا.

(الفيل - تضليل - أبابيل - سجيل - مأكول).

والثانية والثالثة من حيث المعنى، وهما:

* الإشارة إلى أن كيدهم نفسه كان منشؤه الضلال، والجزاء الإلهى العادل يكون من جنس العمل.

* ثم **الإشارة** إلى أن ذلك التضييع كان من نوع خاص وهو عدم الاهتداء إلى الشىء (المضيَّع)؛ لأن أصحاب الفيل، وهم أصحاب الكيد. ضُيِّعوا وأُهلكوا كما ضُيِّع كيدهم فشتان أن يلتقيا. . فتأمل دلالات النظم المعجز كيف تكون ومن أحسن من الله حديثا؟

* * *

# سورة الماعون

١ - ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون:١-٢].

**الدراسة والتحليل:**

هذا آخر استفهام يرد فى القرآن العظيم، وكان أول استفهام ورد فى سورة البقرة:

**(سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)**.

الاستفهام الأول كان حديثا عن الذين كفروا،لقوله تعالى قبله:

**(إن الذين كفروا)** وهذا الاستفهام - وهو آخر استفهام فى القرآن حسب ترتيب المصحف، هو كذلك حديث عن الذين كفروا؛ لأنهم هم **(الذى يكذب بالدين)**.

وكذلك كان أول استفهام يرد فى القرآن حسب ترتيب نزول السور، كان حديثا عن الذين كفروا:

**﴿أرأيت الذى ينهى * عبدا إذا صلى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى * أرأيت إن كذب وتولى * ألم يعلم بأن الله يرى.. كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فليدع ناديه * سندع الزبانية * كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾**

[اقرأ: ٩-١٩].

أما آخر ما نزل من صور الاستفهام حسب الترتيب النزولى فعلى القول بأن آخر ما نزل من سور القرآن هو المائدة فإن آخر ما نزل من صور الاستفهام هو قوله تعالى:

**﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى آلهين من دون الله﴾**

[المائدة: ١١٦].

وعلى القول بأن آخر ما نزل من سور القرآن العظيم هو سورة التوبة فإن آخر ما نزل من الاستفهام في القرآن كله باعتبار الترتيب النزولى هو قوله تعالى:

**﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض: هل يراكم من أحد. ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾** [١٢٧].

وسواء كان آخر ما نزل هو المائدة، أو التوبة فإن آخر ما نزل من أساليب الاستفهام فى القرآن العظيم كان حديثا عن الذين كفروا، مثل أول ما نزل من الاستفهام باعتبار ترتيب المصحف.

أليست هذه الملاحظة، جديرة بالتأمل والنظر؟ فلماذا كان هذا التوافق العجيب المذهل؟ ولابد لذلك من حكمة إلهية كامنة وراء هذا النسق الحكيم نقول لابد من حكمة إلهية. فهل إلى إدراكها من سبيل؟

نعود - بعد هذا الاستطراد المذهل - إلى الاستفهام الذى صدرت به هذه السورة، وهو:

**(أرأيت الذى يكذب بالدين)؟**

وفيه يقول الإمام جار الله الزمخشرى رحمه الله:

«والمعنى: هل عرفت الذى يكذب بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه **(فذلك الذى)** يكذب بالجزاء هو الذي **(يدع اليتيم)**. أى يدفعه دفعا عنيفا بجفوة وأذى، ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة»[1].

هذا الكلام الذى أورده الإمام جار الله، فيه رجوع ظاهر عن تفسيرهم لمثل هذا الاستفهام بأنه بمعنى: أخبرنى. وفيه مناصرة وتأييد لما كنا قد رجحناه فى هذه الدراسة من أولها إلى آخرها من أن هذا الاستفهام يراد به إثارة الذهن، وتحريك المشاعر نحو المستفهم عنه، واستحضار صورته فى الذهن لِيُحكَمَ عليه وهو حاضر ماثل فيه. فلله الحمد والمنة على ما وفق وهدى، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

وكنا من قبل قد استشهدنا بهذه الآية فى مواجهة مذهب الجمهور من أن: أرأيت، كيفما جاءت فهى بمعنى أخبرنى.

ووجه الاستشهاد فى الآية أن الله بعد أن حرك مشاعر المخاطب بقوله:

**(أرأيت الذى يكذب بالدين)؟** هو الذى أخبرنا بالذى يكذب بالدين، حيث ذكر لنا علاماته وهى:

* دع اليتيم وزجره ونهره والتعنيف فى معاملته.

---

(١) الكشاف (٤/ ٢٨٩).

* عدم التواصى بإطعام المساكين، لأنه لايؤمن بجزاء. فكيف يكون رحيما بالضعفاء، بارًا بالفقراء فهل مع إخبار الله لنا بالذى يكذب بالدين يطلب منا هو - ولو على سبيل المجاز - أن نخبره - نحن - بالذي أخبرنا هو به؟

**أسرار النظم وبلاغياته:**

الجدير بالذكر أن نبين - هنا - ونحن فى ختام هذه الدراسة أن تفسير الأئمة، لفعل الرؤية المستفهم عنه أنه بمعنى أخبرنى خاص ببعض تراكيبه وليس عاما فيها كلها.

هو خاص بكل فعل رؤية إذا توفرت فيه الضوابط الآتية:

* أن تكون أداة الاستفهام هى الهمزة دون غيرها.
* أن يكون الفعل مثبتا بعدها لا منفيا بأدوات النفى الصريحة، مثل: (لم - لا - ليس - ما).
* أن يكون فاعل فعل الرؤية هو تاء الخطاب، سواء كان لمفرد، أرأيت، أو لجمع، أرأيتم.

أما نحو: (ألم يروا - ألم تروا - ألم تر). فهذا ليس بمعنى أخبرنى عندهم.

* **(أرأيت الذى يكذب بالدين)** كناية عن الذين كفروا وأوثرت لما فيها من التصريح بالتكذيب بالدين.

وإيثار **(الدين)** على: الجزاء، لما فى الدين من خصوصية الدلالة على معنى خاص، هو الثواب والعقاب من الله على أعمال عباده. أما الجزاء فمعناه عام يشمل معاملة الناس بعضهم لبعض.

تمت هذه الدراسة - بعون الله وتيسيره وفضله. عصر الاثنين الموافق ٢٧ من صفر ١٤١٩هـ - ٢٢ من يونيو ١٩٩٨م والحمد لله رب العالمين.

**المؤلف**

**عفا الله عنه**

**الظاهر - القاهرة. -جمهورية مصر العربية...**

# الخاتمة

بعد هذه السياحة الطويلة مع أساليب الاستفهام فى النظم الحكيم، وآيات الذكر العظيم، نضع هذه الخاتمة التى نشير فيها إلى بعض ما ورد فى هذه الدراسة من حقائق جديرة بالإشارة إليها، والقارئ الكريم الذى صاحبنا فى الإطلاع على ما ورد فيها كلمة كلمة، وجملة جملة، ودقق النظر فيها يشاركنا فى الاعتذار عن تلخيص وافٍ يلم بأمهات النتائج التى أسفرت عنها هذه الدراسة الموضوعية المقصورة على فن بلاغى واحد من الفنون البلاغية، التى استثمرها النظم القرآنى المعجز استثماراً لم يسبق له مثيل، ولن يلحق به مثيل فى صناعة الكلام، وإحكام البيان منذ فجر التاريخ النبوى، حتى عصر نزول القرآن، وحتى تقوم الساعة، وفى هذا تتجلى للوجود كله جهة الإعجاز القرآنى، الذى قُصِدَ به التحدى وقت نزول القرآن، وما يزال ذلك التحدى قائماً ما أشرقت الشمس.

تلك الجهة التى لا ينازع فيها ذو عقل وإنصاف مقصورة على أن القرآن اتخذ من مادة اللغة، والتصرف فى توظيف أدواتها، وبناء تراكيبها معراجاً للإعجاز المفحم للإنس والجن معاً.

وهذا ما عُرِفَ بعد عصر نزول القرآن بـ«إعجاز النظم»، وهذا الإعجاز على اختلاف ضوابطه عند فحول العلماء الذين عنوا بدراسة الإعجاز، من أمثال الجاحظ والخطابى والرمانى، وأبى هلال العسكرى، والقاضيين عبد الجبار وأبى بكر الباقلانى، والإمام عبد القاهر الجرجانى، وابن سنان الخفاجى، والقاضى عياض اليحصبى، ومن المفسرين كالإمام الزمخشرى وفخر الدين الرازى، وأبى السعود العمادى، والألوسى، ثم علماء الأصول، والمتكلمين.

الإعجاز القرآنى على اختلاف ضوابطه واتفاقهما عندهم فإن مبدأه ومنتهاه هو المادة اللغوية وما فيها من خصائص وإمكانات، أعنى هو الإعجاز اللغوى البلاغى البيانى،

والذى يجمع هذه الأوصاف هو:

(إعجاز النظم)[1] وله عدة عناصر يتكون منها يمكن رصدها فى النقاط الآتية:

* اختيار الأداة اللغوية بما يشمل أدوات المعانى كحروف الجر، والعطف، وأدوات الاستفهام، ثم الأفعال والأسماء مع ما فى الأسماء والأفعال من خصائص من حيث المعانى التى تدل عليها، ومن حيث صيغها وأنواعها.
* توظيف كل أداة فى المعنى المقصود منها بحيث لا تصلح له أداة أخرى وإن كانت تشترك معها فى الدلالة على أصل المعنى المراد.
* وضع الأداة موضعاً مناسباً فى الجملة، أو التركيب باعتبار ما يؤديه ذلك الوضع من خصوصيات بلاغية يقتضيها المقام.
* ما يتوارد على الجملة، أو التركيب من تقديم وتأخير، وحذف وذِكر، وتعريف لبعض عناصرها وتنكير، وإظهار وإضمار وتقييد وإطلاق، وتوكيد وإرسال، وإيجاز وإطناب ووصل وفصل، وحقيقة ومجاز، وكناية وتصريح إلى آخر ما فى لغة التنزيل من خصوصيات ودقائق وأسرار وإمكانات صارت لغة التنزيل بها هى لغة الإعجاز.

فما من لمحة من لمحات الإعجاز إلا كانت اللغة هى مصدره ولهذا فلم يخطئ من قال: إن الإعجاز القرآنى إعجاز لغوى، أو قال: إن القرآن معجزة لغوية.

وكانت دراستنا لأساليب الاستفهام فى النظم الحكيم من أقطع الأدلة، وأبرز الشواهد على هذا الاتجاه، فالإعجاز من اللغة يبدأ وباللغة ينتهى.

هذا إجمال لذلك التفصيل الواسع الذى مارسناه فى هذه الدراسة.

أما ما نريد الإشارة إليه فى هذه الخاتمة فهى المسائل الآتية:

### ١ - أسلوب الهمزة وأم بعد سواء:

وردت الهمزة وأم بعد (سواء) فى النظم القرآنى الحكيم فى ستة مواضع كان أولها

---

(١) ما يشاع الآن من وجوه إعجاز جديدة كالإعجاز التشريعى والعلمى والتاريخى، لا تدخل تحت مفهوم الإعجاز الذى قُصِدَ به التحدى فى عصر النزول، فهى وجوه إعجاز خاصة لا عامة لأنها لا يوصف بها كل القرآن.

الآية رقم [٦] من سورة البقرة، وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، والثانى الآية رقم [١٩٣] الأعراف، والثالث الآية رقم [٢١] من سورة إبراهيم - عليه السلام - والرابع الآية رقم [١٣٦] من سورة الشعراء، والخامس الآية رقم [١٠] من سورة يس، والسادس الآية رقم [٦] من سورة المنافقين.

هذه الآيات جميعاً اشتركت فى الصورة الاستفهامية التى يقع فيها بعد (سواء) همزة الاستفهام ثم (أم)، وقد كان هذا الاستفهام فى مواضعه الستة المشار إليها أوَّل مبحث فى هذه الدراسة، حيث جمعنا الآيات الست ودرسناها وبينا أسرار النظم وبلاغياته فيها فى حديث متصل جمعنا فيه كل ما تفرق فى أقوال أهل العلم ومصنفاتهم واستقصينا القول فيها من نواح مختلفة.

والذى يطلع على هذا المبحث لا يرى نفسه فى حاجة إلى مزيد بيان أو البحث فيها من جديد.

ولم يقتصر الحديث عن (سواء) وحدها، بل شمل معادلاتها فى الاستعمال لغوياً وبلاغياً مما يراه القارئ مبسوطاً بتوفيق الله فى مطلع هذه الدراسة.

**٢ - من أظلم؟**

ومن المسائل التى حظيت بعناية وافرة فى هذه الدراسة وأسفرت دراستها عن جديد حقاً الاستفهام الذى ورد فى النظم القرآنى الحكيم على وزن: (مَنْ أَفْعَلُ) مسبوقاً بواحد من أداتى العطف، الواو، مثل (ومن أظلم) أو الفاء، مثل: (فمن أظلم)؟ وقد وردت هذه الصيغة فى القرآن ست عشرة مرة، كان أولها فى سورة البقرة الآية رقم [١١٤]:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا﴾ ثم كررت فيها فى الآية رقم [١٤٠]، أما المواضع الأخرى فسورها وأرقام آياتها هى: الأنعام [٢١]، و[٩٣]، و[١٤٤]، و[١٥٧]، ثم الأعراف [٣٧]، ويونس [١٧]، وهود [١٨]، والكهف [١٥ - ٥٧]، والعنكبوت [٦٨]، والسجدة [٢٢]، والزمر

[٣٢]، والنجم [٥٢]، وسورة الصف [٧].

وقد آثار المفسرون وغيرهم حول هذه الصيغة إشكالاً حاصله:

إن أفعل التفضيل (أظلم) تقتضى نفى المساواة فى الظلم فإذا قيل: إن أظلم الظالمين هو الذى يسعى فى تخريب مساجد الله ومنع رفع اسم الله فيها، فإن معنى هذا أن لا يساويه فى هذه الصفة، وهى صفة (الأظلمية) أى مجرم آخر، وعلى هذا كان لا ينبغى أن ترد هذه الصيغة فى وصف مجرم آخر، بل إما أن لا تتكرر قط، أو تتكرر فى وصف الموصوف نفسه، وهو الذى يمنع رفع اسم الله فى المساجد ويسعى فى تخريبها.

ولكنها فى النظم الحكيم وردت فى وصف من يفترى على الله كذباً أو يكذب بآياته، أو يعرض عن آيات الله، أو يكتم شهادة عنده من الله إلخ، وهذا هو منشأ الإشكال الذى تردد حول هذا الاستفهام الإنكارى.

وكان آخر ما درسناه فى أيام طلب العلم لإزالة هذا الإشكال ما يُعزَى إلى الشيخ محمد عبده من أن الظلم ميادين وأبواب، وكل موصوف فى الآيات الست عشرة هو أظلم الظالمين فى باب ظلمه، أو بعبارة أوضح هو أظلم الظالمين من بين الأفراد الذين اقترفوا الجريمة التى اشترك معهم فى اقترافها.

فالذى منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها هو أظلم الأفراد الذين يسعون بالكيد لمساجد الله.

والذى يكتم شهادة عنده من الله هو أظلم الأفراد الذين يكتمون الشهادات، وهكذا.

هذه خلاصة ما رواه أستاذنا المغفور له الدكتور عبد الغنى عوض الراجحى فى محاضرات التفسير البلاغى فى كلية اللغة العربية[١].

وقد ظللنا على هذا الفهم، حتى يسر الله لنا الأمر، وهدانا للقيام بهذه الدراسة، ومن خلال البحث الموضوعى فى هذه الآيات الست عشرة فوجئنا بما أثلج صدورنا من فضل الله وإرشاده، وهداه.

---

(١) المناهج الجديدة فى تفسير آيات الله المجيدة (مذكرات) عام ١٩٦٣م.

لأن النظر فى هذه الآيات مضموماً بعضها إلى بعض أسفر عن حقيقة ظلت غائبة عن جميع الدارسين، وهى أن الآيات الست عشرة لا تتحدث إلا عن موصوف واحد، هم الذين كفروا، وإن اختلفت الجنابات التى أسندت إليهم من آية إلى أخرى.

فهم الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون فى خرابها.

وهم الذين يكتمون شهادة عندهم من الله.

وهم الذين يفترون على الله الكذب.

وهم الذين كذَّبوا بآيات الله.

وهم الذين ذُكرِّوا بآيات الله ثم أعرضوا عنها.

وهكذا يتضح - بكل قوة - أن أفعل التفضيل (أظلم) ورد وصفاً لصنف واحد، ويترتب على هذا - لا محالة - أنه لا إشكال فى تكرار هذه الصيغة (من أظلم) فى كتاب الله العزيز.

فلا حاجة - إذاً - لما ذكره الشيخ الإمام محمد عبده - رحمه الله - وله أجر اجتهاده عند الله، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وإزالة هذا الإشكال من أساسه لا وجود لها - بحمد الله - إلا فى هذه الدراسة، وهى من أبرز ملامح الجديد فيها(١).

**٣ - أسلوب (أرأيت):**

هذا الأسلوب الاستفهامى (أرأيت - أرأيتم) كثير الورود فى النظم القرآنى الحكيم، وله حالتان فيه فأحياناً يقترن به حرف (عطف)، وأخرى يخلو هذا الأسلوب من (العطف).

ومن أمثلة اقترانه بحرف العطف قوله تعالى فى سورة الواقعة:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾؟ ومن أمثلة خلوه من العاطف قوله تعالى فى سورة الماعون: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾؟

وقد سبق النحاة، وفى مقدمتهم شيخهم سيبويه، إلى القول بأن معنى هذا

---

(١) انظر (١/ ٢٨١) من هذه الدراسة.

الاستفهام هو (أخبرنى) أو (أخبرونى) إذا كان المخاطب جمعاً.

وقد تابع جمهور البلاغيين والمفسرين النحاة فى هذا الاتجاه.

ولكن هذه الدراسة أمسكت خيطاً رقيقاً ينحو بمعنى هذا الاستفهام منحى آخر، صرَّح به بعض الأئمة فى مواضع قليلة بأن المعنى يمكن حمله على استحضار صورة (المستفهم عنه) فى ذهن المخاطب، أمسكت هذه الدراسة بطرف هذا الخيط ثم (غلظته) جداً و(طولته) كثيراً، وأثبتت بما لا يدع مجالاً للريب أو الجدل بأن ما من موضع من مواضع ورود هذه الصورة فى القرآن إلا وهى صالحة لأن يكون المعنى المراد منها هو - بكل قوة ووضوح -:

استحضار صورة (المستفهم عنه) فى الذهن ليُحْكَمَ عليها وهى حاضرة ماثلة فيه، وقد طبقنا هذه الفكرة على عشرات الأمثلة، ووجدناها سلسة القياد لا يستعصى موضع ما عن جريانها فيه بكل يسر وسهولة، كما أثبتت هذه الدراسة أن فى النظم الحكيم مواضع لا يجوز حمل الاستفهام فيها بـ(أرأيت) أو (أرأيتم) على معنى: (أخبرنى أو أخبرونى) منها الآية الأولى فى سورة (الماعون): (أرأيت الذى يكذب بالدين) واستدللنا - كما تقدم فى الحديث عن هذه السورة - بأن النظم الحكيم أردف على هذا الاستفهام مباشرة قوله تعالى:

﴿فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ وهاتان الآيتان هما جواب وبيان للمستفهم عنه، فكيف يصلح أن يقال: إن المعنى هنا هو: (أخبرنى).

ومما ترشح له هذه الدراسة أن القارئ إذا وازن بين المعنيين فى أى مواضع هذا الاستفهام فى النظم الحكيم تبيَّنَ له أن المعنى الذى رجحناه أرسخ قدماً من المعنى الذى شاع بين أهل العلم، وأنه الأليق ببلاغة النظم القرآنى الحكيم، سواء كان موضوع الرؤية صورة مادية حسية، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾ أم كانت صورة ذهنية معنوية، كقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾؟

ومما هو جدير بالذكر أن هذا المعنى الذى ناقشناه وهو إرادة معنى: أخبرنى أو

أخبرونى لا يشمل كل استفهام عن الرؤية فى النظم الحكيم، بل قد اتضح لنا من هذه الدراسة التى استقصت كل أساليب الاستفهام فى النظم الحكيم أن هذا المعنى مطرد عندهم فى كل صورة استفهامية عن الرؤية إذا توفَّر فيها شرطان:

**الأول:** أن يكون فعل الرؤية المستفهم عنه ماضياً لا مضارعاً.

**والثانى:** أن يكون هذا الفعل مثبتاً لا منفياً.

وعلى هذا فإن قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ، حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ لا يدخلان هما ولا أمثالهما فى هذا المذهب.

أما الأول فلأنه مضارع منفى.

وأما الثانى فلأنه مضارع، فقد تخلَّف عن الأول الشرطان معاً، وهما الماضوية والإثبات.

وتخلف عن الثانى شرط واحد، هو الماضوية مع توفر شرط الإثبات، وهذا الضابط لم يذكره أحد قبل هذه الدراسة.

### ٤ - تعدية فعل الرؤية:

تقدم أن الرؤية فى أساليب الاستفهام فى النظم القرآنى الحكيم تأتى على نوعين كبيرين:

**الأول:** أن يكون الفعل ماضياً مثبتاً، وقد فصلنا القول فى معناه إذا كان استفهاماً.

**الثانى:** أن يكون الفعل مضارعاً منفياً، نحو: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ [الفرقان: ٤٥].

وقد لحظت هذه الدراسة منهجاً لنظم القرآن الحكيم فى استعمال هذا النوع استفهامياً، وخلاصة هذا المنهج أن النظم الحكيم يُعَدِّى الفعل حيناً بنفسه، وحيناً بوساطة حرف الجر (إلى).

كما لحظت الدراسة أن للتعدية المباشرة ملمحاً خاصاً وللتعدية غير المباشرة (التعدية بحرف الجر إلى) ملمحاً خاصاً كذلك.

أو إن شئت فقل: إن لكلٍ من التعديتين شرطاً أو علة بيانية تقتضيها.

فالتعـدية المباشرة - تعدية الفعل بنـفسه - مطردة فى كل موضع كان مـتعلق فعل الرؤية فيه معنى لا ذاتاً.

والتعدية غير المباشرة - تعـدية الفعل بحرف الجر إلى - مطردة فى كل موضع كان متعلق فعل الرؤية فيه ذاتاً مادية محسوسة لا معنى عقلياً.

ففى آية الأنبياء السابقة كان متعلق فعل الرؤية علمياً عقلياً، وهو التصاق السموات والأرض فى بدء الخليقـة، وفى آية الفرقان كـان متعلق فـعل الرؤية (ذاتاً) وإن كانت منزهة عن بقية الذوات المادية المحسوسة، لذلك عُدّى الفعل فى الأولى بنفسه، وعَدِّىَ فى الثانية بوساطة حرف الجر، إلى، ومن أمثلة هذه التعدية فوق ما تقدم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ. . .﴾؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأَ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى. .﴾؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ. . .﴾؟

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ. . .﴾؟

وغيـر ذلك كثير، وفى كل هذه الصـور عُدِّى فعل الرؤية بحـرف الجر (إلى) لأن متعلق فعل الرؤية فيها ذات مادية محسوسة.

ومن أمثلة التعدية المباشرة ما يأتى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً. . .﴾؟

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. .﴾؟

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؟

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فعلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. .﴾؟

هذا ما لحظتـه الدراسة عن منهج القـرآن فى الاستفـهام عن فعل الـرؤية، بيد أننا نسـجل - هنا - مـلاحظة أخرى، فـهـذا الذى لحظناه سـائغ فى أكثر مـواضع هذا

الاستفهـام وظاهر فيه ظهور الشمس فى رائعة النهـار، وفى بعض المواضع نجد تطبيق هذا المنهج فى حاجة إلى تأويل وإعمال فكر، وذلك فى مثل قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً. . . ﴾ [الحج: ٦٣].

فإن أمكن التأويل فالمنهج مطرد، وإن لم يمكن فلا مناص من القول بأن هذا المنهج أغلبى، ووددنا لو أن أحداً من أهل الذكر أفرد هذا المنهج بمبـحث خاص، فهو جدير بأن يفرد بعمل علمى متخصص.

**توجيه هذا المنهج:**

التعـدية التى أشرنا إليهـا مباشـرة وغير مـباشرة فى نظم الـقرآن الحكيم لابد من مقتضى بلاغى اقتضاها، وداعٍ بيانى كان سبباً فيها.

وقد أطلنا النـظر لعلنا نصل إلى السر البـلاغى الكامن وراءها، لاستحـالة خلوها بنوعيها من مغزى كما هو شأن النظم القرآنى كله.

والذى هُدِينَا إليه - ونسجله هنا - أن فعل الرؤية عُدِّى بنفسه تعدية مباشرة إذا كان متعلقـه معنى عقلياً لأن مـا فى المعانى من شفافـية ولطف يجعلهـا قريبة من الإدراك والتعقل، لأنها قارة فى الذهن والشعور لا تنفك عنهما.

أما تعديته إذا كان مـتعلقه ذاتاً مادية محسوسة فلانفـصال المادة المحسوسة عن ذهن المخاطب، وهذا يقـتضى تقوية الفـعل على إدراكها وتَمَـثُّلها، لذلك - والله أعلم - بولغ فى العبارة فضمَّ النظم إلى تعـدية الفعل بنفسه تعديته بحرف الجـر (إلى) تحقيقاً لهذا المعنى المطلوب حـصوله بالاستـفهام، سـواء كانت الرؤية بصرية أو علمـية، أو خليطاً من الرؤيتين معاً.

وزيادة المبنى دليل علـى زيادة المعنى غـالباً، هذا مـا هدينا إليـه، والله أعلم بسـر كتابه، وفوق كل ذى علمٍ عليم. .

**٥ - الاستفهام الصورى:**

ومما لحظته الدراسـة أن فى النظم القرآنى الحكيم تراكـيب صيغـت على الأساليب الاستـفهـاميـة بورود أداة ظاهرة للاستـفهام، ولكن الـنظر فيهـا يسلب عنها مـعنى

الاستفهام ويريك أنها من حيث اللفظ استفهام، أما من حيث المعنى فلا استفهام فيها، ومع هذا فإن بعض تلك الصور تحمل بعض المعانى التى تراد من الاستفهام، مثل التعجيب، ولكنها لا يصح أن تكون استفهاماً لا حقيقياً ولا مجازياً.

وكانت هذه الصور قد لفتت نظرنا نحوها، وكونها لا تندرج تحت الاستفهام الاصطلاحى بنوعيه الحقيقى والمجازى.

وعند التفكير فى وضع مصطلح يُطلقِ عليها يميزها عن الاستفهام الاصطلاحى المعروف كفانا الإمام الطاهر بن عاشور مؤنة البحث، حيث رأيناه يطلق على بعض صوره مصطلح الاستفهام الصورى، وسعدنا بهذه التسمية؛ لأنها وجيهة لفظاً ومعنى.

يعنى أنه استفهام فى التصوير اللفظى دون المراد المعنوى.

لكن الشيخ الطاهر وقف عند حد التسمية، ولم يفصل القول فى الفروق بين هذا الاستفهام الصورى، وبين الاستفهام الاصطلاحى المعروف.

وهذه الدراسة - والحمد لله - وضعت الضوابط الدقيقة بين الاستفهام الاصطلاحى وهذا الاستفهام الصورى مع التنبيه على مواضع وروده فى الذكر الحكيم، وسنضع فى الفهرس العام إشارة إلى موطن هذه الضوابط فى الدراسة.. إن شاء الله.

ومن أمثلة الاستفهام الصورى فى النظم الحكيم الآيات الواردة فى سورة [النمل] وهى:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

﴿اذْهَبْ بِكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿قَالُوا نَحْنُ أولُوا قُوَّةٍ وَأولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿... قَالَ هَذَا مِنَ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ...﴾.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ﴾.

فالاستفهامان الأول والثانى يفيدان الترقب ورصد رد الفعل.

والثالث يفيد (التفويض).

والرابع والخامس والسادس تفيد ترقب رد الفعل، ومنه ما ورد فى سورة [تبارك - الملك]:

﴿. . . فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

﴿. . . فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

فالأول والثالث يفيدان التهديد.

أما الثانى فيفيد التعجيب.

وإنما كانت هذه الاستفهامات صورية وإن استعملت على معانٍ يستعمل فيها الاستفهام المجازى لعرائها من أركان أساليب الاستفهام الاصطلاحى التى هى بلا نزاع.

* المستفهم (اسم فاعل) وهو المخاطِبُ.

* المستفهمُ منه (اسم مفعول) وهو المخاطَبُ.

* المعنى المستفهم عنه المراد تحصيله والعلم به فى الاستفهام الحقيقى، أو تقريره، أو إنكاره فى الاستفهام المجازى مع ما يستتبع التقرير أو الإنكار من المعانى الثانية التى مرَّتْ بنا كثيراً فى هذه الدراسة من قبل.

وأية صورة من الصور التى مثلنا بها للاستفهام الصورى من سورتى [النمل] [وتبارك الملك]، إذا أمعنا النظر فيها لا نجد لعناصر الاستفهام الاصطلاحى فيها ذكراً سوى أداة الاستفهام.

فمثلاً قول سليمان - عليه السلام - المحكى عنه فى سورة [النمل].

(أأشكر أم أكفر) ليس فيه من عناصر الاستفهام إلا الأداتان الهمزة و(أم) وهو - فوق ذلك - تفصيل لقوله (ليبلونى).

وقوله تعالى: ﴿فكيف كان نكير﴾، ليس فيه من عناصر الاستفهام إلا الأداة (كيف) ومعناه التعجيب من كيفية عقاب الله العاجل الذى أحله بالمجرمين، ولهذه

الآيات نظائر كثيرة عرضنا لها فى الدراسة واحدة واحدة.

فهى - إذا - أساليب وردت فى اللفظ على صورة الاستفهام، أما من حيث المعنى فلا استفهام فيها كما تقدم، فهو استفهام صورى لا اصطلاحى.

ويكثر الاستفهام الصورى فى التراكيب التى ترد فيها الأداة (كيف) بعد فعل الأمر (انظر) والمضارع منه، ويكون المعنى المراد هو لفت الأذهان نحو ما يقع بعد (كيف) ومنه الآيات الآتية:

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ. . .﴾.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. . .﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. . .﴾.

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. . .﴾.

﴿فَيَنظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. . .﴾.

﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ. . .﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ. . .﴾.

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ. . .﴾.

هذه الأمثلة، وغيرها كثير، محال أن تكون استفهاماً اصطلاحياً حقيقياً أو مجازياً، ومعناها ينادى بهذا بكل قوة ووضوح.

وهو مبحث جدير بأن تقوم به دراسة خاصة تتتبع كل مواضعه فى الذكر الحكيم، وما قدناه عنه فى هذه الدراسة لا يغنى عن استئناف درسه فى عمل علمى مستقل، وقد تسفر تلك الدراسة عن خصائص بلاغية وسمات منهجية لهذا الفرع الذى ارتضينا أن يُطلق عليه مصطلح الاستفهام الصورى، وعجائب ودقائق كتاب الله العزيز لا تنفد.

وقد ألمح بعض النحاة واللغويين إلى حقيقة هذا الاستفهام وإن لم يسموه استفهاماً صورياً، وقد نصوا على ذلك فى مبحث التعليق عن العمل.

منهم الرضى حيث قال: (ليس أداة الاستفهام التى تلى باب علم، نحو: علم زيد أيهم قام، مقيدة لاستفهام المتكلم بها).

يعنى أن أداة الاستفهام (أى) فى المثال الذى ذكره ليست للاستفهام[1] فى المعنى.

وقال الإمام أبو حيان:

وليس الاستفهام فى باب التعليق مراداً به معناه، بل هذا من المواضع التى جرت فى لسان العرب مغلباً عليها أحكام اللفظ دون المعنى... وكلام العرب ثلاثة أقسام:

قسم يكون فيه اللفظ مطابقاً للمعنى، وهو أكثر كلام العرب.

وقسم يغلب عليه أحكام اللفظ كهذا الاستفهام - يعنى الصورى - وقسم يغلب عليه أحكام المعنى نحو: أقائم الزيدان[2].

كما يقول فى موضع أخر: (والجملة الاستفهامية المعلق عنها فعل القلب ليس (الاستفهام) فيها باقياً على حقيقته[3].

هذا هو الاستفهام الصورى وإن لم يسموه صورياً.

## ٦ - أسلوب (مَنْ ذا الذى)؟

من أساليب الاستفهام فى النظم القرآنى الحكيم قوله عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِى﴾ وروده فى النظم الحكيم قليل، حيث لم تتجاوز مراته أصابع اليد الواحدة، ومن النظر فى سياق الكلام الذى ورد فيه هذا الأسلوب لحظنا أن النظم الحكيم لا يستعمله إلا فى مقام واحد، هو التعظيم والتفخيم والإشارة إلى عزة حصول الفاعل المستفهم عنه أو انعدامه أساساً بحيث لا يكون له وجود البتَة.

ويظهر هذا من الأمثلة الآتية:

﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾

[البقرة: ٢٤٥].

﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ...﴾ [البقرة: ٢٥٥].

---

(١) شرح الكافية (٢/ ٢٦٣).

(٢، ٣) البحر المحيط (٢/ ٢٩٤) (٦/ ٥٠٣).

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ. . .﴾(١) [آل عمران: ١٦٠].

فالموضع الأول مستعمل فى الدلالة على عز فاعل ذلك الإقراض وندرته، وفى هذا كناية لطيفة عن عظم الأجر الذى يبذله الله لأولئك النُّدْرة من عباده الذين ينفقون بسخاء ابتغاء وجه الله عز وجل، إنهم من سمو درجاتهم عند الله لا يكادون يوجدون أو لا يتكرر وجودهم كثيراً.

لذلك عبَّر عنهم بهذا الأسلوب الفخم المكون من : مَنْ، واسم الإشارة ذا، والاسم الموصول الذى، وهذا الأسلوب الاستفهامى (القرآنى) أطول أساليب الاستفهام تركيباً ونظماً، وأندرها استعمالاً.

أما المواضع الثلاثة الأخرى فدلالاتها محصورة فى انعدام الفاعل أساساً:

فليس للشفاعة عند الله بغير إذنه فاعل.

وليس لعصمة أحد من الله إن أراد به سوءاً فاعل.

وليس لنصرة من يخذله الله فاعل.

وقد نبهت هذه الدراسة إلى فخامة هذا الأسلوب وفخامة المعانى التى يدل عليها عند التعرض لأول أية اشتملت عليه [البقرة: ٢٤٥].

وأعدنا التنبيه - هنا - على ما تقدم من قبل لما فى هذا الأسلوب من عزة وندرة ودلالة خاصة آثر النظم الحكيم استعماله فيها دون غيرها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأسلوب الاستفهامى (ماذا) قريب الشبه فى التركيب والفخامة من أسلوب (من ذا الذى) وفى استعمال النظم الحكيم له فى مقامات يغلب عليها التهويل والتفخيم والتعظيم والمبالغة فى النفى والانعدام.

وهذا يتضح من الأمثلة الآتية:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾؟ [البقرة: ٢١٥].

﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟ [يوسف: ٧١].

---

(١) ولهذه الآيات خامسة فى سورة الحديد [١١].

﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ [النحل: ٣٠].

﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾؟ [لقمان: ١١].

ومن دقائق الفروق النظمية بين الأسلوبين أن الأسلوب الأول (من ذا الذى) مبدوء بـ(مَنْ)، وأن الأسلوب الثانى (ماذا) مبدوء بـ(ما)، والسبب أن الاستفهام فى الأول عن فاعل عاقل، هو فاعل الإقراض والشفاعة والعصمة والنصرة فناسبه (مَنْ) التى هى عبارة عن العاقل.

أما الثانى فالاستفهام فيه عن غير العاقل كالخلق بمعنى الإيجاد، والإنزال بمعنى الإيحاء، وهكذا بقية الأمثلة، فحسن البدء بـ(ما) لمناسبتها لغير العاقل، كذلك الاختلاف بين الألفاظ والكلمات الواقعة فى حيز كل منهما، فهى فى الأسلوب الأول أفعال مضارعة هكذا:

(يقرض - يشفع - يعصم - ينصر)، أما فى الثانى فقد تواردت بعده الأفعال المضارعة والماضية وغير الأفعال هكذا:

﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾؟ [البقرة: ٢١٥].

﴿ماذا تأمرين﴾؟ [النمل: ٣٣].

﴿ماذا أحل لهم﴾؟ [المائدة: ٤].

﴿وماذا عليهم لو آمنوا...﴾؟ [النساء: ٣٩].

وربما كان السر فى كثرة التصرف النظمى فى الأسلوب الثانى هو اتساع دائرة المعانى التى استعمله القرآن فيها، أما الأول فهو - كما تقدم - كان مقصوراً على ندرة الفاعل أو انعدامه، أما زيادة (الذى) فيه دون الثانى فهو الفارق بين الأسلوبين فى درجة الفخامة.

### ٧ - ذكر الجواب وحذفه:

مما تؤكده هذه الدراسة كثرة ورود الاستفهام المجازى فى النظم الحكيم كثرة مستفيضة، وقلة ورود الاستفهام الحقيقى فيه.

ومن أسباب هذه الكثرة أن نسبة عالية من استفهام القرآن صادرة عن الله - عز

وجل - والله لا يعزب عنه شئ فى الأرض ولا فى السماء.

ومن المعلوم أن الاستفهام المجازى لا يحتاج إلى جواب، لأنه يثير معانى جوابها مفهوم من السياق ومعناها أو معانى الاستفهام يكتفى بإثباتها فى نفسها.

فقوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ لا يراد به أن يجيب النبى ﷺ فيقول: بلى، بل المراد حصول المعنى من الاستفهام فى نفس المخاطب، وهو حصول الفضل له من الله، والامتنان الكريم عليه.

وقول فرعون لعنه الله لموسى - عليه السلام -: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾، ليس المقصود منه أن يجيب موسى، بل المراد التذكير بتلك التربية، مع استعطاف فرعون موسى لعله يتهاون فى أمر الرسالة مع فرعون وقومه.

وعلى هذا المنهج وردت صور الاستفهام المجازى فى الذكر الحكيم، حيث أهمل فيها ذكر الجواب.

وقد لحظت الدراسة أن بعض المواضع خولف فيها ذلك الأصل، أو جئ بها على خلاف الظاهر، فرأينا النظم الحكيم يحرص فيها على ذكر الجواب، وهى مواضع قليلة، ومادمنا قد أسمينا هذا إخراجاً على خلاف الظاهر، وهو يقتضى وجود نكتة بلاغية هى السبب فى ذلك العدول عن الظاهر، فإن تلك النكتة ظهر لنا من النظر فى الصور الاستفهامية المذكور جوابها، أنها يمكن حصرها فى أمرين:

**الأمر الأول**: أن النظم الحكيم يذكر جواب الاستفهام المجازى إذا كان مدلول الجواب حقيقة إيمانية لا مجال للخيال فى تصورها وتصويرها، هنا يحرص النظم الحكيم على ذكر الجواب حسماً للموقف، ودفعاً لشطط الخيال.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة [٣٠]: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لك، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى فى السورة نفسها [١٤٢]: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْها، قُل للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقوله فى سـورة الأنعام [١٩]: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَـرُ شَهَادَةً، قُلِ اللهُ﴾.

هذا وقد نبهت الدراسة على الدواعى البلاغية التى دعت إلى ذكر الجواب هنا عند الحديث الذى تقدم تفصيلاً من قبل.

**الأمر الثانى**: أن يكون مـدلول الجـواب مـعنى خـاصاً لا يـتصـور من التـركـيب الاستفهامى، فيُحتاج إلى ذكـره والتوقيف عليه، وأمثلة هذا النوع أكثر من أمثلة النوع الأول، ومنها الآيات الآتية:

﴿. . . قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً، قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

﴿. . . مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى، قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهكَ. . .﴾ [البقرة: ١٣٣].

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَـاذَا أُجِبْتُمْ، قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

﴿قَـالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْـجُـدَ إِذْ أَمرتُكَ، قَـالَ أَنَا خَيْـرٌ مِنْهُ، خَلَقْـتَنِى مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وما ذكرناه فى ضابط الأمر الثانى داعٍ بلاغى عام تندرج تحته كل الأمثلة، وهذا لا يمنع من ملاحظة معانٍ أخرى خاصة بكل مثال، فمثلاً قول الرسل فى آية [المائدة]:

﴿لا علم لنا﴾ يشتمل فيه جوابهم هذا على خصوصية معنى: هو الإشارة إلى شدة أهوال القيامة لدرجة أن الرسل - وهم الآمنون من عذاب الله - يذهلون عما لقوا من أقوامهم فى بادئ الأمر.

وقول إبليس: ﴿أنا خيرٌ منه﴾ فيه خصوصية معنى كذلك، وهى اغتراره وتكبره.

ومن أجل هذه المعانى العامة والخـاصة أوثر ذكر الجواب فى النظم الحكيم فى هذه المواضع.

**٨ - أم المنقطعة:**

فى أم المنقطعة خلاف مـعروف بين نحاة البصرة ونحاة الكوفـة من حيث تقديرها،

فابصريون حُكِىَ عنهم الإجماع بأن (أم المنقطعة) تقدر عندهم بـ(بل) التى للإضراب، ثم الهمزة، فيقـدرونها فى استفهامات القرآن وغـير القرآن بهاتين الأداتين، وتكون بل للإضراب الإبطالى أو الانتقالى حسبما يدل عليه المقام.

أما الاسـتفهام بالـهمزة بعد (بل) فـهو عندهم للإنكار، ويندر أن يكون للتـقرير، ويمنعون تقـدير (بل) بالهمزة وحدها والكـوفيون يجوزون تقـدير (أم المنقطعة) بـ(بل) وحدها، ويرى بعض البصريين هذا الرأى كذلك.

وهذه الدراسة طبقت مـذهب الكوفيين فى مواضع عديدة لاستحـالة تطبيق مذهب البصريين فيها.

وقد لحظت الدراسة اضطراباً شديداً عند بعض الأئمة فى بعض اسـتفهامات القرآن بـ(أم المنقطعة) اضطراباً ترتب عليـه تكلف ظاهر فى تقدير المعنى، ومن تلك المواضع قوله تعالى حكاية عن فرعون لعنه الله:

﴿وَنَادَىَ فِـرْعَونُ فِى قَـوْمِه، قَـالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِـصْرَ وَهَذِه الأَنْهَـارُ تَجْرِى مَنْ تَحْتِـىَ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْـرٌ مَنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]، قدروا (أم) بـ(بل) والهمزة فصار التقدير: بل أأنا خير من هذا؟

ثم حملوا الاستفهـام على التقرير، لأن المقام يقتضيه ومـجئ التقرير بعد همزة (أم المنقطعـة) لا يكاد يوجـد فى الكلام الفـصيح، والذوق اللغـوى والبـلاغى يأباه بكل حسم.

لذلك أفسحت هذه الدراسة صدرها لتطبيق مذهب الكوفيين، وعدلت عن مذهب البصريين فى مواضع أشرنا إليه فى حينها، كما تقدم فى الدراسة التفصيلية، لأن المقام يرفض - كل الرفض - إعمـال مذهب البصريين، وقـد يترتب عليه فـساد المعنى من الأساس.

كما أن فى النظم الحكيم مواضع يمتنع فيها مـذهب الكوفيين لأن إعماله فيها يؤدى إلى فساد المعنى، بل إلى ما هو أبعد من فساد المعنى فى نفسه.

وذلك كقوله تعالى:

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؟ [الطور: ٣٩].

إذا أُعمل مذهب الكوفيين فى هذه الآية يكون التقدير، بل له البنات ولكم البنون، وهذا كفر خَالص؛ لأنه يقرر أن الله له البنات - كما يدعى المشركون - وأن لهم هم البنين، والكفر أبعد من فساد المعنى فى ذاته ومن هذا يتبين:

* أن أم المنقطعة، تقدر بـ(بل) والهمزة فى مواضع مع سلامة المعنى وبلاغته.
* وأنها يمتنع تقديرها بـ(بل) والهمزة فى بعض المواضع لما يترتب عليه من التكلف وفساد المعنى.
* وتقدر بـ(بل) وحدها فى كل موضع يمتنع فيه تقديرها بـ(بل) والهمزة.
* ويمتنع تقديرها بـ(بل) وحدها فى مواضع، فلا داعى إذن للتعصب المذهبى المذموم.

وكثيرٌ من أئمة البصرة يجوزون تقديرها بمعنى (بل) وحدها إذا اقتضى المقام ذلك.

ومن المواضع التى يقدرونها فيها بـ(بل) وحدها، ففى كتاب سيبويه ما يفيد ذلك، إذا دخلت (أم) على أداة استفهام أخرى(١).

وهذا هو الصواب، فلا ينبغى التعصب لمذهب دون مذهب، وإنما الفاصل فى هذه المسألة هو المقام ورعاية المعنى المراد.

## ٩ - إنكار المؤكد وتوكيد الإنكار:

مجئ الاستفهام القرآنى - أو غيره - لغرض إنكار أمر مؤكد عند المخاطب، أو لتوكيد الإنكار نفسه الذى يريده المتكلم، هذان الغرضان جاريان فى الكلام البليغ، ولا مشاحة فيهما.

لكنا رأينا بعض الأئمة، وبخاصة الإمام العمادى المعروف بأبى السعود، رأيناه فى آيات إنكار البعث المحكى عن المشركين يخلط بين الغرضين، فيجعل الإنكار المسلط على الأمر المؤكد توكيداً للإنكار، وقد نبهنا على هذا الخلط فى الدراسة التفصيلية،

---

(١) ينظر الكتاب (١/ ٤٩١ - ٤٩٢) والدمامينى (١/ ٩١٧)، وشرح الكافية للرضى: (٢/ ٣٤٧)، والبحر المحيط (٥/ ١٥٤)، وقد أشرنا فى الدراسة التفصيلية إلى أدلة التجويز قرآناً وشعراً.

ولما كان هذا الملحظ جديداً لم يعرض له أحد، قبل هذه الدراسة، آثرنا أن نشير إليه فى هذه الخاتمة ليوليه القارئ عنايته، ولكى يتضح الأمر أكثر نسوق شاهداً من النظم الحكيم، ونتخذ منه وسيلة لهذا التوضيح، والشاهد قوله تعالى فى سورة [المؤمنون: ٨٢]:

﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟

فى هذا التركيب وأمثاله يجعل بعضهم التوكيد بـ(إن) ولام التوكيد فى (أئنا لمبعوثون) توكيداً لإنكار المشركين البعث وبعد نظر طويل، وتأمل مستمر اتضح لنا أن الأمر على عكس ما يقولون، وأن التوكيد ليس له صلة بإنكار المشركين البعث، وأن المقام لا يساعد على جعله توكيداً للإنكار الصادر عن المشركين.

كما تبين لنا أن هذا التوكيد لو كان ناشئا عن المشركين لكانوا مؤكدين لما أنكروه، وهذا خلل فى المعنى لا يمكن أن يكون مقصوداً؛ إذ كيف يُنكِرُونَ أولاً، ثم يعودون بعد ذلك ويؤكدون ما أنكروه بأن واللام واسمية الجملة.

هذه الاعتبارات جعلتنا نبحث عن توجيه جديد لهذا التركيب وأمثاله، وكنا قد أثبتناه فيما تقدم فى صلب الدراسة، بعد أن ظفرنا به وتأكدت لنا صحته، وخلاصة هذا التوجيه:

إن منكرى البعث لما سمعوا الإخبار بالبعث مؤكداً عن لسان الشرع، أنكروه فى صورته المؤكدة التى ورد الخبر بها مرات فى آيات الذكر الحكيم.

ففى سورة [سبأ: ٣] جاء قوله - عز وجل - رداً على إنكارهم البعث: ﴿قل: بلى وربى لتأتينّكم﴾ بعد أن حكى قولهم ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ وقد رأينا أن الله - عز وجل - أكد رده عليهم بالقسم واللام ونون التوكيد.

وفى سورة [الحج] ورد قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦، ٧].

فلما ورد الإخبار بالبعث على لسان الشرع مؤكداً، أنكر المشركون البعث على الصورة المؤكدة التى قرع القرآن أسماعهم بها.

وبعد هذا نقول - ونحن واثقون -: إن التوكيد الذى يأتى فى أعقاب إنكار المشركين البعث هو لإنكار المؤكد وليس لتوكيد الإنكار الذى قال به الإمام أبو السعود وآخرون.

ولا إخال أن أهل الذكر يخالفوننا فى هذا الفهم، لأنه من مقتضيات المقام، ودلالات التراكيب لغة وبلاغة وشرعاً.

**١٠ - توسط العاطف:**

يكثر فى استفهامات القرآن توسط حرف العطف: الواو والفاء بين همزة الاستفهام والفعل المنفى، ولا يكون إلا فعلاً مضارعاً، يكثر هذا التوسط كثرة مستفيضة، وقد شاركتهما الأداة العاطفة (ثم) فى موضع واحد لكن توسطها كان بين الهمزة وجملة شرطية أداة الشرط فيها (إذا) وفعل الشرط ماضٍ هو (وقع)، وذلك فى قوله تعالى فى سورة [يونس: ٥١]: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ...﴾.

وهذه الظاهرة من أدق وأصعب الظواهر الأسلوبية التى تبرز بكل وضوح أمام دارسى الاستفهام فى القرآن العظيم، وتحتاج إلى صبر وأناة وطول نظر ولم تكن هذه الظاهرة فى غيبة عن المفسرين، بل لحظوها ووضعوا لها مخارج، فكان للجمهور فيها مذهب، وكان للزمخشرى فيها مذهب مغاير لمذهب الجمهور، وقد أشرنا إلى هذين المذهبين كثيراً فى الدراسة التفصيلية، ونعيد هنا ذكرهما تمهيداً لما يترتب عليهما فى بيان المراد من الاستفهام من هذا النوع، ولنقدم لذكرهما بمثال كان أول ما ورد فى النظم الحكيم حسب الترتيب المصحفى، والمثال هو قوله تعالى فى سورة [البقرة: ٤٤]: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُم تَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾؟

الشاهد فى الآية هو: (أفلا تعقلون) حيث توسطت الفاء العاطفة بين همزة الاستفهام، والفعل المضارع (تعقلون) المنفى بـ(لا) النافية.

مذهب الجمهور أن الهمزة مقدمة من تأخير، لأن الاستفهام له الصدارة فى

الكلام، وأن أصل التركيب كان: (فألا تعقلون) فلما قدمت الهمزة صار (أفلا تعقلون) هذه خلاصة مذهب الجمهور.

أما مذهب الزمخشرى فإن الهمزة - عنده - قارَّة فى مكانها - أى لم تُقَدَّمْ من تأخير - وأن بعدها كلاماً محذوفاً واجب التقدير، وهو المعطوف عليه ما بعد الفاء.

وقد قدَّره الإمام الزمخشرى فقال:

(توبيخ عظيم، بمعنى: أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم فى ذلك مسلوبو العقول)[1].

والملاحظ أن الإمام لم يُخَرِّج الاستفهام - هنا - على مذهبه يشير بذلك إلى أنه لا يقول بمذهبه على سبيل الوجوب، بل على الجواز كما تقدم مرات فى الدراسة التفصيلية.

والواقع الذى لحظته الدراسة ونبهت عليه مرات أن الإمام الزمخشرى لم يتحمس لمذهبه الذى تقدم ذكره ولم يطبقه إلاّ على قليل من المواضع، بينما نرى غيره كالإمامين أبى السعود والألوسى يتحمسان له كثيراً ويجريان عليه آيات عديدات.

ومنها هذه الآية التى يقول فيها الإمام أبو السعود (أى أتتلونه - يعنى كتاب التوراة - فلا تعقلون ما فيه، أو قبح ما تصنعون حتى ترتدعوا عنه، فالإنكار متوجه إلى عدم العقل بعد تحقق ما يوجبه[2] يعنى: التلاوة، يعنى: أن الإنكار مسلط على نفى التعقل، أما التلاوة التى وليت الهمزة فى تقديره السابق: (أتتلونه) فهى غير داخلة فى حيز الإنكار.

ثم يقدره تقديراً ثانياً فيقول:

﴿أو: ألا تتأملون فلا تعقلون﴾[3] وفى هذا التقدير يجعل الإنكار مسلطاً على كلا الأمرين: عدم التأمل ثم عدم التعقل.

ويقول الإمام الألوسى:

---

(١) الكشاف (١/ ٢٧٧). (٢) تفسير أبى السعود (١/ ٩٧).

(٣) المصدر السابق.

(أفلا تعقلون) أصل هذا الكلام ونحوه عند الجمهور كان بتقديم حرف العطف على الهمزة، لكن لما كان للهمزة - يعنى الاستفهام مطلقاً - صدر الكلام قدمت على حرف العطف، وبعضهم - يعنى الزمخشري - ذهب إلى أنه لا تقديم ولا تأخير، ويقدر بين الهمزة وحرف العطف ما يصح العطف عليه[1].

هذا ما قاله - هنا - أعنى فى آية سورة البقرة، ثم أكثر بعد ذلك من تطبيق مذهب الزمخشرى على كثير من الآيات.

وينحو الإمام أبو حيان منحى الإمام الألوسى، بيد أنه أكثر تفصيلاً وتحديداً منه، قال رحمه الله: (أفلا تعقلون) مذهب سيبويه والنحويين أن أصل الكلام كان تقديم حرف العطف على الهمزة فى مثل هذا، ومثل: (أولم يسيروا) و(أثم إذا ما وقع) لكن لما كانت الهمزة لها صدر الكلام قدمت على حرف العطف. . . وزعم الزمخشرى أن الواو والفاء وثم بعد الهمزة واقعة موقعها، ولا تقديم ولا تأخير، ويجعل بين الهمزة وحرف العطف جملة مقدرة يصح العطف عليها[2].

هذا، وقد زعم أبو حيان بعد ذلك أن الزمخشرى رجع عن هذا القول، واتبع مذهب الجماعة وهذا غير مُسَلَّم للإمام أبى حيان؛ لأننا لحظنا فى هذه الدراسة أن الإمام الزمخشرى يطبق مذهبه أحياناً، ويهمله أحياناً أخرى، ولذلك أشرنا مرات أن مذهبه قائم عنده على الجواز لا على الوجوب، فالجزم بأنه رجع عن مذهبه بالكلية مدفوع بما ورد فى كتابه (الكشاف) والحق الذى لا مراء فيه أن الزمخشرى قليل التطبيق لمذهبه فى تفسيره.

وأياً كان الأمر فإن معنى الاستفهام إذا خُرِّجَ على مذهب الجمهور يختلف عنه إذا خُرِّج على مذهب الزمخشرى.

هو على مذهب الجمهور - كما نبهت الدراسة مرات - يكون استفهام تقرير أصالة، أما على مذهب الزمخشرى فالتقرير ليس بلازم فيه، بل يكون - إلا فيما ندر - استفهام إنكار، وما ذكره الإمام أبو السعود فى (أفلا تعقلون) من أقوى

(١) روح المعانى (١/٢٤٨).
(٢) البحر المحيط (١/ ١٨٢).

الشواهد على اختلاف معنى الاستفهام باعتبار المذهبين، فهو للإنكار على مذهب الزمخشرى.

أما على مذهب الجمهور فهو استفهام تقرير؛ لأن همزة الاستفهام لما دخلت على (لا) النافية نفت الهمزة النفى الحاصل بـ(لا) ونفى النفى إثبات، وهذا هو معنى التقرير الناتج عن إعمال مذهب الجمهور، والواقع أن هذه المسألة من أشد مسائل الاستفهام غموضاً ودقة، ولابد من إعمال الفكر فيها بين المذهبين، وترجيح ما يقتضيه المقام منهما.

## ١١ - الكناية اللطيفة:

تسرى فى الاستفهام القرآنى كناية من نوع خاص، كما يسرى الماء فى العود الأخضر، ويؤثر النظم الحكيم إيرادها فى مقام مجادلة الخصوم فى الغالب أو فى مجال عتاب المؤمنين وحضهم على ما هو أحسن.

ووسمنا هذه الكناية بأنها (لطيفة) لدقة مأخذها ولطف مسلكها وبداعة معناها، وكان للنظم الحكيم منهج أليف فيها، حيث لم ترد فيه إلا فى الاستفهام الإنكارى مع ما يستدعيه من معانى التوبيخ والزجر، والحث والتحضيض فى بعض الصور.

ولها عدة ملامح، لأن القرآن إذا أراد إنكار معنى من المعانى لا يعمد إلى إنكاره صراحة، بل هو بتلطف، فينفى بعض ملابسات ذلك المعنى المراد إنكاره، ويتوصل بنفى ذلك الملابس إلى نفى المعنى المراد إنكاره، لأن (المُلابِس) الذى جُعِل نفيه دليلاً على نفى المعنى المراد، لازم من لوازمه.

* فقد ينفى النظم الحكيم الحال ويجعل نفيه دليلاً على نفى صاحب الحال نفسه.
* وقد ينفى السبب ويجعل نفيه دليلاً على نفى المسبب.
* وقد ينفى المكان ويجعل نفيه دليلاً على نفى الحالِّ فى ذلك المكان.
* وقد ينفى الزمان ويجعل من نفيه دليلاً على نفى القارِّ فى ذلك الزمان.
* وقد ينفى الفاعل ويجعل من نفيه دليلاً على نفى الفعل.
* أو ينفى المفعول ويجعل من نفيه دليلاً على نفى الفعل كذلك.

والأئمة يسمون هذا المسلك التعبيرى بـ(الطريق البرهانى) ويقولون: إن النفى به نفى على أبلغ وجه وآكده.

وقصدهم من هذا أن الكناية أبلغ من التصريح، لأن دليل صدقها وصحتها مقترن بها، وقد تقدم ذلك فى الدراسة التفصيلية مرات ومرات.

**التمثيل:**

وبعد هذا البيان نذكر بعض الأمثلة للصور التى تقدم ذكرها.

**نفى الحال والمراد نفى صاحبه:**

من أمثلة هذه الكناية (اللطيفة) قوله - عز وجل - فى سورة [البقرة: ٢٨]: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ. . .﴾؟

كيف للاستفهام عن الحال، والسؤال عنه، والسؤال عن (الشئ) يقتضى عدم رؤيته، وعدم رؤيته تقتضى عدم وجوده، وعدم الوجود هو الإنكار المراد من هذا الاستفهام.

فالسؤال نفسه كناية عن نفى (الحال) ونفى الحال كناية أخرى عن نفى صاحب الحال، وهو الكفر، والمعنى: ليس لكفركم بالله حال يكون عليه فكان ينبغى أن لا تكفروا بالله مع انتفاء دواعى الكفر - أساساً - ووفرة دواعى الإيمان هذه المسالك الخفية فى بناء الكنايتين مع قوتهما فى الإفحام هى التى دعتنا أن نسمى هذه الكناية بـ(الكناية اللطيفة)، وهى تسمية على مسمى فعلاً.

ولها فى القرآن نظائر كثيرة، منها: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض. . .﴾ [النساء: ٢١].

فى آية البقرة نفى حال الكفر والمراد نفى الكفر نفسه وإنكاره على معنى، ما كان ينبغى أن يكون، أى إنكار للواقع الذى هم عليه.

وفى آية النساء نفى حال أخذ شئ مما أعطاه الأزواج للزوجات إذا طلقوهن، والمراد نفى الأخذ نفسه وإنكاره أى نفى الوقوع.

**نفى السبب والمراد نفى المسبب:**

ومن أمثلة نفى السبب والمراد نفى المسبب على طريق الكناية اللطيفة قوله تعالى فى

سورة [الحجر: ٥٤] حكاية عن أبى الأنبيـاء إبراهيم - عليه السـلام - لما بشرته الملائكة بالـولد وهو طـاعن فى الـسن: ﴿قَـالَ أَبَشَّرْتُمُـونِى عَلَى أَنْ مَّـسَّنِىَ الْكِبَرُ، فَـبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟

فقد نفى سبب البشـارة بالولد لانقطاع أسباب الإنجاب، وأراد من نفى السبب نفى المسبب نفسه، وهو الولد الذى بشروه به وإنكار وقوعه.

ولهذه الكناية نـظائر كثيـرة، منها قوله تعـالى فى سورة [يس: ٢٢]: ﴿وَمَالِىَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟

نفى أن يكون لديه سبب يدعوه إلى الانصراف عن عبادة الله إلى عبادة غيره.

والمراد نفى المسبب نفسه وإنكاره، وهو ترك عبادة الله - عز وجل.

وفى كل من هاتين الآيتين [فى الحـجر وفى يس] كنايتـان على الوجه الـذى تقدم تفصيله فى أية [سورة البقرة]: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾؟

**نفى المكان وإرادة نفى الكائن فيه:**

وهذه الكناية كثيـرة السريان فى النظم الحكيم، ومن أمثلتها قـوله تعالى فى سورة [التكوير: ٢٦]: ﴿فأين تذهبون﴾؟ الاستفـهام الإنكـارى سلط على مكان الذهاب، والمراد إنكار الذهاب نفـسه ونفيـه، وكما تـقدم فإن السـؤال عن المكان يقتـضى عدم وجوده وعـدم وجوده يقـتضى إنكاره ونفـيه، وقد تَـوَصَّل النظم الحكيم بنفى المكان وإنكاره إلى نفى ما من شأنه أن يكون كائناً فيه، وهو الذهاب.

**فهذا التركيب لا يخلو من كنايتين دائماً:**

**الأولى:** الكناية بالسؤال عن المكان عن نفى ذلك المكان.

**الثانية:** الكناية بنفى المكان وإنكاره عن نفى الذهاب نفسه، لأن الذهاب لابد له من مكان يكون فيه، فإذا انتفى مكانه لزم من انتفائه انتفاء الذهاب.

ومن نظائرها قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِم فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

**نفى الزمان وإرادة نفى الحالِّ فيه:**

ومثاله ما حكاه القرآن مرات عن منكرى البعث من قولهم:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾؟ [القيامة: ٦].

فقد كنوا بالسؤال عن نفى الزمان، وكنوا بنفى الزمان عن نفى ما يكون فيه، وهو: البعث أو يوم القيامة.

**نفى الفاعل وإرادة نفى الفعل:**

ومن الكناية اللطيفة أن يكون النفى مسلطاً على الفاعل، والمقصود نفى الفعل وإنكاره أصلاً وصورها فى النظم الحكيم كثيرة، ومن أمثلتها قوله تعالى فى سورة [الملك: ٣٠]: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يأتيكُمْ بِماءٍ مَّعِينٍ﴾؟

والشاهد قوله تعالى: ﴿فمن يأتيكم﴾ وهو استفهام إنكارى سلط فيه الإنكار على الفاعل (مَنْ) والمراد نفى الفعل نفسه وإنكاره، وهو: الإتيان بماء معين، والسؤال عنه - عن (من) - كناية عن عدم وجوده - نفيه - أما نفيه نفسه فهو كناية عن نفى الإتيان، ففى التركيب كنايتان كما تقدم.

ومن نظائرها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِّن بَعْدِهِ . .﴾

[آل عمران: ١٦٠].

**نفى المفعول وإرادة نفى الفعل:**

وكذلك نفى المفعول والمراد نفى الفعل وإنكاره، ومن أمثلته قوله عز وجل، فى سورة [الأنعام: ١٤٣]: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ﴾.

فقد سُلِّطَ النفى والإنكار على المفعول، وهو (الذكرين) وما عطف عليه، والمراد نفى الفعل نفسه وإنكاره وهو التحريم الذى افتراه المشركون.

ومن نظائره فى الذكر الحكيم قوله تعالى فى سورة [الأحقاف: ٤]:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ . . .﴾؟

فقد كنى بنفى المفعـول، وهو خَلْقُ الأصنام شيئاً من الأرض، عن نفى ذلك الخلق فى نفسه وإنكاره.

هذه هى أمثلة الكناية الـلطيفة البديعـة، الدقيقـة المأخذ، الشديدة الإفحـام، وقد حرصنا أن نمثل لكل ضَرْب من الأضرب الستة بمثـالين توخياً للإيجاز، وأنه - حقاً - درس لطيف طريق وددنا أن يوليـه الباحثـون العناية اللائقة به، برصـد كل صوره فى النظم الحكيم، وتجلية ما فـيها من دقائق وأسرار، وربطها بأسـاليب الدعوة فى كتاب الله العزيز، بعد هذه الإضاءات التى قدمتها هذه الدراسة.

## ١٢ - بلى جواباً للاستفهام التقريرى

جرينا فى هذه الدراسة على ما شاع عند النحاة والمعربين من أن (بلى) تكون جواباً للاستفهام بعد النفى، وعـبارتهم فى هذا هى: بلى للإيجاب بعد النفى، ومن شواهد هذا قوله تعالى: ﴿ألست بربكم قالوا: بلى﴾.

وبعد التـأمل يظهر جلياً أن هذا الاسـتفهـام ونظائره للتقـرير لا للنفى؛ لأن همزة الاستفهام نفت النفى الحاصل بـ(ليس) فعاد الكلام إثباتاً، وهذا هو التقرير.

وقارئ هذه الـدراسة يدرك أننا تحـرجنا فى بعض المواضع من إطلاق هذه العـبارة (التـقليـدية) وهى: (بلى) للإيجـاب بعـد النفى، مـجـاراة لهم، وأشـرنا فى بعض الهوامش إلى توضيح يأتى فى هذه الخاتمة وحاصله:

أن النحاة أنفسهم صرحوا بأن (بلى) تكون جواباً للاستفهام التقريرى[١].

ومن الأمثلة القرآنية التى ساقوها شواهد على هذا، الآيات الآتية:

* ﴿وإذ قال إبراهيم ربى أرنى كيف تحيى الموتى، قال أوَ لم تؤمن، قال بلى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

* ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تَصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم﴾ [آل عمران: ١٢٤ - ١٢٥].

---

(١) ينظر الكشاف (١/١٥٨ - ١٥٩)، والبحر المحيط (٢/٢٩٧- ٢٩٨) و(٣/ ٥٠)، ودراسات لأسلوب القرآن (٢/ ٩٣) القسم الأول.

* ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢].
* ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق، قالوا بلى وربنا. . .﴾ [الأحقاف: ٣٤].

وغير هذا كثير من آيات الذكر الحكيم، والذى يتحصل من هذا أن (بلى) ليست مقصورة على الإيجاب بعد النفى، بل تأتى للإيجاب بعد الإيجاب، وهى فى الأول أشهر وأكثر، وفى الثانى أقل.

فإن كان لابد من إبقاء هذا الفهم، وهو كونها للإيجاب بعد النفى فلا مناص من القول أن النفى هنا صورى لفظى، وليس نفياً باقياً على أصل معناه وهذا هو الحق.

**والآن – ونحن نودع الكتابة فى هذه الدراسة لا يسعنا إلاَّ أن نحمد الله** – عز وجل – على ما هدى ويسَّر، وأن ينفع بهذا العمل الخالص لوجهه الكريم، وأن يبارك ما فيه من صواب، وأن يعفو عن الخطأ إن كان، والسهو والغفلة والنسيان، **فاللهم أغفر** وارحم، وأنت الغفور الرحيم، وصلى الله تعالى على محمد فى الأولين والآخرين، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. . .

**المؤلف**

**عفا الله عنه**

# الفهـــرس

| م | الآية موضوع الدراسة | رقم الآية | الصفحة |
|---|---|---|---|
| ٥ | أم عندهم خزائن ربك... * أم لهم سلم يستمعون فيه ........................ | ٣٧، ٣٨ | ١٦٩ |
| ٦ | أم له البنات ولكم البنون... * أم تسألهم أجراً ........................ | ٣٩، ٤٠ | ١٧١ |
| ٧ | أم عندهم الغيب... * أم يريدون كيداً ........ | ٤١، ٤٢ | ١٧٢ |
| ٨ | أم لهم إله غير الله ........................ | ٤٣ | ١٧٤ |
| | **سورة النجم** | | |
| ١ | أفتمارونه على ما يرى ........................ | ١٢ | ١٧٦ |
| ٢ | أفرأيتم اللات والعزى... ألكم الذكر وله الأنثى ........................ | ١٩ - ٢١ | ١٧٨ |
| ٣ | أم للإنسان ما تمنى ........................ | ٢٤ | ١٨١ |
| ٤ | أفرأيت الذى تولى... اعنده علم الغيب... أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ........................ | ٣٣ - ٣٦ | ١٨٣ |
| ٥ | فبأى آلاء ربك تتمارى ........................ | ٥٥ | ١٨٧ |
| ٦ | أفمن هذا الحديث تعجبون ........................ | ٥٩ | ١٨٩ |
| | **سورة القمر** | | |
| ١ | فهل من مدكر... * فكيف كان عذابى ونذر ........................ | ١٥، ١٦ | ١٩١ |
| ٢ | ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ........ | ١٧ | ١٩٤ |
| ٣ | فكيف كان عذابى ونذر ........................ | ١٨، ٢١، ٣٠ | ١٩٦ |
| ٤ | فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه... * أألقى الذكر عليه ........................ | ٢٤، ٢٥ | ١٩٨ |

| م | الآية موضوع الدراسة | رقم الآية | الصفحة |
|---|---|---|---|
| | **سورة المعارج** | | |
| ١ | فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ........ | ٣٦ - ٣٨ | ٢٩٧ |
| | **سورة نوح** | | |
| ١ | ما لكم لا ترجون لله وقاراً... ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات ........ | ١٣ - ١٥ | ٣٠٠ |
| | **سورة الجن** | | |
| ١ | وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض ........ | ١٠ | ٣٠٣ |
| ٢ | ... أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً .. | ٢٥ | ٣٠٤ |
| | **سورة المزمل** | | |
| ١ | فكيف تتقون إن كفرتم يوماً ........ | ١٧ | ٣٠٦ |
| | **سورة المدثر** | | |
| ١ | وما أدراك ما سقر ........ | ٢٧ | ٣١٠ |
| ٢ | وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ........ | ٣١ | ٣١٢ |
| ٣ | ما سلككم فى سقر ........ | ٤٢ | ٣١٧ |
| ٤ | فما لهم عن التذكرة معرضين ........ | ٤٩ | ٣٢٠ |
| | **سورة القيامة** | | |
| ١ | أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه ........ | ٣ | ٣٢١ |
| ٢ | يسأل أيان يوم القيامة ........ | ٦ | ٣٢٢ |
| ٣ | يقول الإنسان يومئذ أين المفر ........ | ١٠ | ٣٢٣ |
| ٤ | أيحسب الإنسان أن يترك سدىً... أليس ذلك بقادر ........ | ٣٦ - ٤٠ | ٣٢٥ |

| م | الآية موضوع الدراسة | رقم الآية | الصفحة |
|---|---|---|---|
| | **سورة التكوير** | | |
| ١ | فأين تذهبون ........................ | ٢٦ | ٣٤٥ |
| | **سورة الانفطار** | | |
| ١ | . . . ما غرك بربك الكريم ........................ | ٦ | |
| ٢ | وما أدراك ما يوم الدين ........................ | ١٧ | ٣٤٧ |
| ٣ | ثم ما أدراك ما يوم الدين ........................ | ١٨ | |
| | **سورة المطففين** | | |
| ١ | ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ........................ | ٤ | |
| ٢ | وما أدراك ما سجين ........................ | ٨ | ٣٤٩ |
| ٣ | وما أدراك ما عليون ........................ | ١٩ | |
| ٤ | هل ثُوب الكفار ما كانوا يفعلون ........................ | ٣٦ | |
| | **سورة الانشقاق** | | |
| ١ | فما لهم لا يؤمنون ........................ | ٢٠ | ٣٥٣ |
| | **سورة البروج** | | |
| ١ | هل أتاك حديث الجنود ........................ | ١٧ | ٣٥٤ |
| | **سورة الطارق** | | |
| ١ | وما أدراك ما الطارق ........................ | ٢ | ٣٥٥ |
| ٢ | فلينظر الإنسان مِمَّ خلق ........................ | ٥ | ٣٥٦ |
| | **سورة الغاشية** | | |
| ١ | هل أتاك حديث الغاشية ........................ | ١ | ٣٥٧ |
| ٢ | أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ........................ | ١٧ | ٣٥٨ |
| | **سورة الفجر** | | |
| ١ | هل فى ذلك قسم لذى حجر ........................ | ٥ | ٣٦١ |

# مؤلفات الأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعنى

- الإسلام فى مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة .
- سماحة الإسلام فى الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية . . منهاجًا . وسيرة .
- عقوبة الارتداد عن الدين . . بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين .
- خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية ( جزآن ) .

(رسالة دكتوراه بدرجة الإمتياز مع مرتبة الشرف الاولى)
- التفسير البلاغى للإستفهام فى القرآن الحكيم .

أول تفسير موضوعى لـ« ١٢٦٠ » استفهاما فى القرآن كله ( ٤ أجزاء )
- دراسات جديدة فى إعجاز القران . . مناهج تطبيقية في «توظيف اللغة»
- المجاز فى اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع ( جزآن ) .
- أوروبا فى مواجهة الإسلام . . الوسائل والأهداف .
- افتراءات المستشرقين على الإسلام . . عرض ونقد .
- مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه ردود على حملات التشكيك فى الإسلام .
- التبشير العالمى ضد الإسلام أهدافه . . وسائله . . طرق مواجهته .
- استدراكات مراد هوفمان على الإسلام عرض وتقويم .
- أسباب زواج النبى ﷺ بأمهات المؤمنين ومواجهة افتراءات المغرضين .
- الفقه الاجتهادى الإسلامى . . بين عبقرية السَّلَف ومآخذ ناقديه .
- ملاحظات موضوعية حول فتوى . إسلام المرأة دون زوجها وهل يفرق بينهما ؟
- الحداثة . . سرطان العصر أو ظاهرة الغموض فى الشعر العربى الحديث .
- لماذا . . لا بد من دين الله لدنيا الناس ؟
- جريمة العصر . . قصة احتلال المسجد الحرا «رواية شاهد عيان» .
- مصادر الإبداع . . بين الأصالة والتزوير .
- المجاز . . عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه . . بين الإنكار والإقرار .
- جوانيات الرموز المستعارة . . لكبار (أولاد حارتنا) أو نقض التاريخ الدينى النبوى .
- المسيحيون والمسلمون فى تلمود اليهود . . غرائب وعجائب .
- أخطاء وأوهام فى أضخم مشروع تعسفى لهدم السنة النبوية .
- أبى آدم . . قصة الخليقة . . بين الخيال الجامح . . والتأويل المرفوض .
- هذا بيان للناس . . الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية .

عرض . . وتفنيد . . ونقض

- علم الأسلوب فى الدراسات الأدبية والنقديه .
- من قضايا البلاغة والنقد .
- البديع من المعانى والألفاظ .
- التشبيه البليغ هل يرقى الى درجة المجاز ؟
- التشبيه والتمثيل بين الإمام عبد القاهر والخطيب .
- الهمزية فى مدح خير البرية ﷺ رائعة الإمام البوصيرى رضى الله عنه .
- من أسرار النظم القرأنى فى سورتى الفتح والواقعة .
- الإسلام فى مواجهة الإستشراق العالمى .
- ساعة مع القرآن العظيم .
- الوصايا العشر للإمام الشهيد حسن البنا عرض وشرح .
- الجائز والممنوع فى الصيام .
- مناسك الحج والعمرة على ضوء المذاهب الأربعة .
- العلمانية وموقفها من الشريعة والعقيدة .
- حقائق القرآن وأباطيل خصومه .
- مبادىء التعايش السلمى العالمى فى الإسلام .
- الحكيم فى حديثه مع الله ومدرسة المتمردين على الشعرية .
- المرأة فى عصر الرسالة بين واقعيات الإسلام وأوهام المرجفين .
- الفراغ وأزمة التدين عند الشباب المعاصر .
- تدابير الأمن فى الإسلام .
- ١٩ رسالة من الإمام الشهيد حسن البنا .
- أدب الإسلام فى السياسة والرياسة .
- قراءات فى كتاب أحمر ـ لينين زعلان من الشيوعيين .
- لقاء الإسماعيلية العملاق .

* * *

